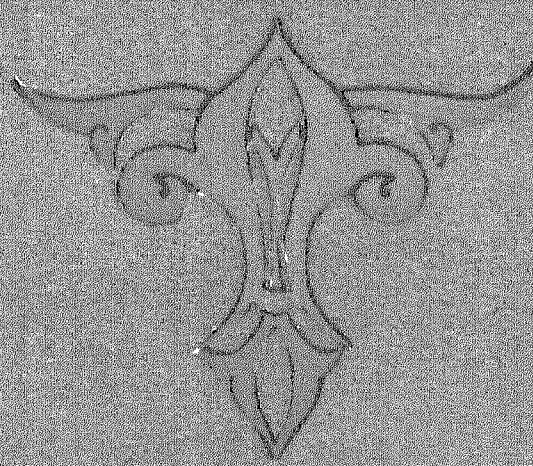


عربي زبدان

ناتج التمدد الاسلامي

الجزء الثالث



اهداءات ٢٠٠١

الدكتور / القطب محمد طبلية

القاهرة

تاريخ المتمدن الإسلامي

تأليف

عرجى زيدان

منشء الهلال

الجزء الثالث

يبحث فى ثروة الدولة الاسلامىة و ثروة رجال حكومتها و خلفائها ،
و اسباب تلك الثروة ، و اسباب اضمحلالها ، و ثروة المملكة و مدنها و قراها

طبعة جديده راجعها وعلق عليها

الدكتور حسين مؤنس

استاذ التاريخ الاسلامى بكلية الاداب بجامعة القاهرة

دار الهلال

مقدمة (١)

العلم أعظم أركان الحضارة وأقوى أسبابها ، والبحث في علوم الامم وآدابهم من أهم واجبات المؤرخين ، وخصوصا في الاسلام ، لعلاقة العلوم الاسلامية بأحوال دوله وسياستها . ولذلك كانت أبحاث هذا الجزء من تاريخ التمدن الاسلامي أهم أبحاث هذا الكتاب . ويزيد أهميته ارتباط تاريخ العلوم في الاسلام بتاريخها قبله ، لأن المسلمين نقلوا الى لسانهم معظم ما أنتجته عقول البشر ، من أول عهد المدنية الى أيامهم ، في العقليات والنقليات ، فورثوا علوم الكلدانيين والفينيقيين والمصريين والفرس واليونان والهنود . فجرنا النظر فيما نقله العرب من علوم تلك الامم الى البحث في تاريخ تلك العلوم عند كل منها . فكان هذا الجزء من تاريخ التمدن الاسلامي يشتمل على خلاصة تاريخ العلم والفلسفة والادب ، من أول عهد العمران الى ظهور الاسلام ، فضلا عن تاريخها فيه

وقد رسخ في اعتقاد بعض الكتاب من الافرنج وغيرهم ، ان المسلمين او العرب قلما افادوا العلم ، لأنهم نقلوه عن اليونان ولم يزيدها فيه شيئا من عند انفسهم . وذهب آخرون الى ان نقلهم لم يقتصر على استبقاء علم اليونان كما كان ، بل هم شوهوا ما نقلوه فأضروا العلم وأفسدوه . وقد نشأ هذا الاعتقاد في زمن التعصب ، وتوالى وتوغل الى أوائل هذا العصر . ولم يتعرض لتحقيقه أو نقده أحد من العرب او المسلمين

على ان المنصفين من مستشرقى الافرنج ذكروا للتمدن الاسلامي أفضالا على العلم أشاروا اليها باختصار . وقد توسع بعضهم في تعدادها بكلام اجمالي ، اذا قرأه العربي أنشراح صدره ، فاذا أراد تحقيقه ذهب أكثر سعيه عبثا . ووجه التحقيق أن نجد تلك المآثر مثبتة في كتب العرب القدماء ، لأنها المصدر الوحيد لتاريخ الاسلام والمسلمين والآداب الاسلامية . وأكثر ما كتبه الافرنج في هذه الموضوعات مرجعه الى كتب العرب . فاذا رأينا في كتب الافرنج مآثر منسوبة الى العرب ولم نجد لها ذكرا في كتبهم ضعفت ثقتنا في صحتها . . اذ قد تكون منقولة عن بعض الرحلات الافرنجية في

(١) التعليقات المؤشر عليها في هذا الجزء بعلامة (*) هي تعليقات المراجع الدكتور حسين مؤنس تمييزا لها عن تعليقات المؤلف المشار اليها بالارقام

العصور الوسطى ، وأكثرها يحتاج الى تمحيص ، كرحلة بنيامين التيطلى اليهودى التى وصف فيها القسطنطينية ومصر وسوريا وفارس الى حدود الصين فى القرن الثانى عشر للميلاد ، فقد ضمنها من الحوادث والاخبار ما يخالف التاريخ ، فضلا عما فيها من المبالغات والغرائب . . كتبها الرحالة المذكور باللغة العبرانية ، ثم نقلت الى اللاتينية فى القرن السادس عشر ، والى الفرنسية فى القرن الثامن عشر ، والى الانجليزية فى القرن التاسع عشر (*)

ومن أمثلة ما جاء فيها أنه كان فى الاسكندرية على عهد الفاطميين عشرون مدرسة علمية ، وفى القاهرة عدد عظيم من المدارس الكلية ، وسترى فى كلامنا عن تاريخ المدارس أنها لم تكن بمصر الا بعد انقضاء عصر الفاطميين . ومع ذلك فأننا نرى كتابنا ينقلون هذه الاخبار على علانها فرحا بتعداد مآثر العرب ، ولو تقبوا عن أساسها لذهب فرحهم . وهذا ما نبهنا اليه صديقنا النعماني العالم الهندى فى كتابه الذى نشرنا خلاصته فى مقدمة الجزء الثانى ، اذ اقترح علينا أن نذيل صفحات كتابنا هذا بالمصادر التى ننقل عنها ، وقد أخذنا باقتراحه . وأصبحنا لكثرة ما يعرض لنا من أخطاء المؤرخين فى هذا الصدد ، لا نثق الا بما يؤيد بالاسناد الى النصوص التاريخية أو بقرينة لا تقل قوة عنه

على أننا لا نرى بدا من تصديق كتاب الافرنج فيما هو متعلق بأدابهم أو تاريخهم ، كحكاية الساعة التى يقولون أن هارون الرشيد أهدها الى شارلمان مثلا ، وكقولهم ان عرب الاندلس علموهم صنع رقاص الساعة ، وقول الباحثين فى تاريخ الكيمياء مثلا أن العرب صنعوا المركب الفلانى أو اكتشفوا المادة الفلانية . وأما فيما خلا ذلك فلا بد من الرجوع الى المصادر العربية من كتب التاريخ والادب والعلوم وهى كثيرة ، وفيها فوائد مهمة تظهر بالمطالعة والامعان . ولا ينبغى لنا أن ننسى فضل جماعة المستشرقين فى نشر الكتب العربية ، التى لولاهم لضاعت أو ظلت فى زوايا الأهمال ، ونذكر منها على الخصوص كتابا كثير الفائدة فى هذا الموضوع ، نعى كتاب الفهرست لابن النديم ، والفضل فى نشره للمستشرق جوستاف فلوجل Gustav Flugel وقد علق عليه ملاحظات جزيلة الفائدة ومقابلات مهمة شغلت مجلدا كاملا

(*) نشرت رحلة بنيامين التيطلى بالعربية فى بغداد عام ١٩٤٠ وقام على نشرها عزرا حداد ، وقد رجعنا اليها فى الموضع الذى يشير اليه المؤلف ، فوجدناه يريد بالمدارس المساجد التى كان الناس يتدارسون فيها العلم منذ دخل العرب مصر ، ويريد بالمدارس الكلية حلقات البحث والدرس التى كانت تقام فى منازل الأعيان وكبار رجال الدولة . وربما كان الاصول لهذا ترجمة عبارة « مدرسة علمية » بكلمة « مكتب » ، وهو الاسم القديم الذى كان يطلق على الموضع الذى يعلم فيه الصبيان القراءة والكتابة والقرآن

فجعلنا معولنا في استخراج الحقائق التاريخية التي بنينا عليها بحثنا في هذا الكتاب على الكتب العربية بعد التمهيص والنقد . واستيفاء لأسباب البحث تصفحنا ما كتبه في هذا الشأن أفاضل الأفرنج وغيرهم ، في الانجليزية والفرنسية والالمانية وغيرها . ووقفنا على كتاب في اللغة الهندوسكانية (الاوردية) للنعماني المشار اليه سماه « رسائل شبلى » ، ذكر فيه فصولا في مدارس العرب ومارستاناتهم ومكتباتهم وكتبهم ذيلها بالاسناد ، وهو كتاب جليل . وبعد الاطلاع على آراء العلماء وأبحاثهم في هذا الموضوع ، رجعنا الى المصادر العربية فتصفحناها بامعان وتدقيق ، فعثرنا فيها على ما أدهشنا من عظمة ذلك التمدن وخصوصا في العلم والادب ، مما ستراه مفصلا في هذا الجزء

موضوع هذا الجزء

وقد قسمنا الكلام في موضوع هذا الجزء الى : علوم العرب قبل الاسلام ، وعلومهم بعده . . فذكرنا أولا خلاصة ما كان عند العرب الجاهلية من العلوم والآداب ، كالنجوم والانواء والميثولوجيا والكهانة والعرافة والطب والشعر والخطابة وأندية الادب والانساب والتاريخ ، وبحثنا في مصادر تلك العلوم بحثا فلسفيا . وقسمنا الكلام في علوم العرب بعد الاسلام الى ثلاثة اقسام : أولا ، العلوم التي اقتضاها الاسلام وسميها العلوم الاسلامية . ثانيا ، العلوم التي كانت في الجاهلية وارتقت في الاسلام وهي الآداب العربية الجاهلية . ثالثا ، العلوم التي تقلت من اللغات الأخرى وهي العلوم الدخيلة

وقبل النظر في هذه الاقسام قدمنا الكلام بمقدمات تمهيدية : (١) في الاسلام والعلوم الاسلامية وكيف تدرج العرب في وضعها واستلزم بعضها بعضا : (٢) العرب والقرآن والاسلام وما كان من تأثير القرآن في نفوس العرب واكتفائهم به دون سواه (٣) ما جر اليه ذلك الاكتفاء من احراق ما عثروا عليه من كتب الاقدمين وخصوصا مكتبة الاسكندرية (٤) في الرومان والاسلام والعلم ، وان الذين يقابلون بين الرومان والعرب في أسباب التمدن يظلمون العرب ، وانه يجب أن يقابل بين الرومان والاسلام (٥) ان حملة العلم في الاسلام أكثرهم العجم ، وما السبب في ذلك (٦) تدوين العلم في الاسلام وعلة امساك العرب عن تدوينه الى آخر القرن الاول للهجرة (٧) الخط العربي وتاريخه ، ووضع الحركات والاعجام وما الذي دعا الى ذلك

ولما فرغنا من هذه المقدمات انتقلنا الى البحث في العلوم الاسلامية ، وقسمناها الى : العلوم الشرعية الاسلامية أي الدينية ، والعلوم اللسانية أو اللغوية ، والعلوم التاريخية . وابتدأنا من العلوم الشرعية بالقرآن وتاريخ جمعه وتدوينه وقراءته وتفسيره وتأثير أسلوبه في النفوس . ثم الحديث وما

دعا الى وضعه واسناده وعدده . ثم الفقه ومصادره ، والفقهاء والرأى والقياس ومنزلة الفقهاء عند الخلفاء ، وكيف ترتبت تلك العلوم بعضها على بعض . ثم انتقلنا الى العلوم اللسانية وبيننا أنها مما اقتضاه الاسلام ، وفصلنا الاسباب التي دعت الى وضع النحو ، وذكرنا تاريخ الادب واللغة في البصرة والكوفة وبغداد وعلاقة ذلك بالسياسة . ونشرنا فصلا في بلاغة الانشاء وتاريخها ومصرها واسبابها الفلسفية . ثم أتينا الى التاريخ والجغرافية ، فبيننا الاسباب التي دعت الى وضعهما ومزيتهما في اللسان العربي عما في سائر اللسانة

ثم ذكرنا الآداب العربية الجاهلية ، وهي الخطابة والشعر وما كان للاسلام من التأثير فيها ، وما نسبة الخطابة عند المسلمين الى خطابة الامم الاخرى . وما كان من حال الشعر وطبقاته واسلوبه ورواته وتأثيره في الدولة وعدد الشعراء وأشعارهم

ثم تقدمنا الى العلوم الدخيلة التي نقلها المسلمون الى العربية . وتمهيدا لفهم الموضوع قدمنا الكلام في تاريخ آداب الامم التي نقلت تلك العلوم عن السنتهم ، وأهمهم اليونان والفرس والهنود والكلدان . فذكرنا أولا تاريخ آداب اللغة اليونانية ، منذ اقتبس اليونان العلوم من الكلدان والمصريين والفينيقيين حتى وضعوا التاريخ والفلسفة والنجوم وغيرها الى زمن الاسلام ، وتوسعنا خصوصا في تاريخ الفلسفة وما مرت به من الادوار الى سقراط وأفلاطون فأرسطو وتاريخ مؤلفات أرسطو . ثم تاريخ مدرسة الاسكندرية في عصرها اليوناني والروماني الى الفتوح الاسلامية . ثم ذكرنا آداب اللغة الفارسية وما كان من تأثير آداب اليونان عليها في مدرسة جنديسابور وغيرها . وبيننا نحو ذلك في آداب الهنود والسيان بأسباب متسلسلة مترابطة

ثم انتقلنا الى الكلام عن العرب والعلوم الدخيلة وما الذي حملهم على نقلها ، وأول من اشتغل فيها قبل الدولة العباسية . ثم اشتغال المنصور في نقل كتب النجوم والطب عن الهند والفرس ، والاسباب التي حملته على نقلهما ، ثم المهدي والرشيد . وأسهبنا الكلام في المأمون والفلسفة والمنطق وما الذي حمله على نقلهما . وأتينا بفصل خاص عن نقلة العلم في العصر العباسي وملخص تراجهمهم ، وجلهم من غير المسلمين وفيهم النصراني واليهودي والصابي والمجوسي والسامري ، وفيهم النقلة من اليوناني او من الفارسي أو الهندي أو النبطي . وفصل في السورين ونقل العلم بينا فيه

أن السوريين ما زالوا منذ القدم ينقلون العلوم بين الامم (*)

ثم تقدمنا الى ذكر الكتب التي ترجمت في تلك النهضة بالتفصيل عن كل لغة على حدة ، باعتبار الموضوعات والمؤلفين ، وبإزاء كل كتاب اسم ناقله . فذكرنا ما نقل عن اليونانية والفارسية فالهندية فالنبطية فالعبرانية فالقبطية، وهي تعد بالمئات . وقد نقلت بسرعة لم تتفق لأمة من الامم ، فذكرنا الاسباب التي ساعدت على تلك السرعة وفي جملتها محاسنة الخلفاء للعلماء غير المسلمين . ثم بحثنا في انتشار العلوم الدخيلة في المملكة الاسلامية ونبوغ الفلاسفة والاطباء في الانحاء المتباعدة ، واشتغال الخلفاء والأمراء أنفسهم بالعلم وتنشيط العلماء وتأليف الكتب لهم ، وما كانوا يبذلونه في هذا السبيل . ثم بحثنا في المؤلفين وكثرتهم والمؤلفات وتعدادها وضخامتها

ثم نظرنا في تأثير التمدن الاسلامي في هذه العلوم . . فبدانا بالفلسفة وما ترتب عليها من علم الكلام وتاريخ تنقلها في ممالك المشرق ، وما كان من اضطهاد الخلفاء لأصحابها بعد النهضة العباسية حتى تألفت الجمعيات السرية . . ومن جملتها جمعية اخوان الصفا ، وكيف انتقلت رسائلهم الى الاندلس وما كان من تاريخ الفلسفة هناك ، ثم تاريخ الطب الاسلامي والفرق بينه وبين الطب اليوناني او الفارسي او الهندي ، وانه جامع بينها كلها ، وأحصينا اطباء المسلمين وتاريخ الممارسات في الاسلام . ثم نظرنا فيما ادخله المسلمون من عند أنفسهم في الطب وفروعه كالكيمياء والصيدلة والنبات وغيرها . ثم تاريخ النجوم او الفلك في الاسلام ، وتاريخ المراسد عندهم والفرق بين التنجيم والنجوم ، ومن نبغ من علماء الفلك في الاسلام ، وما أحدثوه من الآراء الجديدة وآلات الرصد الجديدة ، وما يلحق بذلك من الرياضيات كالحساب والجبر والهندسة ، ثم تاريخ الفنون الجميلة وأن المسلمين لم يقصروا فيها كما ظن الاكثرون . وختمنا الكلام في المدارس وتاريخ تأسيسها وأسبابه . ثم المكتبات عندهم وعدد ما حوته من الكتب ، مما يدل على فخامة العلم في ذلك التمدن العجيب . وبذلنا الجهد في تحقيق كل عبارة وتمحيص كل رأى ، بما يبلغ اليه الامكان ويأذن به المكان

ونغتني هذه الفرصة للثناء على العلماء الافاضل الذين تلقوا خدمتنا بالرضا وذكروها بما هم اهلها . ونخص منهم كبار المستشرقين في أوروبا ممن وصل اليهم كتابنا المذكور ، فقد جاءتنا كتبهم ورسائلهم بعبارات الاستحسان والتنشيط ، وكتب بعضهم التقارير في المجلات الاجنبية . فاستحطنا ذلك على الاقتداء بهم في خدمة هذه اللغة ، التي سبقونا الى احياء علومها وآدابها ومهدوا لنا سبيل البحث فيها . فنستأذن الذين تفضلوا منهم بالكتابة اليها

(*) المراد بالسوريين هنا السريان ، كما سنرى في الفصل الخاص بذلك من الكتاب

ان ندون أسماءهم في صدر هذا الجزء اقرارا بفضلهم . وهذه أسماءهم بالترتيب الهجائي :

في لندن	M. J. De Goeje	الاستاذ دى جويه
في باريس	H. Derenbourg	الاستاذ ديرنبورج
في بطرسبرج	V. von Rosen	الاستاذ روزن
في بودابست	L. Goldziher	الاستاذ جولدتسيهر
في رومية	M. Guidi	الاستاذ جويدي
في أكسفورد	D. S. Margoliouth	الاستاذ مرجليوث

علوم العرب قبل الإسلام

تمهيد في جزيرة العرب واهلها

جزيرة العرب شحيحة المياه كثيرة الصحارى والجبال ، فلم يشتغل اهلها بالزراعة لجذب الارض . والانسان وليد الاقليم الذى ينشأ فيه ، وقد نشأ العرب على ما تقتضيه البلاد المجذبة من الارتزاق بالسائمة والرحيل فى طلب المرعى . فغلبت البداوة على الحضارة فيهم ، وانصرف اكثر همهم الى تربية الماشية وهى قليلة بالنظر الى احتياجاتهم منها ، فنشأ بينهم التنازع عليها ، وجرحهم التنازع الى الغزو ، واضطروهم الغزو الى الانتقال بخيامهم وأنعامهم من نجع الى نجع ، ومن صقع الى صقع ، ليلا ونهارا . وجوهم صاف وسمائهم واضحة ، فعولوا فى الاهتداء الى السبل على النجوم ومواقعها . واحتاجوا فى مطاردة اعدائهم الى استنباط الادلة للكشف عن مخابئهم ، فاستنبطوا قيافة الاثر ، والجأهم ذلك ايضا الى توقي حوادث الجو من المطر والاعاصير ونحوها ، فعنوا بالتنبؤ عن حدوث الامطار وهبوب الرياح قبل حدوثها ، وهو ما يعبرون عنه بالانواء ومهاب الرياح

ودعاهم الغزو من الناحية الاخرى الى العصبية لتأليف الاحزاب ، فاهتموا بالانساب التى يترابطون بها . والارتحال فى الغزو ونحوه يقتضى العناية بالسلاح والخيول ، ولو كانوا اهل حضارة لا تقنوا صنع السلاح ، وأما الخيل فبرعوا فى تربيتها وانتقاها ومعالجة امراضها

والعرب اخوان الكلدانيين والبابليين والفينيقيين وغيرهم من اركان التمدن القديم . . فهم اهل ذكاء وتعقل ، لو سكنوا وادى الفرات أو وادى النيل لكان منهم ما كان من أولئك ، أو ما كان من جيرانهم التابعة ، ولكنهم أقاموا فى بادية صفا جوها واشترقت سملؤها ، فصفت أذهانهم وانصرفت قرائحهم الى قرض الشعر ، يصفون به وقائعهم أو يبينون به انسابهم أو يعبرون به عن عواطفهم . وقويت فيهم ملكة البلاغة ، فبرعوا فىلقاء الخطب يستنهضون بها الهمم ، أو يدعون الى الحرب أو السلم أو للمفاخرة أو المنافرة . . ولولا ما فى فطرتهم من الذكاء والتعقل لما ظهر منهم أكثر مما ظهر من جيرانهم سكان صحراء العدو الغربية من البحر الاحمر ، فانهم ما زالوا من حيث المدنية على نحو ما كانوا عليه منذ قرون . وشأن جاهلية العرب من هذا القبيل شأن جاهلية اليونان فى عصر هوميروس ، فلما تمدن العرب اتوا بمثل ما اتى به أولئك

على أن العرب لم يسلموا مما وقع فيه معاصروهم من الامم العظمى ، من الاعتقاد في الكهانة والعرافة وزجر الطير وخط الرمل وتعبير الرؤيا ، مما ينجم عن جهل اسباب الحوادث مع رغبتهم في تعطيل بواعثها ، ولذلك فقد كثر عندهم الكهان والعرافون ونحوهم

فالعلوم التي كانت شائعة في جزيرة العرب قبل الاسلام ضرورية باعتبار طبيعة ذلك الاقليم وطبائع اهله . وقد سميناهم علوما بالقياس على مايمثلها عند الامم الاخرى في عصر العلم ، والا فالعرب الجاهليون لم يتعلموها في المدارس ولا قراوها في الصحف ولا ألفوا فيها الكتب ، لأنهم كانوا أميين لا يقرأون ولا يكتبون ، وانما هي معلومات تجمعت في محفوظهم بتوالي الاجيال بالاقتباس والاستنباط ، وتنقلت في الاعقاب وما زالت تنمو وتزايد حتى بلغت عند ظهور الاسلام بضعة عشر علما ، بعضها من قبيل الطبيعيات والبعض الآخر من قبيل الرياضيات أو الادبيات أو الكهانة أو ما يتعلق بذلك ، ولو أردنا التوسع في وصفها لضاق بنا المقام فنذكرها على سبيل الاختصار

واذا امعنا النظر في مصادر تلك العلوم رأينا بعضها خاصا بالعرب وقد نشأ عندهم ، والبعض الآخر دخيل اقتبسوه من الامم الاخرى . . فالعلوم العربية هي الانساب والشعر والخطابة ، والدخيلة هي النجوم والطب والانواء والخيل ومهاب الرياح والميثولوجيا والكهانة والعيافة والقيافة وغيرها كما ستري فيما يلي :

١ - علم النجوم عند العرب

الكلدان اساتذة العالم في علم النجوم ، وهم وضعوا أسسه ورفعوا اعمدته ، ساعدتهم على ذلك صفاء سمائهم وجفاف هوائهم واستواء آفاقهم ، فرصدوا الكواكب وعينوا اماكنها ورسموا الابراج ومنازل القمر والشمس ، وحسبوا الخسوف والكسوف بالآلات فلكية منذ بضعة وأربعين قرنا ، وعنهم أخذ اليونان والهنود والمصريون وغيرهم من أهل التمدن القديم

وما زال الكلدان أو البابليون أهل دولة وسلطان الى أوائل القرن الثامن قبل الميلاد ، فسطا عليهم الاشوريون فلم يؤثر ذلك شيئا في آدابهم الاجتماعية لتشابه الشعبين لغة ودينا ، فلما كان القرن الخامس قبل الميلاد سطا عليهم الفرس وفتحوا بلادهم وبدلوا آلهتهم واستبدوا فيهم ، فثقل ذلك عليهم وضاعقت الارض بهم ، فهاجر كثيرون منهم الى ما جاورهم من البلاد وخصوصا بلاد العرب ، لأنها كانت حوى المهاجرين من العراق ومصر والشام ، لامتناعها على الجنود بالصحارى الرمضاء ولسهولة الاقامة عليهم هناك لقرب لسان العرب من لسانهم

وكان في جملة المهاجرين اليها جماعة من الكهان وأصحاب النجوم ، فتعلم العرب منهم أحكامها وأخذوا عنهم أسماءها ، وتعلموا منهم مواقع الأبراج ومناطقها ومنازل القمر والشمس ، وربما كان لهم علم بشيء من أحكامها من عند أنفسهم ، أو مما وصل اليهم من طريق الهند أو غيرها . ولكن يقال بالاجمال أن العرب مدينون بعلم النجوم للكلدان ، وهم يسمونهم الصابئة - والصابئة ان لم يكونوا الكلدان انفسهم فهم خلفاؤهم أو تلامذتهم (١) (*) وكان الصابئة كثيرين في بلاد العرب ، ولهم مثل منزلة النصارى أو اليهود . فأخذ العرب عنهم علم النجوم باصطلاحاته وأسمائه ، وان كان معظم أسماء السيارات لايرد الى أصله الكلداني ، فربما كان له أسباب عارضة ضاعت أخبارها

على أن بعضها لايزال أصله الكلداني ظاهرا فيه ، كالمرخ مثلا فانها تقابل « مرداخ » الكلدانية لفظا ومعنى . ولكن معظم تلك الاسماء قد ضاعت المشابهة اللفظية بينها وبقيت المشابهة المعنوية . فان « زحل » معناه في العربية الارتفاع والعلو ، وهى نفس دلالة « كاون » اسم هذا السيار في الكلدانية . وأما الأبراج ومنازل القمر فلا تزال كما كانت عند الكلدان لفظا ومعنى - واليك أسماء الأبراج عند كليهما :

(١) مختصر تاريخ الدول لابن العبري ٢٢٦

(*) الصابئة تسمية مبهمة يطلقها مؤلفو العرب على عباد النجوم وطوائف من عبدة الاصنام . والقرآن الكريم يضعهم بين أهل الكتب المنزلة ، مثلهم في ذلك مثل النصارى واليهود . والاستعمال العربى العام يعطى فعل صبا معنى الشرك والزندقة ، فاذا قالوا صبا فلان فمعناه انه كافر . والتاريخ يعرف فرقتين تعرف كل منهما بالصابئة ، الاولى نصرانية يهودية ، تأخذ من هؤلاء شيئا ومن أولئك شيئا ، وهم يعترفون من آباء الكنيسة المسيحية ببوحناء المعمدان ، والثانية صابئة حران وكانوا يعبدون النجوم وقد تسامح معهم المسلمون واعتبروهم ذميين من أهل الكتاب ، وأولئك هم الذين كان لهم الأثر العظيم في تاريخ العلم في الإسلام . وقد تحدث عنهم الشهرستاني في الملل والنحل ، وقال أن فيهم روحانيين وأنبياء منهم النبى عظيمون (وهو تحريف للفظ أجاتوديمون أى الشيطان الطيب) وهرمس الذى يذهب البعض الى انه ادريس أو شيث . وهم يؤمنون بوجود اله خالق ، ولكنهم يقولون ان الانسان يصل اليه عن طريق الارواح ، وذهب الى ان منهم من يعبد النجوم مباشرة ومنهم يعبدها ممثلة في «اشخاص» (أى تماثيل) . ومن صابئة حران ثابت بن قرة الذى اختلف مع قزوه في حران فهاجر الى بغداد وانشأ فيها جماعة صابئة بقيت حتى أيام الخليفة العباسى القاهر الذى اضطهدهم واضطر رئيسهم سنان بن قرة بن ثابت الى اعتناق الإسلام . وكان منهم بعد ذلك ابو اسحاق بن هلال الصابى كاتب الخليفة المطيع ، وقد حصل منه سنة ٨٧٢/٢٥٩ على امان للصابئة في بغداد وحران والرقعة وديار مصر . وقد انتهى أمر صابئة حران حوالى منتصف القرن الحادى عشر الميلادى ، وفي نهاية هذا القرن اختفى صابئة بغداد أيضا . ومن كبار رجالهم في تاريخ الحضارة الاسلامية قرة بن ثابت الذى ذكرناه ، وكان مهندسا منجما ، وابنه سنان بن ثابت وكان متطببا فلكيا ، وثابت بن سنان وهلال بن الحسن وكانا مؤرخين ، وأبو جعفر الخازن الرياضى ، وابن وحشية صاحب كتاب الفلاحة النبطية ، وكان يعلن الإسلام انظر :

الشهرستاني : الملل والنحل ، طبعة كيورتن ١٨٨٦ ج ٢ ص ٢٠٢ - ٢٥١

الدمشقى : كتاب الجغرافية ، طبعة ميرن ، بطرسبورج ١٨٦٦ ص ٣٩ - ٤٨

المسعودى : مروج الذهب ، طبعة باريس ، ج ٤ ص ٦١ - ٧١

D. Chwolsohn, Die Ssabier und der Ssabismus. (St. Petersburg, 1856.2 vols.)

أسماءها العربية		أسماءها الكلدانية	
الحمل والكبش	امرا	الميزان	ماسائا
الثور	ثورا	العقرب	عقربا
الجوزاء أو التوامين	تامى	القوس أو الرامى	قشتا
السرطان	سرطان	الجدى	كديا
الاسد	اربا	الدلو	دولا
السنبلة	شبلتا	الحوت أو السمكة	نونا (✱)

وأما منازل القمر والشمس فقد تبدل بعض أسمائها كما أصاب السيارات . ولكن العبرة بالأكثر في قواعد هذا العلم ومصطلحاته ، فإنها عند العرب كما كانت عند الكلدان تماما ، حتى لفظ « منازل القمر » فان هذا التعبير هو نفس ما كان يعبر به الكلدان عن هذه المنازل ، وقد أبدلته الامم الاخرى التى أخذت هذا العلم عن الكلدان بتعبير آخر ، الا العرب واليهود

ومعرفة العرب بالنجوم مشهورة ، فقد رأيت أنهم عرفوا السيارات والأبراج ، وعرفوا عددا كبيرا من الثوابت ، ولهم في ذلك مذهب يختلف عن مذاهب المنجمين في الامم الاخرى (١) وفي قدم أسماء تلك النجوم في العربية دليل على قدم معرفة العرب بها وبمواقعها ، مثل : بنات نعش الكبرى والصغرى ، والسها ، والظباء ، والربع ، والرايض ، والعوائد ، والذئبين ، والنشرة ، والفرقد ، والقدر ، والراعى ، وكلب الراعى ، والأغنم ، والرامح ، والسماك ، وعصا الضياع ، وأولاد الضياع ، والسماك الرامح ، وحارس السماء ، والأظفار ، والفوارس ، والكف المخضب ، والخباء ، والعيوق ، والعنز ، والجديين ، وغيرها

أما منازل القمر فقد قسموها الى ثمانية وعشرين قسما ، خلافا لما كان عند الهنود فإنها ٢٧ قسما عندهم . وأراد العرب منها غير ما اراده أولئك ، اذ كان مرادهم منها معرفة احوال الهواء في الأزمنة ، وحوادث الجو في فصول السنة ، لأنهم كانوا أميين فلم تمكنهم معرفتها الا بشيء يعاين فاستعانوا عليها بالكواكب ، كما سترى في الكلام على الأنواء . واليك أسماء منازل القمر في العربية ، وهى ٢٨ :

الثريا	الجبهة	الاكليل	سعد السعود
الدبران	الزبرة	القلب	سعد الأخبية
الهقعة	الصرفة	الشولة	الفرغ المقدم

(✱) ويلاحظ أن النون في العربية من أسماء الحوت

(١) القزوينى على هامش الدرر ٥٠ ج ١

الهنعة	العواء	النعائم	الفرغ المؤخر
الذراع	السماك	البلدة	بطن الحوت
النثرة	الفقر	سعد الذابح	الشرطان
الطرف	الزبانيان	سعد بلع	البطين

وكان العرب اذا عدوا المنازل بدأوا بالشرطين ، لأسباب تتعلق باقليمهم . وقد بالغ المتعصبون للعرب في صدر الدولة العباسية في براعة العرب في علم النجوم ، وفي جملة المتعصبين ابن قتيبة ، فقد قال في كتابه «تفضيل العرب على العجم» أن العرب أعلم الأمم بالكواكب ومطالعها ومساقطها (١) . ومع اعترافنا بما في ذلك من المبالغة ، فاننا نستدل منه على توسع العرب في هذا العلم

ولا غرابة في اتقانهم معرفة النجوم ومواقعها ، فانها كانت دليلهم في أسفارهم وأكثر أحوالهم ، فكانوا اذا سألهم سائل عن الطريق المؤدى الى البلد الفلانى قالوا : « عليك بنجم كذا وكذا » فيسير في جهته حتى يجد المكان ، وربما استعانوا على ذلك أيضا بذكر مهاب الرياح يعبرون بها عن الجهات . ومن أمثلة ذلك أن سليك بن سعد سأل قيس بن مكشوح المرادى أن يصف له منازل قومه ثم هو يصف له منازل قومه ، فتوافقا وتعاهدا الا يتكاذبا . فقال قيس بن المكشوح : « خذ بين مهب الجنوب والصبأ ، ثم سر حتى لا تدري أين ظل الشجرة ، فاذا انقطعت المياه فسر أربعا ، حتى تبدو لك رملة وقف بينها الطريق ، فانك ترد على قومي مراد وخشم » . فقال السليك : « خذ بين مطلع سهيل ويد الجوزاء اليسرى العاقد لها . من أفق السماء ، فثم منازل قومي بنى سعد بن زيد مناة » . واشتهر في جاهلية العرب في اتقان النجوم جماعة ، منهم بنو مارية بن كلب ، وبنو مرة بن همام الشيباني (٢)

٢ - الأنواء ومهاب الرياح

ويراد بالأنواء عندهم ما يقابل علم الظواهر الجوية عندنا ، مما يتعلق بالمطر والرياح ، ولكنهم كانوا ينسبون الظواهر المذكورة الى طلوع الكواكب أو غروبها ، ولذلك كان علم الأنواء فرعا من علم النجوم . وكانوا يسمون طلوع المنزلة نوعها أى نهوضها ، وسموا تأثير الطلوع بارحا وتأثير السقوط نوعا ، ومن طلوع كل واحدة منها الى طلوع التى تليها ثلاثة عشر يوما ، سوى الجبهة فان بين طلوعها وطلوع التى تليها ١٤ يوما . ومن أقوالهم في ذلك :

(١) البيرونى ٢٣٨

(٢) البيرونى ٢٤١

والدهر فاعلم كله أرباع لكل ربيع واحد أسابيع
وكل سبع لطلوع كوكب ونوء نجم ساقط في المغرب
ومن طلوع كل نجم يطلع الى طلوع ما يليه أربع
من الليالى ثم تسع تتبع

ثم اختلفوا فيها ، فزعم بعضهم أن كل تأثير يكون بعد طلوع منزلة الى
طلوع التى تتلوها فهو منسوب اليها . وزعم آخرون أن لطلوع كل واحدة
وسقوطها مقدارا من الزمن ينسب اليها يكون فيه ، فاذا انقضت تلك المدة
لم ينسب اليها ما يكون بعدها . وكانوا اذا تحقق التأثير فلم يظهر منه شيء فى
تلك الأزمنة قالوا : خوى النجم ، أو خوت المنزلة — يعنون بذلك مضت مدة
نوء ولم يكن فيه مطر أو حر أو برد أو ريح (١) . ومن أمثالهم : « أخطأ
نوءك » يضرب لمن طلب حاجة فلم يقدر عليها (٢)

وكانوا اذا أمطرت السماء نسبوا المطر الى تأثير النجم المتسلط فى ذلك
الوقت ، فيقولون مثلا : مطرنا بنوء المجرة ، أو هذا نوء الخريف ، مطرنا
بالشعرى . وقالوا ان النوء سقوط نجم ينزل فى المغرب مع الفجر ، وطلوع
رقبه فى الشرق من انجم المنازل . ولذلك كانت الأنواء ٢٨ نوءا أو نجما ،
كانوا يعتقدون انها هى علة الامطار والرياح والحر والبرد . وفى أشعارهم
امثلة كثيرة تدل على علاقة أحوال الجو أو فصول السنة باقترانات الكواكب
أو طلوعها ، وقد نظموها شعرا ليسهل حفظها على الناس لقلة الكتابة عندهم
من ذلك قولهم :

اذا ما قارن القمر الثريا لثالثة فقد ذهب الشتاء
وقول الآخر :

اذا ما البدر تم مع الثريا أذاك البرد أوله الشتاء
وقول الآخر :

اذا ما قارن الدبران يوما لأربع عشرة قمر التمام
فقد خف الشتاء بكل أرض فوارس مؤذونات باحتمام
وحقق فى السماء البدر حتى يقلص ظل أعمدة الحيام
وذلك فى انتصاف الليل شطرا ويصفو الجو من كدر الغمام

(١) البيرونى ٣٣٩ (٢) الميدانى ٢٠٢ ج ١

وقول الآخر :

إذا ما هلال الشهر أولَ ليلة بدا لعيون الناس بين النعائم
أتتك رياح القر من كل وجهة وطاب قبيل الصبح كوز العمائم
وقول الآخر :

وقد برد الليل التمام بأهله وأصبحت العواء للشمس منزلا (١)

وكان عندهم لطلع كل كوكب أو منزل وصف يدل على تأثير ذلك في الطقس على اعتقادهم ، ومن هذا القبيل اعتقادهم تأثير النجوم في أعمال البشر على ما كان عند الكلدان (٢) على أنهم كثيرا ما كانوا يستدلون على المطر أيضا بألوان الغيوم وأشكالها ، فأقل الغيوم مطرا عندهم البيضاء ثم الحمراء ثم السوداء ، ومن أقوالهم : « السحابة البيضاء جفل ، والحمراء عارض ، والسوداء هطلة » (٣)

وكان العرب في حاجة الى معرفة مهاب الرياح للاهتداء في أسفارهم ، ولذلك فقد وضعوا لها الأسماء . ولكنهم اختلفوا في عدد جهاتها ، فحسبها بعضهم ستة ، والبعض الآخر أربعة . فأصحاب القول الثاني يعدونها (١) مهب الصبا من الشمال ، (٢) مهب الشمال من المغرب (٣) مهب الدبور من الجنوب ، (٤) مهب الجنوب من المشرق . ويزيد عليها أصحاب القول الاول : النكباء بجانب الشمال ، والمحوة بجانب الجنوب . واليك قول ذى الرمة في ذلك :

أهاضيب أنواء وهيئان جرتا على الدار أعراف الجبال الأعافر
وثالثة تهوى من الشام حرجف لها سنن فوق الحصى بالأعاصر
ورابعة من مطلع الشمس أجفلت عليها بدقعاء المعافقراقر
تحسنتها التكب السوا في فأكثر حين التلاح القاريات العواشر (٤)

٣ - الميثولوجيا

ومما يلحق بعلم النجوم أيضا ما يعبر عنه الافرنج بالميثولوجيا ، وهى عبارة عما كانوا يزعمون وقوعه بين الكواكب - أو هى الآلهة عندهم - من الحروب أو الزواج أو نحو ذلك مما يجرى على البشر على نحو ما ذكره عن آلهة

(١) البيرونى ٣٣٦

(٢) Rawlinson's Ancient Monarchies, III. 425

(٣) الميدانى ١٠٩ ج ١ (٤) البيرونى ٣٤٠

اليونان (❖) . فالعرب الهوا الأجرام السماوية وعبدوها ، وقد ضاع خبر ذلك لعدم تدوينه ، على أننا نستدل عليه من بعض ما وصل إلينا من أسماء أصنامهم وعبادة بعض رجالهم . فاللغات اسم للزهرة (❖❖) وقد اشتهر كثيرون بعبادتها وعبادة الشمس والقمر والشعري ، وكانوا يتناظرون في افضلية بعضها على بعض ، قالوا : « وأبو كبشة أول من عبد الشعري ، وكان يقول : الشعري تقطع السماء عرضا ، ولا أرى في السماء شمسا ولا قمرا ولا نجما يقطع السماء عرضا غيرها »

أما تشخيص تلك الأجرام وانزالها منزلة البشر فقد كان معروفا عند العرب . ومن الأفاصيص الميثولوجية التي كانوا يتناقلونها أن الدبران خطب الثريا وأراد القمر أن يزوجه منها ، فأبت عليه وولت عنه وقالت للقمر : ما أصنع بهذا السبروت الذي لا مال له ؟ فجمع الدبران قلاصه يتمول بها ، فهو يتبعها حيث توجهت يسوق صداقها قدامه – يعنون القلاص . وأن الجدى قتل نعشا فبناته تدور به تريده . وأن سهيلا ركض الجوزاء فركضته برجلها فطرحته حيث هو ، وضربها هو بالسيف فقطع وسطها . وأن الشعري اليمانية كانت مع الشعري الشامية ففارقتها وعبرت المجرة ، فسميت الشعري العبور . فلما رأت الشعري اليمانية فراقها إياها بكت عليها حتى غمضت عينها ، فسميت الشعري الغميصاء (١)

ومن هذا القبيل تأليههم بعض المشاهير من الملوك أو القواد أو الأسلاف ، واعتبار البعض الآخر من نتاج الملائكة أو الجان . فعندهم مثلا أن بلقيس كانت أمها جنية ، وأن جرهما كان من نتاج الملائكة وبنات آدم . وكذلك كان

(❖) الميثولوجيا يمكن ترجمتها بعلم الاساطير . واللفظ منحوت من لفظين اغريقيين : Mythos أي أسطورة ، و Logos أي بحث . وهذا العلم يتناول ، علاوة على مذكره المؤلف ، دراسة الوثنية واسرارها وطقوسها وآلهتها واباطالها من البشر ، والاساليب الفنية التي لجأت وتلجأ إليها الشعوب في تصوير هذه المعتقدات واولئك الإبطال ، كالتماثيل والصور والاشعار والقصص وما الى ذلك . ويتناول علم الميثولوجيا كذلك دراسة الاساطير التي ابتكرها اهل الأديان حول إبطال العقيدة والقديسين والاولياء وكنهة البوذيين والهندوك ومن اليهم . وقد نشأ الاهتمام بهذه الناحية عن حقيقة مقرة ، وهي أن إيمان العوام عادة يأخذ صورا اسطورية ، وهذه الاساطير في ذاتها تفسر الكثير من أحوال الشعوب وحالتها العقلية واتجاهات تفكيرها وما الى ذلك . وليست كل الاساطير خرافات فارغة ، كما يظن ، بل منها ما يعتبر جزءا من تكوين الشعب الذي أبدعها بحيث لا يمكن فهم تاريخ هذا الشعب الا اذا درست أساطيره ، كما هو الحال عند اليونان . ومن الشعوب ما كانت الاساطير عنده هي الدين نفسه ، كما هو الحال عند المصريين القدماء . ومنها ما تكون اساطيره رمزا على خلقه وتفكيره ، كما نرى في حالة البوذيين ، لأن حياة بوذا ما هي الا اسطورة رمزية حافلة بالمعاني . ومنها ما تكون أساطيرها تصورا قصصيا لخلقها العليا ، كما هي الحال عند الآلان . وكانت الاساطير عند كل الشعوب معينا لا ينضب لاهل الفنون من نحائين ومصوريين وشعراء وقصصيين ، ولا زالت كذلك الى اليوم

انظر : (K.O. Müller, Prolegomena zur einen wissenschaftlichen Mythologie Goettingen, 1825)

(❖❖) المراد هنا الالهة فينوس

(١) الميداني ٣١٢ ج ٢

ذو القرنين عندهم أمه آدمية وأبوه من الملائكة (١) وأما أصل هذه الاعتقادات فاما هندي أو يوناني أو مصري ، أما الكلدان فقلما كانت لهم عناية بأمثال ذلك. (٢)

٤ - الكهانة والعرافة

هما لفظان لعنى واحد ، و فرق بعضهم بينهما فقال ان الكهانة مختصة بالأمور المستقبلية ، والعرافة بالأمور الماضية . وعلى كل حال فالمراد بهما التنبؤ واستطلاع الغيب . على أن العرب كانوا يعتقدون في الكاهن القدرة على كل شيء ، فكانوا يستشيرونه في حوائجهم ، ويتقاضون اليه في خصوماتهم ، ويستطبونه في أمراضهم ، ويستفتونه فيما أشكل عليهم ، ويستفسرون منه رؤاهم ، ويستنبئون عنه مستقبلهم . وبالجمله فالكهان عندهم هم أهل العلم والفلسفة والطب والقضاء والدين ، شأن تلك الطبقة من البشر عند سائر الأمم القديمة في بابل وفينيقية ومصر وغيرها

والكهانة من العلوم الدخيلة على العرب ، جاءتهم من بعض الأمم المجاورة لهم ، والغالب في اعتقادنا أن الكلدان حملوها اليهم مع علم النجوم . ويؤيد ذلك أن الكاهن يسمى في العربية أيضا « حازى » أو « حزاء » ، وهو لفظ كلداني معناه الاشتقاقى الناظر أو الرائي أو البصير ، وهو يدل عندهم على الحكيم والنبى . وأما لفظ « الكاهن » فقد اقتبسه العرب بعدئذ من اليهود الذين نرحوا اليهم على أثر ما أصابهم من النكبات في اورشليم (بيت المقدس) ، وخصوصا بعد خرابها على يد الأمبراطور الرومانى طيطس سنة ٧٠ للميلاد، وقد أخذ عنهم العرب كثيرا من الآداب والعادات مما لا يدخل في بحثنا

وأما الكهانة فأصلها من عند الكلدان ، ولعل الذين حملوا علم النجوم الى العرب هم الكهنة الكلدانيون انفسهم ، فكانت الكهانة في جملة ما حملوه اليهم . ويؤيد ذلك ان العرب كانوا يطلقون لفظ الحزاء على الكاهن والمنجم (٣)

(١) الديمري ١٨ ج ٢ (٢) لا زالت المادة الخاصة بأساطير العرب في الجاهلية مفرقة في أصول كثيرة كالعقد الفريد لابن عبدربه ، والكامل لابى العباس احمد المبرد ، والأغانى لابى الفرج الاصفهاني ، وكتاب الاصنام للكلبي ، والاكلیل للهمداني ، والحبر

واليك بعض الدراسات الحديثة في الموضوع

J. Wellhausen, Reste arabischen Heidentums (2. éd. Berlin 1897)

D. Nielsen, Handbauch der altarabischen Altertumskunde

Die Altarabische Kultur الجزء الاول وموضوعه

(كوبنهاجن ١٩٢٧)

H. Lommens, Le Culte des Bétyles et les processions religieuses chez les Arabes préislamites. Beyrouth 1919

Gaudefroy - Demombynes, Le pèlerinage à la Mecque. Paris 1923

ولم يصدر الاستاذ جواد على الاجزاء الخاصة بأديان العرب في الجاهلية بعد

(٢) السيرة الحلبية ١٨ ج ١

على أن أهل بابل ما زالوا يتواردون على بلاد العرب الى ما بعد الاسلام
والعرب يجلبونهم لعلمهم وتعقلهم

فالعرب كانوا يعتقدون في الكهنة العلم بكل شيء ، وان ذلك يأتيهم بواسطة
الأرواح ، فمن كان منهم يعتقد التوحيد نسب ذلك الى استطلاع الغيب عن
افواه الملائكة . واذا كان من عبدة الأصنام اعتقد حلول الأرواح في الأصنام
وبوحها بأسرار الطبيعة للكهان والسدنة ، فيقول العرب أن الأصنام تدخلها
الجن (أى الأرواح) وتخطب الكهان ، وان الكاهن يأتيه الجنى بخبر السماء
وربما عبروا عنه بالهاتف . ومن اقوالهم : « الأحبار من اليهود ، والرهبان
من النصارى ، والكهان من العرب »

فكل ما كان يصنعه الكاهن انما مصدره الغيب ، فاذا استطبه مريض من
ريح أو صداع عالج بالرقى ، واذا استشير في معضلة خط في الرمل أو
نفث في العقد (*) ، واذا حكمه متخاصمان رمى لهما بالقداح ، واذا استطلع
عن سرقة أخذ قممته جعلها بين يديه ونفث فيها ، ونحو ذلك من الحركات
الوهمية ، واذا استفسر عن رؤيا تمت وتظاهر باستطلاع الغيب

قلنا ان الكهانة أتت العرب من بين النهرين ، فالكهان القدماء كانوا في
الغالب كلدانيين (أو صابئة في قولهم) وكان العلم كله عندهم ، ثم تعدد
الكهنة من اليهود وغيرهم ، ثم ما لبث العرب انفسهم أن أخذوا ذلك عنهم ،
فنشأ الكهان منهم . على أن بعض العرب اقتصروا فيما تناولوه على علم دون
آخر ، فكان بعضهم يتعاطى الطب فقط ، وبعضهم تعبير الرؤيا أو القيافة
أو القضاء

الكهان :

واشتهر في بلاد العرب جماعة كبيرة من الكهان والكواهن ، أقدمهم شق
وسطيح وحكايتهما أشبه بالخرافات منها بالحقائق . فعندهم أن الأول كان
شق انسان (أى نصفه) بيد واحدة ورجل واحدة وعين واحدة ، وأن
سطيحا كان لحما يطوى كما يطوى الثوب ، لا عظم فيه غير الجمجمة ووجهه
في صدره . ويزعمون أن هذين الكاهنين عاشا بضعة قرون ، الى غير ذلك
من الأوهام . ومن الكهان الذين نبغوا في النهضة العربية قبل الاسلام خنافر
ابن التوام الحميرى ، وسواد بن قارب الدوسى . وفيهم من يعرفون بما ينسبون

(*) النفث هو النفخ دون أن يخرج معه ريق ، أما العقد فأسفلها أن الساحر اذا أخذ في
قراءة الرقية أخذ خيطا ولا يزال يعقد عليه عقدة بعد عقدة وينفث فيها . وفي القرآن الكريم
« ومن شر النفاثات في العقد » والمراد الساحرات اللاتي يعقدن العقد ويقرآن الرقى اثناء
ذلك ، وقيل أن المراد بالنفاثات هنا بنات لبيد بن اعصم اليهودى اللاتي حاولن سحر النبى
صلى الله عليه وسلم

انظر : لسان العرب ، مادة نفث وتفسير الفخر الرازى ، ج ٨ ص ٤٤٤

اليه من البلاد أو القبائل ، كقولهم : كاهن قريش ، وكاهن اليمن ، وكاهن حضرموت ، وغيرهم

ويقال نحو ذلك في العرافين ، وأكثرهم ينسبون الى بلدانهم وقبائلهم ، كعراف هذيل وعراف نجد وأشهرهم عراف اليمامة ، شهره عروة بن حزام بيت قاله فيه - وكذلك الشعراء يشهرون بمدوحهم - وهو قوله :

أقول لعراف اليمامة داوئى فانك ان داويتنى لطبيب

وأما الكواهن من النساء فانهن عديدات ، منهن طريفة كاهنة اليمن وهى أقدمهن ، واليهما ينسبون الانذار بخراب سد مأرب وأتيان سيل العرم ، وزبراء بين الشحر وحضرموت ، وسلمى الهمدانية الحميرية ، وغفراء الحميرية ، وفاطمة الخثعمية بمكة ، وزرقاء اليمامة . وغيرهن ينسبن الى القبيلة أو المدينة ، ككاهنة بنى سعد ، يزعمون أنها أقدم عهدا من شق وسطيح وأنها استخلفتها (١) . وما زالت الكهانة في العرب حتى جاء الحديث في إبطالها وهو : « لا كهانة بعد النبوة » (٢)

وكان للكهان عند العرب لفة خاصة ، تمتاز بتسجيع معين يعرف بسجع الكهان ، مع تعقيد وغموض . ولعلهم كانوا يتوخون ذلك للتمويه على الناس بعبارات تحتل غير وجه ، كما يفعل بعض مشايخ التنجيم في هذه الأيام ، حتى اذا لم يصدق تكنهم جعلوا السبب قصور الناس في فهم قول الكاهن . ومن امثلة سجع الكهان ما يروونه عن طريفة كاهنة اليمن ، حين خاف أهل مأرب سيل العرم وعليهم مزيقياء عمر بن عامر ، فانها قالت لهم : « لا تؤموا مكة حتى أقول ، وما علمنى ما أقول الا الحكم المحكم ، رب جميع الأمم من عرب وعجم » . قالوا لها : « ما شأنك يا طريفة ؟ » . قالت : « خذوا البعير الشذقم ، فحضبوه بالدم ، تكن لكم أرض جرهم ، جيران بيته المحرم » (٣)

القيافة :

ومن قبيل الكهانة أيضا القيافة ، لكنها تختص بتتبع الآثار والاستدلال منها على الاعيان ، وهى قسمان : قيافة الأثر ، وقيافة البشر . والأولى تختص بتتبع آثار الأقدام أو الحوافر أو الأخفاف ، والاستدلال من آثارها في الرمال أو التراب على أصحابها . والفائدة من ذلك الاهتداء الى الغار من الناس أو الضال من الحيوان ، وقد أتقن العرب ذلك حتى فرق بعضهم بين أثر قدم الشاب والشيخ ، وقدم الرجل والمرأة ، والبكر والثيب . وأما قيافة البشر فهى الاستدلال بهيئات أعضاء الشخصين على المشاركة والاتحاد بينهما في النسب والولادة وسائر احوالهما ، وهى من قبيل الفراسة

(٢) كشف الظنون ٣٣٩ ج ٢

(١) السيرة الحلبية ٣٦ ج ١

(٣) الاغانى ١١٠ ج ١٣

وكانت القيافة شائعة في العرب ثم اختصت بعض القبائل بها دون البعض الآخر ، وأشهر العرب بقيافة الأثر بنو مدلج وبنو لهب . ولا تزال هذه القيافة شائعة الى اليوم في بعض قبائل نجد ، ويقال انهم بنو مرة وهم أعلم الناس بها ، حتى لقد يعرف أحدهم الانسان من أثره ، وربما نظر الى أثر بعير فقال : هذا بعير فلان ، وكثيرون منهم يميزون بين العراقي والشامي والمصري والمدني

والفراسة كانت شائعة في العرب ، وكانت لهم فيها براعة يستدلون بهيئة الانسان وأشكاله وألوانه وأقواله على أخلاقه ومناقبه ، وهى من قبيل الذكاء وسرعة الخاطر وسجية طبيعية

ومن قبيل الكهانة تعبير الرؤيا ، وكان معروفا عند العرب ، وكانوا يفزعون الى الكهان في تفسير الأحلام ، على أن كثيرين من غير الكهان كانوا يتعاطونها ، أشهرهم أبو بكر الصديق (١)

ومن هذا القبيل زجر الطير وخط الرمل ، وقد أغضينا عنهما لضيق المقام

٥ - الطب في الجاهلية

الطب من جملة العلوم التى وضع أساسها الكلدان كهنة بابل ، وهم أول من بحث في علاج الأمراض ، فكانوا يضعون مرضاهم في الأزقة ومعابر الطرق ، حتى اذا مر بهم أحد أصيب بذلك الداء فيعلمهم بسبب شفائه ، فيكتبون ذلك على الواح يعلقونها في الهياكل ، ولذلك كان التطبيب عندهم من جملة أعمال الكهان . وعن الكلدان أخذت سائر الأمم القديمة وفي جملتها العرب ، وهو متشابه عند تلك الأمم في مصر وفينيقية وأشور . ثم تناوله اليونان فأتقنوه ورتبوا أبوابه ، وعنهم أخذ الرومان والفرس . ونظرا لمعاصرة العرب لهذه الدول فقد اقتبسوا شيئا من طبها أضافوه الى ما جاءهم به الكلدان ، والى ما استنبطوه من عند أنفسهم بالاختبار ، فتألف من ذلك ما عبرنا عنه « بالطب في الجاهلية » ولا يزال كثير منه باقيا الى اليوم في قبائل البادية . وكان للتطبيب عندهم طريقتان : الأولى ، طريقة الكهان والعرافين ، والثانية طريقة العلاج الحقيقية . فالكهان كانوا يعالجون بالرقى والسحر كما تقدم ، أو بذبح الذبائح في الكعبة والدعاء فيها ، أو بالتعازيم أو نحو ذلك

وكان التطبيب بالرقى شائعا في الأمم القديمة كلها ، وقد وجدوا في الآثار المصرية كثيرا من العزائم (*) التى كانوا يصفونها لمعالجة المرضى : وجاء من أخبارهم أن كاهنهم كان اذا سار لمعالجة مريض صاحبه خادمان أحدهما يحمل

(١) السيرة الطبية ٢٩١ ج ١

(*) يستعمل المؤلف هنا لفظ العزائم بمعنى الرقى التى يتلوها الكاهن أو المتطبب . والعزائم لفظ مصرى دارج ، وفعله عزم بتشديد الزاى ومعناه قرأ الرقية

كتاب العزائم والثاني يحمل صندوق العقاقير الطبية ، وهم يعالجون بالانثين جميعا . وكانوا يوجهون كلامهم في العزيمة أو الرقى الى أحد آلهتهم وخصوصا ايزيس وأوزيرس ورع ، ولهم عبارات يقولونها عند صنع الأدوية وعند تناولها للمريض . فمن أمثلة العزائم التي كانوا يتلونها عند تناول الدواء : « هذا هو كتاب الشفاء لكل مريض ، فهل لايزيس أن تشفيني كما شفت حوريس من كل ألم أصابه من أخيه ست حينما قتل أباه أوزيريس ؟ فيا ايزيس أنت الساحرة الكبيرة ، اشفيني وخلصيني من كل شيء مكرر ردىء شيطاني ، ومن أمراض اللبسة والأمراض القاتلة والخبيثة بأنواعها التي تعتريني كما خلصت ابنك حوريس... » (١) وكان عندهم عزائم لاجراج الأرواح الشريرة التي تسبب الأمراض في زعمهم . فعلى هذه الكيفية كان العرب يتلون العزائم لأصنامهم ويرقون لاجراج الجان والشياطين . وكان اعتقادهم من هذا القبيل انهم اذا خافوا وباء نهقوا نهيق الحمار ، يزعمون أن ذلك يمنعهم من الوباء ، وأن دماء الملوك تشفى من الخبل

وأما معالجتهم بالعقاقير فشبها بما كان عند المصريين وغيرهم من الأمم القديمة ، فقد كانوا يعالجون بالعقاقير البسيطة أو الأشربة وخصوصا العسل ، فانه كان قاعدة العلاج في أمراض البطن - على أن اعتمادهم في معالجة الأمراض كان معظمه عائدا الى الجراحة كالحجامة والكى ، ومن أقوالهم : « كل داء حسم بالكى آخر الأمر ، وآخر الطب الكى » . وكثيرا ما كانوا يعالجون بالقطع أو البتر ، والغالب أن يكون ذلك بالنار ، فان النار عندهم كانت تقوم مقام مضادات الفساد (الطهرات) عندنا . فاذا أرادوا فصل عضو حموا شفرة بالنار وقطعوه بها ، كما فعلوا بصخر بن عمرو أخى الخنساء لما نأت قطعة من جوفه مثل الكبد على أثر طعنة فأحموا له شفرة وقطعوها (٢)

وكانوا يعالجون حول البصر بادامة النظر الى حجر الرحي في دورانه ، ويزعمون أن العين تستقيم به . ومن معالجاتهم التي نعتها اليوم خرافة ان المجروح اذا شرب الماء مات (٣) واذا خافت المرأة حتى برد قلبها سقوها ماء حارا (٤)

الاطباء :

وأما الاطباء فقد كانوا في أول الأمر من الكهنة ، ثم تعاطى الطب جماعة من العرب ممن خالطوا الروم والفرس وأخذوا الطب عنهم فاشتهروا بهذه

(١) بغية الطالبيين ٢٥٨ (٢) الاغانى ١٣٧ ج ١٣

(٣) الاغانى ١٣١ ج ١٤ (٤) الاغانى ٣٢ ج ١٠

الصناعة ، واكثرهم من أهل النهضة الأخيرة قبل الاسلام حوالى القرن السادس للميلاد ، على أن بعضهم أقدم من ذلك كثيرا ، وأقدم أطبائها لقمان وهو حكيمهم وفيلسوفهم ، وفي أصله وزمن وجوده اختلاف (*) . يليه رجل من تيم الرباب يقال له ابن حذيم ، ويضربون به المثل بالخلاق في الطب فيقولون لمن أرادوا وصفه بذلك : أطب من ابن حذيم ، وفيه يقول أوس ابن حجر :

فهل لكم فيها الى فانتى بصير بما أعبى النطاسى حذيمًا

ومن أحدث أطباء الجاهلية الحرث بن كلدة توفي سنة ١٣ للهجرة ، وهو من بنى ثقيف من أهل الطائف ، رحل الى أرض فارس وأخذ الطب من جنديسابور ، وتماطى صناعة الطب هناك واكتسب مالا ثم عاد الى بلاده وأقام في الطائف ونال شهرة واسعة ، وقد أدرك الاسلام وكان النبي يأمر من كانت به علة أن يأتيه فيستوصفه - ومنهم ابن أبى رومية التميمي ، والنضر بن الحرث بن كلدة

(*) لقمان شخصية من أطرف شخصيات الفكر والتاريخ الادبي الاسلامي ، ومن أسف أن أحدا من باحثينا لم يمن بكتابة دراسة كاملة عنه ، ولاشك انه عاش قبل الاسلام بزمن طويل بدليل توافر الإشارة اليه في القرآن الكريم بين أهل العصور الفائرة والامم البائدة ، وقد نسجت حوله الاساطير الكثيرة ، فجعلت منه بطلا جاهليا ومسته لقمان المعمر وذهبت الى انه عمر طويلا جدا حتى بلغ عمره سبع مئة نسور ، فكان يربى نسرا حتى يشيخ ويموت في سن الثمانين فيأخذ غيره وهكذا حتى أخذ السابع ، وشاخ هذا الاخير واشرف على الموت ، وحاول لقمان ان يعالجه فلم ينفع فيه علاج ، ومات لقمان معه بعد ان عمر ٥٦٠ سنة ، وهذا النسر الاخير كان يسمى ليد ، ولهذا يقول الشاعر : « أخنى عليه الذي أخنى على ليد » . وهم يقولون ان لقمان كان من قوم عاد الذين عصوا نبيهم هودا فعاقبهم الله بالحل ، وذهبت جماعة منهم الى مكة لتقرب القرابين لاصنامها ، وكان فيهم لقمان ، وأكرمهم المكيون كرماء انساهم امر قومهم ، ثم ذكروهم ، فسألوا الآلهة ان تمطرهم ، فجاءت سحابة سوداء امطرتهم سيلا أتى عليهم . ولقمان في القرآن الكريم حكيم مؤمن ينصح ويهتدي بحكمته ، وقد أدخل اصحاب الاسرائيليات في تفسير الآيات التي ورد فيها ذكر لقمان قصصا كثيرا ، فزعم وهب بن منبه انه قرأ عشرة آلاف ورقة ليس فيها الا حكم لقمان ، وأورد الميداني في امثاله حكما كثيرة للقمان ، وذكر بعضهم ان الله خير لقمان بين أن يكون نبيا او حكيما فاختار الحكمة ، وقالوا انه عاش حتى زمن النبي يونس عليه السلام . وفي العصور الاسلامية المتأخرة أصبح لقمان قصاصا تنسب اليه الحكايات ، حتى ليعد ايسوب العرب . وقد نشر جوزيف ديرنبورج مخطوطا يضم ٤١ قصة منسوبة الى لقمان ، وبين ان الكثير من هذه القصص مأخوذ من قصص ايسوب

انظر - ملالة على تفاسير القرآن في الآيات التي ورد فيها ذكر لقمان - الثعالبي : قصص الانبياء ، القاهرة ١٣٢٥ ص ٢٢٠-٢٢٢

أبو حاتم السجستاني : قطعة خاصة بلقمان نشرها جولدسيهر في

Abhandlungen zur arabischen Filologie II, Leiden 1899

الدمري : حياة الحيوان ، لفظنا نسر وليد ،

René Basset, Luqman Berbère. Paris 1890

وقد نشر فيه رسالة صغيرة عنوانها : ذكر لقمان بن عاد

Joseph Horowitz, Koranische Untersuchungen, Berlin, Leipzig 1926

Joseph Derenbourg, Fables de Luqman le sage. Berlin - London 1850

Congbeare, Rendel Harris, Agnes Smith Lewis, The story of Ahikar. Cambridge 1913

وأكثر هؤلاء الأطباء تناولوا الطب من بلاد الفرس أو الروم ، وبعضهم أخذه عن الكهان أو الأحبار من الأديار ونحوها . وربما أخذوا عنهم شيئا من الفلسفة القديمة كما فعل التضر المذكور . والظاهر أن بعضهم كان يخصص نفسه للأعمال الجراحية فيغلب عليه لقب الجراح ، وأشهر جراحى الجاهلية ابن أبى رومية التميمي ، فقد كان جراحا مزاولا لأعمال اليد (١)

ونظرا لعناية العرب بخیولهم وإبلهم كان بعض الأطباء يخصص نفسه لمعالجتها مما يعبرون عنه اليوم بالبيطرة . ومن يباطرة الجاهلية العاص ابن وائل (٢)

٦ - الشعر في الجاهلية

الشعر عند العرب الكلام المقفى الموزون ، وهذا في الحقيقة تعريف النظم وليس تعريف الشعر . لأن النظم غير الشعر ، إذ قد يكون الرجل شاعرا ولا يحسن النظم ، وقد يكون ناظما وليس في نظمه شعر - وإن كان النظم يزيد الشعر طلاوة ووقعا في النفس . فالنظم هو القالب الذى يسبك فيه الشعر . وأما الشعر بأعم معانيه فيصعب الاختصار في تعريفه ، لما ينطوى تحته من أساليب التعبير وتأثيره في النفس ، مما لا يستطيع أن يؤثر تأثيره الكلام المرسل . والفرق بينهما أننا نعبر بالكلام المرسل عما نشاهده أو نستنتجه من أعمال الحياة بالقياس أو البرهان ، وأما الشعر فنعبر به عن شعورنا بالانفعالات النفسية بلا قياس ولا برهان . فالكلام المرسل « لفة العقل » ، والشعر « لفة النفس أو القلب » . وقال بعضهم : « الشعر صور ظاهرة لحقائق غير ظاهرة »

ولذلك فالشعر قديم لم تخل منه أمة من أمم العالم قديما ولا حديثا وهو مرآة آداب الناس وصحيفة أخلاقهم وديوان أخبارهم وسجل عقائدهم . لأن الإنسان ارتقت نفسه وتحرك قلبه قبل أن يرتقى عقله وتتهذب مداركه ، فتكلم بالشعر قبل أن تكلم في العلم ، ولذلك كان أقدم أخبار الناس من قبيل الخيال ، وأقدم المحفوظ من مدونات الأمم كتب الشعر ، وقد دونوا فيها مشاعرهم الدينية والأدبية أو الحماسية أو غير ذلك من صور الانفعالات النفسية . فاللهابهاراة والرامايانة عند الهنود ، والالباذة والأوديسية عند اليونان ، والانيادة عند الرومان ، وبعض أسفار التوراة عند اليهود ، والشهنامه عند الفرس ، إنما هى شعر حفظت فيها عادات تلك الأمم وأخلاقهم وأخبارهم ، وخصوصا من حيث العبادة والآلهة . وذلك طبيعى ،

لان الشعر كما قلنا لغة النفس تعبر به عن انفعالها وتطلب به مشتهاها ،
لا تقدم على ذلك برهاناً ولا تطلب دليلاً . والدين أكثر أعمالها حاجة الى
التسليم والايمان العاطفى القلبى

الشعر العبرانى :

والشعوب السامية أكثر الأمم اعراقاً فى عالم الخيال ، ولذلك كانوا اميل
الناس الى اعتقاد التوحيد والتدين بما لا يقع تحت الحواس ، ولهذا السبب
ايضا كانوا اقرب الناس طبعاً الى التصورات الشعرية ، وترى ذلك واضحاً
فيما خلفوه من الآثار الشعرية . وأقدم آثار الساميين من هذا القبيل
التوراة ، وقد وجدوا التصورات الشعرية فى أقدم أسفارها . فما كلام
« لأمك » لأمرائيه « عادة » و « صلة » فى سفر التكوين (ص ٢٣٥٤) الا
جزء من نشيد ضاع ولم يبق منه الا مطلعته ، وفى أصله العبرانى ما يدل على
أنه شعر موزون ومقفى . فهو أقدم منظومات العبرانيين ، بل أقدم الشعر
المقفى فى العالم على الإطلاق

وفى التوراة أمثلة كثيرة من التصور الشعرى ، كقول يشوع لموسى لما سمع
جلبة الشعب عند نزول موسى من الجبل ولوحا الشهادة معه (خروج ٣٢ :
١٧) : « صوت حرب فى المحلة » فقال موسى : « ليس ذلك صياح ظفر
ولا صياح هزيمة ، بل صوت غناء أنا سامع » . والمظنون أن هذه الفقرة
بيت قديم تمثل به موسى فى تلك الحال . وقس عليه

وهناك أسفار كلها شعر ، كسفر أيوب ويقال أن أصله عربى ، وسفر
أشعيا ومزامير داود وغيرها مما هو مشهور . وقد بلغ الشعر العبرانى
أسمى درجاته فى أيام سليمان الحكيم ، لاستتباب الأمن وسعة الملك ورخاء
العيش ، وهو العصر الذهبى عند اليهود مثل عصر المأمون عند العرب . وكان
سليمان نفسه حكيماً وشاعراً كما كان المأمون أيضاً

الشعر العربى :

والعرب كالعبرانيين فى استعدادهم الفطرى لقرض الشعر والاستغراق
فى عالم الخيال لأنهم ساميون مثلهم ، واللغة العربية أكثر استعداداً للتعبير
الشعرى من العبرانية لما فيها من المترادف والمتوارد وأساليب المعانى
والبيان . وإذا اعتبرنا الاقليم والبيئة رأينا العرب أولى بالتصوير الشعرى
من اليهود ، نظراً لانطلاقهم فى الصحارى واستقلالهم فى أحكامهم وأفكارهم
وسائر أحوالهم . ولذلك كان شعرهم أكثره من قبيل الحماسة والفروسية ،
وأما اليهود فالدل والانكسار والتدين هى الصفات المميزة لأشعارهم

على أن الغالب في الشعر أن يكون منظوماً ، وإن اختلفت الأمم في كيفية نظمه ، فاكتمى بعضهم أن يكون موزوناً غير مقفى ، والبعض الآخر مقفى غير موزون ، أو مقفى وموزوناً معاً . والعرب يشترطون في شعرهم الوزن والتقافية والابرا . ففد كان السريان القاء ينظمون بلا قافية ، أى بلا التزام قافية واحدة ، كأفرا السريان واسحق الانطاكى وغيرهما (١) . والبرانيون لم يكونوا يشترطون هذا ولا ذاك ، وربما اشترطوا القافية دون الوزن - ولذلك لما سمعوا آيات القرآن ، بما فيها من التصور الشعرى الدينى مع التزام القافية ، قالوا : هذا شعر ، بالقياس على الشعر فى لسانهم

ولا ريب أن للوزن والقافية رنة تزيد المعنى الشعرى تأثيراً فى النفس ، لا انها هى تجعله شعراً . فالخطابة تؤثر فى النفوس وتهيج العواطف ، وكلامها غير موزون ولا مقفى ، وهى من قبيل التصورات الشعرية . وسياتى الكلام عليها

كيف توصلوا للنظم :

فالتصورات الشعرية فطرية فى العرب ، أما النظم فحدث عندهم . وربما صاغوا الشعر أولاً بعبارات قصيرة تحفظ وتنقل على سبيل الأمثال الحكمية ونحوها . والظاهر أنهم قضا أجيالاً والنظم عندهم على سبيل الأمثال ، حتى اتفق لبعضهم وهو يقول المثل أنه جعله شطرين مسجوعين فى مثل واحد أو مثليين متآلفين ، فرأى فى ذلك رنة فترنم به وأخذ عنه الناس وجعلوا يغنونه فى حدودهم وانشادهم وراء أبهام - والغناء لسان طبيعى - فأعجبهم رنة القافية والوزن ، فزادوا شطراً أو شطرين أو أكثر على قافية واحدة ، وهو الرجز فى أبسط أحواله . وظلوا دهرًا طويلاً يقول شاعرهم من الرجز البيتين أو الثلاثة إذا هاجت فيه قريحة الشعر لمفاخرة أو هجاء أو منافرة ، وكانوا كلما نبغ فيهم نابغة أدخل فى النظم تحسینا . وقد ذكروا ممن حسنوا نظم الرجز العجاج والأغلب العجلى (٢) ولم يعينوا زمنه

٧ أما القصيد فأشهر من أطلق سراحه امرؤ القيس أمام الشعراء وخاله المهلهل (٣) من أهل القرن الخامس للميلاد . فالمهلهل يقولون أنه أول من

(١) شعراء السريان ١ (٢) المزهري ٢٤٣ ج ١

(٣) فى الأصل حده ، وصحتها خاله ، جاء فى « الشعر والشعراء » (نشر الشيخ أحمد محمد شاکر ، القاهرة ١٩٤٧) ح ١ ص ٢٥٦ : « وهو خال امرئ القيس وجد عمرو بن كلثوم أبو أمه لیلی »

قصده القصائد ، وامرؤ القيس أول من اطلأها وتفنن في نظمها وفتح الشعر وبكى ووصف ، وهو أول من شبه الخيل بالعصا والقوة والسباع والظباء (١) (*) وأول من رقق النسيب وغير ذلك ، ولعله تنبه لهذا التفنن في أثناء أسفاره في بلاد الروم فسمع أشعارهم أو أشعار اليونان ، والنبية تنفتق قريحته بالاختلاط ، فزاد اختباره فأدخل في الشعر ما أدخله . وكان الشعراء الجاهليون قلما يدخلون بلاد الروم ، وإنما كانوا يقفون على الحدود في اللقاء عند بنى غسان أو في الحيرة عند بنى لخم المناذرة الا قليلا منهم

فالعرب مطبوعون على الشعر (١) لأنهم ساميون أهل خيال من فطرتهم (٢) لأنهم سكنوا البادية وتعودوا الحرية والاستقلال (٣) لأن شؤنهم البدوية قضت بينهم بالتنازع والتنافر والتفاخر مما يشحذ الأذهان ويستحث البداهة (٤) لأن لغتهم تساعدهم على النظم

والعرب أمة قديمة ولذلك فلا بد أن تكون قد نظمت الشعر من قديم الزمان ، والحال أن أقدم ما وصل إلينا من أشعارهم لا يتجاوز القرن الثاني قبل الهجرة ، فهل كان العرب قبل ذلك ينظمون ؟

الغالب في اعتقادنا أنهم نظموا كما نظم العبرانيون ، ولا يبعد أن يكون سفر أيوب من بقايا شعرهم القديم ، وقد حفظ في العبرانية وضاع أصله العربي . ولو لم يحفظ في العبرانية لضاع كما ضاع غيره من منظومات العرب ، لجهلهم الكتابة ولاقطاعهم عن الأمم التي كانت تعرفها في ذلك العهد

كثرة شعر العرب :

على أننا نكتفي في الاستدلال على كثرة ما نظمته العرب باعتبار ما وصل إلينا من أشعارهم في نهضتهم الأخيرة قبل الاسلام ، فقد نظموا في قرن واحد أو قرنين ما لم يجتمع عند أمم العالم المتمدن في عدة قرون ، وخصوصا في العصر الجاهلي . فاليأذة هوميروس وأوديسيته هما معظم شعر جاهلية اليونان ولا يزيد عدد أبياتهما على ٣٠٠٠ بيت ، وكذلك مهاباراتة الهنود ٢٠٠٠ بيت ورماياتهم ٤٨٠٠ بيت (١) . وأما العرب فيؤخذ مما بلغنا من أخبارهم عما نظموه في نهضتهم الأخيرة قبل الاسلام أنه يربو على أضعاف

(١) الشعر والشعراء ٥٢

(*) النص من ابن قتيبة : « قال أبو عبيدة معمر بن المثنى : يقول من فضله : انه أول من فتح الشعر واستوقف ، وبكى في النمن ، ووصف ما فيها ، ثم قال : دع ذا رغبة في النسبة ، فتيقوا أثره ، وهو أول من شبه الخيل بالعصا والقوة والسباع والظباء والطيور ، فتيقوا الشعراء على تشبيهها بهذه الأوصاف » ح ١ ص ٧٦ . والقوة - بفتح اللام وكسرها - العقاب السرعة الخفيفة الاختطاف . لسان العرب

أضعاف ذلك . فهم يعدون منظوماتهم بالقصائد وليس بالأبيات ، فقد ذكروا أن أبا تمام صاحب الحماسة كان يحفظ من أشعار العرب (الجاهلية) ١٤٠٠ ر . . . أرجوزة غير القصائد والمقاطع (١) وكان حماد الراوية يحفظ ٢٧٠٠ ر . . . قصيدة (٢) على كل حرف من حروف الهجاء ألف قصيدة . وكان الأصمعي يحفظ ١٦٠٠ ر . . . أرجوزة (٣) وكان أبو ضمضم يروى أشعارا لمائة شاعر كل منهم اسمه عمرو (٤) ومع ما يظن في ذلك من المبالغة فإنه يدل على كثرة ما خلفه العرب من المنظومات . وخصوصا إذا اعتبرنا أن ما وصل الى رواة الشعر في الاسلام إنما هو بعض أشعار الجاهلية لأن كثيرين من رواة الشعر الجاهلي قتلوا في الفتوح الاسلامية فضاع ما كان في محفوظهم من الأشعار - قال أبو عمرو بن العلاء : « ما انتهى اليكم مما قالت العرب الا أقله ، ولو جاءكم وأفرا لجاءكم علم وشعر كثير » (٥)

وزد على ذلك أن العرب نظموا الشعر الكثير وأبدعوا فيه ، وهم يكادون يكونون فوزى لا دولة لهم ولا جامعة ولا دين ولا شيء مما حمل اليونان أو الهنود أو غيرهم على التنظيم وإنما اندفعوا اليه بفطرتهم . ولولا ذلك لتأخروا في التنظيم حتى قامت دولتهم ونضجت قرائحهم ، كما حدث للرومانين فإن الشعر لم ينظم بلسانهم الا بعد تأسيس دولتهم ببضعة قرون . ولم يبلغ الشعر اللاتيني عصره الذهبي الا في أيام أوغسطس وطيباريوس نحو القرن الثامن من تأسيس رومية (القرن الأول للميلاد) ثم أخذ في التقهقر . ويقال نحو ذلك في دول أوربا الحالية ، فإن الشعر لم ينضج عندهم الا بعد نشوء دولهم وتقدمهم في العلم والأدب

اقسام الشعر :

والشعر من حيث موضوعه ينقسم الى قسمين كبيرين : الأول ما يعبر به الشاعرون عن عواطفه وعواطف ذويهم . والثاني ما يصف به أحوال الآخرين . والأول هو الذي يسميه الافرنج Lyric أى الغنائى أو الموسيقى من Lyre أى العود ، ويدخل فيه حكاية كل ما تشعر به النفس من الحب والشوق والوجد والرثاء والحماسة والفخر والانتقام . أو ما علمته بطول الاختبار والتعقل كالأمثال والحكم ونحوها . والثاني يشمل سائر شلروب الشعر ، ويدخل فيه الشعر القصصى الذى يسميه الافرنج Epic وهو عبارة عن نظم الحوادث والوقائع شعرا ، والشعر الوصفى والتمثلى Drama . فأشعار الأمم السامية أكثرها من النوع الأول ، وخصوصا العبرانيون فإنهم أرثى أهل الأرض وأبكاهم وأشكاهم . فالزامير والمزائى ونحوها من قبيل العواطف ،

(١) ابن خلكان ١٢١ ج ١ (٢) النجوم الزاهرة ٤٢٠ ج ١
(٣) ابن خلكان ١٢١ ج ١ وطبقات الادباء ١٥١ (٤) الشعر والشعراء ٤
(٥) الزهر ٢٣٧ ج ٢

والأمثال الجامعة من قبيل الحكم . ويقال بالاجمال ان الخيال الشعري منصرف في العبرانيين الى الاحساس الدينى كالتعبد والتشكوى والاستسلام

ويقال نحو ذلك في العرب ، غير أن الخيال الشعري فيهم منصرف الى ما تدعو اليه احوالهم من المفارقة والحماسة والتشبيب وذكر السيف والفرس . وقد عندوا من أشعارهم بضعة عشر نوعا معظمها من قبيل الشعر الغنائي ، الذى يعبر به عن العواطف ، كالغزل والفخر والمدح والهجاء والعتاب والاعتذار والزهد والرثاء والتهانى والوعد والتحذير والحماسة ، وبعضها من قبيل الوصف كالزهريرات والخمريات ، وبعضها من قبيل العظة كالآداب والحكم . ولو تدبرت معانيها لرأيتها ترجع الى التعبير عن عواطف الشاعر أو عواطف قبيلته

وأما الشعر الوصفى أو القصصى فلا نقول انه معدوم في العربية ولكنه قليل ، وخصوصا في الجاهلية ، وأكثر ما عثروا عليه منه لا يخرج عن وصف بعض الأدوات أو الحيوانات أو بعض الوقائع القصيرة . وأما الشعر القصصى - على نحو ما فى الياذة هو مبروس أو شاهنامة الفردوسى - فلا وجود له عندهم . ولا يدل ذلك على أنهم لم ينظموا مثلها ، بل يغلب على ظننا أنهم نظموا كثيرا من أخبار حروبهم المشهورة بين قبائلهم ، ونظرا لعدم تدوينها ضاعت من محفوظهم الا قطعا بقيت الى زمن تدوين الشعر فى الاسلام ، تقتصر القصيدة منها على وصف وقعة أو بعض وقعة من تلك الحروب . والمقام لايساعدنا على زيادة البحث

وكان الشعر فطريا فى العرب ، ينذر فيهم من لا يستطيعه حتى المجانين والصوص (١) ناهيك بالنساء فقد نبغ منهن جماعة كبيرة من الشواعر . ومن لم يستطع الشعر لم يفته الاجتماع فى المجالس العامة لسماعه أو تناشده . وكثيرا ما كانت النساء يعقدن المجالس لتناشد الأشعار وذكر الشعراء ونقد أقوالهم وبيان ما يتفاضل به بعضهم على بعض (٢) وكان أكثرهم ينظمون الشعر وهم أطفال لم ينظروا فى الأدب أو الشعر (٣) فمن شب ولم تنفقت قريحته عدوا ذلك نقصا فيه وعيبا على أهله

منزلة الشعر :

فكانوا يثرون بذلك غيرة ابنائهم على اتقان الشعر ويحرضونهم على نظمهم . لأن الشعراء كانوا حماة الأعراض وحفظة الآثار ونقلة الأخبار ، وربما فضلوا نبوغ الشاعر فيهم على نبوغ الفارس ، ولذلك كانوا اذا نبغ فيهم شاعر من قبيلة أتت القبائل الاخرى فهنأتها به وصنعت الأطعمة واجتمع النساء يلعبن

(١) البيان والتبيين ١٦٤ ج ٢ (٢) الاغانى ١٥٠ ج ١ (٣) ابن خلكان ٢٣ ج ٢

بالمزاهر كما يصنعون في الأعراس ، ويتباشر الرجال والولدان لاعتقادهم أنه حماية لأعراضهم وذبح عن أحسابهم وتخليد لمآثرهم وإشادة لذكورهم (١) وفي الواقع أن ما بقي لنا من أخبار عرب الجاهلية وآدابهم وعلومهم وأخلاقهم إنما هو منقول عن أشعارهم

فمن شعرهم استخرج الناس أخبار أيامهم وحروبهم . ومنه ألف السجستاني « كتاب المعمرين » . ومنه استخرجوا أحوال الشعراء المتقدمين وألفوا الكتب كابن قتيبة وغيره . ومن شعرهم استخرجوا وصف البلاد والجبال والأودية والوهاد . ومنه ألفوا ما ألفوه في الحيوان والنبات ، ككتاب الحيوان للجاحظ ، والنبات لأبي حنيفة الدينوري (٢) . ومن أشعارهم استطلعوا أديانهم في أيام جاهليتهم ، وقس على ذلك كل ما عرفوه من عاداتهم وآدابهم في الضيافة والفروسية والأعراس والمآتم وغيرها

وقد ذكروا شعراء حموا أعراض قبائلهم ببلاغة شعرهم ، كما حمى زياد الأعجم (٣) قبيلة عبد القيس من لسان الفرزدق، وكما حمى عتبة بن ربيعة بنى قصي ، وغيرهما كثيرون (٤)

المعلقات :

وقد بلغ من احترام العرب للشعر والشعراء أنهم عمدوا إلى سبع قصائد اختاروها من الشعر القديم وكتبوها بماء الذهب في القبايطي (التيل المصري) بشكل الدرج الملتف وعلقوها في أستار الكعبة وهي المعلقات ، ولذلك يقال لها المذهبات أيضا ، كمذهبة امرئ القيس ومذهبة زهير (٥) وبعضهم يجعل المذهبات غير المعلقات . ونخبة أشعار الجاهلية ٩٩ قصيدة لتسعة وأربعين شاعرا تقسم إلى سبعة مجاميع كل مجموع سبع قصائد تعرف بلقب خاص وهي : المعلقات ، والمجمهرات ، والمنتقيات ، والمذهبات ، والمراثي ، والمشوبات ، والملحقات (٦) . وهي مجموعة في كتاب « جمهرة أشعار العرب » لأبي زيد الأنصاري

(١) الزهر ٢٣٦ ج ٢

(*) لم نثر على كتاب النبات لأبي حنيفة بن داود الدينوري التوفي في ٢٠ جمادى الأولى ٢٨٢/٤ يوليو ٨٩٥ ، ولكننا وجدنا قطعا منه في كتاب المفردات لابن البيطار وأمالى الزجاجي ، وقد تعرض له بالتقدم على بن حمزة البصري في كتابه « التنبيهات على أغلاط الرواة » ومن هذه القطع نستنتج أنه لم يكن كتابا في النبات خاصة على مثال كتاب الجاحظ عن الحيوان ، وإنما هو شرح لقوى لأسماء النباتات التي وردت في أشعار الشعراء

(**) هناك خلاف في اسمه ، فيقال أنه زياد بن سليمان ، ويقال زياد بن جابر مولى عبد القيس . انظر عنه : الأغاني، طبعة الساسي ، ح ١٤ ص ٩٨ - ١٠٥ (٢) بلوغ الأرب ١١ ج ٣ (٣) العقد الفريد ٩٣ ج ٣

(*) (**) أورد أبو زيد محمد بن أبي الخطاب القرشي في كتاب « جمهرة أشعار العرب » (بولاقي ١٣٠٨ هـ) بيان هذه الأنواع السبعة من الشعر الجاهلي ، ولكنه لم يفرق بين نوع ونوع ، وظهر أن تقسيم الشعر الجاهلي إلى سبعة أنواع في كل نوع سبعة شعراء تقسيم مقتعل ، وهو نفسه خالفه عند التطبيق فقال مثلا أن المعلقات سبع ثم ذكر ثمانية . انظر بيانها وأسماء أصحابها في فهرس ذلك الكتاب

تأثير الشعر :

أما تأثير الشعر في حماية الأعراض فسيببه ما فطر عليه العرب من الحماسة والخيال فيتأثرون بالكلام البليغ ، وربما أقامهم البيت الواحد وأقعدهم . ولذلك كانوا يخافون هجو الشعراء ويفتخرون بمدائحهم ، حتى عمر بن الخطاب فإنه كان إذا عرض عليه الحكم بين شاعرين كره أن يتعرض للشعراء واستشهد رجالا للفريقين مثل حسان بن ثابت وغيره (١) وقد اشترى أعراض المسلمين من الخطيئة بثلاثة آلاف درهم ليؤكد الحجة عليه (٢) وبلغ من شدة خوفهم الهجاء لئلا يبقى ذلك محفوظا في الأعقاب أنهم إذا أسروا الشاعر أخذوا عليه الموائيق . وربما شدوا لسانه بنسعة (٣) لئلا يهجوهم ، كما صنعوا بعبد يغوث بن وقاص المحاربى حين أسره بنو تميم يوم الكلاب . وهو الذى يقول :

أقول وقد شدوا لسانى بنسعة أمعشر تيم أطلقوا من لساني
وتضحك منى شيخة عبشمية كأن لم ترى قبلى أسيرا يمانيا (٢)

فكانوا يبذلون قصارى الجهد في أن يمدحهم الشعراء . ومن مدحوه ارتفعت منزلته وإذا كانت له بنات تزوجن ، كما فعل الأعشى الأكبر بالمطلق اذ مدحه الأعشى بقصيدة انشدتها في سوق عكاظ فاشتهر وخطبت بناته . وكما فعل مسكين الدارمي في انفاق الخمر السود بعد كسادها ببيتين وصف بهما مليحة عليها خمار أسود وهما :

قل للمليحة في الخمار الأسود ماذا أردت بناسك متعبد
قد كان شمر للصلاة ثيابه حتى قعدت له بباب المسجد

فرغب الناس في لبس الخمر السود فاشتروا منها ما كان عند ذلك التاجر (٤) وسيأتى باقى الكلام على تأثير الشعر في النفوس في كلامنا عن العصر الاسلامى

لقاب الشعراء :

وكان الشاعر يلقب بلفظ ورد في بعض أشعاره . فعوف بن سعد بن مالك لقب بالمرقش لقوله :

الدار قفر والرسوم كما رقص في ظهر الأديم قلم

(١) البيان والتبيين ١٧ ج ١

(٢) فوات الوفيات ٩٩ ج ١

(٣) النسعة - بكر النون وسكون السين - سر مضفور يجعل زماما للبعير وغيره . لسان العرب ٢٣٠/١٠

(٤) البيان والتبيين ١٧١ ج ٢ (٤) ابن خلكان ٤٤٦ ج ١

وجريـر بن عبد المسيح الضبعى لقب بالمتلمس لقوله :
فهذا أوان العرض حتى ذبابه زناـبـيره والأزرق المتلمس
وزياد بن معاوية الـذيـانـى لقب بالنايـفة لقوله :

وحلت فى بنى القـيـن بن جسر وقد نبغت لنا منهم شـؤـون
ويقال نحو ذلك فى سائر القبايهم ، كالمخرق وافنون وتابـط شرا واعصر
والمستوفر والأعسر وطرفة وذى الرمة والمزرد وعوف وجـران العود والعجـاج
وموسى الشهوات وابن قيس الرقيات وصريع الغوانى وغبار العسكر ومقبل
الريح وغيرهم (١) (٢)

وكانت قبائل العرب تتفاوت فى شاعريتها ، وأشعرها ربيعة ومنهم المهلهل
والمرقشان الأكبر والأصغر وطرفة بن العبد وعمرو بن قميئة والحارث بن
حلزة والمتلمس والأعشى والمسيب الضبى ، ثم انتقل الشعر الى قيس ومنهم
الناـبـغـتان وزهير بن أبى سلمى وربيعة وليد والخطيئة والشمـاخ وغيرهم . ثم
استقر الشعر فى تميم ومنهم أوس بن حجر شاعر مضر ويليهم هذيل
وغيرها . وكان فى حمير جماعة من الشعراء (٣) . ومن الغريب أن العرب
كانت تقرر لقرش بالتقدم عليها فى كل شـئ إلا الشعر فإنها كانت لا تقرر لها
به (٤) ، والظاهر أن اختلاط العرب بالأعاجم كان يفتق قرائحهم ويحملهم على
النظم ، ولذلك كان أكثر القبائل شاعرية أقربهم الى العراق ، وأشعرهم من
اختلط بالفرس ، وأشعر من كليهما من عاشر الفرس والروم

وبالجملة فقد كان الشعر شائعا فى العرب ، ولم تخل قبيلة من شاعر أو
أكثر يحمى ذمارها ويصف عواطفها ، وكان الشعر عندهم مستودع الأخبار
وخزانة الآداب والأخلاق ، ولذلك قيل : الشعر ديوان العرب . ومن قبيل
الشعر الأمثال ، فإنها مرآة العادات والأخلاق والآداب وقد استخرج الناس
كثيرا من آداب العرب الجاهلية من أمثالها

(١) لطائف المعارف ١٧

(٢) مخرق هو عمرو بن النضر

وافنون هو أفنون التقلبي

وتابـط شرا هو ثابت بن عـمـل

واعصر هو منبه بن سعد

والمستوفر هو مستوفر بن ربيعة

والمزرد هو مزرد بن ضرار أخو الشمـاخ

وعوف هو المعروف بعوف القوافي

وجـران العود ذهب اسمه إذ غلبت عليه هذه التسمية

والمعجـاج الراجز هو عبد الله بن ربيعة من بنى مالك بن سعد

وموسى الشهوات أو موسى شهوات هو موسى بن يسار مولى قرش

وابن قيس الرقيات هو عبيد الله بن قيس

وصريع الغوانى هو مسلم بن الوليد

(٣) بلوغ الأرب ١٣ ج ٢ (٤) الأغاني ٣٥ ج ١

٧ - الخطابة في الجاهلية

الخطابة تحتاج الى خيال وبلاغة ، ولذلك عبدناها من قبيل الشعر ، أو هي شعر منشور وهو شعر منظوم وإن كان لكل منهما موقف . فالخطابة تحتاج الى الحماسة ، ويطلب تأثيرها في أبناء عصر الفروسية وأصحاب النفوس الأبية طلاب الاستقلال والحرية ، مما لا يشترط في الشعر . ولذلك تشابهت جاهلية العرب وجاهلية اليونان من هذا الوجه ، لأن كليهما أهل شعر وخطابة وأهل إباء واستقلال . ولذلك أيضا كانت الخطابة رائجة عند الرومان ، مع تأخر الشعر عندهم ، ولنفس هذا السبب قصر العبرانيون في الخطابة مع تقدمهم في الشعر لقلية الدل والضعف على طباعهم ، فتحول خيالهم الشعري الى الشكوى والتضرع وانصرفت قرائحهم الى نظم المراثي والحكم أما العرب فقد قضى عليهم الاقليم بالحرية والحماسة ، وهم ذوو نفوس حساسة مثل سائر أهل الخيال الشعري ، فأصبح للبلاغة وقع شديد في نفوسهم ، فالعبارة البليغة قد تقعدهم أو تقيمهم بما تثيره في خواطرهم من النخوة . واقتضت المنازعات بينهم أن يتفاخروا ويتنافروا ، فاحتاجوا الى الخطابة في الاقتناع وتأليف الأحزاب ، وإن غلب في موضوعات خطبهم المفاخرة بالأحساب والآداب في المجالس والأندية العامة والخاصة . وكانوا يخطبون وعليهم العمائم وهم وقوف في أيديهم المخاصر ، ويعتمدون على الأرض بالقسي ويشيرون بالعصى والقنا ، وقد يخطبون وهم جلوس على رواحلهم (١) . ومما يدل على تشابه الشعر والخطابة أن الغالب في الشعراء أن يخطبوا ، والخطباء أن ينظموا ، فيكون الواحد شاعرا وخطيبا ، فإذا غلب عليه الشعر سموه شاعرا ، أو الخطابة سموه خطيبا . والقبائل التي كثر خطباؤها هي غالبا التي كثر شعراؤها . ومن أقوالهم في تاريخ الشعر والخطابة أن عبد القيس بعد محاربة اياد تفرقوا فرقتين ، ففرقة وقعت بعمان وشق عمان وفيهم خطباء العرب ، وفرقة وقعت الى البحرين وشق البحرين وهم من أشعر القبائل ، ولم يكونوا كذلك حين كانوا في سرّة البادية وفي معدن الفصاحة (٢) ويدل ذلك على ما قدمناه من نتائج احتكاك الأفكار عند الاختلاط بالأعاجم ، ولهذا السبب كثر الخطباء أيضا في اليمن لاختلاطهم بالفرس ، وكان الفرس أهل خطابة مثل العرب

موضوعات الخطب :

وكان العرب يخطبون بعبارة بليغة فصيحة ، وهم أميون لا يقرأون ولا يكتبون ، وإنما كانت الخطابة فيهم قريحة مثل الشعر ، وكانوا يدربون

(١) البيان والنبين ٢٠ج ٢ (٢) البيان والنبين ٤٢ و ١٣٩ج ١

فتيانهم عليها من حداثتهم (١) لاحتياجهم الى الخطباء في ايفاد الوفود مثل حاجتهم الى الشعراء في حفظ الأنساب والدفاع عن الأعراض . ولكنهم كانوا يقدمون الشاعر على الخطيب في الجاهلية ، فلما جاء الاسلام صار الخطيب مقدما لحاجتهم اليه في الاقناع وجمع كلمة الأحزاب . ولكن نظرا لحاجة العرب الى الخطباء في ارسال الوفود فقد كان خطيب القبيلة عندهم عبيدها وزعيمها ، وهو واحد يعدل قبيلة ولسان يعرب عن السنة

أما ايفاد الوفود فقد كان شائعا في تلك العصور ، فكانت دول الروم والهند والصين والفرس يتبادلون الوفود لمبادلة العلاقات أو للمفاخرة . ولم يكن للعرب دولة تستوفد من قبلها ، ولكن المناذرة ملوك العرب في العراق كانوا يذكرون فصاحة العرب بين يدي الأكاسرة ، وخصوصا كسرى انوشروان فكان يميل الى مشاهدتهم . فاتفق مرة أن النعمان خاطبه في ذلك فطلب اليه أن يريه واحدا منهم ، فاستقدم جماعة من خطباء العرب اختار من كل قبيلة اثنين أو ثلاثة هم في الحقيقة حكماؤهم ووجهائهم ، ومنهم أكثر ابن صيفي ، وحاجب بن زرارة من قبيلة تميم ، والحريث بن ظالم ، وقيس ابن مسعود من قبيلة بكر ، وخالد بن جعفر ، وعلقمة بن علاثة ، وعامر بن الطفيل من بني عامر وغيرهم . فقدموا على كسرى وخطب كل منهم بين يديه خطبا ذكره ابن عبد ربه مفصلا في الجزء الثالث من العقد الفريد

على أن عرب اليمن وشرقي جزيرة العرب كانوا يقدمون على كسرى للشكوى من عماله هناك ، وكان غيرهم من العرب يقدمون عليه بالهدايا من الخيل ونحوها على سبيل الاستجداء ، كما فعل أبو سفيان والد معاوية

وكانوا يقدمون على الأمراء من العرب وغيرهم ، كوفود حسان بن ثابت على النعمان بن المنذر بالحيرة وعلى آل جفنة في البلقاء . ووفود وجهاء قريش على سيف بن ذي يزن في اليمن بعد قتله الحبشة ، فقد وفدوا عليه للتهنئة بالنصر وكان في جملة خطباء ذلك الوفد عبد المطلب جد النبي (صلعم) . ومن هذا القبيل وفود القبائل على النبي بعد أن استتب له الأمر ، فقد جاءه من كل قبيلة وجهائها وخيرة بلغائها لاعتناق الاسلام أو للاستفهام أو غير ذلك . ومن هذا القبيل وفود العرب على الخلفاء للتسليم والتهنئة ، كوفود جبلة بن الأيهم وعمرو بن معديكرب على عمر بن الخطاب ، ووفود أهل اليمامة على أبي بكر وغيرهم مما يطول شرحه

الخطباء :

وجملة القول أن الخطباء كانوا عديدين في النهضة الجاهلية كالشعراء ،

والغالب فيهم أن يكونوا أمراء القبائل أو وجهاءها أو حكماءها . وكان لكل قبيلة خطيب أو أكثر كما كان لها شاعر أو أكثر . وأشهر خطباء الجاهلية قس بن ساعدة من بنى أباد ، أدركه النبي فرآه في سوق عكاظ على جمل أحمر وهو يقول في خطابه : « أيها الناس ، اجتمعوا فاسمعوا وعوا : من عاش مات .. ومن مات فات .. وكل ما هو آت آت » (١)

ومنهم سحبان وائل الباهلى الذى يضرب المثل بفصاحته فيقال : « هو اخطب من سحبان وائل » . وكان اذا خطب يسيل عرقا ، ولا يعيد كلمة ولا يتوقف ولا يقعد حتى يفرغ . ومنهم جماعة كبيرة من حمير ، كدويد بن زيد ، وزهير بن خباب ، ومرثد الخير ، وغيرهم من سائر القبائل ، كالخارث بن كعب المدحجى ، وقيس بن زهير العيسى ، والربيع بن ضبيع الفزارى ، وذو الاصبع العدوانى ، واكثم بن صيفى التميمى ، وعمرو بن كلثوم التغلبى وكثيرين غيرهم

وكانوا يتخرون في خطبهم الألفاظ المألوفة الرقيقة المعانى . وكانت خطبهم على ضربين : الطوال والقصار ، والقصار أكثر عددا لانهم كانوا يفضلونها لسهولة حفظها . وكانوا لشدة عنايتهم بالخطب يتوارثونها ويتناقلونها في الألقاب ويسمونهم بأسماء خاصة ، كالعجوز اسم خطبة لال رقية ، والعذراء خطبة قيس بن خارجة ، والشوهاء خطبة سحبان وائل (٢)

٨ - مجالس الأدب وسوق عكاظ

كان العرب يعتقدون المجالس لمناشدة الأشعار ومبادلة الأخبار والمسامرة أو البحث في بعض الشؤون العامة ، وكانوا يسمون تلك المجالس الأندية ، ومنها نادى قريش ودار الندوة كانت يجوار الكعبة . على أنهم كانوا حيثما اجتمعوا على فراغ من العمل عمدوا الى المناشدة والمفاخرة والمسامرة ، وخصوصا في المواسم المعبر عنها بالأسواق

الأسواق :

والمراد بالسوق مكان يجتمع فيه أهل البلاد أو القرى في أوقات معينة ، يتبايعون ويتداولون ويتقايضون . ولا تزال أمثال هذه الأسواق تقام الى اليوم في القرى أو في البلاد البعيدة عن التمدن الحديث . على أن في بعض المدن الكبرى - كالقاهرة مثلا - أسواقا تنعقد في بعض أيام الأسبوع وتعرف بها ، كسوق السبت - أو السبئية - وسوق الثلاثاء أو الأربعاء ، فيجتمع اليها الناس من الضواحي للبيع والشراء

(١) البيان والتبيين ١١٦ ج ١

(٢) البيان والتبيين ١٢٣ ج ١

ومن هذه الأسواق ما ينعقد كل أسبوع ، ومنها ما لا ينعقد الا مرة في الشهر ، أو في السنة ، ومنها ما ينعقد مرة كل بضعة سنين . فان للهنود سوقا يقيمونها في هردوار على ضفاف الكنج كل سنة ويبلغ عدد المجتمعين هناك في الموسم ٣٠٠.٠٠٠ نفس . و يقيمون في ذلك المكان حجا مرة كل ١٢ سنة يبلغ عدد الحجاج اليه نحو مليون نفس ، وهو أكبر أسواق العالم . وكانت أمثال هذه الأسواق كثيرة في روسيا وبلاد الدولة العثمانية وفي ألمانيا وفرنسا وانجلترا وأمريكا . فقد كانت في روسيا سوق تقام في مدينة نوفكروود مرتين في السنة يبلغ عدد الذين يؤمنونها ١٢.٠٠٠ نفس يجتمعون هناك من سائر بلاد روسيا ومن شرقي أوربا ، ويقدرن قيمة ما يباع من البضائع في أسواق روسيا بنحو ١٢.٠٠٠.٠٠٠ روبل في العام . وقس على ذلك سائر الأسواق الكبرى

وقد كان كثير من أمثال هذه الأسواق في العالم القديم . لكن الاندام لا تتزاحم فيها الا اذا كان الغرض من الاجتماع حجا دينيا . فاذا اجتمع الناس في مكان الحج وتكاثروا احتاجوا الى من يبيعهم الأطعمة والأشربة وغيرها ، فتقام الأسواق لهذه الغاية — كذلك كان شأن العرب في سوق عكاظ وغيرها من أسواق الجاهلية

أسواق العرب :

كان للعرب في الجاهلية أسواق يقيمونها في أشهر السنة وينتقلون من احداها الى الأخرى ، يحضرها العرب من قرب منهم ومن بعد . فاذا فرغوا من سوق انتقلوا الى سواها ، فكانوا ينزلون دومة الجندل في أعالي نجد أول يوم من شهر ربيع الأول ، فيقيمون أسواقا للبيع والشراء والاخذ والعطاء ، ثم ينتقلون الى سوق هجر فيقيمون هناك شهرا ، ويرتحلون منها الى عمان فيقيمون سويقهم ، ثم يرتحلون الى حضرموت فعدن ، وبعضهم ينزل الى صنعاء فيقيمون أسواقهم ، ثم يرتحلون الى عكاظ في الأشهر الحرم . وكانت لهم أسواق آخر في صحار والشحر والمجنة وجباشة والمشقر وغيرها (١)

سوق عكاظ :

وأشهر أسواق العرب الجاهلية سوق عكاظ ، وهي مكان بين الطائف ونخلة . فكانت العرب اذا قصدت الحج أقامت بهذه السوق من أول ذي القعدة ، يبيعون ويشتررون الى عشرين منه ، ثم يتوجهون الى مكة فيقضون مناسك الحج ثم يعودون الى أوطانهم . وكان كل شريف انما يحضر سوق بلده ، الا عكاظ فانهم كانوا يتوافدون اليها من كل ناحية . ومن كان له أسير

سعى في فدائه هناك ، ومن كانت له حكومة ارتفع الى الذي يقوم بأمر الحكومة في أيام المواسم وهم أناس من تميم . ومن كان له ثار على أحد ولم يعرف مكانه طلبه في الموسم . أو أراد أحد أن يعمل عملا تعرفه العرب أو يستشهدا فيه عمله في عكاظ (١) أو أراد أن يفاخر أحدا على مشهد من الناس فاخره هناك (٢) . وكانوا يتفاخرون حتى في كبر المصائب - ذكروا أن الخنساء لما أصيبت بمصائبها المشهور أعلنت أنها أكبر العرب مصيبة ، فبلغ ذلك هند بنت عتبة وكانت تعتقد أنها أكبر مصيبة منها ، فأمرت بهودجها فسوم براءة وشهدت الموسم بعكاظ فقالت : « اقرنوا جملى بجمال الخنساء » ففعلوا . فلما دنت منها قالت لها الخنساء : « من أنت يا أخية ؟ » قالت : « أنا هند بنت عتبة ، أعظم العرب مصيبة . وقد بلغنى أنك تعاضمين العرب بمصيبتك ، فبم تعاضمينهم ؟ » فقالت الخنساء : « بعمر بن الشريد ، وصخر ، ومعاوية ابني عمرو . فبم تعاضمينهم أنت ؟ » قالت : « بأبى عتبة ابن ربيعة ، وعصى شيبه بن ربيعة ، وأخي الوليد » قالت الخنساء : « أو سواء هم عندك ؟ » ثم أنشدت تقول :

أبكى أبى عمرا يعين غزيرة قليل اذا نام الخلى هجودها
وصنوى لا أنسى معاوية الذى له من سراة الحرتين وفودها
وصخرا ، ومن ذا مثل صخر اذا غدا بسلهبة الأبطال قبا يقودها ؟
فذلك يا هند الرزية فاعلمى ونيران حربا حين شب وقودها

(١) الاغانى ١٢٤٢

(٢) عكاظ واحة صغيرة تقع بين الطائف ونخلة ، وكانت تقام فيها السوق المعروفة من أول ذي القعدة الى العشرين منه كما يقول المؤلف ، ثم تنفض سوقها وينتقل الناس الى سوق ذي الجبة التي تستمر حتى نهاية ذي القعدة ، ومنها الى ذي المجاز من أول ذي الحجة الى الثامن منه ، ومنها ينتقل الناس الى مكة لحضور موسم الحج وكان أكبر المواسم والاسواق في الجاهلية ، وكان العرب جميعا يحضرون سوق عكاظ ألا بنو تميم . وقد ضاعت أهمية هذه الاسواق بعد الاسلام ، نظرا لما لها الاسلام عنه من المفاخرة والمنافسة بين القبائل . على ان لعكاظ ذكرا في السيرة النبوية ، فعلى مقربة منها ، وعند واحة نخلة يقول المفسرون ان نفرا من الجن استمعوا للقرآن فأمنوا

وكان اجتماع الناس في هذه الاسواق يسمى الموسم ، ولذلك تسمى الاسواق مواسم ايضا ، ويضاف اليها موسم عرفة وهو آخرها من حيث الترتيب الزمني واهمها جميعا . ولم يكن ما يجري في هذه الاسواق خيرا كله ، بل كانت مصدر شر كثير بسبب التفاخر والتنافس بين القبائل ، وتزاحم الصعاليك من كل ناحية ، حتى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الموسم يجمع رعاك الناس » . وقد انتقل لفظ موسم الى لغات شتى منها السنسكريتية ، ومنها جاء لفظ Monsoun الانجليزي بمعنى الرياح الموسمية التي تجلب الامطار

انظر : معجم البلدان لياقوت ، مادة عكاظ

الازرقى : تاريخ مكة (طبعة فستفلك) ص ١٢٩

البخارى : باب الحج

Wellhausen, Reste arabischen Heidentums (Berlin, 1897) p. 88 sqq.

G. Jacob, Altarabisches Beduinenleben (Berlin, 1897) p. 147-148

فقال هند تحيبيها :

أبكي عميد الأبطحين كليهما وحاميها من كل باغ يريد
أبى عتبة الخيرات ويحك فاعلمي وشيبة ، والحامى الذمار وليدها
أولئك آل المجد من آل غالب وفى العز منها حين ينمى عديدها (١)
فاذا كانت هذه حالهم فى المفاخرة بالمصائب ، فكيف بالأنساب والأحساب
والشجاعة والفضل ؟ ولذلك كثر الخصام هناك وانتشبت عدة مواقع لامحل
لذكرها هنا

وانما يهمنا فى هذا المقام أن العرب كانوا يفتنمون وقت الموسم واجتماع
القبائل ، ويقيمون مجالس البحث والمناشدة والمفاخرة ، فينشد الشعراء
ويخطب الخطباء فيختارون كبرا من وجهائهم يجعلونه حكما فيما يختلفون
فيه . وكان النابغة الذبياني اذا أتى عكاظ فى الموسم ضربوا له قبة حمراء
من آدم ، وتأتيه الشعراء فتعرض عليه أشعارها (٢) ليحكم فيها . ويقال أنهم
كانوا اذا أقرؤا على فضل قصيدة علقوها هناك أو فى الكعبة ، ومنها المعلقات
السبع

وشأن العرب فى ذلك مثل شأن اليونان القدماء فى الجمناسيوم ، وهى أبنية
كانوا يجتمعون فيها للألعاب البدنية ، وفيهم الفلاسفة والعلماء فكانوا
يفتنمون فرصة وجودهم هناك ويتباحثون ويتناظرون ويتنافرون ، كما كان
يفعل العرب فى عكاظ . ولا يخفى ما فى ذلك من تمحيص الحقائق واستحثاث
القرائح ، فضلا عما كان يترتب على ذلك الاجتماع من تنقيح اللغة ونموها .
فان قريشا كانوا يسمعون لغات القبائل فى أثناء تلك الاجتماعات ، فما
استحسنوه من لغاتهم تكلموا به ، فصاروا أفصح العرب وخلصت لغتهم من
مستبشع اللغات ومستقبح الألفاظ ، كالشكشة والكسكسة والعننة
والفخفخة والوكم والوهم والمعجبة والاستنطاء والشنشة ، وغير ذلك من
العيوب فى لغات الأمم الأخرى (٣)

٩ - الأنساب فى الجاهلية

الأنساب :

كان للأنساب فى عصور الجاهلية عند الأمم القديمة شأن كبير ، وكان
للناس عناية عظيمة فى حفظ أنسابهم للتناصر على الأعداء أو التفاخر بالآباء .
وقد بالغ اليونان فى ذلك حتى حفظوا أنساب آلهتهم وكيفية تسلسلها بعضها

(١) الاغانى ٢٥ ج ٤

(٢) المزهرة ١٠٩ ج ١

(٣) الشعر والشعراء ١٩٧

من بعض ، ثم نسبوا أنفسهم إليها ، فلم يكن في جاهلية اليونان أسرة كبيرة من الاشراف ورجال السلطة الا وحبل نسبها يتصل ببعض تلك الالهة . وقد نظم بعضهم الأشعار للتفاخر بذلك قبل المسيح ببضعة قرون . وكذلك كان الرومان في أقدم أجيالهم ، فالطبقة التي تعرف عندهم بالبطارقة Patricii كانوا يدعون الانتساب الى آباء أعلى طبقة من البشر . ومن هذا القبيل انتساب اليهود الى الآباء الأولين والأنبياء وافتخارهم بذلك على سائر الأمم . وهم يمتازون في هذا عن اليونان والرومان بأنهم يرجعون جميعا الى أب واحد - وهذا أيضا من قبيل ميلهم الفطري الى التوحيد مثل سائر الأمم السامية

نسب العرب :

والعرب من حيث أنسابهم فرع من العبرانيين ، لأن العدنانيين منهم يرجعون في أصل آبائهم الأولين الى اسماعيل بن ابراهيم ، والقحطانيين ينتسبون الى يقطان بن عابر ، وقد زادت عناية العرب في الأنساب رغبة في التناصر على الغرباء أو بعضهم على بعض . وقد رتبت أنساب العرب في ست مراتب أو طبقات ، أولها الشعب ثم القبيلة فالعمارة فالبطن فالخذ فالفصيلة . فالشعب النسب الأبعد مثل عدنان وقحطان ، ثم القبيلة وهي ما انقسمت فيها أنساب الشعب مثل ربيعة ومضر ، ثم العمارة وهي ما انقسمت فيها أنساب القبائل مثل قريش وكنانة ، ثم البطن وهو ما انقسمت فيه أنساب العمارة مثل بنى عبد مناف وبنى مخزوم ، ثم الفخذ وهو ما انقسمت فيه أنساب البطن مثل بنى هاشم وبنى أمية ، ثم الفصيلة مثل بنى أبي طالب وبنى العباس (١)

وبالغ العرب في الرجوع الى الاجداد حتى رجعوا بأسماء المدن الى أسماء بعض أجدادهم ، والغالب أن ينتهى النسب بأحد آباء التوراة ، فاذا سئل أحدهم مثلاً عن الاندلس من بناها قال : « بناها اندلس بن يافث بن نوح » (٢) وكان النسابون يحفظون أسماء القبائل وما يتفرع منها حفظاً دقيقاً ، فاذا عرض لهم رجل فقال : أنا من بنى تميم مثلاً فانسينى ، فانه يبدأ من قبيلة تميم وما تفرع منها من العمائر والبطون والافخاذ حتى ينتهى الى الفصيلة ، ومنها الى والد السائل أو اليه هو نفسه

وكثر النسابون في الجاهلية ، ولم تخل قبيلة أو عمارة أو بطن من نسبة أو أكثر ، ومن أشهرهم دغفل السدوسى من بنى شيبان ، وعمرة أبو ضمضم وابن لسان الحمرة من بنى تيمم اللات ، وزيد بن الكيس النمرى والنخار بن

أوس القضاى وصعصعة بن صوحان وعبد الله بن عبد الحجر بن عبد المدان وغيرهم (١) وظل النسب محفوظا في صدر الاسلام ، واشتهر كثير من النسابين ، فلما آلت الدولة الى الموالى والمصطنعين صار الناس ينتسبون الى مواليتهم ومصطنعتهم

١٠ - التاريخ

لم يكن عند عرب الجاهلية تاريخ من قبيل ما نفهمه من هذه اللفظة اليوم ، ولكنهم كانوا يتناقلون اخبارا متفرقة بعضها حدث في بلادهم والبعض الآخر نقله اليهم الذين عاشروهم من الأمم الأخرى . فمن امثال اخبارهم حروب القبائل المعروفة بأيام العرب ، وقصة سد مأرب ، واستيلاء ابي كرب تبار أسعد على اليمن ، وبعض من خلفه ، وملك ذى نواس ، وقصة أصحاب الأخدود ، وفتح الحبشة لليمن ، وقصة أصحاب الفيل وقدمهم الكعبة ، وحرب ذى يزن الحميرى الى آخر ما انتهى اليه أمر الفرس في اليمن ، وقصة عمرو بن لحي وأصنام العرب ، وحكاية جرهم ودفن زمزم وتاريخ السكبة الى أيام قصي بن كلاب ، وولاية الحبح وأمر عامر بن الظرب ، ثم ما كان من غلب قصي على أمر مكة ، وقصة حلف المطيين وحلف الفضول ، وحفر بئر زمزم وحرب الفجار وحديث بنيان الكعبة . غير أخبار عاد وثمود وغيرهما من العرب البائدة ، وحكاية بلقيس وسليمان ونحوهما من أخبار التوراة ، وغير ذلك من الأخبار التي كان العرب يتناقلونها عند ظهور الاسلام

الخلاصة :

وجملة القول أن ما سميناه علوم العرب قبل الاسلام يبلغ الى بضعة عشر علما ، فلما جاء الاسلام أهمل بعضها كالكهانة والعيافة والقيافة ، وبقي بعضها عند أهله ونشأ ما يقوم مقامه في عصر الحضارة ، كالنجوم والأنواء ومهاب الرياح والطب والخيال ، وارتقى الباقي واتسع عما كان في الجاهلية ، كالشعر والخطابة والبلاغة ، وكان الاسلام مساعدا على ارتقائها بالقرآن الكريم

علوم العرب بعد الإسلام

نريد بها العلوم التي اشتمل بها المسلمون من أول الاسلام الى ابان التمدن الاسلامي ، وهي كثيرة يمكن حصرها في ثلاثة مجاميع :

(١) العلوم التي اقتضاها الاسلام ، وهي علوم القرآن والحديث والفقه واللغة والتاريخ ، ونسبها العلوم الاسلامية أو الآداب الاسلامية

(٢) العلوم التي كانت في الجاهلية وارتقت في الاسلام ، وهي الشعر والخطابة ، ونسبها الآداب الجاهلية أو الآداب العربية

(٣) العلوم التي نقلت الى العربية من اللغات الاخرى ، كالطب والهندسة والفلسفة والفلك وسائر العلوم الطبيعية والرياضية ، ونسبها العلوم الدخيلة أو الاجنبية

وقبل البحث في هذه العلوم وعلاقتها بالتمدن الاسلامي ، نمهد الكلام بمقدمات لابد من تدبرها قبل الخوض في الموضوع :

مقدمات تمهيدية :

١ - الاسلام والعلوم الاسلامية

كان العرب فيما ذكرناه من علومهم واخبارهم واطوارهم اذ جاءهم القرآن فيغتوا لما راوه من بلاغة أسلوبه على غير المؤلف عندهم . لأنه ليس من قبيل ما كانوا يعرفونه من نثر الكهان المسجع ولا نظم الشعراء المقفى الموزون وقد خالف كليهما .. وهو منشور مقفى على مخارج الأشعار والأسجاع ، فلا هو شعر ولا نثر ولا سجع ، وفيه من البلاغة وأساليب التعبير ما لم يكن له شبيه في لسانهم ، فسحروا بأسلوبه وبما حواه من الشرائع والأحكام والأخبار . فلما دانوا بالاسلام أصبح همهم تلاوته وتفهم أحكامه ، لأنه قاعدة الدين والدنيا وبه تتأيد السلطة والخلافة ، ثم أشكل عليهم بعض ما فيه واختلفوا في تفسيره فعمدوا الى ما اثر عن النبي (صلعم) من قول أو فعل أو استحسان أو استهجان يستوضحون بها ذلك الاشكال ، فأصبح همهم جمع الاحاديث ممن سمعها أو رواها عن سامعها بالاسناد المتسلسل ، قرأوا تبانيا في الروايات فاشتغلوا في التفريق بين صحيحها وفاسدها ، فرجعوا الى درس الاسانيد واستطلاع اخبار اصحاب الحديث ، فجرهم ذلك الى درس طبقات المحدثين والاحوال التي تناولوا تلك الاحاديث فيها

ولما قامت دولتهم أخذوا في ضرب الأموال على البلاد التي فتحوها أو غنموها ، وضرائبها تختلف شكلا ومقدارا باختلاف طريق الفتح ، بين أن يكون عنوة أو صلحا وأمانا أو قوة ، فبحثوا في تحقيق أخبار الفتوح والمغازي وتدوينها . ولما فسدت الأحكام في أيام بنى أمية ، أكثر العلماء من ذكر المواعظ وأيراد أخبار السلف من الصحابة ، وخصوصا الخلفاء الراشدين ، فاجتمع من ذلك تاريخ النبی والصحابة والتابعين

والنظر في أحكام القرآن والسنة لا بد فيه من فهم العبارة وتدبرها ، فنشأ من ذلك علم التفسير ، وباسناد نقله وروايته واختلاف القراء بقراءته تولد علم القراءات . وباسناد السنة الى صاحبها والتفريق بين طبقات الحديث والمحدثين تولدت علوم الحديث . ثم لا بد من استنباط هذه الأحكام من أصولها ، على وجه قانوني يفيد العلم بكيفية هذا الاستنباط ، وهو علم أصول الفقه ثم الفقه فالعقائد الايمانية ثم علم الكلام

ولما عمدوا الى تلاوة القرآن والحديث وتفسيرهما ، أشكل على غير العرب اعراجهما لأن ملكة اللغة غير راسخة فيهم ، فاضطروا الى تدوين اللغة وترتيب قواعدها وتعيين معاني الفاظها ، ولذلك كان أكثر المشتغلين بعلوم اللغة من الأعاجم . وتعيين معاني الألفاظ وضبط التلفظ بها دعاهم الى البحث عن لغة قريش التي كتب بها القرآن ، وقد رأيت أن مرجع التحقيق في ذلك الى الأشعار والأمثال ، فاشتغلوا في الأسفار الى بادية العرب وخاطبوا الأعراب ونقلوا أشعارهم وأقوالهم وأمثالهم ، ليدونوها ويرجعوا اليها في التحقيق . فراوا مشقة في فهم معاني أشعارهم وأمثالهم الا بالاطلاع على أنسابهم وآدابهم ، فلم يكن لهم بد من درس ذلك كله ، وهو ما يعبرون عنه بعلم الأدب . واختلفوا في فهم الأشعار ، ووجدوا في روايتها اختلافًا وفي بلاغتها تفاوتًا ، فعمدوا الى البحث في طبقات الشعراء وأماكنهم وأشعارهم وأخبار قبائلهم

وكان الراحلون في التقاط اللغة والشعر من أفواه العرب في مضاربهم يقفون على سائر علومهم ، كالنجوم والأنواء والخيال والأنساب وغيرها ، فلما عادوا لتدوين اللغة دونوا أيضا كثيرا من تلك العلوم ، ولذلك كان أصحاب هذه العلوم غالبا من علماء اللغة ، وعثروا أيضا على الفاظ وأشعار ينسدر ورودها فالفوا النوادر

وجملة القول أن ما اشتغل به المسلمون في صدر الاسلام من العلوم مرجعه الى القرآن ، فهو المحور الذي تدور عليه العلوم الأدبية واللسانية ، فضلا عن الدينية ، ولذلك سميناهم العلوم الاسلامية

٢ - العرب والقرآن والاسلام

كان الاسلام في اول امره نهضة عربية ، والمسلمون هم العرب . وكان اللفظان مترادفين ، فاذا قالوا العرب أرادوا المسلمين ، وبالعكس . ولأجل هذه الغاية أمر عمر بن الخطاب بإخراج غير المسلمين من جزيرة العرب ، وأصبح أهل الجزيرة كلهم مسلمين وهم عرب

وأساس الاسلام وقوامه القرآن ، ففي تأييده تأييد الاسلام أو العرب . وتمكن هذا الاعتقاد في الصحابة ، لما فازوا في فتوحهم وتغلبوا على دولتي الروم والفرس ، فنشأ في اعتقادهم أنه لا ينبغي أن يسود غير العرب ، ولا يتلى غير القرآن ، وشاع هذا الاعتقاد خصوصا في أيام بني أمية ، وقد بالفوا فيه حتى آل ذلك فيهم الى نقمة سائر الأمم عليهم

أما في الصدر الأول فقد كان الاعتقاد العام « أن الاسلام يهدم ما كان قبله » (١) فرسخ في الازهان أنه لا ينبغي أن ينظر في كتاب غير القرآن ، لأنه جاء ناسخا لكل كتاب قبله . وقد نهى الشرع الاسلامي يومئذ عن النظر في الكتب المنزلة غير القرآن ، لاتحاد الكلمة واجتماعها على الأخذ به . ومن الاحاديث المأثورة من هذا القبيل : « لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم ، وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم ، والهنا والهكم واحد » . ورأى النبي في يد عمر ورقة من التوراة فغضب حتى تبين الغضب في وجهه ثم قال : « ألم آتكم بها بيضاء نقية ؟ والله لو كان موسى حيا ما وسعه الا اتباعي » (٢) . ومن الاحاديث التي شاعت في ذلك العهد : « كتاب الله فيه خبر ما قبلكم ، ونبأ ما بعدكم ، وحكم ما بينكم » (٣)

فتوطدت العزائم على الاكتفاء به عن كل كتاب سواه ، ومحو ما كان قبله من كتب العلم في دولتي الروم والفرس ، كما حاولوا بعدئذ هدم ايوان كسرى وأهرام مصر وغيرها من آثار الدول السابقة - فلا غرو اذا قيل أن العرب أحرقوا مكتبة الاسكندرية أو غيرها من خزائن العلم القديم

٣ - احراق مكتبة الاسكندرية وغيرها

أنشأ البطالسة في القرن الثالث قبل الميلاد مكتبة في الاسكندرية جمعوا اليها كتب العلم من أقطار العالم المتتمدن في ذلك الحين ، وسيأتي خبرها . وتوالى على هذه المكتبة أحوال كثيرة في أيام الرومان الى الفتح الاسلامي ، وقد ضلعت بين احراق ونهب . والمؤرخون من العرب وغيرهم مختلفون في كيفية ضياعها ، فمنهم من ينسب احراقها الى عمرو بن العاص بأمر عمر

(١) النجوم الزاهرة ٣٧ ج ١ وروى ايضا : « الاسلام يجب ما قبله »

(٢) ابن خلدون ٣٦٤ ج ١ وكشف الظنون ٢٥ ج ١ وأبجد العلوم ١٠٩

(٣) المقد الفريد ١٥٨ ج ١

ابن الخطاب ، ويستدلون على ذلك ببعض النصوص العربية ، وأشهرها أقوال أبى الفرج اللطى وعبد اللطيف البغدادى والمقرىزى وحاجى خليفة . ومنهم من يجمل العرب عن ذلك ويطن في تلك الروايات ويضعفها . وقد كنا ممن جارى هذا الفريق في كتابنا « تاريخ مصر الحديث » منذ بضع عشرة سنة ، ثم عرض لنا بمطالعائنا المتواصلة في تاريخ الاسلام والتمدن الاسلامى ترجيح الرأى الاول ، لأسباب نحن باسطوها فيما يلى اجلاء للحقيقة فنقول :
 أولا : قد رأيت فيما تقدم رغبة العرب في صدر الاسلام في محو كل كتاب غير القرآن ، بالاستناد الى الاحاديث النبوية وتصريح مقدمى الصحابة ثانيا : جاء في تاريخ مختصر الدول لأبى الفرج اللطى عند كلامه عن فتح مصر على يد عمرو بن العاص ما نصه : « وعاش (يحيى الفراماطيقى) الى أن فتح عمرو بن العاص مدينة الاسكندرية ، ودخل على عمرو وقد عرف موضعه من العلوم فأكرمه عمرو ، وسمع من الفاظه الفلسفية التى لم تكن للعرب بها أنسة ما هاله ، ففتن به . وكان عمرو عاقلا حسن الاستماع صحيح الفكر ، فلازمه وكان لا يفارقه . ثم قال له يحيى يوما : « انك قد أحطت بحواصل الاسكندرية وختمت على كل الاصناف الموجودة بها ، فمالك به انتفاع فلا نعارضك فيه ، وما لا انتفاع لك به فنحن اولى به » . فقال له عمرو : « ما الذى تحتاج اليه ؟ » . قال : « كتب الحكمة التى في الخزائن الملوكية » . فقال عمرو : « هذا ما لا يمكننى أن آمر فيه الا بعد استئذان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب » . فكتب الى عمر وعرفه قول يحيى ، فورد عليه كتاب عمر يقول فيه : « .. وأما الكتب التى ذكرتها ، فإن كان فيها ما يوافق كتاب الله ففى كتاب الله عنه غنى ، وإن كان فيها ما يخالف كتاب الله فلا حاجة اليه ، فتقدم باعدامها » . فشرع عمرو بن العاص في تفريقها على حمامات الاسكندرية واحراقها في مواقدها ، فاستنفدت في مدة ستة أشهر . فاسمع ما جرى واعجب » (١)

وليس في نص هذه العبارة التباس ، ولكن الذين يجلون العرب عن احراق هذه المكتبة يطعنون في هذه الرواية وينسبون قائلها الى التعصب الدينى ، وفي جملتهم جماعة كبيرة من مؤرخى الافرنج ، وقد الفوا الرسائل والكتب في تجريحها . وخلاصة أقوالهم : ان أبا الفرج المذكور هو أول من نسب حريق مكتبة الاسكندرية الى عمرو بن العاص ، وانه انما فعل ذلك تعصبا للنصرانية وتحقيرا للاسلام ، وانه من أهل القرن السابع للهجرة ، وكان أبوه يهوديا وتنصر ، وشب أبو الفرج على النصرانية وارتقى في رتب الاكليروس

(١) كتاب مختصر الدول صفحة ١٨٠ من طبعة بوك (في أوكسفورد) سنة ١٦٦٣ م . واما النسخة المطبوعة في مطبعة الآباء اليسوعيين في بيروت فقد حدثت منها هذه الجملة كلها لسبب لا نعلمه

الى الأسقفية ، ثم ألف تاريخا في السريانية استخرجه من كتب يونانية وفارسية وعربية وسريانية ، واستخلص من هذا التاريخ كتابا في العربية سماه مختصر الدول - قالوا : « وهو أول كتاب ذكرت فيه هذه القصة ، وتناقلها عنه الافرنج الى هذه الغاية » . وان ما جاء في هذا الشأن من أقوال عبد اللطيف البغدادي والمقریزی وحاجی خليفة من مؤرخی المسلمين لا تعتبر مصادر مستقلة ، لأن المقریزی نقل عن عبد اللطيف حرفيا ، وحاجی خليفة لم يذكر مدينة الاسكندرية وانما أشار الى أن العرب في صدر الاسلام لم يعتنوا بشيء من العلوم الا بلغتهم وشريعتهم ، حتى قال : « ویروی انهم أحرقوا ما وجدوه من الكتب في فتوحات البلاد » . وان عبد اللطيف البغدادي ذكر حريق المكتبة في عرض كلامه عن عمود السواری بغير تحقیق . ویزعم أصحاب هذا الرأي أن مكتبة الاسكندرية أحرقتها الرومان قبل الاسلام ، وأنها لو أحرقتها العرب لذكرها مؤرخو المسلمين وخصوصا كتاب الفتوح والمغازي . اهـ

لا ننكر أن بعض هذه المكتبة احترق قبل الاسلام ، ولكن ذلك لا يمنع احتراق باقيها في الاسلام . أما النصوص التي وردت في هذا الشأن فليس أبو الفرج أول من رواها كما توهم بعضهم . فان عبد اللطيف البغدادي طاف مصر وكتب عن مشاهدتها وآثارها ، وذكر احراق العرب لهذه المكتبة قبل أن يولد أبو الفرج ببضع وعشرين سنة ، لأن أبا الفرج ولد سنة ١٢٢٦ م (٦٢٢ هـ) وعبد اللطيف زار مصر في أواخر القرن السادس للهجرة ، وهاك نص عبارته : « ورأيت أيضا حول عمود السواری من هذه الأعمدة بقايا صالحة ، بعضها صحيح وبعضها مكسور ، ويظهر من حالها أنها كانت مسقوفة ، والأعمدة تحمل السقف وعمود السواری عليه قبة هو حاملها . وأرى انه الرواق الذي كان يدرس فيه أرسطوطاليس وشيعته من بعده ، وأنه دار المعلم التي بناها الاسكندر حين بنى مدينته ، وفيها كانت خزانة الكتب التي أحرقتها عمرو بن العاص باذن عمر رضى الله عنه » (١)

نعم ان عبارة البغدادي مختصرة ، وقد جاءت عرضا ، لكنها تدل على وثوق قائلها بصحتها ، كأنه أخذها عن مصدر موثوق به ومعول عليه في ذلك العصر ، كالذي أخذ عنه أبو الفرج

أما أبو الفرج فقد أتم كتابه « مختصر الدول » في العربية في أواخر حياته (توفي سنة ٦٨٤ هـ) . وهو ليس مختصر تاريخه السرياني الا من حيث أخبار الفتح ، لأنه يزيد على النسخة السريانية بأخبار كثيرة ، عن الاسلام والمغول وتاريخ علوم الروم والعرب وآدابهم . وأما السرياني فهو عبارة عن

أخبار الفتح فقط ، فإغفال ذكر إحراق المكتبة فيه لا يدل على أنه دخل في النسخة العربية ، أو دسه فيه بعض المتأخرين كما توهم بعضهم ، وإنما ذكر في النسخة العربية لأنه يتعلق بآداب الروم والعرب التي أدخلها المؤلف في هذه النسخة كما تقدم

وقد تبين لنا بالبحث والتنقيب أن أبا الفرج المذكور نقل تلك الرواية عن مؤرخ مسلم توفي قبله بنحو أربعين سنة ، وهو جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف بن إبراهيم القفطي ، وزير حلب المعروف بالقاضي الأكرم ، ولد في قفط من صعيد مصر سنة ٥٦٥ هـ وتوفي في حلب سنة ٦٤٦ هـ . وللقاضى المذكور كتاب في تراجم الحكماء ، عثرنا على نسخة منه خطية في دار الكتب المصرية مكتوبة سنة ١١٩٧ هـ ، وقرأنا فيها في أثناء ترجمة يحيى النحوى كلاما في معنى كلام أبي الفرج وأكثر تفصيلا منه ، وفيه شيء عن تاريخ هذه المكتبة منذ انشائها - واليك نص قوله :

« وعاش (يحيى النحوى) الى أن فتح عمرو بن العاص مصر والاسكندرية ، ودخل على عمرو وقد عرف موضعه من العلم واعتقاده وما جرى له مع النصراني ، فأكرمه عمرو ورأى له موصعا ، وسمع كلامه في إبطال التثليث فأعجبه ، وسمع كلامه أيضا في انقضاء الدهر ففتن به ، وشاهد من حججه المنطقية وسمع من الفاظه الفلسفية التي لم يكن للعرب بها أنسة ما هاله . وكان عمرو عاقلا حسن الاستماع صحيح الفكر فلازمه وكاد لا يفارقه . ثم قال له يحيى يوما : « انك قد أحطت بحواصل الاسكندرية وختمت على كل الاجناس الموصوفة الموجودة بها ، فأما مالك به انتفاع فلا أعارضك فيه ، وأما مالا نفع لكم به فنحن أولى به ، فأمر بالافراج عنه » . فقال له عمرو : « وما الذي تحتاج اليه ؟ » قال : « كتب الحكمة في الخزائن الملوكية ، وقد أوقعت الحوطة عليها ونحن محتاجون اليها ولا نفع لكم بها » . فقال له : « ومن جمع هذه الكتب وما قصتها ؟ »

فقال له يحيى : « ان بطولوماوس فيلادلفوس من ملوك الاسكندرية لما ملك حبيب اليه العلم والعلماء ، وفحص عن كتب العلم وأمر بجمعها وأفرد لها خزائن ، فجمعت وولى أمرها رجلا يعرف بابن مرة (زميرة) وتقدم اليه بالاجتهاد في جمعها وتحصيلها والمبالغة في ائتمانها وترغيب تجارها ففعل ، واجتمع من ذلك في مدة خمسون ألف كتاب ومائة وعشرون كتابا . ولما علم الملك باجتماعها وتحقق عدتها قال لزميرة : أترى بقى في الارض من كتب العلم ما لم يكن عندنا ؟ فقال له زميرة : قد بقى في الدنيا شيء في السند والهند وفارس وجرجان والارمان وبابل والموصل وعند الروم .. فعجب

الملك من ذلك وقال له : دم على التحصيل . فلم يزل على ذلك الى أن مات .
وهذه الكتب لم تزل محروسة محفوظة يراعيها كل من يلي الأمر من الملوك
وأتباعهم الى وقتنا هذا »

فاستكثر عمرو ما ذكره يحيى وعجب منه وقال له : « لا يمكننى أن آمر
بأمر الا بعد استئذان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب » وكتب الى عمر وعرفه
بقول يحيى الذى ذكر واستأذنه ما الذى يصنعه فيها ، فورد عليه كتاب عمر
يقول فيه : « وأما الكتب التى ذكرتها فان كان فيها ما يوافق كتاب الله ففى
كتاب الله عنه غنى ، وان كان فيها ما يخالف كتاب الله تعالى فلا حاجة اليها ،
فتقدم بأعدادها » . فشرع عمرو بن العاص فى تفريقها على حمامات الاسكندرية
واحراقها فى مواقعها ، وذكرت عدة الحمامات يومئذ وانسيتهما ، فذكروا أنها
استنفدت فى مدة ستة أشهر . فاسمع ما جرى واعجب « (١) انتهى كلام
ابن القفطى

وبمقابلة هذه الفقرة بكلام أبى الفرج يتضح لك أن أبا الفرج نقل قول ابن
القفطى مختصرا . ولو قرأت الكتابين لعلمت أن أبا الفرج نقل كثيرا من
زياداته العلمية فى كتابه العربى عن كتاب ابن القفطى ، ككلامه عن ثيادوق
طبيب الحجاج (٢) فان العبارة منقولة عن تراجم الحكماء حرفيا

بقى علينا البحث فى المصدر الذى نقل عنه ابن القفطى ، والغالب أنه نفس
المصدر الذى نقل عنه عبد اللطيف البغدادي ، لأنهما كانا متعاصرين
وعبد اللطيف سابقه ، لأنه ولد سنة ٥٥٧ هـ وتوفى سنة ٦٢٩ هـ . ولكن لسوء
الحظ قد ضاعت تلك المصادر فى جملة ما ضاع من مؤلفات العرب . على أننا
إذا تدبرنا ما ذكره ابن النديم فى كتاب الفهرست عن أخبار الفلاسفة
الطبيعيين من حكاية انشاء مكتبة الاسكندرية ، يتضح لنا أن فى جملة المصادر
التي نقلت عنها تلك الرواية تاريخا لرجل اسمه اسحق الراهب ، كان يبحث
فى أخبار اليونان والرومان وآدابهما

ومن جملة ما نقلوه عنه خبر انشاء مكتبة الاسكندرية على يد زميرة ،
وهالك نصه : « ان بطولوماوس فيلادلفوس من ملوك الاسكندرية لما ملك
فحص عن كتب العلم وولى أمرها رجلا يعرف بزميرة ، فجمع من ذلك على
ما حكى أربعة وخمسين ألف كتاب ومائة وعشرين كتابا ، وقال له : أيها الملك
قد بقى فى الدنيا شئ كثير فى السند والهند وفارس وجرجان والارمان
وبابل والموصل وعند الروم » (٣) . وهى نفس عبارة ابن القفطى ، فالظاهر

(١) تراجم الحكماء (خط) (٢) مختصر الدول طبعة بيروت ١٩٤

(١) الفهرست ٢٣٩

انه اخذ انشاء المكتبة عن اسحق المذكور ، وأخذ حريقها عن سواه . ولولا ما نقله ابن النديم عن اسحق الراهب من أمر الفلاسفة لما علمنا بوجوده ، وظنناه لم يقل شيئا كما ظننا المسلمين لم يذكروا شيئا عن حريق مكتبة الاسكندرية على يد عمرو

فيؤخذ مما تقدم أن حكاية احراق مكتبة الاسكندرية لم يختلقها ابوالفرج لتعصب ديني ، ولا دسها أحد بعده ، بل هو نقلها عن ابن القفطي وهو قاض من قضاة المسلمين ، عالم بالفقه والحديث وعلوم القرآن واللغة والنحو والاصول والمنطق والنجوم والهندسة والتاريخ والجرح والتعديل ، وكان صدرا محتشما جمع من الكتب ما لا يوصف ، وكانوا يحملونها اليه من الافاق ، وكانت مكتبته تساوي خمسين ألف دينار ، ولم يكن يحب من الدنيا سواها ، وله حكايات غريبة عن غرامه بالكتب ، ولم يخلف ولدا فأوصى بمكتبته لناصر الدولة صاحب حلب . وله مؤلفات عديدة في التاريخ والنحو واللغة ، وفي جملتها « كتاب أخبار مصر من ابتدائها الى أيام صلاح الدين » . في ستة مجلدات (١) وكتاب « تراجم الحكماء » الذي نحن بصددده . وأن ابن القفطي وعبد اللطيف البغدادى أخذوا عن مصدر ضائع

وأما خلو كتب الفتح من ذكر هذه الحادثة فلا بد له من سبب ، والغالب أنهم ذكروها ثم حذفوا بعد نضج التمدن الاسلامى واشتغال المسلمين بالعلم ومعرفتهم قدر الكتب ، فاستبعدوا حدوث ذلك في عصر الخلفاء الراشدين فحذفوه ، أو لعل لذلك سببا آخر . وعلى أى حال فقد ترجح عندنا صدق رواية أبى الفرج

ثالثا : ورد في أماكن كثيرة من تواريخ المسلمين خبر احراق مكتبات فارس وغيرها على الاجمال ، وقد لخصها صاحب كشف الظنون في عرض كلامه عن علوم الاقدمين بقوله : « ان المسلمين لما فتحوا بلاد فارس وأصابوا من كتبهم ، كتب سعد بن أبى وقاص الى عمر بن الخطاب يستأذنه في شأنها وتنقيتها للمسلمين ، فكتب اليه عمر (رضه) أن « اطرحوها في الماء ، فان يكن ما فيها هدى فقد هدانا الله تعالى بأهدى منه ، وان يكن ضلالا فقد كفانا الله تعالى » فطرحوها في الماء أو في النار ، فذهبت علوم الفرس فيها » (٢)

وجاء في أثناء كلامه عن أهل الاسلام وعلومهم : « أنهم أحرقوا ما وجدوا من الكتب في فتوحات البلاد » (٣) ولا بد من أصل نقل صاحب كشف الظنون عنه ، وقد أشار ابن خلدون الى ذلك بقوله : « فأين علوم الفرس

(١) فوات الوفيات ٩٦ ج ٢ (٢) كشف الظنون ٤٤٦ ج ١

(٣) كشف الظنون ٢٥ ج ١

التي أمر عمر (رضه) بمحوها عند الفتح ؟ » (١)

رابعا : ان احراق الكتب كان شائعا في تلك العصور تشفيا من عدو أو نكاية فيه ، فكان اهل كل شيعة أو ملة يحرقون كتب غيرها ، كما فعل عبد الله بن طاهر بكتب فارسية كانت لا تزال باقية الى أيامه (سنة ٢١٣ هـ) من مؤلفات المجوس ، وقد عرضت عليه فلما تبين حقيقتها أمر بالقائها في الماء ، وبعث الى الاطراف ان من وجد شيئا من كتب المجوس فليعدمه (٢) ولما فتح هولاء التتري بغداد سنة ٦٥٦ هـ أمر بالقاء كتب العلم التي كانت في خزائنها بدجلة ، وكانت شيئا لا يعبر عنه ، مقابلة في زعمهم بما فعله المسلمون لأول الفتح بكتب الفرس وعلومهم (٣) وقال آخرون انه بنى بتلك الكتب اسطبلات الخيول وطوال المعالف عوضا عن اللبن (٤) والأرجح انه أغرقها انتقاما من أهل السنة

ولما فتح الافرنج طرابلس الشام في أثناء الحروب الصليبية أحرقوا مكتبتها بأمر الكونت برترام سنت جيل ، وكان قد دخل غرفة فيها نسخ كثيرة من القرآن ، فأمر باحراق المكتبة كلها وفيها على زعمهم ثلاثة ملايين مجلد (٥) وفعل الاسبان نحو ذلك بمكتبات الاندلس لما استخرجوها من أيدي المسلمين في أواخر القرن الخامس عشر

خامسا : ان أصحاب الأديان في تلك العصور كانوا يعدون هدم المعابد القديمة واحراق كتب أصحابها من قبيل السعى في تأييد الأديان الجديدة فأباطرة الروم حالما تنصروا أمروا بهدم هياكل الأوثان في مصر واحراقها بما فيها من الكتب وغيرها . وكان خلفاء المسلمين اذا أرادوا اضطهاد المعتزلة واهل الفلسفة أحرقوا كتبهم . والمعتزلة كثيرا ما كانوا يتجنبون ذلك تحت خطر القتل فيستترون ويجتمعون سرا والخلفاء يتعقبون آثارهم ويحرقون كتبهم . ومن أشهر الحوادث من هذا القبيل ما فعله السلطان محمود الغزنوي لما فتح الري وغيرها سنة ٤٢٠ هـ ، فانه قتل الباطنية ونفى المعتزلة وأحرق كتب الفلاسفة والاعتزال والنجامة (٦)

سادسا : في تاريخ الاسلام جماعة من أئمة المسلمين أحرقوا كتبهم من تلقاء أنفسهم ، منهم أحمد بن أبي الخوارى ، فانه لما فرغ من التعلم جلس للناس فخطر بقلبه يوما خاطر من قبل الحق فحمل كتبه الى شط الفرات

(١) ابن خلدون ٢٢ ج ١ (٢) Browne's Lit. Hist of Persia, 347

(٣) ابن خلدون ٥٣٧ ج ٣ و ٥٤٢ ج ٥ (٤) ابن الساعي ١٢٧

(٥) Gibbon's Roman Empire II, 505 وابن خلكان ١٢٨ ج ٢

(٦) ابن خلدون ٤٧٨ ج ٤

فجلس يبكي ساعة ثم قال : « نعم الدليل كنت لى على ربي ، فلما ظفرت بالمدلول فالاشتغال بالدليل محال » ففصل كتبه. وذكروا عن سفيان الثوري أنه أوصى بدفن كتبه ، وأن أبا عمرو بن العلاء كانت كتبه ملء بيت إلى السقف ثم تنسك وأحرقها (١)

فيرجع مما تقدم أن العرب أحرقوا ما عثروا عليه من كتب العلم القديمة في الصدر الأول تأييدا للإسلام ، فلما تأيد سلطانهم واشتغلوا بالعلوم عوضوا على العالم أضعاف ما أحرقوه ، كما ستري (٢)

٤ - الرومان والإسلام والعلم

من جملة ما يرمى به العرب من المطاعن « أنهم حتى في إبان تمدنهم لم يشتغلوا هم أنفسهم في العلم ، وإنما كان المشتغلون به الفرس وغيرهم من الأمم الخاضعة لسلطانهم ، بخلاف اليونان والرومان وغيرهما من دول التمدن القديم ، فقد كانوا هم أنفسهم يشتغلون بالعلم ، وقد وضعوا علوما تناقلها الناس عنهم ، وأما العرب فأكثر علومهم منقولة عن سواهم »

فأصحاب هذا القول يقابلون بين دولة الرومان ودولة العرب ، والصواب أن يقابلوا بين الرومان والإسلام . لأن العرب أسسوا دولة الإسلام كما أسس أهل رومية دولة الرومان ، ودخل في دين الإسلام أمم كثيرة اختلطوا بالعرب

(١) كشف الظنون ٤٠ ج ١ والبيان والتبيين ١٢٢ ج ١

(٢) لا تزال هذه المسألة موضع بحث العلماء ، وآخر من كتب فيها بارسونز Parsons في كتابه الكبير عن مكتبة الاسكندرية الذي صدر سنة ١٩٥٦ وذهب فيه إلى أن العرب أحرقوا المكتبة مستندا إلى عبارة القفطي الواردة في النص . ومن الثابت أن المكتبة احترقت قبل دخول العرب مصر بزمان طويل ، فقد ذكر يوليوس قيصر في كتابه عن « حرب الاسكندرية » أن المصريين لما حاصروهم في الاسكندرية اشتعلت النار في سفن الاسطول الراسية في المياه ، وامتدت إلى المباني المجاورة لها ومنها المكتبة فأحرقتها ، وقد أكد ذلك الأستاذ بول جرانديور Paul Groindor في كتابه « حرب الاسكندرية » الذي ألفه بالفرنسية ونشرته له جامعة القاهرة ، واستدل فيه بأقوال للمرسيلينوس ابيانوس وباولوس أوروذوس يؤكد أن المكتبة لم تكن موجودة على أيامهما . ثم أن علماء مصر في أواخر العصر البيزنطي يحدثوننا عن الكتب والمكتبات في مصر دون أن يسمروا إلى مكتبة الاسكندرية ، ومن هؤلاء اسطفانوس الملقب بالفيلسوف وداميانوس المعسروف بالبطرك دميان وغيرهما ، وقد روى ذلك بالتفصيل في الجزء الثاني من كتاب « مختصر تاريخ مصر » Précis de l'histoire de l'Egypte والشواهد فيه كثيرة جدا على أن مكتبة الاسكندرية كانت خالصة من الكتب قبل فتح العرب لمصر

وقد ذكر المؤلف أن الأصل في نسبة إحراق مكتبة الاسكندرية إلى عمرو بن العاص ترجع آخر الامر إلى رواية القفطي المتوفى سنة ١٢٤٨/٦٤٦ ، وعنده الرواية تدور حول حديث بين عمرو ابن العاص ويوحنا النحوي ، وهي واضحة الاختراع ، لأن يوحنا مات قبل دخول العرب مصر بثلاثين أو أربعين سنة . وإذا كان جريجوريوس أبو الفرج بن ابراهيم المعروف بلقب العبري قد أخذها من ابن القفطي ، فتكون روايته أيضا غير صحيحة

ثم أن مؤرخا نصرانيا هو يوحنا النقيوسي قد عاصر الفتح الإسلامي لمصر وكتب فيه ، ولم يشر إلى إحراق عمرو للمكتبة ، وكان أولى الناس بالإشارة إلى ذلك لو كان الامر قد حدث فعلا . ولم يشر إليه أيضا قدامى مؤرخينا من أمثال ابن عبد الحكم والبلاذري واليعقوبي والطبري بقيت عبارة عبد اللطيف البغدادي المتوفى سنة ١٢٢١/٦٢٩ ، والبغدادي لا يعول على كلامه في التواريخ ، لأنه كان يأخذ ما يسمعه من الناس ويشبهه ضمن مشاهداته

فتألف منهم أمة الاسلام ، كما اختلطت شعوب الممالك التي فتحها أهل رومية وصارت أمة واحدة تعرف بأمة الرومان

فاذا قابلنا بين الاسلام والرومان رأينا المسلمين أكثر اشتغالا بالعلم والأدب من أولئك ، لأن كليهما نقلتا العلم عن اليونان ، والمشتغلون به من الرومان لم يكونوا من أهل رومية ، كما أن المشتغلين به من المسلمين لم يكونوا كلهم من أهل جزيرة العرب . والسبب في اجتماع شعوب المملكة الرومانية باسم الرومان ، وعدم اجتماع شعوب المملكة الاسلامية باسم العرب ، أن العرب فتحوا بلادا أهلها عريقون في الحضارة ، فلم يمكن اندماجهم وضياع جنسياتهم ، وقد ساعد على ذلك تفرق المذاهب ، ومبالغة العرب في تفضيل أنفسهم على سواهم من الأمم الخاضعة لسلطانهم

أما اليونان فلا جدال في أنهم واضعو العلم والفلسفة ، لما في فطرتهم من الاقتدار على ذلك - وان كانوا قد بنوا علمهم وفلسفتهم على أسس أخذوا بعضها من المصريين القدماء ، والبعض الآخر من الكلدان وغيرهم - لكنهم يعدون واضعين ، فهم يفضلون الرومان والعرب من هذا القليل . ولكنهم أضعف منهما في إنشاء الحكومات وسن الشرائع ، لأن اليونان لم يطل أمر دولتهم ولا نظموا حكومة ثابتة ، وانما كانوا دولا صغيرة متفرقة يتنازعون ويتنافسون

ثم ان الرومان أخذوا العلم والفلسفة عن اليونان ، وقلما زادوا فيهما ، ولكنهم نظموا الحكومة ووضعوا الشرائع والقوانين ، ونظموا دولة عظيمة مما لم يستطعه اليونان . فالرومان أهل فتح وسلطان ، واليونان أهل تصور وخيال . وأما العرب فقد جمعوا الحسنتين ، لأنهم أهل فتح وسلطان وأهل تصور وخيال . ولذلك فانهم أنشأوا دولة بعيدة الاطراف ، ووضعوا الشرائع والنظم (الفقه) ولم يكتفوا بنقل العلم عن اليونان واستبقائه على حاله ، بل هم درسوه وزادوا فيه من نتائج قرائنهم وعقولهم ، وبما نقلوه من علوم الفرس والهند والكلدان وغيرهم ، فضلا عما وضعوه هم أنفسهم من العلوم الاسلامية واللسانية ، وما تفردوا فيه من قريحة الشعر . وليس هنا محل الافاضة في ذلك

٥ - حملة العلم في الاسلام أكثرهم العجم

قد تقدم أن العلوم التي حدثت في التمدن الاسلامي صنفان : العلوم الاسلامية ، والعلوم الدخيلة . فتغلب العلوم الاسلامية في غير العرب من

المسلمين (*) سببه أن العرب قاموا بالاسلام وفتحوا الفتوح وهم أهل بادية أميون ، فانصرف همهم في بدء الدعوة الى نشر دينهم وانشاء دولتهم مما لا يحتاج الى علم . وانما كانت حاجتهم من العلم الى القرآن ، يدعون الناس به الى الاسلام ، وكانوا يستظهرونه ويتناقلونه بالتلقين . ولم يمض على ظهور الدعوة بضع وعشرون سنة حتى فتحوا الشام والعراق ومصر وفارس وافريقية وغيرها ، والمسلمون (العرب) يومئذ هم الجند الفاتح ، وكانوا قليلين بالنظر الى ذلك الملك الواسع ، فضلا عن قتل منهم في الحروب والفتن . ومع ذلك فقد كانوا مطالبين بحفظ تلك المملكة وحماية أهلها وتبوير شؤونها . فأصبح همهم الاشتغال بالرئاسة في الجند والحكومة . ونظرا لفطرتهم الخيالية انصرفت قرائحهم الى الاشتغال بالشعر والخطابة والأمثال — وهى آدابهم فى جاهليتهم — وتحريض أبنائهم على اتقانها مع المثابرة على أسباب الرياضة البدنية بالفروسية والعناية بالخيول ، مما أعانهم على الفتح ونشر الدين ، واصبحوا يخافون التحضر لئلا يذهب بنشاطهم وجامعتهم . وكأن رجلهم العظيم عمر بن الخطاب نظر الى مستقبل الاسلام من طرف خفى ، فمنعهم من الزرع والاشتغال بأسباب الحضارة . ولهذا السبب لما تفرق العرب فى الأمصار وتعرضوا لأخطار البحار ، كتب اليهم عمر أن يمارسوا السباحة أيضا ، وهالك نص كتابه : « أما بعد فعلموا أولادكم السباحة والفروسية ، ورووهم ما سار من المثل وحسن من الشعر » (١)

ولما فسدت اللغة واختلفت القراءات ، وازمعت الخلفاء على جمع القرآن وتدوينه ، كان أكثر المتهافتين على حفظه من المسلمين غير العرب ، وهم الموالى وأكثرهم من الفرس ، وكانوا يومئذ أهل تمدن وعلم ، وكان العرب يعرفون لهم ذلك ، ومن الأحاديث النبوية : « لو تعلق العلم بأكتاف السماء لناله قوم من أهل فارس » (٢) وكان الفرس من الجهة الأخرى يرون للعرب مزية عليهم بالسيادة والنبوة وهيبة الفتح ، فجعلوا يتقربون اليهم بالعلم على ما تتطلبه حال الاسلام — وهو فى أوائل دولتهم عبارة عن قراءة القرآن وحفظه وتفسيره وجمع الحديث واسناده وحفظه — لذلك كان أكثر الحفاظ والقراء والمحدثين والفقهاء والمفسرين من العجم ، وإذا كان فيهم أحد من العرب فالأغلب فيه أن يكون من القبائل الصغرى التى لا شأن لها فى الفتح ،

(*) أشار المؤلف الى ذلك أكثر من مرة ... وقد كان هذا الرأى القائل بأن معظم المشتغلين بالعلوم كانوا من غير العرب شائعا على السنة المستشرقين منذ زمن ، والواقع أن العرب اشتغلوا بالعلم بكافة فروعهم من أول الامر ، حتى الفلسفة ، فقد كان أول فيلسوف فى الاسلام عربيا خالصا هو الكندى ، وسنعرض لهذه الناحية فيما سيلي بحثه من فروع العلم فرما فرما

(١) البيان والتبيين ٢١٣ ج ١

(٢) ابن خلدون ٤٧٨ ج ١

كالاصمعي فقد كان عربيا ولكنه كان من قبيلة باهلة الموصوفة بالخساسة وفيها يقول بعض الشعراء :

لو قيل للكلب يا باهلي عوى الكلب من لؤم ذاك النسب

على ان الاكثرين كانوا من غير العرب ، فوهب بن منبه من اقدم رواة الحديث وأصحاب التفسير وهو فارسي الأصل ، ونافع القاريء ديلمى ، وقس على ذلك سائر العلماء ، فمن أكابر الفقهاء وأقدمهم الحسن بن أبى الحسن ، ومحمد بن سيرين بالبصرة ، وعطاء بن أبى رباح ومجاهد وسعيد ابنا جبير وسليمان بن يسار في مكة ، وزيد بن أسلم ومحمد بن المنكدر ونافع بن أبى نجيح في المدينة ، وربيعة الراى وابن أبى الزناد في قباء ، وطاووس وابنه وابن منبه في اليمن ، ومكحول في الشام ، وغيرهم في أماكن أخرى ، وكلهم من الموالي أى المسلمين غير العرب (١)

ولما دعا فساد اللغة الى ضبط قواعدها وجمع ألفاظها ، كان العجم أحوج الى ذلك من العرب ، لاستغناء العربى بملكته الفطرية عن تعلم القواعد وحفظ الالفاظ ، فاشتغل الأعاجم بعلوم اللغة وكان أكثر علماء الأدب واللغة منهم ، كحماد الراوية وهو ديلمى ، والخليل وسيبويه والأخفش والفارسي والزجاج وغيرهم من الفرس أو من في معناتهم

اما العلوم الدخيلة وهى العلم والفلسفة فالمشتغلون بها للعرب هم غير العرب وغير المسلمين ، لأن العباسيين لما أرادوا نقل كتب اليونان والفرس والهند الى العربية ، استخدموا عارفى هذه اللسان من الكلدان والسرمان والفرس وغيرهم لنقلها ، وأكثرهم من النصارى كما سيجىء

فالعرب اشتغلوا عن العلم فى أول دولتهم بالرئاسة والسياسة للأسباب التى قدمناها ، وما زالوا هم أهل الدولة وحاميتها وأولى سياستها الى أوائل الدولة العباسية ، فتولد فيهم بتوالى الأجيال الانفة من انتحال العلم لأنه صار من جملة الصناعات - وأهل الرئاسة يستنكفون من الصناعات والمهن - وكانوا اذا رأوا عربيا يشتغل فى اللغة أو التعليم عابوه وقالوا : « انه يشتغل بصناعات الموالي » ، ومن أقوالهم : « ليس ينبغى للقرشى أن يستغرق فى شئ من العلم الا علم الأخبار ، وأما غير ذلك فالنتف والشدر من القول » . ومرو رجل من قریش بفتى من ولد عتاب بن أسيد وهو يقرأ كتاب سيبويه فقال : « أف لكم . . علم المتأدبين وهمة المحتاجين » (٢) ولا بأس من اشتغال الموالي بالعلوم الاسلامية وهم مسلمون . على أننا لا نعد العرب الذين تحضروا فى الدولة العباسية عربا خصوصا لاختلاطهم

بالموالى والمماليك بالمصاهرة والمعاشرة والمساكنة ، حتى الخلفاء فان أكثر أمهاتهم من غير العرب ، وسنعود الى هذا البحث فى جزء آخر

٦ - تدوين العلم فى الاسلام

قلنا فيما تقدم ان الخلفاء الراشدين كانوا يخافون الحضارة على العرب ، لئلا تذهب بنشاطهم وبدأوتهم . ولذلك منعهم من تدوين الكتب ، لان علومهم فى أوائل الاسلام كانت قاصرة على القرآن والتفسير ورواية الأحاديث ، ونظرا لقلّة الاختلاف ولسهولة المراجعة والاستفتاء من ثقات الصحابة والتابعين ، لقرب عهدهم من صاحب الشريعة ، كانوا فى غنى عن تدوين تلك العلوم . ويستدل بما روى عن أبى سعيد الخدرى أنه استأذن النبى فى كتابة العلم فلم يأذن له ، وروى عن ابن عباس أنه نهى عن الكتابة وقال : « اتما ضل من كان قبلكم بالكتابة » . وجاء رجل الى ابن عباس فقال : « انى كتبت كتابا أريد أن أعرضه عليك » فلما عرضه عليه أخذه منه ومحاه بالماء ، وقيل له : « لماذا فعلت ذلك ؟ » فقال : « لأنهم اذا كتبوا اعتمدوا على الكتابة وتركوا الحفظ ، فيعرض للكتاب عارض فيفوت علمهم » (١) وان الكتاب يزداد فيه وينقص ويغير والمحفوظ لا يمكن تغييره

وكان هذا الاعتقاد فاشيا فى الصحابة والتابعين ، وتمسك به جماعة من كبارهم ، وكانوا اذا سئلوا تدوين علمهم أبوا واستنكفوا - ولعلمهم كانوا يفعلون ذلك ليقبى الناس فى حاجة اليهم رأسا . سأل رجل سعيد بن جبير وهو من اعلام التابعين أن يكتب له تفسير القرآن فغضب وقال : « لأن يسقط شقى أحب الى من ذلك » (٢)

فبقى العرب عصر بنى أمية وهم يشتاقون الى البداوة ، لأن دولتهم كانت عربية بدوية ، فانقضى القرن الأول وبعض القرن الثانى للهجرة والمسلمون يتناقلون العلم بالتلقين ، ويعتمدون على الحفظ ، ولم يدونوا غير القرآن لأسباب سيأتى بيانها . وكان أبو بكر قد توقف عن جمعه وتدوينه وقال : « كيف أفعل أمرا لم يفعله رسول الله ؟ » (٣)

أما ما خلا ذلك من التفسير والحديث والأشعار والأخبار والأمثال فقد كانوا يتناقلونها فى صدورهم ، وأكثرهم يقرأون ولكنهم لا يكتبون ، وقد يكون بعضهم حافظا ومفسرا وهو لا يقرأ ، كما كان شأنهم فى الجاهلية : يشعرون ويخطبون ولا يقرأون

فلما انتشر الاسلام واتسعت الأمصار ، وتفرقت الصحابة فى الأقطار

(١) كشف الظنون ٢٥ ج ١ (٢) ابن خلكان ٢٠٥ ج ١ (٣) الفهرست ٢٤

وحدثت الفتن واختلفت الآراء وكثرت الفتاوى والرجوع الى الكبراء ، اضطروا الى تدوين الحديث والفقه وعلوم القرآن ، واشتغلوا في النظر والاستدلال والاجتهاد والاستنباط ، وتمهيد القواعد والأصول وترتيب الأبواب والفصول ، فأروا ذلك مستحبا فعمدوا الى التدوين ورجعوا الى حديث رواه انس بن مالك وهو قوله : « قيدوا العلم بالكتابة » (١) وقوله : « العلم سيد والكتابة قيد » (٢)

على أنهم ظلوا مع ذلك يستنكفون من التدوين بأيديهم ، فكانوا يستكتبون الكتاب أو يلقون دروسهم بطريق الاملاء . وذلك أن يتكلم المحدث أو الفقيه والتلميذ يكتب على الرق أو القرطاس أو الكاغد ، فيبدأ المستملى في أول القائمة بقوله : « مجلس أملاه شيخنا فلان بجامع كذا في يوم كذا » ويذكر التاريخ ، ثم يورد المملئ بأسناده سواء كان حديثا أو خبرا ، وإذا كان فيه غريب يحتاج الى التفسير فسر ، وأورد أشعار العرب وغيرها بأسانيد ، أو الفوائد اللغوية بأسناد أو بغير اسناد على ما يختاره (٣) وهذا معنى قولهم « أمالى » المحدث فلان أو اللغوى ، أى ما أملاه من الفنون (٤)

وظلوا - حتى بعد اشتغالهم بالتأليف - يحرضون الناس على الحفظ والتعويل على السماع ، وكان أحوج العلوم الى ذلك علم الدين ثم الشعر ، لما فيه من الالفاظ الغريبة واللغات المختلفة والكلام الوحشى وأسماء الشجر والنبات والمواضع والمياه . لأن الكتابة في القرون الأولى للإسلام كانت بلا نقط ، فلا تفرق في شعر الهذليين اذا أنت قرأته بين « شابة » و « ساية » وهما موضعان . ولا تثق بمعرفتك في تمييز أمثالهما مما تتشابه صورته بدون اعجام . وقرىء يوما على الاصمعى في شعر ابن ذؤيب : « بأسفل ذات الدبر أفرد جحشها » فقال اعرابى حضر مجلس القارىء : « ضل ضلالك أيها القارىء .. انما هي ذات الدبر (بالباء) وهى ثنية عندنا » فأخذ الاصمعى

(١) البيان والتبيين ١٦١ ج ١ (٢) كشف الظنون ٢٦ ج ١ (٣) الزهر ١٦٢ ج ٢

(٤) عبارة عبد الرحمن جلال الدين السيوطى هنا لا تشمل معنى الاستنكاف من التدوين بالأيدي ، فهو يقول في كلامه عن طرق اخذ اللغة وحملها : « ... وتؤخذ تلقنا من ملقن ، وتؤخذ سماعا من الرواة الثقات ، وللمتحمل بهذه الطرق عند الاداء والرواية صيغ أعلاها أن يقول : أملى على فلان ، أو أملى على فلان » (الزهر، طبعة محمد أحمد جاد المولى وآخرين ، من القاهرة قديون تاريخ - الطبعة الثانية - ١ ص ١٤٤ - ١٤٥) . وقد كان الاملاء طريقة من طرق التأليف في ذلك العصر المبكر ، ولكنها كانت أقل طرقة شيوعا ، والمعروف أن أوائل المؤلفين من العرب كتبوا كتبهم بأيديهم ، فابن اسحاق والمدائنى والبلاذرى وابن عبد الحكم والجاحظ وأبو حنيفة الدينورى وغيرهم انما كتبوا كتبهم بأنفسهم . وقد كانت العادة أن يقرأ الأستاذ كتابه على تلاميذه بعد تأليفه ، والكثير منهم كانوا يقيدون ما يسمعون ، حتى اذا انتهوا من السماع قرأوا على الشيخ ما في دفاترهم فأقره فتعتبر هذه نسخة من الكتاب ، ومن هنا لاستغراب ابن تقرأ عند ابن عبد الحكم مثلا قوله « قال ابن عبد الحكم » وليس معنى ذلك أنه أملى الكتاب على الناس استنكافا من الكتابة بيده بل معناه ان هذه النسخة هي سماع احد تلاميذه عليه

بذلك فيما بعد . ومن يرى شعر المعلن (*) في وصف الفرس :

من السحج جوالا كأن غلامه يصرف سبدا في العنان عمردا
إذا كان بلا تنقيط ولا يقرأ « سيدا » بالياء ، لانصراف الذهن الى السيد
وهو الذئب ؟ وقد أخطأ في ذلك أكثر الذين قرأوا هذا البيت (١)

فظل المسلمون زهاء قرن وليس عندهم كتاب مدون غير القرآن ، مع أن
الكتابة كانت شائعة يومئذ . وقد نبغ جماعة من مفسري القرآن ورواة
الحديث وعلماء النحو واللغة وناظمي الشعر ورواته ، وانما كانت الكتابة
العربية مستخدمة لكتابة القرآن أو الرسائل الى القواد ، ولتدوين الحساب
في دفاتر الحكومة بعد أن انتقلت الدواوين الى العربية . أما سائر العلوم
فكانت تتناقل بالسماع وتحفظ في الصدور ، وربما دون بعضها في صحف
غير مرتبة . وأما تأليف الكتب فلم يكن معروفا عندهم

واختلف مؤرخو المسلمين في أول من صنف الكتب في الاسلام ، فقال
بعضهم انه ابن جريج البصري المتوفى سنة ١٥٥ هـ (٢) وقال غيرهم غير
ذلك ، ولم يخرجوا على أى حال عن أواسط القرن الثاني للهجرة ، وإن أول
مادون - بعد القرآن والتفسير - الحديث . ولكننا رأينا من ألف قبل ذلك
بنصف قرن ، وأن أول ما دونوه من العلوم بعد القرآن التفسير . وأقدم
ما علمنا به من التفاسير تفسير مجاهد بن جبير المتوفى سنة ١٠٤ هـ (٣) .
ثم اشتغلوا في تدوين التاريخ وخصوصا المغازي ، وأقدم ما وصل إلينا خبره
من كتبهم في هذا الموضوع كتاب ألفه وهب بن منبه صاحب الأخبار
والقصص المتوفى سنة ١١٦ هـ وهو من أبناء الفرس المولدين باليمن . فالف
كتابا في الملوك المتوجة من حمير وأخبارهم وأشعارهم وقصصهم (*) ، قال
ابن خلكان انه شاهده بنفسه وأثنى عليه (٤) . ثم كتاب المغازي لمحمد بن
مسلم بن شهاب الزهري المتوفى سنة ١٤١ هـ (٥) . ثم ألف المسلمون في
الحديث والفقه في أواسط القرن الثاني للهجرة ، فصنف ابن جريج بمكة

(*) هو المعلن (بتشديد اللال وكسرها) بن غيلان ، أنظر عنه : الاغانى ١٢/٥٤ -
٧٤/٢٠ - ٧٥

(١) الشعر والشعراء لابن قتيبة ٢٠

(٢) ابن خلكان ٢٨٦ ج ١

(٣) كشف الظنون ٣١٤ ج ١ وابن الاثير حوادث سنة ١٠٢

(*) يبدو أن وهب بن منبه من اصل فارسي ، ويقول ياقوت انه توفي في صنعاء سنة
٧٣٢/١١٤ وكان يتولى قضاياها ، ولم تشر على كتابه « التيجان في ملوك حمير » الا برواية
محمد بن عبد الملك بن هشام ، وقد أضاف اليه هذا الاخير كثيرا حتى يمكننا ان نعهده من
تأليفه . والكتاب موجود في مخطوطة بالمتحف البريطاني ، ملحق رقم ٥٧٨ ، وهناك نسخة
اخرى في حيدر أباد برقم ١٣٤٧

(٤) ابن خلكان ١٨٠ ج ٢

(٥) كشف الظنون ٣٠١ ج ٢ وابن خلكان ٤٥٢ ج ١

وسعيد بن أبي عروبة وحماد بن سلمة وغيرهما بالبصرة . والف أبو حنيفة في الفقه والرأى في الكوفة ، وصنف الأوزاعي في الشام ، ومالك جمع الموطأ بالمدينة ، وغيرهم (١) ثم تكاثرت التأليف بعد ذلك كما سيأتي

٧ - الخط العربي

تاريخه

ليس في آثار العرب بالحجاز ما يدل على أنهم كانوا يعرفون الكتابة الا قبيل الاسلام ، مع أنهم كانوا محاطين شمالا وجنوبا بأمم من العرب خلفوا نقوشا كتابية كثيرة . وأشهر تلك الأمم حمير في اليمن كتبوا بالحرف المسند، والانباط في الشمال كتبوا بالحرف النبطي ، وآثارهم باقية الى الآن في ضواحي حوران والبلقاء . والسبب في ذلك أن الحجازيين أو عرب مضر كانت البداوة غالبية على طباعهم ، والكتابة من الصناعات الحضرية

على أن بعض الذين رحلوا منهم الى العراق أو الشام قبيل الاسلام تخلقوا بأخلاق الحضر ، واقتبسوا الكتابة منهم على سبيل الاستعارة ، فعادوا وبعضهم يكتب العربية بالحرف النبطي أو العبراني أو السرياني . ولكن النبطي والسرياني ظلّا عندهم الى ما بعد الفتوح الاسلامية ، فتخلف عن الأول الخط النسخي (الدارج) وعن الثاني الخط الكوفي نسبة الى مدينة الكوفة . وكان الخط الكوفي يسمى قبل الاسلام الحيري نسبة الى الحيرة ، وهي مدينة عرب العراق قبل الاسلام وابتنى المسلمون الكوفة بجوارها

ومعنى ذلك أن السريان في العراق كانوا يكتبون ببضعة أقلام من الخط السرياني ، في جعلتها قلم يسمونه « السطرنجيلي » كانوا يكتبون به أسفار الكتاب المقدس (٢) فاقتبسه العرب في القرن الأول قبل الاسلام ، وكان من أسباب تلك النهضة عندهم ، وعنه تخلف الخط الكوفي وهما متشابهان الى الآن

واختلفوا فيمن نقله الى بلاد العرب ، والأشهر أن أهل الأنبار نقلوه - وذلك أن رجلا منهم اسمه بشر بن عبد الملك الكندي أخو أكيدر بن عبد الملك صاحب دومة الجندل ، تعلم هذا الخط من الأنبار وخرج الى مكة فتزوج الصهباء بنت حرب بن أمية أخت أبي سفيان والد معاوية ، فعلم جماعة من أهل مكة فكثر من يكتب بمكة من قريش (٣) عند ظهور الاسلام ، ولذلك توهم بعضهم أن أول من نقل الخط الى العرب سفيان بن أمية

والخلاصة على أي حال أن العرب تعلموا الخط النبطي من حوران في أثناء

(١) النجوم الزاهرة ٣٧٨ ج ١ (٢) اللعة الشهية ١٧ (٣) الزهر ١٧٧ ج ٢

تجاراتهم الى الشام ، وتعلموا الخط الكوفي من العراق قبل الهجرة بقليل ، وظل الخطان معروفين عندهم بعد الاسلام . والأرجح أنهم كانوا يستخدمون القلمين معا : الكوفي لكتابة القرآن ونحوه من النصوص الدينية ، كما كان سلفه السطرنجيلي يستخدم عند السريان لكتابة الأسفار المقدسة النصرانية ، والنبطي لكتابة المراسلات والمكاتبات الاعتيادية . ومما يدل على تخلف القلم الكوفي عن السطرنجيلي - فضلا عن شكله - أن الألف اذا جاءت حرف مد في وسط الكلمة تحذف ، وتلك قاعدة مطردة في الكتابة السريانية ، وكان ذلك شائعا في أوائل الاسلام ، وخصوصا في القرآن فيكتبون « الكتب » بدل « الكتاب » ، و « الظلمين » بدل « الظالمين »

فجاء الاسلام والكتابة معروفة في الحجاز ، ولكنها غير شائعة ، فلم يكن يعرف الكتابة الا بضعة عشر انسانا ، أكثرهم من كبار الصحابة وهم : على ابن أبى طالب ، وعمر بن الخطاب ، وطلحة بن عبيد الله ، وعثمان وابن ابنا سعيد بن خالد بن حذيفة ، وي زيد بن أبى سفيان ، وحاطب بن عمرو بن عبد شمس ، والعلاء بن الحضرمي ، وأبو سلمة بن عبد الأشهل ، وعبد الله ابن سعد بن أبى سرح ، وحويطب بن عبد العزى ، وأبو سفيان بن حرب وولده معاوية ، وجهيم بن الصلت بن مخزومة . ثم تعلم غيرهم من الصحابة ، ومنهم خرج كتاب الدواوين للخلفاء الراشدين وكتاب الرسائل وكتاب القرآن . فكتبوا القرآن بالكوفي أيام الراشدين وأيام بنى أمية ، وفي أيامهم تفرع الخط المذكور الى أربعة أقلام ، اشتق بعضها من بعض كاتب اسمه قطبة كان كتب اهل زمانه ، وكان يكتب لبنى أمية المصاحف . ثم اشتهر بعده الضحاک بن عجلان في أوائل الدولة العباسية فزاد على قطبة ، وزاد بعده اسحق بن حماد وغيره ، قبلغ عدد الأقلام العربية الى أوائل الدولة العباسية ١٢ قلما وهي : (١) قلم الجليل (٢) قلم السجلات (٣) قلم الديباج (٤) قلم أسطورمار الكبير (٥) قلم الثلاثين (٦) قلم الزنبور (٧) قلم المفتح (٨) قلم الحرم (٩) قلم المدمرات (١٠) قلم العهد (١١) قلم القصص (١٢) قلم الحرفاج . وفي أيام المأمون تنافس الكتاب في تجويد الخط ، فحدث القلم المرصع ، وقلم النساخ ، وقلم الرياسي نسبة الى مخترعه ذى الرياستين الفضل بن سهل ، وقلم الرقاع ، وقلم غبار الحلية (١)

فزادت الخطوط على عشرين شكلا ، وكلها تعد من الكوفي . وأما الخط النسخي او النبطي فقد كان شائعا بين الناس لغير المخطوطات الرسمية ، حتى اذا نبغ ابن مقلة المتوفى سنة ٣٢٨ هـ أدخل في الخط المذكور تحسينا

جعله على نحو ما هو عليه الآن وأدخله في كتابة الدواوين . والمشهور عند المؤرخين أن ابن مقلة نقل الخط من صورة القلم الكوفي الى صورة القلم النسخي ، والغالب في اعتقادنا أن الخطين كانا شائعين معا من أول الاسلام : الكوفي للمصاحف ونحوها ، والنسخي (أو النبطي) للرسائل ونحوها كما تقدم . وأن ابن مقلة إنما جعل الخط النسخي على قاعدة جميلة حتى يصلح لكتابة المصاحف (١) . وقد شاهدنا في معرض الخطوط العربية القديمة في دار الكتب الخديوية (دار الكتب المصرية الآن) عقد تكاح مكتوبا في أواسط القرن الثالث للهجرة سنة ٢٦٤ هـ على رق مستطيل في أعلاه صورة العقد بالقلم الكوفي المنتظم ، وتحتها خطوط الشهود بالقلم النسخي بغاية الاختلال - فابن مقلة حسن هذا الخط تحسينا وأدخله في كتابة المصاحف

ثم تفرع الخط النسخي المذكور بتوالي الأعوام الى فروع كثيرة ، وأصبحت الأقسام الرئيسية في اللغة العربية اثنين : الكوفي ، والنسخي . ولكل منهما فروع كثيرة ، اشتهر منها بعد القرن السابع للهجرة ستة أقلام وهى : الثلث والنسخي والتعليقي والريحاني والمحقق والرقاع . واشتهر من الخطاطين جماعة كبيرة الفوا فيه الكتب والرسائل ، بعضها في أدوات الخط كالأقلام وطرق بريها وأحوال الشق والقط والدواة والمداد والكافد وغير ذلك (١) وما زال الخط يتفرع الى اليوم ، ولن يزال الى ما شاء الله عملا بسنة الارتقاء

الحركات :

وكان القرآن في أول الاسلام محفوظا في صدور القراء ، لا خوف من الاختلاف في قراءته لكثرة عنايتهم في تناقله وضبط ألفاظه ، حتى دونوه وكثر أهل الاسلام ، فمضى نصف القرن الأول للهجرة والناس يقرأون القرآن بلا حركات ولا أعجام . وأول ما افتقروا اليه الحركات ، وأول من رسمها أبو الأسود الدؤلي وأضع النحو العربي المتوفى سنة ٦٩ هـ فانه وضع نقاطا تمتاز بها الكلمات أو تعرف بها الحركات ، ولذلك توهم بعضهم أنه وضع الاعجام . والحقيقة أنه وضع نقاطا لتمييز الاسم من الفعل من الحرف ، وليس لتمييز الباء من التاء أو الجيم من الحاء ، والأرجح أنه اقتبس ذلك من الكلدان أو السريان جيرانه في العراق ، وكان عندهم نقط كبيرة توضع فوق الحرف أو تحته لتعيين لفظه أو تعيين الكلمة الواقعة هو فيها اسم هى أم فعل أم حرف . مثل قولهم : « كتب » ، فيمكن أن تكون اسما جمع كتاب ،

(١) يؤيد ذلك ما يقوله القلقشندي في صبح الاعشى ج ٣ ص ١١

(١) كشف الظنون ٤٦٧ ج ١

أو فعلا ماضيا معلوما أو مجهولا ، وكان عندهم أيضا نقط هي حركات وضعها يعقوب الرهاوى قبيل ذلك الزمن (١) وهي عبارة عن نقط كانت ترسم في حشو الحروف ، ثم تحولت الى نقط مزدوجة تنوب عن الحركات الثلاث ، وما زالت عندهم الى اليوم . فالظاهر أن ابا الأسود اقتبس هذه الحركات ، ويؤيد ذلك أنه لما أراد التنقيط أتوه بكاتب فقال له أبو الاسود : « اذا رأيتنى قد فتحت فمى بالحرف فانقط نقطة فوقه على أعلاه ، واذا ضمنت فمى فانقط نقطة بين يدى الحرف ، وان كسرت فاجعل النقطة من تحت الحرف » (٢) . فكان العرب بعد ذلك يستعملون هذه النقط ، والغالب أن يكتبوها بلون غير لون الخط . وقد شاهدنا في دار الكتب المصرية مصحفا كوفيا منقطا على هذه الكيفية ، وجدوه في جامع عمرو بجوار القاهرة وهو من اقدم مصاحف العالم ، ومكتوب على رقوق كبيرة بمداد اسود وفيه نقط حمراء اللون . فالنقطة فوق الحرف فتحة ، وتحت كسرة ، وبين يدى الحرف ضمة كما وصفها أبو الاسود

الاعجام :

كان الخط لما اقتبسه العرب من السريان والأنباط خاليا من النقط — ولا تزال الخطوط السريانية بلا نقط الى اليوم — فالاعجام حادث في العربية وهو قديم فيها ، والظاهر أن المسلمين بعد أن استخدموا الحركات المذكورة راوا التصحيف قد تكاثر، والتبس الناس في القراءة لتكاثر الاعجام من القراء ، والعربية ليست لفثتهم فصعب عليهم التمييز بين الأحرف المتشابهة في شكلها ، كالجيم والحاء والسين والشين والباء والتاء والثاء ، فانتبه لذلك الحجاج أمير العراق في أيام عبد الملك بن مروان — قال ابن خلكان : « ففزع الحجاج الى كتابه ، وسألهم أن يضعوا لهذه الأحرف المتشابهة علامات تميزها بعضها من بعض ، فيقال ان نصر بن عاصم قام بذلك فوضع النقط أفرادا وأزواجا ، وخالف بين أماكنها ، فعبر الناس بذلك زمانا لا يكتبون الا منقوطا . ولكن مع استعمال النقط أيضا كان يقع التصحيف ، فأحدثوا الاعجام فكانوا يتبعون النقط بالاعجام » (٣) وفي عبارة ابن خلكان هذه التباس ، لا يفهم المراد بها ولا ما الفرق بين التنقيط والاعجام وهما واحد ، ولا يعقل أن يكون المراد بالنقط الحركات لأنهم انما عمدوا اليها لكثرة التصحيف ، أى اختلاف القراءة باختلاف النقط . فالظاهر أن النقط المذكورة هي من قبيل الاعجام لتمييز الحروف المتشابهة ، ولكن نصرا هذا لم ينقط الا بضعة حروف مما

(١) اللعة الشهية ٢١ (٢) الفهرست ٤٠ (٣) ابن خلكان ١٢٥ ج ١

يكثُر وروده ويخشى الالتباس فيه ، ثم رأوا القراءة لا تضبط الا بتنقيط كل الحروف كما هي الآن ، وهذا ما عبروا عنه بالاعجام

وقد شاهدنا في معرض الخطوط في دار الكتب المصرية كناية عربية على صفحة من البردى (البابيروس) مؤرخة سنة ٩١ هـ وفيها اعجام ، لكنه قاصر على الصور المشابهة للباء للتمييز بين الباء والياء والتاء ، وصورة حرف الشين لتمييزه من السين بثلاث نقط موضوعة على استواء واحد - وشاهدنا أجزاء من مصاحف أخرى مكتوبة على رقوق صغيرة وعليها نقط حمراء للحركات ونقط سوداء للاعجام . وقد تجد خطوطا قديمة منقطه ومحركة وخطوطا حديثة بلا تنقيط ولا تحريك

فيؤخذ من ذلك أن العرب استخدموا الحركات والاعجام من أواسط القرن الاول ، ولكنهم ظلوا مع ذلك يكرهونها الا حيث يريدون التدقيق بنوع خاص كالمصاحف ونحوها . أما فيما خلا ذلك فكانوا يفضلون ترك النقط ، لاسيما اذا كان المكتوب اليه عالما . وقد حكى أنه عرض على عبد الله ابن طاهر خط بعض الكتاب فقال : « ما أحسنه لولا كثرة شؤنيته (أى نقطه) » . ويقال : « كثرة النقط في الكتاب سوء ظن في المكتوب اليه » . وقد يقع بالنقط ضرر ، كما حكى عن جعفر المتوكل أنه كتب الى بعض عماله : « أن احص من قبلك من الذميين وعرفنا بمبلغ عددهم » فوقع على الحاء نقطة فجمع العامل من كان في عمله منهم وخصاهم فماتوا غير رجلين (١) ولذلك ظل الكتاب في أثناء التمدن الاسلامي مخبرين بين الاعجام وعدمه ، والغالب عدم الاعجام . وقد حدث بسبب ذلك التباس في كثير من الاحوال ، وخصوصا في أسماء الاماكن الغريبة أو الالفاظ الغريبة ونحوهما (٢) . وكان الأدباء يستحسنون الاعجام في كتب العلوم ، ويستهجنونها في المراسلات . ولذلك استحسنوا مشق الخط في المكاتبات ، لأنهم لفرط ادلالهم في الصنعة وتقدمهم في الكتابة يكتفون بالإشارة ويقتصرون على التلويح ويرون الحاجة الى استيفاء الابانة تقصيرا (٣)

ادوات الكتابة :

أما أدوات الكتابة فقد وفينا الكلام عنها في الجزء الاول من هذا الكتاب . وظلوا يكتبون الى أواخر دولة الأمويين على الجلود والرقوق دروجا ، فكانت دفاتر الحكومة عبارة عن لفائف من الجلد . فلما أفضى الأمر الى العباسيين

(١) كشف الظنون ٤٦٨ ج ٢

(٢) راجع كتابنا تاريخ اللغة العربية

(٣) ادب الدنيا والدين ٥٢

وقام أبو العباس السفاح بالأمر واستوزر خالد بن برمك ، غير خالد الدفاتر من الأدراج الى الكتب . فظلت أعمال الحكومة تدون في كتب من الجلد ، الى أن تصرف جعفر بن يحيى البرمكى بالوزارة في أيام الرشيد فاتخذ الكاغد (الورق) فتداوله الناس من بعده ، وظلوا مع ذلك أجيالا يكتبون على الجلود والقراطيس والورق الصينى والتهامى والخراسانى (١) فضلا عن الكاغد يصنعونه كراريس أو دفاتر ، وكان بعضهم يفضل الرقاع للكتابة عليها ، كالفارابى مثلا فقد كانت كتاباته أكثرها على الرقاع (٢)

(١) الفهرست ٤٠

(٢) ابن خلكان ٥٧ ج ٢

العلوم الشرعية الإسلامية

هي العلوم التي اقتضاها الاسلام والتعلمن الاسلامي على ما تقدم ، وتقسم الى ثلاثة أقسام : (١) العلوم الشرعية وهي العلوم الدينية الاسلامية (٢) العلوم اللسانية وهي التي اقتضاها الاسلام ضمنا ، فاحتاجوا اليها في ضبط قراءة القرآن أو تفسيره أو تفهمه وتفهم الحديث (٣) التاريخ والجغرافيا

١ - العلوم الشرعية الإسلامية

القرآن - جمعه وتدوينه :

لا غرو اذا اهتم المسلمون بجمع القرآن وحفظه ، لأن عليه يتوقف دينهم ودينهم ، وأول أسباب حفظه تدوينه . والقرآن لم ينزل مرة واحدة ، وإنما نزل تدريجا في أثناء عشرين سنة على مقتضى الأحوال ، من أول ظهور الدعوة الى وفاة النبي ، بعضه في مكة وبعضه في المدينة . فكان كلما تلا آية أو سورة كتبها على صحف الكتابة في تلك الأيام ، وهي الرقاع من الجلود ، والعريض من العظام كالإكتاف والأضلاع ، وعلى العصب وهي قحوف جريد النخل ، واللخاف وهي الحجارة العريضة البيضاء . فتوفي النبي (صلى الله عليه وسلم) سنة ١١ هـ والقرآن أما مدون على أمثال هذه الصحف ، أو محفوظ في صدور الرجال ، وكانوا يسمون حفظته « القراء »

وكان أكثر الناس عناية في تدوينه على عهد النبي على بن أبي طالب ، وسعد بن عبيد بن النعمان ، وأبو الدرداء ، ومعاذ بن جبل ، وثابت بن زيد ، وأبي بن كعب وغيرهم . فلما قام أبو بكر بالأمر وارتد بعض أهل جزيرة العرب عن الاسلام ، بعث جندا لمحاربتهم فقتل من الصحابة في تلك الحروب جملة كبيرة ، وخصوصا في غزوة اليمامة فقتل فيها وحدها ٢٠٠٠ من المسلمين فيهم ٧٠٠ من القراء . فلما بلغ ذلك الى أهل المدينة فزعوا فزعا شديدا ، وخصوصا عمر بن الخطاب رجل الاسلام والمسلمين ، فأشار على أبي بكر بجمع القرآن لئلا يذهب منه شيء بموت أهله ، فتوقف أبو بكر وقال : « كيف أفعل أمرا لم يفعله رسول الله ولم يعهد إلينا فيه عهدا ؟ » ، فما زال به عمر حتى أقنعه بجمعه . فأحضر أبو بكر زيد بن ثابت لأنه كان من كتبة الوحي ، فجمع ما كان مدونا عند الصحابة ، وربما وجد السورة الواحدة مكتوبة عند اثنين أو ثلاثة أو أكثر ، وقد لا يوجد من السورة

الآخرى الا نسخة واحدة ، كسورة التوبة فانه لم يجد منها الا نسخة واحدة عند أبي خزيمة الانصارى (١) فجمعه من تلك المحفوظات ومن صدور الرجال وسلمه الى أبي بكر ، فظلت الصحف عنده حتى توفي سنة ١٣ هـ ، فلما تولى عمر تسلمها وظلت عنده حتى تولى عثمان سنة ٢٣ هـ فانتقلت الى بيت ابنته حفصة من أزواج النبي (صلعم)

وفي أيام عثمان اتسعت الفتوح وتفرق المسلمون في مصر والشام والعراق وفارس وافريقية ، وفيهم القراء وعند بعضهم نسخ من القرآن ، وقد رتبها كل منهم ترتيبا خاصا ، فعول اهل كل مصر على من قام بينهم من القراء . فأهل دمشق وحمص مثلا أخذوا عن المقداد بن الأسود ، وأهل الكوفة أخذوا عن ابن مسعود ، وأهل البصرة عن أبي موسى الأشعري (٢) وكانوا يسمون مصحفه لباب القلوب - ومع شدة عناية القراء في حفظ القرآن وضبطه لم يخلوا من الاختلاف في قراءة بعض سورة

واتفق في أثناء ذلك أن حذيفة بن اليمان كان في جملة من حضر غزو ارمينية واذربيجان ، فرأى في أثناء سفره اختلافا بين المسلمين في قراءة بعض الآيات ، وسمع بعضهم يقول لبعض : « قراءتي خير من قراءتك » . فلما رجع الى المدينة أنبأ عثمان بذلك وألذره بسوء العقبى ان لم يتلاف الأمر ، الى أن قال : « أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى » فبعث عثمان الى حفصة أن : « أرسلى إلينا بالصحف ننسخها في المصاحف ثم نردها إليك » فأرسلتها . فدعا عثمان زيد بن ثابت ، وعبد الله بن الزبير ، وسعيد بن العاص ، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام وأمرهم أن ينسخوا القرآن ، ويستعينوا على القراءة بما حفظه القراء ، وقال لهم : « إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء فاكتبوه بلسان قريش ، فانما أنزل بلسانهم » ففعلوا ذلك (٣) سنة ٣٠ هـ ، وكتبوا أربعة مصاحف بعثها عثمان الى الأمصار الأربعة : مكة ، والبصرة ، والكوفة ، والشام (٤) واثنتين أبقاهما في المدينة : واحد لأهلها ، وواحد لنفسه وهو الذي يسمونه « الامام » ، ثم أمر بجمع كل ما كان قبل ذلك من المصاحف والصحف (٥) وأمر بإحراقه

فأصبح المعول في المصاحف على ما كتبه عثمان ، واشتغل المسلمون في الأمصار باستنساخ تلك المصاحف ، فنسخوا منها شيئا كثيرا في مدة قليلة

(١) الفهرست ٢٤ (٢) ابو الفدا ١٧٦ ج ١

(٣) الفهرست ٢٥ (٤) نفع الطيب ٢٨٧ ج ١

(٥) ابو الفدا ١٧٦ ج ١

ذكر المسعودى فى عرض كلامه عن واقعة صفين بين على ومعاوية ، وما كان من ظهور على وما أشار به عمرو بن العاص من رفع المصاحف : « ورفع من عسكر معاوية نحو من خمسمائة مصحف » (١) وليست هذه كل مصاحف المسلمين فاعتبر هذا العدد ، وبين كتابة مصحف عثمان وواقعة صفين سبع سنين

ومع تشديد الصحابة فى التعويل على مصحف عثمان دون سواه ، فقد ظل عند بعض المسلمين نسخ من مصاحف أخرى أشهرها مصحف على . ويعتقد الشيعة أن عليا أول من خط المصاحف عند وفاة النبى ، وتنوّل مصحفه فى شيعته وبقي عند أهل ابنه جعفر . وقد ذكر ابن النديم فى كتاب الفهرست أنه رأى عند أبى يعلى حمزة الحسينى مصحفا بخط على يتوارثه بنو حسن (٢) - ومنها مصحف عبد الله بن مسعود وأبى بن كعب ولكل منها ترتيب خاص فى سورة (٣).

على أن الخلفاء والأمراء كانوا يبذلون جهدهم فى جمع الكلمة على مصحف عثمان والتشديد فى اعدام ما سواه ، وفى جملة مساعيهم أن الأمراء كانوا يكتبون نسخا من ذلك المصحف يضعونها فى المساجد ليتلوها الناس ويرجعوا اليها فى تصحيح ما بين أيديهم من المصاحف الخاصة . وربما كتب الأمير عدة مصاحف وفرقها فى الأمصار ، ولكنهم كانوا يعدون قبول مصحف الأمير فى الجامع اقرارا بسيطرته عليهم . وكان الحجاج فى مقدمة من كتب المصاحف من الأمراء وفرقها فى الأمصار ، فبعث منها مصحفا الى مصر والوالى عليها يومئذ عبد العزيز بن مروان ففضب وقال : « أبيعث الى جند أنا فيه بمصحف ؟ » وأمر فكتبوا له مصحفا آخر بالغ فى ضبطه ، وأعلن بعد الفراغ من كتابته أن من وجد فيه حرفا خطأ فله رأس أحمر (٤) وثلاثون دينارا . فوجد فيه أحد قراء الكوفة لفظة « نجعة » بدل « نعجة » فنال الجائزة (٤)

قراءة القرآن :

كان للقراءة شأن عظيم فى أول الاسلام ، لقلة الذين يقرأون يومئذ ، فسموا الذين كانوا يحفظون القرآن « قراء » تمييزا لهم عن سائر المسلمين لأنهم كانوا أميين . وقد تقدم أن السبب الذى حمل عثمان على جمع القرآن

(١) المسعودى ٢٠ ج ٢

(٢) الفهرست ٢٨

(٣) الفهرست ٢٦

(٤) أى جبل أحمر ، والمراد بالأحمر اللون البنى الداكن ، وكانت الجمال التى لها هذا اللون اندرها واحسنها ، ولهذا يقولون : « حمر النعم »

(٤) القريرى ٢٥٤ ج ٢

وكتابه ما بلغه من اختلاف الصحابة في قراءته . على أنه لم يمض على ارسال مصاحفه الى الأمصار زمان قصير ، حتى أصبح لأهل كل مصر قراءة خاصة يتبعون فيها قارئاً يثقون بصحة قراءته ، وتنوّل ذلك واشتهر . ثم استقر منها سبع قراءات معينة تواتر نقلها بأدائها ، واختصت بالانتساب الى من اشتهر بروايتها ، فصارت هذه القراءات السبع أصولاً للقراءة ، ويعدّها بعضهم عشرة

وأصحاب هذه القراءات هم : نافع بن أبي رؤيم ، ويزيد بن القعقاع في المدينة ، وعبد الله بن كثير في مكة ، وأبو عمرو بن العلاء ، ويعقوب الحضرمي في البصرة . وعبد الله بن عامر في الشام ، وعاصم بن أبي النجود ، وحزمة ابن حبيب الزيات ، وعلي الكسائي، وخلف البزاز في الكوفة . واشتهر غيرهم كثيرون في أقطار العالم الاسلامي ، وفيهم من يقرأ قراءات غريبة ، وخصوصاً بعد أن ظهرت الفرق الاسلامية وتشتعبت الآراء في التفسير والفقه . والخلفاء يشددون في مقاصدة أولئك الشاذين خوف التفرقة ، كما كانت تفعل رؤساء النصرانية في القرون الأولى للميلاد . ولكن الاسلام كان أقرب الى اطلاق حرية الفكر والقبول وخصوصاً في أوائله ، فلم يكن أحدهم يتردد في ابداء ما يخطر له ولو كان مخالفاً لراي الخليفة ولذلك كثرت الفرق الاسلامية يومئذ ، وتعددت مذاهب أصحابها في القراءة (١) والتفسير والفقه وفي كل شيء ، حتى ذهب بعضهم الى أن سورة يوسف ليست من القرآن لأنها قصة من القصص ، والقائلون بذلك العجاردة (٢) وذهبت طائفة أخرى الى اثبات حكم من أحكام الالهية في السيد المسيح وأنه هو الذي يحاسب الخلق (٣) وظل بعضهم يقرأون القراءات الغريبة الى أواسط الدولة العباسية ، وفي جملتهم يعقوب العطار المتوفى سنة ٣٥٤ هـ فاستحضره الخليفة واستتابه بحضرة القراء والفقهاء ، وكتب محضر توبته وأشهد عليه من حضر (٣)

(*) أوفى مرجع للدراسة القراءات هو « الاتقان في علوم القرآن » لمبد الرحمن جلال الدين السيوطي ، القاهرة ١٢٧٨ ج ١ ص ٩٦ وما يليها . وهو يجعل القراءات ثلاثة أنواع : (١) القراءة الشرعية التي انمقد عليها اجماع الصحابة وحفظت بالتواتر ، وهي القراءات السبع التي أشار اليها المؤلف . (٢) القراءة الشاذة وقد أقرها الصحابة ولكنها لم تصل اليها بالتواتر ، وهما قراءتا ابن مسعود وابن أبي ، وقد حرمت سنة ١٢٢٣/٩٣٥ (٣) قراءة شاذة تعد في حكم البدع ، وهي النسوبة الى خلف وأبي عبيد وابن سعدان ، وأصحابها يذهبون الى ترك طريقة القراءة للاختيار ، وقد حرمت هذه القراءة سنة ١٢٢٢/٩٣٤ وحرمت كذلك قراءة يعقوب بن مقسم العطار

انظر ، بالإضافة الى « اتقان » السيوطي ، رسالة على بن اسماعيل الحسن الى عبد المسيح بن اسحاق الكندي التي نشرها ميور في لندن ١٨٨٢ - ١٨٨٥ ص ٧٩ - ٨٣
A. Jeffery, Materials for the text of the Quran (Leiden, 1937)

(١) الشهرستاني ٩٥ ج ١

(٢) الشهرستاني ٤٢ ج ١

(٣) طبقات الادباء ٣٦١

وأشهر من قرأ القراءات الشاذة ابن شنبوذ البغدادي المتوفى سنة ٣٢٨ هـ فإنه تفرد بقراءات من الشواذ كان يقرأ بها في المحراب ، ذكرها ابن النديم وابن خلكان فعلم به ابن مقلة الوزير سنة ٣٢٣ هـ فقبض عليه واعتقله أياما ، فلم يكن ذلك ليرجعه عن قراءته ، فأمر بجلده واستتابه فتاب وقال انه قد رجع عما يقرأه وانه لا يقرأ الا بمصحف عثمان بن عفان بالقراءة المتعارفة التي يقرأ بها الناس وكتب محضرا بذلك (١)

والقراءات العشر التي ذكرنا أصحابها كلها جائزة عند المسلمين . وعند الأئمة أن الجميع على صواب ، فقد يختار الاقليم الواحد قراءة واحدة أو قراءتين أو أكثر ، وقد تقرأ كل القراءات في إقليم واحد (٢)

وكانوا يرجعون في اثبات صحة القراءة الى الاسناد المتسلسل ، كقولهم قرأ يعقوب بن اسحق على سلام ، وقرأ سلام على عاصم ، وقرأ عاصم على أبي عبد الرحمن ، وقرأ أبو عبد الرحمن على علي بن أبي طالب ، وقرأ علي على النبي (٣)

تأثير القرآن :

ان قراءة القرآن وحفظه من أول واجبات المسلمين ، وخصوصا في أوائل الاسلام ، فانطبعت أوامره ونواهيه في أفئدتهم ، وارتسمت عباراته على السنة أدبائهم ، وأصبح هو المرجع في الشرع والدين واللغة والانشاء وفي كل شيء . فاقتبسوا أساليبه في خطبهم وكتبهم ، وتمثلوا بآياته في مؤلفاتهم ، وظهرت آدابه وتعاليمه في أخلاقهم وأطوارهم ، مع تباعد الأمم التي اعتنقت الاسلام في أصولها ولغاتها وبلادها . واستشهدوا بأقواله ونصوصه في علومهم اللسانية ، فضلا عن العلوم الشرعية . فقد كان في كتاب سيبويه وحده ٣٠٠ آية من القرآن ، وأصبح أهل البلاغة لا تروق لهم الكتابة أو الخطابة الا اذا رصعوها بشيء من آي القرآن ، كما سترى في باب الخطابة في الاسلام ، وفي باب البلاغة من اقتباس الآيات وادخالها في عبارات الخطب والرسائل والتوقيعات

على أنهم كانوا ، لغرط اشتغالهم بحفظ القرآن وقراءته وتفهمه ، لو ذكر الرجل حرفا أو كلمة انتبه السامع للآية كلها ، ولذلك كثيرا ما كانوا يرمزون بالكلمة الواحدة الى آية يفهمها العارف ويعمل بها وقد تخفى على كثيرين ومما يحكى من هذا القبيل أن السلطان محمود الغزنوي الشهير ، بعث الى

(١) ابن خلكان ٤٩٠ ج ١

(٢) المقدسي ٣٩ ونفع الطيب ١٠٤ ج ١

(٣) ابن خلكان ٣٠٨ ج ٢

الخليفة يطلب أن يذكر اسمه في الخطبة ببغداد ، وينقش اسمه في سكة الذهب والفضة (أى ينقش اسمه على الدينار والدراهم) . فامتنع الخليفة من ذلك . فبعث اليه كتابا فيه تهديد ووعد ، وقال في جملته : « لو أردت نقل حجارة بغداد على ظهور القيلة الى غزنة لفعلت » . فبعث اليه الخليفة كتابا مختوما ، فلما فتحه لم يجد فيه بعد البسملة الا ألفا ممدودة ، وفي وسطه لام ، وفي آخره ميم ، والصلاة ، والحمدلة . فحار السلطان وأهل مجلسه من ذلك حتى دخل عليهم أبو بكر القهستاني ، ففكر في ذلك وقال : « عندي شرحه » فقال : « اذكر ولك ما تريد » فقال : « بعث اليهم السلطان يهددهم بالقيلة ، فبعثوا له هذا الكتاب وفيه ألف ولام وميم إشارة الى قوله تعالى : (ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل) الى آخر السورة » فارتاع السلطان لذلك ووقع في قلبه الخوف والندم وعاد الى أحسن الاحوال من الرضى والأدب (١)

ويحكى أيضا أن المأمون غضب على عبد الله بن طاهر ، وشاور أصحابه في الإيقاع به ، وكان قد حضر المجلس صديق له فكتب اليه كتابا فيه : « بسم الله الرحمن الرحيم ياموسى » فلما فضه ووجد ذلك تعجب ، وما زال يطيل فيه النظر حتى علم أنه يريد « يا موسى ان الملأ يأثمرون بك ليقتلوك » (٢)

وابلغ من ذلك حكاية سديد الملك وتشديد نون « ان » وقد ذكرناها في الجزء الأول من هذا الكتاب ، وفي أعادتها هنا تكرر

وقد عنى المسلمون في كتابة القرآن وحفظه عناية ليس بعدها غاية ، فكتبوه على صفائح الذهب والفضة ، وعلى صفائح العاج ، وطرزوا آياته بالذهب والفضة على الحرير والديباج ، وزينوا بها محافلهم ومنازلهم ، ونقشوها على الجدران في المساجد والمكاتب والمجالس ، ورسموه بكل الخطوط وأجملها على كل أصناف الرقوق والجلود والكوافد بالأدراج والكراريس والرقاع بأصناف المداد وألوانها. وملأوا بين الكلام بالذهب . وكان الخلفاء والأمراء والسلاطين يتبركون بكتابة المصاحف بأيديهم ويختزنونها في المساجد أو نحوها . وفي دار الكتب الخديوية (المصرية) بالقاهرة أمثلة كثيرة من المصاحف المخطوطة بمعظم الأشكال المذكورة من القلم الكوفي الخالى من الشكل والاعجام الى اتمام الاعجام والشكل وما بينهما

(١) ترتيب الدول ٦٩

(٢) الدميرى ١٢٦ ج ١

وقد ضبطوا عدد سور القرآن وآياته وكلماته وحروفه ، وعدوا ما فيه من الألفات والباءات الى الياءات (١) (※)

تفسير القرآن :

كان العرب عند ظهور الدعوة كلما تليت عليهم سورة أو آية فهموها وأدركوا معانيها بمفرداتها وتراكيبها ، لأنها بلسانهم وعلى أساليب بلاغتهم ولأن أكثرها قيلت في أحوال كانت كالقرائن تسهل فهمها ، وإذا أشكل عليهم شيء منها سألوا النبي (صلعم) فكان يبين لهم المجلد ويميز الناسخ من المنسوخ . فحفظ أصحابه عنه ذلك وتناقلوه فيما بينهم ، وعنهم أخذ من جاء بعدهم من التابعين وتابعي التابعين

ولما صار الاسلام دولة واحتاجوا الى الأحكام والقوانين كان القرآن مصدر استنباطها ، فزادت العناية في تفسيره وأصبح القراء والمفسرون مرجع المسلمين في استخراج تلك الأحكام أو هم الفقهاء لأول عهد الاسلام . وكانوا يتناقلون التفسير شفاهاً الى أواخر القرن الأول . فكان أول من دون التفسير في الصحف مجاهد المتوفى سنة ١٠٤ هـ (※) ثم اشتغل فيه سواه وهم كثيرون حتى انتهى ذلك الى الواقدي سنة ٢٠٧ والطبري المتوفى سنة ٣١٠ هـ وغيرهما

وقد رأيت أن العمدة في التفسير على النقل بالتواتر والاسناد منذ أيام النبي (صلعم) فالصحابه فالتابعين ، والعرب يومئذ أميون لا كتابة عندهم . فكانوا اذا تشوقوا الى معرفة شيء مما تتوق اليه نفوسهم البشرية ، من اسباب الوجود وبدء الخليقة وأسرارها ، سألوا عنه أهل الكتاب قبلهم من اليهود والنصارى المقيمين بين ظهرانيهم ، وأكثرهم من حمير باليمن الذين أخذوا بدين اليهودية (٢) وكانوا قد أسلموا لكنهم ظلوا على ما كان عندهم

(١) الكشكول ١٧٥

(※) وفي العصر الحديث وضعت الفهارس المفصلة لالفاظ القرآن الكريم لفظاً لفظاً ، بحيث تكفى معرفة لفظاً من الآية للعثور على الآية كاملة ورقمها في سورتها ، وأول من فعل ذلك على أسلوب منهجي محكم جوستاف فلوجل المستشرق الألماني ، ثم تبعه العلامة المصري فؤاد عبد الباقي فوضع المعجم المفهرس لالفاظ القرآن وهو أدق معجم لآيات القرآن الكريم ، وقد طبع في القاهرة وهو معروف . وحدث بعد اختراع الطباعة ان كانت تقع أخطاء مطبعية في بعض طبعات القرآن الكريم ، فقام الأزهر الشريف بإصدار طبعة محكمة استعان في عملها بالمصحف العثماني المطبوع في الأستانة ، وعلى هذه الطبعة معولنا اليوم . ولابد لكل من أراد طبع القرآن الكريم أن يعرض طبعته على مشيخة القارئ في الأزهر حتى تقرها ، فإذا أقرتها أجازت له نشره

(※) هو غير أبي بكر بن مجاهد التميمي البصري المتوفى سنة ٩٣٦/٢٢٤ وكان فقيهاً معاصراً للوزيرين ابن مقلة وعلى بن عيسى ، وكان له دور سياسي هام إذ ذاك ، وهو الذي حدد القراءات الشرعية الجائزة وأبطل القراءات الشاذة غير الجائزة ، كالقراءات المنسوبة الى علي بن مسعود وأبي بن كعب وعلى بن أبي طالب . انظر عنه : الجزري : الناية في القراءات ، ج ١ ص ١٣٦ والصوفي : اخبار الرازي والمتقى بالله ، طبعة هيوارث ، ص ٦٢ - ٦٣

(٢) ابن خلدون ٣١٧ ج ١

من التقاليد المتناظرة شفها أو كتابة ، مما لا تعلق له بالأحكام الشرعية - فكانوا اذا سئلوا عن شيء أجابوا بما عندهم من أقاصيص التلمود والتوراة بغير تحقيق . فامتلات كتب التفسير من هذه المنقولات (المعروفة بالاسرائيليات)

ومن أشهر أولئك اليهود كعب بن مانع المعروف بكعب الأخبار ، أسلم في خلافة عمر بن الخطاب (١) ، وعبد الله بن سلام بن الحارث أسلم عند هجرة النبي الى المدينة (٢) . ناهيك بمن كان هناك من أهل الأديان الأخرى كالصابئة والمجوس وغيرهم ، وكان بعضهم من ذوى المقامات الرفيعة ، فكان المسلمون يسألونهم أيضا وهم يجيبونهم مما عندهم . وأشهرهم وهب ابن منبه (*) فإنه فارسي الأصل ، جاء جده الى اليمن في جملة من بعثهم كسرى لنجدة اليمن على الحبشة ، فأقاموا هناك وتناسلوا وصاروا يعرفون بين العرب بالأبناء أى أبناء الفرس ، ومنهم أيضا طاوس بن كيسان التابعى الشهير

وكان آباء وهب المذكور على دين الفرس (المجوسية أو الزردشتية) فلما أقاموا بين اليهود باليمن أخذوا عنهم آداب اليهود وتقاليدهم ، واختلطوا

(١) اسد الغابة ٢٤٧ ج ٤ (٢) اسد الغابة ١٧٦ ج ٣

(*) لوهب بن منبه مكان عظيم في تاريخ الفكر الاسلامي ، فهو مفسر ومؤرخ وقصاص . ولد في ذمار في اليمن سنة ٣٤ هـ ، وكان له ثلاثة اخوة اشتغلوا بالعلم أيضا ويعدون في جملة التابعين ، وهم همام وغيلان ومعتل . وهناك روايات تقول ان وهبا ولد يهوديا ثم أسلم ، ولكن اقرب الآراء الى الصحة هو انه ولد على الاسلام . وقد تولى قضاء صنعاء على ايام الوليد بن عبد الملك ، ويقال انه كان قبل ولايته القضاء يعبر الرؤى ، اذ يرى تفسيرها في نومه ، فلما ولي القضاء انقطع عنه ذلك ، وقد اشتهر بنسكه حتى يقال انه قضى اربعين سنة لا ينام الا على الارض ، وكان يصلى العشاء بوضوء الصبح . وقد سجن في آخر ايامه وأمر القاضي يوسف بن عمر الثقفي بضربه اسواط ، فمات تحت الضرب سنة ١١٠ أو ١١٤ هـ . وكان عمله بكتب اليهود والنصارى واسعا حتى أصبح موضوع مبالغات ، روى عنه انه قال : « قرأت من كتب الله تعالى المنزلة اثنى وسبعين كتابا » . وقد اعتمد عليه ابن سعد في كل ما روى من « احاديث الانبياء والعباد واحاديث بنى اسرائيل » . وقد حفظ لنا علمه وكتبه نثر من تلاميذه أهمهم عبد المؤمن وادريس ، وكان الاخير ابن أخته ، وهو أهم رواة ، وقد ضاعت كتبه ، فلم تصل اليها الا فقرات منها في كتب من جاء بعده ، وأهمها : « كتاب المبتدا والسير » و « قصص الانبياء » و « قصص الاخيار » و « كتاب الملوك المتوجة من حمير واخبارهم وقصصهم واشعارهم » وهو الذي نقله ابن هشام الكلبي باسم « كتاب التيجان » ، وينسب اليه كتاب في « المقازى » ، وينسب اليه ابن النديم في الفهرست كتابا يسمى « حكمة وهب » ويقال انه جمع عشرة آلاف حكمة من حكم لقمان ، وينسب اليه أيضا « كتاب زبور ابن داود ترجمة وهب بن منبه »

انظر : ابن قتيبة : كتاب المعارف ج ١ ص ٨ وما يليها و ص ٢٣٣ و ٣٠١

ابن سعد : الطبقات ، طبعة سخاو ح ٥ ص ٣٩٥ - المسعودي : مروج الذهب ، طبعة باريس ، الفهرس - يا قوت : معجم الادباء ، ح ٢٣٢/٧ - ابن حجر العسقلاني : التهذيب ١١/١٦٦

بالحشنة هناك فتعلموا شيئاً من النصرانية ، وكان وهب يعرف اليونانية (١) فاطلع على آداب اليونان وغيرهم ، فنشأ وهو ذو اطلاع واسع في أخبار الأمم وأحوال الأنبياء وقيام الدنيا وسير الملوك ، ومن أقواله أنه قرأ من كتب الله ٧٢ كتاباً ، فكان للعرب ثقة كبرى فيه ولم يسأله عن شيء إلا أفاض في الجواب عليه مما يحفظه

فكانت كتب التفسير في القرون الأولى محشوة بالأخبار ، وفيها الفث والسمن مما نقل اليها من الأديان الأخرى التي كانت شائعة قبلها في جزيرة العرب أو حولها . كما أصاب النصرانية عند أول ظهورها ، أذ دخلها كثير من عادات الأمم الوثنية ومعتقداتهم وتقاليدهم ، مع سهر الآباء الأولين على تخليصها من ذلك

فلما نشأت العلوم اللسانية واشتغل المسلمون بها واطلعوا على كتب المنطق والفلسفة ، تعودت عقولهم على طلب الدليل والقياس ، فأعادوا النظر في تلك التفاسير ونظروا في مروياتها ومحصولها وسبروها بمسبار العقل . وأشهر من فعل ذلك منهم ابن عطية والقرطبي وجار الله الزمخشري صاحب الكشاف وغيرهم (*)

(١) السعوى ١٠٩ - ٢

(*) لم تتقدم الدراسات القرآنية في العالم العربى في العصر الحديث عما كانت عليه في العصور الوسطى ، فلا زال اعتمادنا على « الأتقان » للسيوطى ، والبحر المحيط لآبى حيان (القاهرة ١٣٢٨) ، ثمانية مجلدات) وانوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوى المعروف بتفسير البيضاوى (وقد طبع في القاهرة مرات متعددة ، وقام على نشره فلايتشر في لايبتيغ عام ١٨٤٦) وكتاب المصاحف لابن أبى داود (طبعة جفرى ، لايدن ١٩٣٧) وغاية النهاية في طبقات القراء لابن الجوزى (طبعة القاهرة ، وقد طبعه أيضاً برجستريس Bergstraesser في الاستانة عام ١٩٣٥) ونشر نفس المستشرق في القاهرة سنة ١٩٣٤ كتاب المختصر في شواذ القراءات ، والجامع لاحكام القرآن للقرطبي (طبعة دار الكتب المصرية) وبغية الوعاة في طبقات النحاة للسيوطى ، وغير ذلك من الاصول العربية القديمة للدراسات القرآنية ، بالإضافة الى الكتب العامة كسيرة ابن هشام وتاريخ الطبرى وأسد الغابة لابن الاثير . ولم يؤلف المعاصرون شيئاً ذا أهمية ، فيما عدا تفسير الامام محمد عبده والجواهر في تفسير القرآن (٢٥ جزءاً في ١٣ مجلداً ، القاهرة ١٩٣٠)

أما المستشرقون فكانت لهم عناية عظيمة بالدراسات القرآنية ، وهم لا يهتمون بهذه الدراسة حياً في العلم وإنما كان هدفهم - ولازال - العثور على مطاعن أو وجوه من التشكيك في النص الكريم وقراءاته وتفسيراته وما الى ذلك ، ولهذا ، ينبغي قراءة ماكتبوه في كثير من الحلد . على أن الكثيرين منهم أقاموا دراساتهم على أساليب منهجية لم يجر عليها المسلمون المحدثون في تأليفهم ، فيما عدا كتيب صغير للاستاذ عباس محمود العقاد . وتجد خلاصة دراسات المستشرقين في مادة القرآن في دائرة المعارف الاسلامية وفي المواد المتعلقة به مثل مواد : كتاب ، تفسير ، تواتر ، قراءة ، آية ، سورة وما الى ذلك . ونفس المواد في مختصر دائرة المعارف الاسلامية العرف في الألمانية باسم Handwörterbuch des Islam فهو خاص بالمواد المتعلقة بالاسلام . وتجد كذلك خلاصة طيبة لدراسات المستشرقين في كتاب :

Régis Blachère, Introduction au Coran (Paris, 1947)

وكذلك في ترجمته الفرنسية للكتاب الكريم ، وقد نشرها في باريس بعنوان « القرآن Le Coran » وقد أورد في « المقدمة » تبتاً كاملاً بدراسات المستشرقين حول القرآن ، انظر ص XLII (٤٢) - LIX (٥٩) . ولم يجد على هذه القائمة شيء كثير، فيما عدا الترجمة الانجليزية لابن اسحاق، وقد نشرها ألفريد جيوم ، وترجمة انجليزية للقرآن نشرها آربرى ، وهناك أيضاً في كتاب جودفروا ديموميين المسمى « محمد » فصول عن القرآن الكريم

وكتب التفسير كثيرة جدا ، ذكر منها صاحب كشف الظنون نيفا وثلاثمائة تفسير ، وقال انه ذكر بعضها وكانت أكثر من ذلك كثيرا (١)

الحديث

لما اشتغل المسلمون في تفهم معاني القرآن كان في جملة ما افتقروا اليه في تفهمها أقوال النبي (صلعم) وهو ما عبروا عنه بالأحاديث النبوية ، وأقدم من سماعها الصحابة وحفظوها ، فكانوا إذا أشكل عليهم فهم آية واختلفوا في تفسيرها أو حكم من أحكامها استعانوا بتلك الأحاديث على استيضاحها. فلما كانت الفتوح تفرق الصحابة في الأرض ، وعند كل منهم بعض الأحاديث ، وقد يتفرد بعضهم بأحاديث لم يسمعها سواه ، فأصبح طالب الحديث إذا كان من أهل دمشق مثلا لا يستوفيه الا اذا رحل في طلبه الى مكة والمدينة والبصرة والكوفة والرى ومصر وغيرها ، وكذلك المقيم في أحد هذه البلاد فانه لا يستطيع استيفاء الحديث ما لم يطلبه من البلاد الاخرى ، وهذا ما يعبرون عنه بالرحلة في طلب العلم . على ان الارتحال في طلب العلم لم يكن من مستحدثات الاسلام ، ولكنه كان شائعا من قديم الزمان بالنظر الى قلة أسباب النشر وقلة نسخ الكتب وصعوبة وصولها الى النواحي في تلك العصور ، ثم حرص الناس على السماع من الشيوخ مباشرة . فكان المؤرخ أو الجغرافي مثلا يرحل في طلب التاريخ أو الجغرافيا الى أقصى البلاد ، كما فعل هيرودوتس واسترابون وغيرهما . ولذلك كان المسلمون يرحلون في طلب العلوم غير الحديث أيضا . وكان النصارى في العصر الاسلامي يرحلون الى بلاد الروم لاتقان ديانتهم (٢)

وضع الاحاديث :

نشأت الفتنة بعد مقتل الخليفة عثمان ، واختلف المسلمون في الخلافة وادعاهها غير واحد ، فانصرفت عناية كل حزب من أحزابهم الى استنباط الأدلة واستخراج الأحاديث المؤيدة لبعوهم ، فكان بعضهم اذا أعوزهم حديث يؤيدون به قولاً أو يقيمون به حجة اختلفوا حديثاً من عند أنفسهم . وتكاثر ذلك في أثناء تلك الفوضى ، فكان المهلب بن أبى صفرة مثلا يضع الأحاديث ليشد بها أمر المسلمين ويضعف أمر الخوارج (٣) وهو مع ذلك معدود من الأتقياء والنبلاء ، مع علمهم بما كان يضعه من الأحاديث ، لأنهم كانوا يعدون

(١) كشف الظنون ٣٠٢ ج ١

(٢) طبقات الأطباء ١٧٥ ج ٢

(٣) ابن خلكان ١٤٦ ج ٢

ذلك خدعة في الحرب . وأمثال المهلب كثيرون ، كانوا يضعون الحديث لأغراض مختلفة (*)

وتسابق الناس خصوصا الى وضع الأحاديث في أثناء البحث في شروط الخلافة ، نظرا لما رأوه من تأثير الحديث فيها من أول عهدها . اذ مات النبي وانقسم أصحابه في طلب الخلافة الى قسمين : المهاجرين والأنصار ، وكل منهما يعتقد الأحقية في الخلافة لحزبه ، واشتد عزم الأنصار على الثبات في المطالبة ، وعظمت الفوضى حتى روى أبو بكر الحديث « الأئمة من قريش » (١) فكان في ذلك فصل الخطاب . فقس على ذلك حاجة أصحاب الفرق والأحزاب وغيرهم الى الأحاديث ، ناهيك بحاجتهم اليها في اثبات الأحكام الشرعية الخاصة بالبلاد المفتوحة وأهلها وغير ذلك كأوصاف المهدي المنتظر وشروط ظهوره ووضع الأحكام والقوانين ، وفي كل باب من أبواب الإدارة والقضاء . ولما أراد المؤمن تحليل زواج المتعة لم يرجعه عن عزمه الا حديث روه له في تحريمه (٢)

فلا غرو بعد ذلك اذا رغب أهل المطامع في اختلاق الاحاديث ، وقد ذكروا من واضعي الحديث جماعة أشهرهم أربعة ، وهم : ابن أبي يحيى في المدينة ، والواقدي في بغداد ، ومقاتل بن سليمان بخراسان ، ومحمد بن سعيد بالشام (٣) . وكثيرا ما كان أولئك الوضع يعترفون عند مسيس الحاجة بما اقترفوه ، كما فعل ابن أبي العوجاء ، وكان محدثا في الكوفة فأمر أميرها محمد بن سليمان بقتله سنة ١٥٣ هـ فلما إيقن أنه مقتول قال : « والله لقد وضعت أربعة آلاف حديث حللت بها الحرام وحرمت الحلال . . والله لقد فطرتكم يوم صومكم وصومتكم يوم فطركم » (٤) . ومنهم أحمد الجويباري وابن عكاشة الكرمانى وابن تميم الفريابي ، فقد ذكر سهل بن السري أنهم وضعوا من عند أنفسهم نحو عشرة آلاف حديث (٥) ولنحو هذا السبب نشأت الفروق بين أحاديث السنة والشيعة (**)

فلما هدأت الفتنة وعهد المسلمون الى التحقيق ، كانت تلك الموضوعات قد تكاثرت ، فاشتغلوا في التفريق بينها وبين الصحيح ، فألفوا كتباً كثيرة في الحديث ، وميزوا صحيحه من فاسده وجعلوه مراتب . ولهم في ذلك الفاظ اصطلاحوا عليها لهذه المراتب ، كقولهم : الصحيح ، والحسن ، والضعيف ، والمرسل ، والمنقطع ، والمعضل ، والشاذ ، والغريب ، وغير ذلك

(*) شرح هذه الناحية شرحا مستفيضا الامتاز احمد أمين في كتاب « ضحى الاسلام »

(١) الشهرستاني ١٢ ج ١ (٢) ابن خلكان ٢١٨ ج ٢ (٣) ابن خلكان ٢١٣ ج ٢

(٤) ابن الأثير ٣ ج ٦ (٥) تحذير المسلمين ٤

(**) وقد قرر البيضاوى في أنوار التنزيل أنه كان يخترع الاحاديث التي تحبب الناس في حفظ القرآن وتعظيم أجر الحافظين .

من القابه المتداولة بينهم . وبينوا كيف يأخذ الرواة بعضهم عن بعض بقراءة أو كتابة أو مناولة أو اجازة وتفاوت رتبها (١)

اسناد الحديث :

وترتب على أهمية الحديث في الدين والدنيا تعرضه للوضع والتحريف كما رأيت ، فاحتاج الى العناية في تحقيقه ، ولم يكن ذلك ميسورا في العصور الأولى الا بالحفظ ، والرجوع بالمحفوظ الى المصدر الأصلي الذي أخذ عنه بالتسلسل وهو « الاسناد » ، كأن يقال : « حدثنا فلان ، أو أخبرنا فلان ، أو أمدى على فلان ما هو كذا وكذا » . فلما بعدت الرواية جعلوها متسلسلة فقالوا : « حدثنا فلان عن فلان أنه سمع فلانا يقول كذا وكذا » . وترتب على تصحيح ذلك وضبطه النظر في طبقات المحدثين للتفريق بين الثقات وغيرهم ، فجعلوهم طبقات : ومنهم الصحابة ، فالتابعون ، فتابعو التابعين ، فالعلماء الباقون الى رتبة الاجتهاد ، فالمشتغلون في جمع الأحاديث وحفظها ، فالناقدون للأحاديث ، فالشارحون وغيرهم (٢) وألفوا كتباً كثيرة في طبقات المحدثين والرواة

وكان أهل الامصار يختلفون في طرق اسنادهم ، فطريقة أهل الحجاز أعلى مما لسواهم وأمتن في الصحة ، لاستيادتهم في شروط النقل من العدالة والضبط . وسند طريقة الحجاز بعد الصحابة الامام مالك عالم المدينة المتوفى سنة ١٧٩ هـ ثم أصحابه مثل الشافعي وأبو حنبل وأمثالهم .. ومالك أول من دون الحديث في كتاب الموطأ ، رتبته على أبواب الفقه ، وقيل ان ابن جريج أول من ألف فيه . ثم عنى الحفاظ في طرق الاحاديث وأسانيدهم ، وجاء محمد بن اسماعيل البخاري امام المحدثين في عصره فخرج أحاديث السنة على أبوابها وألف كتابه « الصحيح » ، ثم ألف مسلم بن الحجاج النيسابوري « المسند الصحيح » فسمى كتاباهما الصحيحين وصار مرجع الناس اليهما . ثم جاءت طبقة أخرى من المحدثين جمعوا بين هذين أو بينهما وبين الموطأ ، فاجتمع من ذلك الكتب الستة المشهورة للمؤلفين الآتية أسماؤهم : وهم البخاري المتوفى سنة ٢٥٦ هـ - ٨٧٠ م ، ومسلم المتوفى بنيسابور سنة ٢٦١ هـ - ٨٧٥ م ، وأبو داود المتوفى بالبصرة سنة ٢٧٥ هـ - ٨٨٨ م ، والترمذي المتوفى بترمذ سنة ٢٧٩ هـ - ٨٩٢ م ، والنسائي توفى سنة

(١) ابن خلدون ٣٦٨ ج ١ (٢) ابجد العلوم ٨٦

٣٠٣ هـ - ٩١٥ م ، والدار قطنى المتوفى ببغداد سنة ٣٨٥ هـ - ٩٩٥ م (١) (*)
ولما صار الحديث علما مدونا انصرفت العناية الى الاسناد المتسلسل في
تحقيق السماع ، اى تعلم تلك الكتب او بعضها ، كأن يقول أحدهم : سمعت
الحديث (اى تعلمته) من فلان وهو تعلمه من فلان الى البخارى او غيره .
وهاك تسلسل اسناد ابن خلكان في كيفية سماعه صحيح البخارى ، قال :
« سمعت صحيح البخارى بمدينة أربل في بعض شهور سنة احدى وعشرين
وستمائة ، على الشيخ الصالح أبى جعفر محمد بن هبة الله بن المكرم
ابن عبد الله الصوفى ، بحق سماعه في المدرسة النظامية ببغداد ، من الشيخ
أبى الوقت المذكور في شهر ربيع الاول سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة ،
بحق سماعه من أبى الحسن عبد الرحمن بن محمد بن مظفر الداودى في
ذى القعدة سنة خمس وستين وأربعمائة ، بحق سماعه من أبى محمد
عبد الله بن أحمد بن حمويه السرخسى في صفر سنة احدى وثمانين وثلاثمائة ،
بحق سماعه من أبى عبد الله محمد بن أبى يوسف بن مطر الفريرى سنة
ست عشرة وثلاثمائة ، بحق سماعه من مؤلفه الحافظ أبى عبد الله محمد
ابن اسماعيل البخارى ، مرتين : احدهما سنة ثمان وأربعين ومائتين ،

(١) الديمرى ٥٢ ج ١

(*) ويضاف اليهم ابن ماجه المتوفى سنة ٢٧٣/٨٨٣ وبعضهم يجعله مكان الدارقطنى .
وأعظم هذه الكتب مكانة هما صحيحا البخارى ومسلم ، ويطلق عليهما معا اسم الصحيحين ،
ويطلق على الكتب الاربعة الباقية عادة كتب السنن ، وقد وضعت بعد هذه الاصول كتب أخرى
لها مكانتها من التقدير ، ولكنها لم تبلغ الى درجة الصحاح الستة ، ومن ذلك سنن عبد الله
الدارمى المتوفى عام ٢٥٥/٨٦٨ . ولم تسلم الصحاح الستة مع ذلك من النقد ، فقد أخرج
الدارقطنى مثلا ٢٠٠ حديث من صحيح مسلم ذهب الى انها ضعيفة
وقد وضع أحمد بن حنبل مستندا يعتبر من امهات كتب الحديث ، ولكنه لا يعدى في الصحاح
نظرا لترخصه في قبول الاحاديث . وقد ألفت بعد هذه المجموعات كتب أخرى ليس فيها من
جديد غير التنبؤ والتنظيم ، ومن ذلك مسند البغوى المسمى مصابيح السنة (توفى ٥١٠/١١١٦)
وعلى أساس هذا الكتاب ألف ولى الدين التبريزى كتابه « مشكاة المصابيح » وهو
تفسير واختصار له ، ومن كتب الاحاديث الموثوق فيها التي ألفت في الازمنة المتأخرة « جامع
الجوامع » و « الجامع الصغير » للسيوطى . وقد وضعت تفاسير وشروح كثيرة للصحاح ، أهمها
تفسير ابن حجر (توفى ٨٥٢/١٤٤٨) والقسطلانى (توفى ٩٣٢/١٥١٧) والنووى (توفى
١٢٧٧/٦٧٦)

أما الشيعة فلهم مسانيد خاصة بهم ، تورد الاحاديث التى تؤيد مذهبهم والتفسيرات التى
يرونها مطابقة لوجهة نظرهم ، وأهم الاصول التى يعتمدون عليها : الكافى لمحمد بن يعقوب الكلينى
(توفى ٣٢٨/٩٣٩) وكتاب « من لا يستحضره الفقيه » لمحمد بن على بن بابويه القمى (توفى
٣٨١/٩٩١) و « تهذيب الاحكام » و « الاستبصار فيما اختلف فيه الاخبار » لمحمد الطوسى
(المتوفى ٤٥٩/١٠٦٧) و « نهج البلاغة » لعلى بن طاهر المعروف بالشرىف المرتضى (توفى
٤٣٦/١٠٤٤) وينسب ايضا الى أخيه رضى الدين البغدادى

ولم يؤلف المسلمون في العصر الحديث شيئا ذا بال عدا إصدار طبعات مصححة موثوق فيها
من الاصول القديمة كمسند ابن حنبل الذى ينشره الشيخ شاك . وربما كان أهم ما ألف أخيرا
كتاب « مفتاح كوز السنة » الذى وضعه الأستاذ فؤاد عبد الباقي ، وهو فهرس دقيق لالفاظ
الحديث أنشأه على أصل وضعه المستشرق فانسنك . وقد تخصص في دراسة الحديث اثنان
من كبار المستشرقين ، أولهما فانسنك المذكور وجولدسبير ،

والثانية سنة اثنتين وخمسين ومائتين . رحمهم الله تعالى أجمعين » (١).
وتطرق المسلمون في طريقة الاسناد من الحديث الى غيره من العلوم النقلية
كالتاريخ والأدب كما هو مشهور ، وتتبعوا طريقة الاسناد المتسلسل في كثير
من العلوم الاسلامية ، مما لم يسبق له مثيل في البلاد الاخرى أو الامم
الاخرى . فهم اذا ذكروا عالما في علم فيها ، اسندوا تعلمه الى استاذه
وأستاذ استاذته الى واضع ذلك العلم ، كقول ابن خلكان في ترجمة فخر الدين
ابن الخطيب : انه اشتغل في الاصول على والده ضياء الدين ، ووالده على
القاسم سليمان بن ناصر الانصارى ، وهو على امام الحرمين أبى المعالى ،
وهو على الاستاذ أبى اسحق الاسفراينى ، وهو على الشيخ أبى الحسن
الباهلى ، وهو على شيخ السنة أبى الحسن الاشعري ، وهو على أبى على
الجبائى أولا ثم رجع عن مذهبه ونصر مذهب أهل السنة والجماعة
عدد الاحاديث :

لما تكاثرت الاحاديث للأسباب التى قدمناها أصبحت تعد بمئات الألوف .
فقد ذكروا أن أحمد بن حنبل روى مليون حديث ، منها ١٥٠.٠٠٠ بالأسانيد
والمتون (٢) وان يحيى بن معين المرى قال : كتبت يدي ٦٠٠.٠٠٠ حديث ،
قال راوى هذا الخبر : وأظن المحدثين كتبوا له بأيديهم ٦٠٠.٠٠٠
و ٦٠٠.٠٠٠ وخلف من الكتب مائة قمطر (٣) وان مسلما صاحب المسند
الصحيح استخرجه من ٣٠٠.٠٠٠ حديث مسموعة (٤) وان الامام البخارى
قال : صنفت كتابى الصحيح من ٦٠٠.٠٠٠ حديث (٥) وقس على ذلك مما
يدل على كثرة فاحشة . أما الذى صح منها فانه أقل كثيرا ، وبعضهم بالغ
فى الاقلال ، وهم أصحاب الراى ، وشيخهم أبو حنيفة فلم يصح عنده الا
١٧ حديثا ، ومالك صح عنده ٣٠٠ حديث ، والبخارى اشتمل صحيحه
على ٩٢٠٠ حديث منها ٣٠٠٠ مكررة ، وأحمد بن حنبل فى مسنده
٥٠.٠٠٠ حديث (٥) وقس على ذلك

الفقه

مصدره :

لما صار الاسلام دولة احتاج أمراؤه الى ما يقضون به بين رعاياهم فى
أحوالهم الشخصية ومعاملاتهم المدنية ، فرجعوا الى القرآن والحديث .
فاستخرجوا منهما شريعة نظموها بها حكومتهم وحكموا بها بين رعاياهم .
وذلك طبعى فى الدول الكبرى ، فالليونان قلما عنوا بوضع الشرائع والاحكام

(١) ابن خلكان ٢٠٦ ج ١
(٢) ابن الساعى ٦٦
(٣) ابن خلكان ٢١٥ ج ٢
(٤) ابن خلكان ٢٧١ ج ١
(٥) ابن خلكان ٤٥٦ ج ١
(٦) ابن خلدون ٣٦٩ و ٣٧١ ج ١

الدولية أو القضائية ، لأنهم لم يكونوا أهل دولة كبرى الا زمنا قصيرا فانصرفت قرائحهم الى الفلسفة وفروعها . وأما الرومان فقد اتسعت مملكتهم كما اتسعت مملكة العرب ، وامتد سلطانهم وقويت شوكتهم فلم يكن لهم بد من وضع الشرائع ، لكنها لم يتم نضجها عندهم الا بعد تأسيس دولتهم ببضعة عشر قرنا على يد جستنيان صاحب القانون المشهور سنة ٥٢٩ م ، وهى عبارة عن عادات واعتبارات واعتقادات تجمعت بتوالى الأقطاب من الشعب اللاتينى والصابنى وغيرهما ممن دانوا لرومية بالتدريج حتى صارت شريعة كاملة على عهد جستنيان المذكور (*)

وأما المسلمون فانهم استخرجوا أحكامهم من القرآن والحديث ، وقد علمت ما كان لهم من العناية فى حفظهما ودرسهما من أول الاسلام ، ولذلك لم يمض على المسلمين قرنان والثالث حتى نضجت شريعتهم وتكون فقهم ، وهو من أفضل شرائع العالم . وقد أسرعوا فى ذلك مثل سرعتهم فى تأسيس دولتهم ونشر دينهم

قلنا أن القرآن أساس الفقه الاسلامى ، وكان المسلمون على عهد النبى يتلقون الاحكام منه وهو يبينها لهم شفاها ، فلم يكن ذلك يحتاج الى نظر أو قياس . فلما توفى رجع الصحابة الى القرآن والسنة ، فأصبح القراء أول فقهاء المسلمين أو حاملى شريعتهم ، وكانوا يرجعون اليهم فى الافتاء والاحكام لقلة الذين يقرأون فى الصدر الاول . فلما عظمت أمصار الاسلام وذهبت الأمية من العرب وكمل الفقه وأصبح صناعة ، بدلوا باسم الفقهاء العلماء

الفقهاء :

فأول الفقهاء المسلمين الصحابة الاولون ، وأولهم الخلفاء الراشدون ، ثم عبد الرحمن بن عوف وأبى بن كعب وعبد الله بن مسعود ومعاذ بن جبل وعمار بن ياسر وحذيفة بن اليمان وزيد بن ثابت وسلمان الفارسى وأبو الدرداء وأبو موسى الأشعرى (١) ثم انتقلت الفتوى والفقه الى التابعين واشتهر منهم سبعة فى المدينة ، وهم : سعيد بن المسيب وأبو بكر بن عبيد الرحمن وقاسم وعبد الله وعروة وسليمان وخارجة ، وقد جمعهم بعض

(*) الشعب الصابنى المذكور هنا هو شعب السينيين Scabini وهو ثانى الشعوب التى أخضعها اللاتينيون فى شبه جزيرة ايطاليا ، والاول هو شعب الاترسكيين Etrusci وقد أخذ اللاتين عن هذين الشعبين الكثير من حضارتهم التى عرفت بالحضارة الرومانية فيما بعد ، وقد وجد السينيون فى شبه الجزيرة قبل اللاتين ، وكانت لهم حضارة زاهرة ، مثلهم فى ذلك مثل الاتروسكيين . أما قوانين جستنيان فقد أصدرها فى ثلاث مجموعات ، آخرها المختصر الذى يسمى بمدونة جستنيان ، وقد ترجمها الى العربية المرحوم عبد العزيز فهمى ونشرها قبل وفاته بقليل بعنوان « مدونة جستنيان »

العلماء في هذين البيتين :

الا كل من لا يقتلدى بأئمة فقسمة ضيزى عن الحق خارجة
فخذهم : عبيد الله ، عروة ، قاسم ، سعيد، سليمان، أبوبكر، خارجة (١)
وبعض المؤرخين يحسبهم عشرة مع تبديل بعض الأسماء (٢) وعنهم انتقل
الفقه والافتاء في العالم الاسلامى

وفي أوائل الاسلام كان الفقه والقراءة والتفسير والحديث علما واحدا ، ثم
أخذت هذه العلوم تستقل بعضها عن بعض عملا بناموس الارتقاء ، فلما
استقل الفقه سموا أصحابه الفقهاء كما تقدم ، وكان لهم تأثير كبير في الدولة
لما يترتب على الافتاء من الأمور الهامة ، كالعزل والتنصيب والقتل والعفو
ففى أيام بنى أمية كان المرجع في الفقه والافتاء الى أهل المدينة ، فكان
الخلفاء لا يقطعون أمرا دونهم . وقد علمت مما فصلناه في الجزئين الماضيين
من هذا الكتاب ما كان من تعصب بنى أمية للعرب واحتقارهم غير العرب من
المسلمين وغيرهم ، وأهل المدينة مع تحيزهم لأهل البيت وانكار الخلافة
على بنى أمية كان الأمويون يسعون في أرضائهم واکرامهم ، وخصوصا أهل
الورع من الخلفاء كعمر بن عبد العزيز فإنه كان لا يقطع أمرا مهما الا بعد
مشورتهم . فلما أفضى الأمر الى بنى العباس ، وأراد المنصور تصغير أمر
العرب واعظام أمر الفرس لأنهم أنصارهم وأهل دولتهم ، كان من جملة
مسايعه في ذلك تحويل انظار المسلمين عن الحرمين ، فبنى بناء سماه القبة
الخضراء حجا للناس ، وقطع الميرة عن المدينة ، وفقه المدينة يومئذ الامام
مالك الشهير ، فاستفتاه أهلها في أمر المنصور فأفتى لهم بخلع بيعته
فخلعوها وبايعوا محمد بن عبد الله من آل على . وعظم أمر محمد هذا
وحاربه المنصور ولم يتغلب عليه الا بعد العناء الشديد . فرجع أهل المدينة
الى بيعة المنصور قهرا ، وظل مالك مع ذلك ينكر حق البيعة لبنى العباس ،
فعلم أمير المؤمنين يومئذ وهو جعفر بن سليمان عم المنصور بذلك ، فغضب
ودعا بمالك وجرده من ثيابه وضربه بالسياط وخلع كتفه (٣)

الرأى والقياس :

وكانت علوم القرآن قد انتشرت في العراق وفارس ، ونبغ من ابنائهما
من درس الفقه والفتيا ، ولكنهم ما زالوا عيالا فيهما على أهل المدينة ، لأنهم
وثق الناس بحفظ الحديث وقراءة القرآن . وكان الحديث قليلا في العراق
على الخصوص . وكان المسلمون غير العرب هناك أكثرهم الفرس ، وهم

(١) ابن خلكان ٩٢ ج ١ (٢) ابو الفداء ٢٠٩ ج ١

(٣) ابن خلكان ٤٣٩ ج ١

أهل تمدن وعلم ، فعمدوا الى استخدام القياس العقلي في استخراج أحكام الفقه من القرآن والحديث ، فخالقوا بذلك أهل المدينة لأنهم كانوا شديدي التمسك بالتقليد . فكان من جملة مساعي المنصور في تصغير أمر المدينة وفقهائها ، وخصوصا مالك بعد أن أفتى بخلع بيعته ، أنه نصر فقهاء العراق القائلين بالقياس ، وكان كبيرهم يومئذ أبا حنيفة النعمان في الكوفة ، فاستقدمه المنصور الى بغداد وأكرمه وعزز مذهبه . وكان أبو حنيفة لا يحب العرب ولا العربية ، حتى أنه لم يكن يحسن الاعراب ولا يبالى به (١) ولذلك كان الربيع حاجب المنصور يقاومه ، لأن الربيع ينتسب الى العرب وكان يكره الفرس ، وابنه الفضل هو الذي سعى في قتل البرامكة

فلما نصر المنصور أبا حنيفة وأصحابه ، وهم المعروفون بأهل الرأي أو القياس ، ازداد مالك تمسكا برأيه وتبعه فقهاء الحجاز وهم أهل الحديث . وانقسم الفقهاء الى قسمين : أهل الحديث ، وأهل الرأي . وزعيم الاول مالك وأنصاره من أهل الحجاز ، وأصحاب الشافعي وأصحاب سفيان الثوري وأصحاب أحمد بن حنبل وغيرهم من أهل التقليد ، وعرفوا بأصحاب الحديث لأن عنايتهم مبدولة في تحصيل الاحاديث ونقل الاخبار وبناء الاحكام على النصوص ، ولا يرجعون الى القياس الجلي أو الخفي ما وجدوا خبرا أو أثرا . ويدلك على شدة تمسكهم بذلك قول الشافعي : « اذا وجدتم لى مذهبا ووجدتم خبرا على خلاف مذهبي فاعلموا أن مذهبي ذلك الخبر »

وزعيم أصحاب الرأي أبو حنيفة النعمان وأصحابه فقهاء العراق ، ومنهم محمد بن الحسن وأبو يوسف القاضي وزفر بن هذيل والحسن بن زياد وابن سماعة وأبو مطيع البلخي وعافية القاضي وغيرهم ، وقد سموا أهل الرأي لأن عنايتهم اتجهت الى تحصيل وجه القياس والمعنى المستنبط من الأحكام وبناء الأحكام عليها ، وهم يقدمون القياس الجلي على آحاد الأخبار (٢)

وجاء بعد مالك من أصحاب مذهبه محمد بن إدريس المطلبى الشافعي ، فرحل الى العراق وخالط أصحاب أبي حنيفة وأخذ عنهم ، ومزج طريقة أهل الحجاز بطريقة أهل العراق واختص بمذهب خالف فيه مالكا في كثير من مذهبه . ثم جاء بعده أحمد بن حنبل وكان من علية المحدثين ، وقرأ أصحابه على أصحاب الامام أبي حنيفة مع وفور بضاعتهم من الحديث فاقتصوا بمذهب آخر . ووقف التقليد في الامصار عند هؤلاء الاربعة ، وتولد منهم مذاهب الاسلام الاربعة وهي : الحنفي ، والمالكي ، والشافعي ، والحنبلي

(١) ابن خلكان ١٦٥ ج ٢
(٢) الشهرستاني ١٦٠ ج ١

وللفقه فروع وشروح يضيق المقام عنها هنا ، فنترك الكلام فيها وفي غيرها من فروع العلم الى تاريخ آداب اللغة العربية (ج)

متزلة العلماء عند الخلفاء

يراد بالعلماء ، في عرض الكلام عن العلوم الاسلامية ، علماء الحديث والقرآن

(ج) كان الفقه أول الامر مقابلا للعلم ، وكان هذا الآخر مقصورا على القرآن الكريم والروايات، والروايات هنا هي ما حدث به الصحابة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أما الفقه فكان مقابلا لما عرف بعد ذلك بالاجتهاد في استخراج الاحكام حيث لا يوجد نص صريح من القرآن والسنة ، ولهذا فقد كان للفقه معنى الرأى ، وهما يستخلصان أول الامر بمعنى واحد ، وقد فرق النووي في « تهذيب الاسماء واللغات » تفرقة واضحة بين العلم والفقه . وفي تفسير مجاهد للآية الكريمة « ومن يؤت الحكمة » أن الحكمة هي القرآن والعلم والفقه (تفسير الطبري ج ٣ ص ٥٦) ، وعندما أوصى هرون الرشيد قائده هرثة بن أعين امره بأن يستعين فيما اشكل عليه « بأولى الفقه في دين الله وأولى العلم بكتاب الله » (طبري : تاريخ ، طبعة أوروبا ٧١٧/٢) . وقد شرح الفرق بين العلم والفقه اجناس جولدسيهر شرحا وافيا ، وهذا تفسير قولهم مثلا ان عبد الله بن عمر « كان جيد الحديث ولم يكن جيد الفقه » . ويتضح ذلك بصورة اجلى في قولهم ان عبد الله بن عباس كان أعلم بالحديث وأفقه رأيا (أو أتق رأيا) ويوسف زيد بن ثابت بأنه كان « فقيها في الدين عالما في السنة » . أما سعيد بن المسيب فكان يوصف بأنه « فقيه الفقهاء وعالم العلماء » والمعنى واضح ، فالعلم هو العلم بكتاب الله وسنة رسوله ، والفقه هو استخراج الاحكام . ومن هنا فان الذهبي يقول في طبقات الحفاظ ان ابا ثور كان « أحد أئمة الدنيا فقهيا وعالما » . وكان الناس اذا استفتوا عطاء بن رباح في أمر فافتاهم سألوه ان كانت فتواه علما أو رأيا ، وكان اذا أسند الفتوى الى علم قال انها علم ، والا فهي رأى . وليس معنى ذلك أن الناس كانوا يقللون من أهمية للرأى اذ الواقع ان الفتوى كانت لها قيمتها سواء أكانت رأيا أم علما ، وقد أصبح « رأى » السابقين من الصحابة والتابعين وتابعيهم أساسا من الأسس الفقهية ، يقاس عليه وتستخرج منه الاحكام

ولم يكن الرأى مجرد تفكير خالص ، بل كان لابد أن يعتمد على نوع من القياس ، فلما كثرت الآراء والحلول وأضيفت الى مجموع الاحكام الصريحة بلفظ القرآن وصحيح السنة ، كثرت كذلك الحالات التي يمكن القياس عليها ، وأخذت دعائم القياس وأصوله تثبت وتحدد حتى أصبح منها واضحا المعالم . فهناك قياس صحيح وقياس غير صحيح ، فالقياس الصحيح ما أجمع العلماء والفقهاء على صحته ، ولما كان الإجماع ضروريا لاثبات صحة الحديث ، فقد أصبح ضروريا أيضا لاثبات صحة القياس ، وبهذا دخل عنصر جديد بين عناصر التشريع ، وهو الإجماع فأصبحت عند استخراج الاحكام اربعة : القرآن ، السنة ، والقياس ، والإجماع . وهذه اصول الفقه ، وقد نشأ عنها علم أصول الفقه ، أما الفقه نفسه ، فقد ظل خاصا باستنباط الاحكام من هذه الاصول أو تفسيرها ، ويطلق لفظ فقيه على المتمكن من أصول الفقه أو العارف بالفقه أو بهما معا

ومادام الفقه هو استنباط الاحكام من الاصول أو هو تفسير هذه الاصول ، فمن الطبيعي ان تنشأ فيه مذاهب ، وطبيعي أيضا ألا يكون الخلاف في الاصلين الاولين وهما القرآن والسنة ، بل في الثالث والرابع وهما القياس والإجماع : لان القرآن والسنة ظل يطلق عليهما اسم العلم ، فيقال عن عبد الله بن المبارك أنه « دون العلم في الابواب والفقه » (الذهبي : تذكرة الحفاظ ٢٥٠/١) وعن أبي ثور انه : « صنف الكتب وفرع على السنن » (نفس المصدر ٩٥/٢) . والمراد بالكتب هنا ما أثر عن المفسرين والمحدثين الاول من تفسيرات وشروح ، فيقال ان فتاوى الزهري كانت تقع في ثلاثة كتب ، وفتاوى الحسن البصري كانت تقع في عشرة أسفار ، وأقدم ما عثرنا عليه من هذه الكتب مخطوطة تسمى « مجموعة زيد بن علي » (توفي ١٢٢/٧٤٠) ، وقد نشرها المستشرق الايطالي أ. جريفيشي سنة ١٩١١

بيد أن أول واوسع كتاب في الفقه على مذهب السنة هو موطأ مالك بن انس (٧١٥/٩٧) - ٧٩٥/١٧٩) وهو كتاب حفيظ يعتبر كتاب أصول وكتاب فقه في آن واحد ، وهو تشريع كامل يعتمد على القرآن والسنة وقياس أهل المدينة واجمعهم ، ورأى مالك انما هو خلاصة هذين الأخيرين

والفقه . وقد علمت ما كان من منزلة هذه العلوم في الخلافة ، فلا عجب بعد ذلك اذا رأيت الخلفاء يكرمون الفقهاء وأصحاب الحديث والزهاد والعلماء ، وقد رأيت أن بنى أمية كانوا يستشيرون فقهاء المدينة في الامور الهامة .

وقد حاول نفس المحاولة عبد الرحمن الازعاعي في الشام ، ولكن تشريعه لم يبلغ من الكمال والدقة المنهجية مابلغه تشريع مالك

أما في العراق فلم يتقيد أصحاب الرأي برأى أهل المدينة واجماعهم ، وانما أطلقوا مجال الرأي ، وصاحب مدرستهم حماد بن ابي سليمان المتوفى ٧٢٨/١٢٠ ، وفي هذه المدرسة نشأ أبو حنيفة النعمان فوضع أصول المذهب الحنفى ومنهجه ، ثم جاء تلميذه أبو يوسف القاضي (توفى ١٨٢/٧٩٥) ومحمد بن الحسن الشيباني (توفى ١٨٩/٨٠٤) فأكملوا المذهب وثبتا أصوله ، وإلى أبي يوسف يرجع الفضل في تطبيق أصول الفقه على مسائل الادارة والاموال كما نرى في كتابه المعروف بكتاب الخراج ، وقد توسع الحنفيون في الرأي حتى قرروا لفقهاءهم حق الاستنباط ، في حين أن الرأي عند المالكية ينتهى عند مالك ، وقد اعترف مالك « بالصلحة » - وتسمى عند المالكية الاستصلاح - كأساس من أسس مذهبه ، ولكن أبا حنيفة توسع في ذلك توسعا جعل المالكية يغفرون من منهج الاحناف ، وقد أدخل مذهب أبي حنيفة مذهب سفيان الثوري (توفى ١٦١/١٧٨) كما أدخل أيضا مذهب عبد الرحمن الازعاعي في الشام

وقد اتجه عدد عظيم من الاحناف اتجاها آخر بمذهبيهم ، فبدلا من ان يفيدوا مما كان مذهبهم يسمح به من حرية واسعة في استعمال الرأي حتى يجعلوه رمزا على الحرية الفكرية وبابا مفتوحا امام الاجتهاد ، نجدهم يفهمون حرية الرأي على أنها توسع في الفروض الشكلية لمسائل فقهية نادرة الحدوث أو مستحيلة أو تافهة تدل على سخف في التفكير ، وكان من عاداتهم أن يضعوا المسألة في صورة صيغة : « أرايت لو وقع لرجل كذا وكذا ؟ » حتى كثرت « أرايت » في كتبهم ومجالسهم وسماهم الناس الارائتين ، ونفر الكثيرون من هذا الاتجاه حتى قالوا : « لا تقاعد أصحاب أرايت ، أرايت » ورويت احاديث لسنن الدارمي وأبي داود تستنكر هذا الاتجاه ، ثم انفق فقهاءهم كانوا يعتمدون الى تأييد آرائهم بأحاديث موضوعة ، حتى كثرت الاحاديث كثرة بالغة ، وكاد يبطل استعمال القياس ، مادام هناك لكل مسألة حديث خاص بها .

وكان لابد من وضع حد لهذا الاتجاه ، كان لابد من العودة الى أصول الفقه لضبطها وتثبيت قواعدها وطرق استخراج الاحكام من الاصول وطرق القياس . كان لابد من انتهاز سبيل وسط بين أهل الرأي (الحنفيين) وأهل الحديث (المالكيين) ، وهذا هو ما فعله محمد بن ادریس الشافعى المتوفى ٢٠٤/٨٢٠ فقد كان أصوليا راسخ العلم ومنهجيا في تفكيره ، وكتابه « الام » يعتبر أحسن كتب أصول الفقه على الاطلاق ونموذجا بديعا للتفكير الاسلامي العلمى الذى لا يتطرف ولا يجمد . وهو ينكر « الاستحسان » ويجعل مكانه « الاستصحاب » أى قياس مسألة قديمة مجمع عليها على مسألة جديدة ، وتطبيق حكم الاولى على الثانية . في حين أن الاستحسان هو اقرار شيء لمجرد أنه « حسن » نافع للناس ، وقد وضع الشافعى الاستصحاب ليحل ايضا محل « استصلاح » المالكية ، وهو اقرار شيء لانه في صالح الناس

ومن ناحية أخرى ، ظهر اتجاه جديد يعارض ذلك كله ، ويرجع بالفقه الى القرآن والسنة وحدهما ، فلا يسمح بالقياس الا في حالة المشابهة التامة ، ولا يجعل للرأى الا مجالا ضيقا جدا ، وهذا هو مانادى به أحمد بن حنبل المتوفى ٢٤١/٨٥٥ . وظهر بعد ذلك مذهب يضيق المسألة اكثر من ذلك ، فلا يأخذ الا بظاهر المعنى للآيات القرآنية والاحاديث النبوية ، وقد قلل بذلك داود بن على الاصفهاني المتوفى ٢٧٠/٨٢٣ وأصحابه يسمون الظاهرية أو أهل الظاهر . وقد ظهر من الشافعيين من يؤيدون مذهب الظاهر ويقربون بينه وبين مذهبيهم ، ومن أولئك يحيى بن أكرم المتوفى ٢٤٢/٨٥٦

انظر : دائرة المعارف الاسلامية ، مادة « فقه » رقلم جولدسيهر والمراجع المعطاة

هذا بالإضافة الى الاصول العربية المعروفة لأئمة الفقهاء الذين ورد ذكرهم في كلامنا ، ونضيف اليها الملل والنحل للشهرستاني ، والفصل في الملل والاهواء والنحل لابن حزم ، واحياء علوم الدين للغزالي ، ومقدمة ابن خلدون

وانظر أيضا كتب الاستاذ محمد أبو زهرة عن مالك وأبى حنيفة ، وكتاب الاستاذ أمين الخولى : « مالك ، ترجمة محرومة »

وكثيرا ما كان أهل التقوى من الخلفاء يسألون العلماء عن شروط العدل ليجروا عليه - كتب عمر بن عبد العزيز الى الحسن البصرى يسأله عن صفة الامام العادل فأجابه جوابا وافيا (١) فلما وصله الكتاب وقع منه بمواقع وعظه ومحل يقظه »

وقد يحمل ذلك على مبالغة هذا الخليفة (يريد عمر بن عبد العزيز) في التقوى والورع فما قولك بالمنصور المشهور بالشدة والحزم والدهاء ، اذ دخل عليه عمرو بن عبيد بعد مبايعة المهدي فقال له المنصور: « يا أبا عثمان، هذا ابن أمير المؤمنين وولى عهد المسلمين » فقال عمرو: « أراك قد وطدت له الأمور وهى تصير اليه وأنت عنه مسئول » فاستعبر المنصور وقال: « عظمى يا عمرو » فوعظه (٢) ولما مات عمرو رثاه المنصور بأبيات (٣) . ناهيك بحكاية المنصور وهو يطوف بالكعبة ليلا اذسمع ذلك العابد يشكو ظهور البغى والفساد ، ولما سأله المنصور عن معنى صرح له أنه يعنيه هو وحكومته ووعظه عظة شديدة لم يستنكف المنصور من سماعها (٤) وقس على ذلك عظات الاوزاعي وابن السماع وسفيان الثوري وشيب بن شبة للمنصور والمهدي والرشيدي (راجع كتاب الثوري للرشيدي في الجزء الثاني من هذا الكتاب) . وكثيرا ما كان الواعظ يبكى الخلفاء لأنهم كانوا يجلون العلماء ويكرمونهم ، حتى تسابقوا الى احترامهم بما لا يصدر الا من خادم الى مولاه ، فقد صب الرشيد الماء على يدي أبي معاوية الضرير وهو يغسل (٥) وكان الاكرام في أول الأمر للفقهاء والمحدثين خاصة ، ثم أطلق على أصحاب سائر العلوم الاسلامية كالنحاة واللغويين ، فقد كان الرشيد يجلس الكسائي ومحمد بن الحسن على كرسيين ويأمرهما ألا ينزعجا لنهضته (٦) ولما مات هذان في الري في يوم واحد قال الرشيد: « دفنت الفقه والعريضة في الري » (٧) . وقد تنازع الأمين والمأمون ولدا الرشيد في حمل نعل استاذهما الفراء وتقديمها اليه ، حتى اصطالحا على أن يقدم كل منهما واحدة (٨)

واكرام الخلفاء للعلماء اقتضى اكرام العامة لهم ، فلما توفي ابن حنبل مشى في جنازته ٨٠٠٠ رجل و ٦٠٠٠ امرأة (٩) وناهيك بهذا الاكرام . ولما سار أبو اسحق الشيرازي من قبل الخليفة المقتدى الى السلطان ملك شاه تنافس أهل البلاد في لقائه والتمسح بأطرافه والتماس البركة من ملبوسه ومركوبه (١٠)

(١) العقد الفريد للملك السعيد ٥٣
(٢) ابن خلكان ٢٨٥ ج ١
(٣) الفخرى ١٧٥
(٤) الزهر ٢١١ ج ٢
(٥) طبقات الادباء ١٣٠
(٦) ابن خلدون ٤٧٤ ج ٣
(٧) المسعودى ١٧٣ ج ٢
(٨) العقد الفريد ٢٨٧ ج ١
(٩) ابن خلكان ٤٥٤ ج ١
(١٠) ابن خلكان ١٧ ج ١

٢ - العلوم اللسانية

النحو :

النحو بمعناه الحقيقي طبيعى على لسان كل متكلم يتلقنه من مرضعه . لأن الانسان يتعلم النحو وهو يتعلم النطق اذ بدونه لا يحسن التعبير عن أفكاره ، أما اذا أراد أن يتعلم لسانا غير لسانه فدرس قواعد النحو يسهل عليه تناوله . ولذلك فالأمة قد تقضى قرونا متطاولة وهى تتكلم وتخطب وتنظم الشعر قبل أن تدون قواعد النحو وتجعله علما . فالليونان لم يبدأوا بضبط قواعد لسانهم الا فى القرن الخامس قبل الميلاد ، وأول من بدأ بذلك منهم بروتغوراس Protogoras المتوفى سنة ٤١١ ق.م . فتكلم فى المذكر والمؤنث وبعض الأسماء ، ثم بروديكوس Prodichos وقد عاصره وتكلم فى المترادفات ، ثم جاء أرسطو وغيره وأتموا علم النحو اليونانى وله تاريخ يشبه تاريخ النحو العربى . وكذلك فعل الرومان فى نحو اللغة اللاتينية ، فانهم لم يدونوا قواعده الا فى القرن الأول قبل الميلاد فى زمن بومبيوس ، وقد دونه عالم اسمه ديونيسيوس تراكس D. Tarrax اقتداء باليونان

فالليونان نبغ فيهم الشعراء والخطباء والأدباء والفلاسفة قبل تدوين قواعد النحو فى لسانهم . فنظم هوميروس الياذته وأوديسيته وهو لم يتعلم قواعد النحو فلم يضره ذلك شيئا ، لأن اللغة كانت ملكة فيه ، والف اشيولوس Aeschylus الروايات التمثيلية وسحر اليونان ببيانه ، ونبغ الفلاسفة فريسيديس واناكسيمندر وطاليس Tales وكتب هيرودوتس الرحالة تاريخه الشهر قبل وضع النحو . وكذلك الرومان فقد نبغ فيهم جماعة من الشعراء والخطباء والأدباء قبل تدوين النحو

وضع النحو العربى ووضعه :

وهكذا العرب فقد نظموا الشعر وألقوا الخطب وتناشدوا وتراسلوا قبل تدوين النحو ، لأن ملكة اللغة كانت طبيعية فيهم . على أنهم اضطروا الى ضبط تلك القواعد وتدوينها بأسرع مما اضطروا اليه اليونان والرومان ، التماسا للدقة فى ضبط معانى القرآن ، فلم يمض على دولتهم نصف قرن حتى شعروا بالحاجة الى النحو . ويقلب على ظننا أنهم نسجوا فى تبويبه على منوال السريان ، لأن السريان دونوا نحوهم وألقوا فيه الكتب فى أواسط القرن الخامس للميلاد ، وأول من باشر ذلك منهم الأسقف يعقوب الرهاوى الملقب بمفسر الكتب المتوفى سنة ٤٦٠ م (١) فالظاهر أن العرب لما خالطوا السريان فى العراق اطلعوا على آدابهم وفى جملتها النحو فأعجبهم ، فلما

(١) شعراء السريان للقداحى ١٨

اضطروا الى تدوين نحوهم نسجوا على منواله لأن اللغتين شقيقتان .
ويؤيد ذلك أن العرب بدأوا بوضع النحو وهم في العراق بين السريان
والكلدان ، وأقسام الكلام في العربية هي نفس أقسامه في السريانية

أما استعجال العرب في تدوين النحو فانه تابع لاستعجالهم في الفتح ونشر
الدين ، لأن الفتوح دعت الى الاختلاط بالأعاجم ، والاختلاط دعا الى فساد
اللغة فأصبح الناس يهملون الاعراب . لأن العرب كانوا عند ظهور الاسلام
يعربون كلامهم على نحو ما في القرآن ، الا من خالطهم من الموالي والمتعربين
فان هؤلاء كانوا حتى في أيام النبي (صلعم) يخطئون الاعراب ، وقد ذكروا
رجلا لحن بحضرة النبي فقال : « أرشدوا أخاكم فقد ضل » . وقال
أبو بكر : « لأن أقرأ فأسقط أحب الى من أن أقرأ فألحن » (١) . ولكن
اللحن لم يكثر الا بعد الفتوح وانتشار العرب في الآفاق ، فتذمر العمال مما
كانوا يسمعون من اللحن وخصوصا في قراءة القرآن ، فأحسوا بحاجة
شديدة الى ضبط قواعد اللغة

أما واضع علم النحو أو مدونه فهو بالاجماع أبو الأسود الدؤلى المتوفى سنة
٦٩ هـ وكان من سادات التابعين ، صحب على بن أبى طالب وشهد معه
واقعة صفين ، ثم أقام في البصرة وكأنه تعلم لغة السريان أو اطلع على نحوها
فرغب في النسج على منواله ، فعرض ذلك على والى العراقيين يومئذ زياد
ابن أبيه فأبى (٢) لأسباب تقدم بيانها . حتى اذا جاءه رجل يشكو اليه أمرا
فسمعه يقول : « أصلح الله الأمير ، توفى أبانا وخلف لنا بنون » فاستنكف
زياد من سماع ذلك اللحن فبعث الى أبى الأسود أن يضع ما كان قد نهاه عنه
وقيل بل السبب في وضعه أن بنت خويلد الأسدي دخلت على معاوية
وقالت : « ان أبوى ماتا وتركاكلى مالا » (بالامالة) وبلغ ذلك عليا فرسم
لأبى الأسود باب « ان » وباب الاضافة وباب الامالة . ثم سمع أبو الأسود
رجلا يقرأ : « ان الله برىء من المشركين ورسوله » بخفض رسوله ،
فصنف باب العطف والنعته . ثم ان بنته قالت له يوما : « يا أبت ما أحسن
السماء » على طريق الاستفهام ، فقال : « نجومها » . فقالت : « انما أتعجب
من حسننها » . فقال : « قولى : ما أحسن السماء .. افتحى فك » .
وقالت له يوما : « ما أشد الحر » على لفظ الاستفهام على نحو ما جرى في
الجملة الماضية ، فصنف باب التعجب (٣)

واختلف المؤرخون في هذه الروايات وذكرها غيرها ولكن الفحوى واحد ،
فهم مجمعون على أن أبا الأسود وضع النحو لمثل الأسباب التى قدمناها ،
وهو يقول انه تلقى ذلك عن على بن أبى طالب . فوضع علم النحو والشروع
فيه على الأقل ثابت لأبى الأسود ، ويؤيد ذلك ما ذكره ابن النديم صاحب

(١) الزمر ١٩٩ ج ٢

(٢) ابن خلكان ٢٤٠ ج ١

(٣) مفتاح السعادة (خط)

الفهرست مما شاهده بعينه في عرض كلامه في خزانة كتب أطلعه عليها أحد جماعى الكتب ، فكان في جملة ما فيها قمطر كبير فيه نحو ٣٠٠ رطل جلود فلجان وصكاك وقرطاس مصرى وورق صينى وورق تهامى وجلود آدم وورق خراسانى ، وبينها أربعة أوراق قال : « أحسبها من ورق الصين ، ترجمتها : هذه فيها كلام في الفاعل والمفعول من أبى الأسود رحمة الله عليه ، بخط يحيى بن يعمر . وتحت هذا الخط بخط عتيق : هذا خط علان النحوى ، وتحت : هذا خط النضر بن شميل . ثم لما مات هذا الرجل فقدنا القمطر » (١)

على أن ما وضعه أبو الأسود من القواعد لم يكن ليسد الحاجة المستعجلة لضبط القراءة ، فعمد الى ضبطها بعلامات يتميز بها المنصوب من المرفوع ، أو الفعل من الاسم ، فوضع علامات كانت عند السريان يدلون بها على الرفع والنصب والجر ، أو يميزون بها الفعل من الاسم ، كما تقدم في كلامنا عن تاريخ الخط العربى

فالعرب كانوا يعرفون الاعراب قبل علم النحو ، كما كانوا يحسنون النظم قبل علم العروض ، وكان ذلك ملكة طبيعية فيهم ، حتى اختلطوا بالاعاجم وأسلم هؤلاء وليس فيهم ملكة اللغة ليفهموا القرآن ، فاضطروا الى ضبطها وكانوا أكثر المسلمين اشتغالا في ذلك . بدأ بعلم النحو أبو الأسود وأتمه من جاء بعده من أهل البصرة والكوفة . وأول من أخذ عنه عنيسة بن معدان المهرى ، وأخذ عن هذا ميمون الأقرن ، وأخذ عنه عبد الله الحضرى ، وأخذ عنه عيسى بن عمر ، وأخذ عنه الخليل بن أحمد امام علم العروض واللغة ، ومنه أخذ سيبويه امام علم النحو (٢) فتنوّل النحو في هؤلاء من الواحد الى الآخر ، وهو ينمو ويرتقى عملا بناموس الارتقاء ، وألفوا فيه الكتب لكنه نضج في أيام سيبويه (توفى سنة ١٨٠ هـ) فألف فيه كتابه الشهير ، وأصبح كل من ألف في النحو عيالا عليه وعلى كتاب العين الآتى ذكره . وكانوا اذا قالوا : « الكتاب » أرادوا كتاب سيبويه ، وكان الناس يتهادونه كأفخر التحف (٣)

(١) الفهرست ٤٠ (٢) ابن خلكان ٣٠٨ ج ٢ (٣) ظاهر ان نسبة وضع النحو الى أبى الأسود الدؤلى على هذه الصورة التى ترونها الكتب القديمة أقرب الى القصص . ورأى المؤلف فى اثر الاتصال بين السريان والعرب فى أصل النحو العربى رأى سليم إيدته بعض الأبحاث التى قام بها علماء اللغة فى العصر الحديث ، ومن رأينا أن دراسة أصول علم النحو العربى لا يستطيعها الا من ألم باللغات السامية المما صحيحا ، وعرف كذلك الفارسية واللاتينية ولغات الهند ، وقد كتب المستشرقون أبحاثا طويلة فى هذا الموضوع ، والظاهر أنهم أقدر على الكلام فى هذه الناحية لعلمهم باللغات وفقه اللغة المقارن ، وقد أوجز بروكلمان فى تاريخ الآداب العربية وجوه النظر المختلفة ، وأورد المراجع التى لابد من الرجوع إليها : انظر :

Brockelmann, Gesch. der Arabischen Literatur, Supplemant I, pp. 155-158
وانظر مقال الزا ليختنشتتر Ilse Lichtenstædter فى دائرة المعارف الإسلامية عن «النحو» وكتاب: Flügel, Die Grammatischen Schulen der Araber

الأدب واللغة

لما أخذ المسلمون في تفسير القرآن احتاجوا الى ضبط معاني الفاظه وتفهم أساليب عباراته ، فجرهم ذلك الى البحث في أساليب العرب وأقوالهم وأشعارهم وأمثالهم ، ولا يكون ذلك سالماً من العجمة أو الفساد الا اذا أخذ عن عرب البادية الذين كانت قريش في الجاهلية تتخير من ألفاظهم وأساليبهم فعنى جماعة كبيرة من المسلمين بالرحلة الى بادية العرب والتقاط الأشعار والأمثال وسؤال العرب عن معاني الألفاظ وأساليب التعبير ، وسموا الاشتغال بذلك مع ما يتبعه من صرف ونحو وبلاغة بعلم الأدب

والقبائل التي نقلوا عنها العربية قيس وتميم وأسد ، وعن هذه القبائل الثلاث أكثر ما أخذ من اللغة ، وعليها عول الناقلون في الغريب وفي الأعراب والتصريف ، ثم قبيلة هذيل وبعض كنانة وبعض طى ، ولم يؤخذ من غيرهم من سائر القبائل ولا أخذوا شيئاً عن الحضرة ولا من البدو الذين كانوا يسكنون البراري المجاورة للأمم الأخرى . فلم يأخذوا من لخم وجذام لمجاورتهم أهل مصر ، ولا من قضاة وغسان وإياد لمجاورتهم أهل الشام وأكثرهم نصارى يقرأون العبرانية والسريانية ، ولا من بكر لمجاورتهم النبط والفرس ، ولا من عبد القيس وأزد عمان لأنهم كانوا بالبحرين يخالطون الهند والفرس ، ولا من أهل اليمن لمخالطتهم الهند والحبشة ، ولا من بنى حنيفة وسكان اليمامة ولا من ثقيف وأهل الطائف لمخالطتهم تجار اليمن ، ولا من حاضرة الحجاز لأن الذين نقلوا اللغة صادفهم حين ابتدأوا ينقلون لغة العرب وقد خالطوا غيرهم من الأمم وفسدت ألسنتهم . والذين نقلوا اللغة وأساليبها عن القبائل المذكورة وأثبتوها في الكتب وصيروها علماً هم أهل البصرة والكوفة فقط (١) وكان أكثر المشتغلين في جمع اللغة وآدابها العجم لحاجتهم الى ذلك أكثر من العرب

علماء الأدب بالبصرة والكوفة :

ومن أقدم المشتغلين في جمع اللغة والأدب وأوسعهم حفظاً ورواية أبو عمرو ابن العلاء التميمي المتوفى بالكوفة سنة ١٥٤ هـ وهو من مواليد مكة ، وكانت كتبه عن العرب الفصحاء تملأ بيته الى قريب السقف (٢) وقال مع ذلك : « ما انتهى اليكم مما قالت العرب الا أقله ، ولو جاءكم وافرا لجاءكم علم وشعر كثير »

ونبغ في العراق جماعة كبيرة من طلاب الأدب واللغة في القرن الثاني للهجرة ، أشهرهم أربعة في عصر واحد وهم : أبو زيد ، وأبو عبيدة ،

(١) المزهري ١٠٥ ج ١

(٢) ابن خلكان ٣٨٦ ج ١

والأصمعي ، والخليل . وكان العلم كله عندهم ، والثلاثة الأول أخذوا عن أبي عمرو المذكور اللغة والنحو والشعر والقراءة (١)

فأبو زيد كان من الأنصار توفي سنة ٢١٤ هـ وهو من رواة الحديث ثقة في اللغة وأخذ عنه سيبويه . وأبو عبيدة كان أعلم الجميع بأيام العرب وأخبارهم وأجمعهم لعلومهم ، ومن أقواله : « ما التقى فرسان في جاهلية أو اسلام الا عرفتاهما وعرفت فارسيهما » توفي سنة ٢٠٩ هـ ، والأصمعي غلبت عليه اللغة وحفظ الشعر ونقده ، توفي سنة ٢١٣ هـ

وأما الخليل بن أحمد المتوفى سنة ١٧٠ هـ فانه أسبقهم جميعا وقد لقبوه بسيد علم الأدب ، لأنه أول من دون اللغة على حروف المعجم في كتابه المشهور بكتاب العين ، سماه بذلك لأنه رتب على الحروف باعتبار مخارجها : من الحلق ، فاللسان ، فالأسنان ، فالشفيتين . وبدأ بحرف العين ، وهاك ترتيبه : ع ح هـ خ غ ق ك ج ش ص ض س ر ط د ت ظ ث ز ل ن ف م و ا ي . فكان الخليل هذا بذلك حذو الهنود في ترتيب حروف لغتهم السنسكريتية ، فانهم يسدون بأحرف الحلق حتى ينتهوا الى الاحرف الشفوية (٢)

وكان من عادات العرب أن يسموا الكتاب بأول لفظ من ألفاظه ، ككتاب الجيم للهروى وهو كتاب رتب على حروف المعجم بدأ به بحرف الجيم (٣) وكتاب الجيم لأبي عمرو الشيباني (٤) ومن هذا القبيل كتاب العين في الحروف ، وكتاب الميم ونحوهما . ويستفاد من ملاحظة ترتيب الحروف في كتاب العين أن الجيم كانوا يتلفظون بها كالكاف الفارسية ، وان كثيرا من الأحرف تختلف عما تنطق به الآن (٥)

وكان الحفاظ والرواة يدققون فيما يأخذونه عن العرب من شعر أو مثل أو غير ذلك ، وما يسمعون من معانيها ، لأن عليها يتوقف تفسير القرآن . فانهم اتبعوا في نقل اللغة طريقة الاستناد المتسلسل ، كما كانوا يفعلون في رواية الحديث . وعنى الناس بحفظها مثل عنايتهم بحفظه ، لاعتبارهم أن ناقل اللغة يجب أن يكون عدلا كما يشترط في ناقل الحديث ، لأنها واسطة تفسيره وتأويله . على أنهم لم يستطيعوا ذلك تماما

وازدهرت علوم الأدب في القرن الثاني وبعض الثالث الهجريين في البصرة

William's Sanskrit Grammar, 15 (٢)

(١) الزهر ٢٠٢ ج ٢

(٤) ابن خلكان ٦٥ ج ١

(٣) طبقات الادباء ٢٦٠

(٥) انظر كتاب « تاريخ المعاجم العربية » للدكتور حسين نصار ، مجلدان ، القاهرة

١٩٥٦ - ١٩٥٥

والكوفة ، ونبغ فيهما النحاة والرواة والحفاظ والأدباء والشعراء . والبصرة متقدمة في ذلك ، وأهل الكوفة يأخذون عن أهل البصرة ، وهؤلاء يستنكفون أن يأخذوا عن أهل الكوفة لاعتقادهم أنهم غير محققين . ولم يعلم أن أحدا من البصريين أخذ عن أهل الكوفة إلا أبو زيد الانصاري (١) على أن الشعر كان في الكوفة أكثر واجمع منه في البصرة ، ولكن كثيرا منه مصنوع . وأشهر علماء الكوفة الكسائي (٢) المتوفى سنة ١٨٢ هـ يليه في النحو تلميذه الفراء المتوفى سنة ٢٠٧ هـ وعلى الأحمر اللحياني وغيره ، كما اشتهر في البصرة سيبويه ومن ذكرناهم من النحاة وأهل الأدب

علماء الأدب في بغداد :

وما زال هذان المصران مصدر العلوم الإسلامية حتى بنيت بغداد وانتقل العلم إليها ، وغلب ورود أهل الكوفة إلى بغداد لقربهم منها . وكان العباسيون يكرمونهم لأنهم نصرهم لما قاموا لطلب الخلافة ، فقدمهم الخلفاء على أهل البصرة واستقدموهم إليهم ووسعوا لهم ، ورغب الناس في الروايات الشاذة وتفاخروا بالنوادر ، وتباهوا بالترخيصات وتركوا الأصول واعتمدوا على الفروع . واشتهر منهم في عصر الفراء عبد الله بن سعيد الأموي ، وأبو الحسن الأخفش الكوفي ، وأبو عكرمة الضبي ، وأبو عمرو الشيباني وغيرهم

وآل الأمر بعد نضج علم الأدب في العصر العباسي إلى أربعة هم أركانه وأعمدته ، دونوا علمهم في كتب شهيرة هي : (١) كتاب أدب الكاتب لابن قتيبة (٢) كتاب الكامل للمبرد (٣) البيان والتبيين للجاحظ (٤) كتاب النوادر للقال . وهذه الكتب هي مصادر علم الأدب عند العرب إلى الآن ، وأكثر ما ألف بعدها نقل عنها (٢) (*)

ولما قدم العباسيون أهل الكوفة ارتقوا في عين أنفسهم وأرادوا مسابقة أهل البصرة ومفاخرتهم ، فقامت المجادلات بين البلدين في مسائل كثيرة في النحو والأدب واللغة ، أشهرها مسألة الزنبور والنحلة التي انتشبت نلها بين سيبويه من البصرة والكسائي من الكوفة . وكان الكسائي يعلم الأمين ابن الرشيد ، فكان الأمين ينصره كأن على انتصار أحد النحويين يتوقف انتصار أهل بلده جميعا . ولا بأس من إيراد خلاصة المسألة ليظهر مقدار

(١) طبقات الأدباء ١٧٥ (٢) الزهر ٢٠٦ (٣) ابن خلدون ٤٨٦ ج ١

(*) يضاف إلى ما ذكره المؤلف عن ابن خلدون : الأغانى لأبي الفرج الإصهاني ، والمعقد ألفريد لابن عبد ربه ، والمزهر في علوم اللغة وأنواعها للسيوطي ، وبتيمة الدهر للنصائبي ، ومعجم الأدباء لياقوت ، ومقدمة ابن خلدون . وقد درس هذه الناحية المرحوم أحمد أمين في « فجر الإسلام » دراسة وإافية

اهتمام الخلفاء بالمسائل العلمية . وذلك أن الكسائي كان مقيما في بغداد يعلم الأميين ، واتفق أن سيبويه قدم إليها من البصرة ، فجمع الأميين بينهما في مجلس فتنظرا في أمور كثيرة من جملتها مسألة الزنبور . فذكر الكسائي من أمثال العرب مثالا رواه على هذه الصورة : « كنت اظن الزنبور أشد لسعا من النحلة فاذا هو اياها » فقال سيبويه : « ليس المثل كذلك ، بل : فاذا هو هي » وتجاوزا طويلا ، واتفقا على مراجعة عربي خالص لا يشوب كلامه شيء من كلام أهل الحضرة . وكان الأميين شديد العناية بالكسائي لكونه معلمه فاستدعى عربيا وسأله ، فقال كما قال سيبويه ، فقال له : « نريد أن تقول كما قال الكسائي » فقال : « لسانى لا يطاوعنى على ذلك فانه ما يسبق الا الى الصواب » ففروا معه أن شخصا يقول : « قال سيبويه كذا وقال الكسائي كذا فالصواب مع من منهما ؟ » فيقول العربي : « مع الكسائي » فقال : « هذا يمكن » . ثم عقد لهما المجلس واجتمع أئمة هذا الشأن ، وحضر العربي وقيل له ذلك فقال : « الصواب مع الكسائي وهو كلام العرب » فعلم سيبويه أنهم تحاملوا عليه وتعصبوا للكسائي ، فخرج من بغداد وقد حمل في نفسه لما جرى عليه وقصد بلاد فارس

وبدل ذلك على عناية أهل الدولة بالمسائل الأدبية ، وان كانت في الواقع لا تخلو من غرض سياسي . على أنهم كانوا يهتمون بالأدب من أيام بني أمية ، فقد ذكروا أن عبد الملك بن مروان كان يعقد المجالس للمذاكرة ، فقال مرة لبعض أهل مسامرتة : « أيكم يأتيني بحروف المعجم في بدنه ؟ » أراد أن يعدد أعضاء بدنه فيذكر عضوا أولا حرف الألف ثم عضوا أولا حرف الباء وهكذا الى الياء ، فقام سويد بن غفلة فعدها ، فقام أحد الحاضرين فعدها في جسد الانسان مرتين (١) فأجاز الاثنين

وكانت علوم اللغة في أول أمرها مشتركة مختلطة ، ثم تميزت وتشعبت فصارت علوما عديدة ، كل منها مستقل عن الآخر ، كالنحو والصرف واللغة والمعاني والبيان والاشتقاق والعروض والقوافي وأخبار العرب وأمثالهم والجدل وغيرها ، وقد يطلقون عليها علم الأدب ، ولكل منها تاريخ وشروح هي من شأن تاريخ آداب اللغة (٢)

بلاغة الإنشاء

البلاغة في الإنشاء مما اقتضاه القرآن ، لأنه مثال البلاغة والفصاحة عند

(١) الكشكول ١٥٥

(٢) استوفى ذلك السيوطي في كتابه « الزهر في علوم اللغة وأنواعها » ، حققه محمد احمد جاد المولى وعلى محمد البجاوى ومحمد أبو الفضل ابراهيم ، في مجلدين ، طبعة الحلبي ، القاهرة ، بدون تاريخ

العرب ، يتخذونه نموذجا في خطبهم ورسائلهم وانشائهم ، واذا لم يقصدوا الى الاقتباس منه عمدا فشيوخ حفظه بينهم أكسبهم ملكة البلاغة ، مع ما كانوا فيه من أسباب الحماسة والأنفة في ابان دولتهم . فدخلت لغة العرب بعد الاسلام في طور جديد من البلاغة والفصاحة ، ظهر في عبارتها على اختلاف طرق تأديتها خطابة أو كتابة . أما بلاغة الخطابة فسيأتى الكلام عليها . وأما الكتابة فينظر فيها من عدة وجوه ترجع الى كتابة الرسائل وكتابة الكتب

انشاء الرسائل :

فالرسائل كانت عبارتها عندهم مثل عبارة الخطابة ، من حيث التفنن في اساليب الخيال بالتهديد أو الوعيد أو النصح أو الاستنهاض أو الاستعطاف أو نحو ذلك من المعانى . وكانوا في أوائل الاسلام يتوخون الاختصار فيها على قدر الامكان ، عملا بالحديث القائل : « أوتيت جوامع الكلم ، واختصر لى الكلام اختصارا » . فكانوا يجمعون المعنى الكبير في اللفظ القليل ، حتى تكاد ترى المعنى مجردا من اللفظ . وكان لتلك الرسائل تأثير مثل تأثير الخطب البليغة ، كأنهم استعاضوا بعد زمن الفتح ببلغاء الكتاب عن بلغاء الخطباء

ومن أمثلة الرسائل المختصرة البليغة أن عمر بن الخطاب كتب الى عمرو ابن العاص أمير مصر ، وكان الحجاز في ضنك عام الرمادة : « من عبد الله عمر أمير المؤمنين الى عمرو بن العاص . سلام عليك ، أما بعد فلعمري يا عمرو ما تبالي اذا شيعت أنت ومن معك أن أهلك أنا ومن معي . . فياغوثاه ثم يا غوثاه ! » فكتب اليه عمرو : « لعبد الله عمر أمير المؤمنين من عبد الله عمرو بن العاص . أما بعد فيالبيك ثم يا لبيك ! قد يعثت اليك بعير أولها عندك وآخرها عندي . والسلام عليك ورحمة الله »

ومن أمثلة تأثير المكاتبة البليغة أن عبد الملك بن مروان بنى بابا في بيت المقدس باسمه ، وأمر الحجاج فبنى بابا باسمه هو ، فاتفق أن صالقة وقعت فاحترق بها باب عبد الملك فقط ، فعظم ذلك عليه وتشاءم منه فكتب الحجاج اليه : « بلغني أن نارا نزلت من السماء فأحرقت باب أمير المؤمنين ولم تحرق باب الحجاج ، وما مثلنا في ذلك الا كمثل ابني آدم اذ قربا قربانا فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر » فصرى عن عبد الملك بذلك

وكان الخلفاء يختارون كتابهم من بلغاء ، ويتوخون جهدهم في الاختصار مع البلاغة ، ومن أمثلة ذلك أن المأمون استكتب كاتبه عمرو بن مسعدة كتابا الى بعض العمال بالوصية عليه والاعتناء بأمره فكتب : « كتابي اليك

كتاب واثق بمن كتب اليه ، معنى بمن كتب له ، ولن يضيع حامله بين الثقة والعناية »

وكثيرا ما كانوا يجيبون على الكتاب بعبارة مختصرة ، وخصوصا اذا ارادوا التهديد أو نحوه ، كما أجاب الرشيد تغفور ملك الروم ، وكان قد كتب اليه ينذره بقطع ما كان يحمله الروم الى بغداد من الأموال ، ويطلب اليه ارجاع ما كان قد قبضه منها الى أن قال : « وافتد نفسك بما تقع به المصادرة ، والا فالسيف بيننا وبينك » . فلما قرأ الرشيد الكتاب استفززه الغضب ، فلما بدواة وكتب على ظهر الكتاب بعد البسملة : « قرأت كتابك يا ابن الكافرة ، والجواب ما تراه لا ما تسمعه ! » . وأجاب مثل ذلك الجواب يوسف بن تاشفين للاذفونش ملك الافرنج لما هدده بكتاب ، فكتب يوسف على ظهر الكتاب : « الذي يكون ستره »

التوقيعات :

ويعد من هذا القبيل أيضا التوقيعات ، وهي ما كان يوقعه الخلفاء على ما يرفع اليهم من القصص بما يشبه (التأشير) في دواوين هذه الايام ، وكانوا يتفننون في التوقيع تفننا هديعا . ويقلب أن يجعلوا أجوبتهم آيات من القرآن ، أو جملا من الحديث ، أو أشعارا مشهورة . ومن أمثلة ذلك أن سعد بن أبي وقاص كتب الى عمر بن الخطاب يستأذنه في بنیان بينيه ، فوقع عمر في أسفل الكتاب : « ابن مايكنك من الهواجر وأذى المطر » . ووقع عثمان بن عفان في قصة قوم تظلموا من مروان بن الحكم وذكروا أنه أمر بوجأ أعناقهم : « فان عصوك فقل انى برىء مما تعملون » . وكتب سلمان الفارسي الى على بن أبي طالب يسأله كيف يحاسب الناس يوم القيامة ، فوقع على جوابه : « يحاسبون كما يرزقون »

وكتب عبد الله بن عامر الى معاوية في أمر يعاتبه فيه ، فوقع في أسفل الكتاب : « بيت أمية في الجاهلية أشرف من بيت حبيب في الاسلام ، فأنت تراه » . وكتب اليه ربيعة بن عسل اليربوعي يسأله أن يعينه في بناء داره بالبصرة باثنى عشر ألف جذع ، فوقع في أسفل الكتاب : « أدارك في البصرة أم البصرة في دارك ؟ ! » . وكتب الحجاج الى عبد الملك بن مروان يخبره بسوء طاعة أهل العراق وما يقاسى منهم ، ويستأذنه في قتل أشرافهم ، فوقع له : « ان من يمن السائس أن يتألف به المختلفون ، ومن شؤمه أن يختلف به المتألفون » . ووقع عبد الملك في كتاب ابن الأشعث :

فما بال من أسعى لأجبر عظمه حفاظا وينوى من سفاهته كسرى
ووقع عمر بن عبد العزيز الى عامل شكاه الناس : « كثر شاكوك وقل

شاكروك ، فاما اعتدلت واما اعتزلت ، والسلام » (١) وكتب اليه بعض عماله يستأذنه في بناء مدينة فوق ع على الكتاب : « ابنها بالعدل ونق طرقها من الظلم »

وقس على ذلك سائر توقيعات بنى أمية وبنى العباس ، وهى كثيرة وكلها بليغة ، كتوقيع المهدي لعامله على خراسان لأمر جاء عنه : « أنا ساهر وأنت نائم . . » . وتوقيع الرشيد الى عامله على مصر : « احذر أن تخرب خزانتي وخزانة أخى يوسف ، فيأتيك من لا قبل لك به ومن الله أكثر منه » . وتوقيع المأمون الى ابن هشام فى أمر تظلم فيه : « من علامة الشريف أن يظلم من فوقه ويظلمه من تحته ، فأى الرجلين أنت ؟ »

وكان الأمراء والوزراء أيضا يوقعون مثل توقيعات الخلفاء فيما يرفع اليهم من القصص . فتظلم أحدهم الى زياد بن أبيه من بعض عماله بكتاب فوقع له : « أنا معك » . ووقع الحجاج فى كتاب أتاه من صاحب الكوفة يخبره بسوء طاعة أهلها وما يقاسى من مداراتهم : « ما ظنك بقوم قتلوا من كانوا يعبدونه ؟ ! » . ووقع جعفر بن يحيى فى قضية محبوس : « ولكل أجل كتاب » . ووقع لآخر : « الجناية حبسته والتوبة تطلقه » . وقد اقتبس العرب التوقيع على هذه الصورة من الفرس لأنهم سبقوهم الى ذلك وما زال الاختصار عمدة البلاغة فى رسائلهم ومكاتبتهم ، حتى تحضروا واختلطوا بالفرس بالمصاهرة والمعاشرة فاقتبسوا منهم التفخيم والمبالغة والتوسع . وقد بداوا بذلك من أوائل القرن الثانى للهجرة . وأول من أطلال الرسائل واستعمل التحميدات فى فصول الكتب وفتق أكمال البلاغة عبد الحميد الكاتب المشهور المتوفى سنة ١٣٢ هـ وهو من أهل الشام (٢) غير عربى . وسار الكتاب بعده على خطته وقلده وتوسعوا فى طريقته ، فنبغ جماعة من مشاهير البلغاء فيهم الوزراء والأمراء وأكثرهم من غير العرب ، ومنهم يحيى بن خالد البرمكى فارسى ، والفضل بن الربيع من الموالى ، والفضل بن سهل فارسى ، والصاحب بن عباد من الطالقان ، وابن العميد المتوفى سنة ٣٦٠ هـ وهو من أهل خراسان ، وعماد الدين الكاتب المتوفى سنة ٥٩٧ هـ من أهل أصبهان وهو أكثرهم توسعا وأطنابا

انشاء الكتب :

ونريد بها الكتب المؤلفة فى الموضوعات الأدبية أو العلمية أو التاريخية أو نحوها ، وهى تختلف بلاغة وفصاحة باختلاف موضوعاتها . وكتب الأدب أحوج الى البلاغة لما تقتضيه الموضوعات الأدبية من التخيلات الشعرية

(١) المسعودى ١٢١ ج ٢ (٢) ابن خلكان ٣٠٧ ج ١

والكنايات ونحوها . والفالسب في كتاب الأدب أن يطالعوا آداب العرب ويخالطوهم ويحفظوا أساليبهم في أشعارهم وخطبهم وأقوالهم ، فتحصل فيهم ملكة البلاغة العالية ، ولذلك كان الفقهاء وأهل العلوم الطبيعية قاصرين في البلاغة لاستغناء هذه العلوم عن الخيال ، فيتعودون التعبير بعبارات بسيطة بعيدة عن أساليب الأدباء . وإذا حاولوا الكتابة في الأدب أو نظم الشعر جاء كلامهم ضعيفا ركيكا

فلغة الكتاب ، قبل انتشار الفقه ونقل العلوم الطبيعية الى العربية ، كانت أقرب الى البلاغة مما صارت اليه بعد ذلك ، لأنها كانت مصوغة على مثال القرآن وهو عنوان البلاغة ، لكنه أقرب الى التعبير الشعري منه الى الكلام المرسل . فالذين حذوا حذوه في صدر الاسلام أجادوا في الخطب والرسائل ، لافتقارهما الى ذلك الأسلوب بما فيه من أسباب التأثير في النفوس . فلما أقدم المسلمون على تأليف الكتب ، وكان معظم المؤلفين من الفرس اصطبغت بلاغة العربية بشيء من أسلوب الفرس فنشأ عنها الكلام المرسل المتناسق . وأحسن أمثلته عبارة ابن المقفع في كتاب كلیلة ودمنة ، فانها لا تزال عنوان البلاغة والسهولة الى هذا اليوم

ابن المقفع :

كان ابن المقفع عربيا في الفارسية عالما بأدبها متمكنا من أساليبها لأنها لغته ولغة آبائه . وكان يعرف اللغتين الفهلوية واليونانية ، وقد نشأ في البصرة في النصف الأول من القرن الثاني للهجرة وهي حافلة بالأدباء والشعراء ، فبرع في اللغة العربية وآدابها وكان سليم الذوق ذا قريحة انشائية . فلما أقدم على نقل كتاب كلیلة ودمنة من الفارسية الى العربية جاءت عبارته شاملة للبلاغة والسهولة ، وقد سار على نهجه من جاء بعده لأنه أقدم من حفظ أنشاؤه في الموضوعات الأدبية باللغة العربية (توفي سنة ١٤٣ هـ) (*) على أن سائر كتاب الأدب نحو ذلك العصر قلما أنشأوا شيئا من عند أنفسهم ، لأن أكثر ما كانوا يكتبونه قطع كانوا يروونها عن أهل البادية أو

(*) الف عن ابن المقفع الدكتور عبد اللطيف حمزة كتابا قيما نشر في القاهرة سنة ١٩٣٦ ، وهو خير مرجع عربي عن هذا الاديب الكبير الى الآن . وكان ابن المقفع يكتي بأبي عمر ، ثم سمي بعد ذلك عبد الله وكنيته أبو محمد . وكان أبوه روزبه بن دادويه فارسيًا على الجوسية ثم أسلم ، وكان يتولى بعض الأعمال الخراجية للحجاج ، ثم اتهمه بتضييع الاموال وحيسه وعذبته . وقد نشأ ابنه عبد الله في خدمة الدولة ولقي مصرعه على يد سفيان بن معاوية المهلبى في خبر معروف ، وقد رمى بالزندقة واتهم بأنه رغم اسلامه كان يطن المزدكية سنة ٧٥٧/١٣٩ على أصح الآراء . ولابن المقفع - علاوة على ترجمته المعروفة لكلیلة ودمنة - ترجمة لكتاب فارسي آخر نقله باسم « سر ملوك العجم » وقد احتفظ ابن قتيبة بقطع منه في « عيون الاخبار » ، وله أيضا « الدرر البيتية » في آداب صحبة الملوك ، طبع في القاهرة سنة ١٨٩٣ ، وله أيضا كتاب « الادب الصغير » القاهرة ١٩١٢ ، وقد ترجمه O. Rescher الى الالمانية ونشره في مستوتجارت سنة ١٩١٥ . ونشر له أحمد زكى باشا كتاب « الادب الكبير » سنة ١٩١٣

انظر : الفهرست لابن النديم ، طبعة أوروبا ، ١١٨/١

ابن خلكان : وفيات الاعيان ، ترجمة ١٨٦

البيهنادى : خزائن الادب ، ح ٤٥٩/٣

محمد كرد على : رسائل البلاء ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩١٣ ص ٦ وما يليها

بروكلمان : تاريخ الادب العربية ، ١٥٢/١

عن بلغاء الخطباء بنصها ، وربما وصلوا بينها بفقرات لا تتجاوز قولهم : حدثنا فلان ، أو أخبرنا فلان ، أو خطب فلان فقال كذا وكذا ، وكتب فلان الى فلان كذا وكذا ، مما لا يعد من قبيل الانشاء المرسل . حتى ما كتبه اركان علم الأدب في أواسط القرن الثالث للهجرة ، كالجاحظ والمبرد وابن قتيبة وغيرهم ، فان كتبهم عبارة عن قطع من أقوال العرب أو مروياتهم منقولة بالاسناد الى أصحابها ، وشأنهم في ذلك شأن كتاب المغازي والفتوح والسير والأخبار والأشعار، كحماد والأصمعي وأبي عبيدة ومحمد بن اسحق، فانهم كانوا يقولون ويسندون أقوالهم الى الرواة ، وأكثرهم من أهل البادية . ويقال نحو ذلك فيما جمع بين هذه الفنون، ككتاب العقد الفريد لابن عبد ربه ، وكتاب الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني وغيرهما ، فإنها عبارة عن أخبار مسندة الى أصحابها ، ويندر فيها الكلام المرسل من عند المؤلف

فكتاب كلیلة ودمنة أقدم ما وصل الينا من الانشاء المرسل من لغة رجل واحد . وهو عالم من علماء الفرس وقد نقل الكتاب عن لغة الفرس ، ونظرا الى ما يمتاز به الكتاب المذكور من السهولة والرشاقة عن سائر ما كتب في عصره أو ما بعده من كتب الأدب ، يغلب على ظننا انه اكتسب ذلك من تأثير أساليب اللغات الأخرى التي كان يعرفها الكاتب ، أو لاقتدار خاص في الكاتب نفسه على مثل ذلك الأسلوب . وقد قل من جاء بمثله بعده ولم يأت أحد بأحسن منه ، مع ما بلغ اليه العلم من الرقي في العصر العباسي وما نبغ فيه من علية الكتاب المشاهير ، مما يدل على أن الانشاء قريحة خاصة مثل قريحة الشعر لا تتقيد بالزمان أو المكان الا قليلا (*)

(*) الدراسات عن كتاب كلیلة ودمنة كثيرة جدا في كل اللغات تقريبا ، انظر مثلا المادة التي كتبها عنه بروكلمان في دائرة المعارف الاسلامية وتكتفى بأن نذكر هنا المحاولات التي قام بها أدباء ومؤلفون من العرب لإنشاء كتب على شاكلته . فقد ألف ابن الهبارية « كتاب الصادح والباغم » ، وابن الهبارية هو نظام الدين ابويعلی محمد بن محمد وكان من شعراء القرن السادس الهجري (توفي ١١١٥/٥٠٦) وهو قصص شعري نحا فيه منحى كتاب بيديا من الوعظ وارسال الحكم . وقد نظم ابن الهبارية كتاب كلیلة ودمنة في كتابه المعروف باسم « نتائج الفطنة في نظم كلیلة ودمنة » وقد طبع على الحجر في بومباي ١٣٠٧ .

وآلف عبد الله بن ظفر الصقلي المتوفى ١١٦٨/٥٦٥ أو ١١٧٢/٥٦٨ كتاب « السلوان المطاع » وهو مجموع من الحكايات والتواريخ ساقها على السنة الحيوان (طبع في القاهرة ١٢٧٨ وفي تونس ١٢٧٩ وبيروت ١٣٠٠ هـ) وترجم الى التركية ، وترجمه الى الايطالية ميكيلي أمارى . وكذلك ألف امر طبرستان الاصبهيد مرزيان كتابا من هذا الطراز بالفارسية ، ثم ترجم كتاب فيما بعد الى العربية بعنوان « روضة العقول » . وكذلك ترجم ابن عربشاه كتابا فارسيا من ذلك الطراز ونظمه شعرا في كتاب « فاكهة الخلفاء ومفاخرة الظرفاء »

انظر :

V. Chauvin, Bibliographie des ouvrages arabes ou relatifs aux arabes etc. II Kalilah (Liège-Leipzig, 1897)

J. Hertel, Das Panactantra, seine Geschichte und seine Verbreitung (Leipzig-Berlin 1914)

وتاريخ الفكر الاندلسي لجندالد بالنشيا (ترجمة حسين مؤنس - القاهرة ١٩٥٥) ، الفرس ، مادة كلیلة ودمنة

وما زالت الكتب تؤلف بالاسناد والرواية ، حتى كثرت المؤلفات العربية في كل فن أو علم ، وعمد الكتاب الى التلخيص والاختصار في القرن السادس أو السابع ، فأخذوا يحذفون الاسانيد أو يختصرونها الا لأسباب خاصة كما سترى في باب التاريخ

السجع :

ولما نضج التمدن الاسلامي وكثر فيه الأدباء والشعراء ، وأصبح الشعر شائعا على السنة الناس على اختلاف طبقاتهم ، وكثر تمثيلهم به وتناشدهم اياه ، ألف الناس التلذذ برنة القافية ، فاستحسنوا ادخالها أولا في المراسلات وهو التسجيع ، وقد كان في أول أمره مقبولا لقلته وحسن وقعه ، حتى أدخلوه في الكتب وكتبوا به المقامات في أواخر القرن الرابع . وأول من فعل ذلك بديع الزمان الهمداني المتوفى سنة ٣٩٨ هـ ولعله اقتبس نسقها من أحمد بن فارس الرازي المتوفى سنة ٣٩٠ هـ (١) وعلى منواله نسج الحريري ولكنه تباعد عن السهولة والطلاوة . وشاعت هذه المقامات واستحسنها الناس فزادتهم رغبة في الاسجاع ، فتكاثر التسجيع في القرون الاسلامية الوسطى حتى مجتهه الأسماع وعاد الى نحو ما كان عليه في أيام الكهان

والتسجيع في الكتب انبى على السمع مما في الرسائل ، وخصوصا فيما لا يحتاج الى تنميق أو اطناب أو رنة أو خيال ككتب التاريخ والعلم . فمن طالع كتاب قلائد العقيان للفتح بن خاقان المتوفى سنة ٥٣٥ هـ ، أو الفتح القسى في الفتح القدسى لعماد الدين الاصبهاني المتقدم ذكره ، أو تاريخ آل سلجوق لعماد الدين أيضا ير ثقل الاسجاع على الأسماع في التاريخ وأن حسنت أحيانا في الرسائل والخطب

على أن معظم مشاهير الكتاب في كل العصور لم يكتبوا الا مراسلا ، وقد إجادوا كابن خلدون وابن الأثير والمسعودي وغيرهم . وقد كتب غير واحد منهم في تقبيح السجع حتى في المراسلات ، ونسبوا ذلك الى ضعف ملكة الانشاء (٢)

٣ - التاريخ والجغرافية

التلويح :

بقى الانسان احقبا لم يدون فيها التاريخ ، لانه لم يكن يعرف الكتابة ، ولأن أحواله لم تكن تستدعى التدوين لسذاجتها ، مع انصراف همه في تلك

١ (١) ابن خلكان ٣٩٥ و ٣٩٦ ج ١ (٢) ابن خلدون ٤٦٨ ج ١

العصور الى ضروريات الحياة . على انه ما لبث ان أصيب بطوارق الحدثنان ، فحفظ أكثرها تأثيرا في أحوال معاشه ، كالطوفان والقحط والحرب ونحوها ، وتنقلت تلك الاخبار في أعقابه أدهارا ، وهى تتعاطم وتتكيف على ما تطلبه طبيعة الانسان من التلذذ باستماع الغريب ، واجتهاد الراوى في التأثير على السامع بما يلقيه من الاخبار المنمقة المستغربة . فوصلت أخبار الأوائل الى زمن التاريخ وهى أشبه بالخرافات منها بالحقائق . واتخذ بعضها وجهة دينية ، والبعض الآخر وجهة حماسية ، واصطبغ بعضها صبغة شعرية أو خيالية ، ويختلف ذلك باختلاف الأمم والعصور . فنشأ من ذلك كله ما يعرف بالخرافات القديمة ، كالميثولوجيا اليونانية فى الإلياذة ، وأخبار الهنود فى المهابهاراة ، وأخبار الفرس القدماء فى الشاهنامه ، وأخبار القبائل البائدة التى كان العرب يتناقلونها . فان ما ينسبونه الى عاد وثمود وطسم وجديس من الحوادث المستغربة لا يخلو من أصل تاريخى تعاطم وتضاعف على مر الأيام ، وكذلك حديث سيل العرم وبلقيس وغيرهما

وبلى ذلك طبقة من الاخبار أقرب الى التاريخ من تلك ، كالمهاجرات القديمة والحروب القديمة ، ومنها أيام العرب وحروبهم قبل الاسلام ، وعام الفيل ونحوها مما أشرنا اليه فى باب علوم العرب قبل الاسلام . فجاء الاسلام وليس عند العرب من قبيل التاريخ غير أنسابهم وشذرات من تلك الاخبار والخرافات ، ولا علم لهم بأحوال الأمم الأخرى الا ماله علاقة بهم ، غير ما كانوا يسمعون من حوادث التوراة والتلمود من أخبار اليهود أو قسس النصارى ، ولا يخرج ذلك كله عن أخبار متقطعة يقتصر الخبر منها على حادثة أو واقعة لا علاقة لها بالحوادث الأخرى

فالعرب قبل الاسلام كانوا يعدون من أضعف الأمم المتمدنة فى التاريخ . فلما ظهر الاسلام اشتغلوا بالفتوح والحروب ، حتى اذا استتب لهم الأمر وفرغوا من الفتح تدرجوا فى وضع التاريخ مثل تدرجهم فى سائر العلوم الإسلامية . وقد عددنا التاريخ من هذه العلوم ، لا لأنه خاص بالاسلام بل لأن الاسلام دعا الى وضعه كما سترى

قد تقدم فى كلامنا عن « حملة العلم فى الاسلام أكثرهم العجم » ان العرب كانوا يتنزهون عن الاشتغال بالعلم ، الا الاخبار فانهم كانوا يشتغلون بها ويعنون بحفظها وسماعها وتناقلها ، وخصوصا أخبار الفرس والشجعان والفصحاء والخطباء والشعراء ، لما فى ذلك من بواعث القدوة واستنهاض الهمم وترويض النفوس

وكان أكثر الخلفاء دهاء وسياسة أكثرهم رغبة فى استماع الأخبار . فمعاوية بن أبى سفيان داهية بنى أمية كان يجلس لأصحاب الاخبار فى كل

ليلة بعد العشاء الى ثلث الليل ، فيقصون عليه أخبار العرب وأيامها ، والعجم وملوكها وسياستها في رعيتهما وسائر ملوك الأمم وحروبها ومكائدها . ثم ينام ثلث الليل ويقوم فيأتيه غلمان مرتبون وعندهم كتب قد وكلوا بحفظها وقراءتها ، فيقرأون عليه ما في تلك الكتب من سير الملوك وأخبار الحروب ومكائدها وأنواع السياسات (١) والغالب في اعتقادنا أن تلك الكتب باليونانية أو اللاتينية ، وفيها أخبار أبطال اليونان والرومان كالاسكندر ويوليوس قيصر وهنريال ، وأن الغلمان كانوا يفسرونها له بالعربية لأن العرب لم يدوتوا الكتب الا بعد زمن معاوية

وسماع أخبار العظماء يستنهض الهمم الى الاقتداء بهم ، ولذلك كان اكبر القواد العظام الراغبين في العلا ، من العرب وغير العرب ، يستتلون أخبار من سبقهم من مشاهير القواد ، واذا وقع أحدهم في مشكلة سياسية تدبر ما حدث من أمثاله قبله تسهيلا لابتداء حكمه فيها . يقال ان المنصور لما هم بقتل أبى مسلم الخراساني تردد بين أن يمضى قتله أو يشاور فيه ، لما كان لأبى مسلم من السعى الحميد في قيام الدولة العباسية . فتزايد بلباله حتى أرق ، فلما أصبح استدعى اسحق بن مسلم العقيلي وقال له : «حدثني حديث الملك الذى أخبرتنى عنه في حران » ، فقص عليه الحديث وخلصته ان سابور ملك الفرس أنفذ وزيره الى خراسان يدعو أهلها الى طاعته ، فمضى وسعى في تحبيب الناس به ودعاهم الى طاعة نفسه . فلما استفحل أمره صمم سابور على قتله عند رجوعه اليه بأعيان خراسان ، فلما رجعوا بغتهم فلم ينتهبوا الا ورأس الوزير بين أيديهم ، فاضطروا الى طاعة سابور فلما سمع المنصور تلك الحكاية بما فيها من المشابهة بحكاية أبى مسلم أترك مليا ثم رفع رأسه وهو يقول :

لذى الحلم قبل اليوم ما تقرر العصا وما علم الانسان الا ليعلم
واستقر رأيه على قتل أبى مسلم ، وقتله (٢) . وكان بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل اذا دخل شهر رمضان أحضرت له كتب التواريخ والسير ، وجلسوا يقرأون عليه أحوال العالم ، فأصبح علم التاريخ من علوم الملوك وأصحاب السيادة ، وكان من الأمثال الشائعة في أوائل الاسلام قولهم : «علم الملوك النسب والخبر ، وعلم أصحاب الحروب درس كتب الايام والسير ، وعلم التجار الكتابة والحساب » (٣)

فلما ضعف شأن الخلافة العباسية واستبد الوزراء بأمور الدولة ، أصبح همهم منع الخلفاء من مطالعة التاريخ أو السير ، خوفا من أن يتفطنوا

(١) السعوى ٥٢ ج ٢ (٢) البيان والتبيين ١٥٥ ج ٢ (٣) العقد الفريد ١٥٠ ج ١

الى أشياء لا يحب الوزراء أن يفطنوا لها - قيل ان المكتفى طلب من وزيره كتباً يلهو بها ويقطع بمطالعتها زمانه ، فتقدم الوزير الى النواب بتحصيل ذلك وعرضه عليه قبل حمله الى الخليفة ، فجاءوه ببعض الكتب وفيها شيء مما جرى في الأيام السالفة ، من وقائع الملوك وأخبار الوزراء ومعرفة التحيل في استخراج الأموال . فلما رآه الوزير غضب وقال لنوابه : « والله انكم أشد الناس عداوة لى .. أنا قلت لكم حصلوا له كتباً يلهو بها ويستغل بها عنى وعن غيرى ، فقد حصلتم له ما يعرفه مصارع الوزراء ويوجد له الطريق الى استخراج الأموال ويعرفه خراب البلاد من عمارتها .. ردوها وحصلوا له كتباً فيها حكايات تلهيه وأشعار تطربه » (١) ففعلوا

مصادر التاريخ الاسلامى :

للتاريخ الاسلامى مصادر كثيرة تدرج فيها على مقتضى الأحوال ، واليك تمثيل ذلك :

لما اشتغل المسلمون بجمع القرآن وتفسيره وجمع الأحاديث احتاجوا الى تحقيق الأماكن والأحوال التى نزلت فيها الآيات أو قيلت فيها الأحاديث ، فعمدوا الى جمع السيرة النبوية لأنها شاملة لكل ذلك فتناقلوها مدة ثم دونوها . وأول من دونها على المشهور محمد بن اسحق المتوفى سنة ١٥١ هـ ، ألفها للمنصور . على أننا رأينا فى كشف الظنون أن محمد بن مسلم الزهرى المتوفى سنة ١٢٤ هـ ألف كتاباً فى المغازى (٢) وقد توفى قبل ابن اسحق ببضع وعشرين سنة . ولكن يؤخذ من ترجمتهما فى وفيات الأعيان أنهما كانا متعاصرين . ويقال أيضاً أن أول من صنف المغازى والسير عروة بن الزبير المتوفى سنة ٩٣ هـ ووهب بن منبه المتوفى سنة ١١٤ (٣) وعلى أى حال فإن هذه السير ضاعت ، وأقدم ما وصل إلينا منها سيرة عبد الملك بن هشام المتوفى سنة ٢١٣ هـ فى كتابه المعروف بسيرة ابن هشام ، وهى منقولة عن ابن اسحق المذكور وقد طبعت غير مرة

ولما اشتغل المسلمون فى ضرب الخراج على البلاد ، اختلفوا فى بعضها : هل فتح عنوة أو صلحا أو أماناً أو قوة ، وفى شروط الصلح أو الأمان . فاضطروا الى تدوين أخبار الفتح باعتبار البلاد ، فألفوا كتباً فى فتح كل بلد على حدة ، كفتوح الشام للواقدي المتوفى سنة ٢٠٧ هـ وكتابه مشهور لكنه مملوء بالمبالغات بما يشبه الحكايات . وفتوح مصر والمغرب لابن عبد الحكم المتوفى سنة ٢٥٧ هـ ، وفتوح بيت المقدس ونحوها . ثم جمعوا فتوح البلاد معاً فى كتاب واحد كفتوح البلدان للبلاذرى المتوفى سنة ٢٧٩ هـ ، وهو

(١) الفخرى ٥ (٢) كشف الظنون ٣٩ و ٢٠١ ج ٢ (٣) كشف الظنون ٤٧٠ ج ٢

أوثق كتب الفتح وأشملها وأقدم ما بين أيدينا منها ، الا الواقدي (*)

الطبقات والغزى :

وقد رأيت فيما تقدم من كلامنا عن القرآن والحديث والنحو والأدب ، أن العلماء اضطروا لتحقيق مسائل هذه العلوم الى البحث في أسانيدھا والتفريق بين ضعيفها ومتينها ، فجرهم ذلك الى النظر في رواة تلك الأسانيد وتراجمهم وسائر أحوالهم ، حتى أصبح من شروط الاجتهاد في الفقه معرفة الأخبار بمتونها وأسانيدھا ، والاحاطة بأحوال النقلة والرواة : عدولھا وثقاتھا ومطعونھا ومردودھا ، والاحاطة بالوقائع الخاصة بها فقسموھا رواة كل فن الى طبقات ، فتألف من ذلك تراجم العلماء والأدباء والفقهاء والنحاة وغيرهم ، مما يعبرون عنه بالطبقات ، ومنها : طبقات الشعراء ، وطبقات الأدباء ، وطبقات النحاة ، وطبقات الفقهاء ، وطبقات الفرسان والمحدثين واللغويين والمفسرين والحفاظ والمتكلمين والنسابين والأطباء ،

(*) اذا استثنينا ما ينسب الى وهب بن منبه من الكتب عن تاريخ اليمن ، لا تكاد نجد بين أيدينا مؤلفا خاصا بتاريخ العرب قبل الاسلام ، وكل مالدينا روايات واخبار ضمنها مؤرخو الاسلام فيما بعد كتبهم ، اعتمدوا فيها على روايات تنسب الى وهب تارة والى عبيد بن شربة تارة أخرى . فمحمد بن اسحاق مثلا أانا بالكثير من روايات عبيد ، في حين أورد محمد بن عبد الملك بن هشام معظم كتاب « التيجان » لوهب بن منبه . أما فيما يتصل بأخبار عرب الشمال ، وهى التى تعرف في مجموعها بأيام العرب ، فقد أتنا في صور شذرات متفرقة معظمها في كتب الادب ، كالكمال للميرد والعقد الفريد لابن عبد ربه والاغانى للاصفهاني وعيون الاخبار لابن قتيبة . والكثير جدا من هذه الاخبار ينسب الى أبى عبيدة معمر بن المثنى التميمي ، وهو مولى فارسي ولد عام ٧٢٨/١١٠ وكان عالما بالانساب واخبار العرب ، وان روى بالشعوبية والخارجية ، وقد ألف نحو مائة كتاب أورد لنا ابن النديم في الفهرست طرفا منها أنظر عنه :

Flügel, Die Grammatischen Schulen der Araber, pp. 68 sqq.
Goldziher, Muhammedanische Studien, I, 194 sqq.
Brockelmann. Gesch. der Ar. Lit. I, 103

وقد توفي عام ٨٢٤/٢٠٩

ويشبه ابا عبيدة ثلاثة من اوائل الرواة ، وهم هشام بن محمد الكلبي المتوفى سنة ٨١٩/٢٠٤ وهو صاحب « كتاب الاصنام » ومعول ابن سعد فيما يروى من أخبار العدنانين ، وابو مخنف لوط بن يحيى الأزدي المتوفى ٧٧٤/١٥٧ ويقال انه ألف نيفا وثلاثين كتابا وقد أورد الطبري جانبا كبيرا من رواياته (انظر فهرست ابن النديم ١٢/١ وابن شاذان الكتبي ، فوات الوفيات ١٧٥/٢) وعوانة بن عبد الحكم وقد نقل عنه الطبري كثيرا

ومؤلفات هؤلاء جميعا تعتبر مقدمات لعلم التاريخ عند العرب ، اما مولد هذا العلم ففي كتب المغازى ، وأول من كتب المغازى اباان بن عثمان وعروة بن الزبير . فأما اباان فهو حفيد الخليفة عثمان بن عفان ، وقد شهد الحروب بين علي ومعاوية ، وحضر معركة الجمل وتوفي ٧٢٣ / ١٠٥ - ٧٢٤ ، وقد كتب مغازى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخذ عنه ابن سعد في الطبقات . واما عروة بن الزبير بن العوام الاسدي ، فقد حفظ لنا معظم الروايات المتعلقة بأصول الاسلام بحسب رواية المدينة ، وقد ولد بين سنتي ٢٣ و ٢٩ هـ وتوفي بين سنتي ٩١ و ٩٩ ، أى أنه شهد معظم أحداث القرن الهجرى الاول ، وقد اعتزل الناس بعد مقتل أخويه مصعب وعبد الله وفرغ للكتابة والتأليف . ونظرا لصلته القوية بعدد كبير من الصحابة فان أخباره التى يرويها على أعظم جانب من الاهمية ، والكثير من تأليفه مكتوب في صورة خطابات بعث بها الى الوليد بن عبد الملك ، وقد روى عنه أخباره محمد بن مسلم الزهرى وأبنلقوه - أبناء عروة - محمد وعبد الله وعثمان ويحيى وهشام ، والآخر منهم خاصة ، ثم سليمان بن يسار وابن أبي مليكة ، ومعظم أخباره وارد عند ابن اسحاق وابن سعد والطبري . واخبار أبى مخنف وإبان بن

حتى الندماء والمغنين وغيرهم ، والقوا في كل باب غير كتاب . ولذلك كان المسلمون أكثر أمم الارض كتبوا في التراجم لأفراد الرجال

واقدم كتب الطبقات التي وصلت إلينا كتاب طبقات الصحابة لمحمد بن سعد المعروف بكتاب الواقدي المتوفى سنة ٢٣٠ هـ وهو كبير ربما دخل في بضعة عشر مجلدا ، ويحتوى على تراجم الصحابة والتابعين والخلفاء إلى

عثمان وعروة بن الزبير تعطينا صورة الاحداث كما يروها أهل المدينة ، ولهذا يعرفون بمدرسة البراة المدنيين . وأخبارهم كلها شذور متفرقة مؤيدة بالاسناد ، وقد يروون الخبر أكثر من مرة ، كل مرة باسناد مختلف ، أى أنهم ساروا على طريقة المحدثين

وأول من جمع الاخبار المتعلقة بموضوع واحد واوردها على نسق هو محمد بن مسلم بن شهاب الزهري ، فقد نقل عنه الطبري قطعا من سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم سلسلة في نسق تاريخي ، ومثال ذلك كلامه عن حديث الافك

ويعتبر منهج الزهري الاساس الذي بنى عليه الجيل التالي من مؤرخي السيرة والمغازي ، وأعظمهم جميعا محمد بن اسحاق بن يسار المتوفى ١٥١/٧٦٨ ، وكتابه يعين تطورا حاسما في تاريخ التأريخ عند العرب ، فهو كتاب تاريخ بمعنى الكلمة . بدأ سيرة الرسول بمقدمة طويلة عن تواريخ الرسل قبله ، ثم تاريخ نسب الرسول ، فتحدث عن بني اسماعيل ثم قريش ثم أجداد الرسول واحدا واحدا ، ثم أرخ للرسول . وكتابه ينقسم إلى ثلاثة أقسام كبيرة : المبدأ ، والمبعث ، والمغازي . وقد ضاع أصل كتاب ابن اسحاق ، فلم نجد منه الا أوراقا عثر عليها جروهمان في أوراق البردي المصرية ، ولكن كثيرين صاغوا كتابه صياغة جديدة ، وأهم هؤلاء عبد الملك بن هشام صاحب السيرة المعروفة ، وهي سيرة محرفة مبسرة ومعدلة كما يقول هو نفسه في فاتحتها . غير أننا نجد الكثير مما حذفه ابن هشام عند الطبري وابن سعد . وقد جمع رواياته كلها - بما فيها ما أورده ابن هشام - ألفريد جيوم وترجمها إلى الانجليزية في مجلد ضخّم صدر سنة ١٩٥٧ . وقد توفي ابن هشام حوالي ٢١٨/٨٢٣

وكان ابن اسحاق من أهل العراق ، ولهذا جمع في روايته الكثير مما تحصل له في وطنه الاصل ، وأخذ عن الكثيرين من الرواة الذين عاشوا في العراق ، ومن هنا فإن روايته تمثل - إلى حد ما - ما يسمى بالمدرسة العراقية . وقد حاول بعض المستشرقين أن يلتئموا عنده نزعات شعبية لا عربية ، ولكن ذلك غير صحيح ، فإن ابن اسحاق وإن كان موليا إلا أنه يكتب عن روح عربي خالص

وبعد ابن اسحاق وابن هشام يتسع أفق التاريخ ويتحدد منهجه ، ومن هنا نرى في الجيل التالي مؤرخين بمعنى الكلمة ، حقيقة أنهم ينهجون منهج المحدثين في الاسناد ، ولكن مفهوم التاريخ على أنه حوادث مرتبط بعضها ببعض ، وعلى أن هدفه هو الوصول إلى حقيقة ماحدث ، يتحددان بصورة واضحة ، فنجد محمد بن عمر الواقدي مؤرخا ثابت القدم (١٣٠/٧٤٧-٢٠٧/٨٢٣) يروي تاريخا مسلسلا ترتبط فيه المقدمات بالنتائج ، ولم يقتصر الواقدي على سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم ، بل اتجه إلى تأليف تاريخ عام من بدء الخليقة إلى زمن الرشيد ، وقد ضاع جزء كبير من تاريخه ، ولم تبق الا المغازي ، ومن حسن الحظ أن تلميذه محمد بن سعد المتوفى ٢٣٠/٨٤٤ - ٨٤٥ احتفظ لنا في كتابه « الطبقات الكبرى » بقطع كبيرة من تاريخه

وكتاب محمد بن سعد يعين لنا ميلاد فرع جديد من فروع التاريخ الاسلامي قدر له أن يزدهر فيما بعد ، وهو « الطبقات » أى تراجم الرجال وتقسيمهم طبقات بحسب أجيالهم ، ولا شك أن انشاء ابن سعد لهذا الكتاب يعين خطوة واسعة في طريقة تأليف التاريخ ، فإن مثل هذا الكتاب يقتضى جمع أشتات المعلومات الخاصة بكل رجل وروايتها على نسق متصل مع الاشارة إلى ما يكون قد ورد منها في تراجم الآخرين . ثم أنه بعد أن فرغ من تاريخ الرسول صلى الله عليه وسلم كتب فصلا كاملا عن نواح تتصل بشخصيته الكريمة : « صفة اخلاق النبي » و « علامات النبوة » وما إلى ذلك ، أى أنه أتبع السيرة بدراسة لشخصية الرسول

وقد قدر للمدرسة العراقية أن تكون نقطة البدء لما كتب فيما بعد من التواريخ العامة للاسلام ، فإن مدرسة المدينة يقتصر دورها على المغازي أى سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم وما تقدمه من اخبار ، وربما استمر المدنيون عمدتنا فيما يتصل بأحداث عصر الراشدين ، فقد كانت المدينة عاصمة الدولة وكان المشتغلون بالتاريخ من أهلها من كبار الشخصيات كما رأينا ، ممن بظن أنهم كانوا يطلعون أيضا على أوراق رسمية

أيام المؤلف (١) وكان هذا الكتاب مشتتا في مكتبات العالم ، ومنه الجزء الثاني في دارالكتب الخديوية (المصرية) بمصر ، وقد علمنا ونحن نخط هذه الحروف أن جمعية المانية شرعت في طبعه وأصدرت الجزء الأول منه (*) .

انظر :

A. Grohmann, Allgemeine Einführung in die arabische Papyri, Wien 1934, pp. 27-30

وقد بدأت رواية العراقيين معتمدة على نفر من رجال مدرسة المدينة ومنهم أبو مخنف ، وقد حفظ لنا روايته هشام الكلبي ، وهي رواية تمثل وجهة نظر العراقيين في الصراع بين علي ومعاوية ، ويقابل هذه الرواية رواية عوانة بن عبد الحكم ، وقد رواها هشام الكلبي أيضا ، وهي تأخذ جانب معاوية (انظر عن مراجع عوانة مقدمة Wellhausen, Das arabische Reich) ورواية سيف بن عمر المتوفى ٧٦٦/١٨٠ تمثل اتجاه التميميين ، في حين ان رواية ابي مخنف تمثل رأى الازد ، وروايات هؤلاء جميعا قصصية تستطرد في ذكر ما قامت به القبائل من ادوار في الفتوح ، وخير من يمثل هذا الاتجاه القبلي الشعبي ابو عامر بن شراحيل بن عمرو (١٩ / ٦٤٠ - ٧٢٨ / ١١٠) وهو محدث يقال انه سمع من ٥٠٠ صحابي وشيخ ، ولكن احاديثه حافلة بالمادة التاريخية ، وقد رواها الطبري وابن قتيبة

وابتداء من القرن الثالث الهجري يدخل التأريخ الاسلامي في عصر جديد ، فقد ادخلت صناعة الورق في بغداد واصبح من الممكن تدوين الكتب بدلا من الاعتماد على الرواة . ويمكن القول ان عصر الرواة ينتهى عند الشعبي ، وبعد ذلك يبدأ عصر التدوين ، ويقترب ذلك بأعمال المدائني ، (على بن محمد المتوفى ٨٤٠ / ٢٢٥) فقد كتب كتابا كثيرة في التاريخ ، واخبره كلها مؤيدة بالاسناد ولكنها مدونة في نسق تاريخي ، وعماده الاساسي على ابي مبيدة . وقد ولد المدائني في البصرة ٧٥٢ / ١٢٥ وألف كتابا كثيرة في شتى الفنون ، حتى روى صاحب الفهرست اسماء ٢٣٩ من مؤلفاته ، واهم مؤلفاته « كتاب اخبار الخلفاء الكبير » الذي يؤرخ لهم حتى زمن المعتصم ، وقد اعتمد عليه الطبري اعتمادا عظيما . انظر عنه

Wüstenfeld, Die Geschichtschreiber der Araber .

وفي عصر المدائني اصبح التاريخ علما له اصول وقواعد ، فابتعد عن القصص ، ولم يعد داخلا في اختصاص القصص ، وابتعد أيضا عن الحديث ، ولم يعد من بضاعة رجال الحديث . ومن هنا فاننا نجد انفسنا امام مؤرخين متوفرين على التأريخ مثل البلاذري صاحب كتابي « فتوح البلدان » و « انساب الاشراف » (توفى ٨٩٢ / ٢٧٩) وكان تلميذا لابن سعد والمدائني وأبي حنيفة الدينوري المتوفى ٨٩٥ / ٢٨٢ وابن واضح اليعقوبي (توفى ٨٩٧ / ٢٨٤) وابن قتيبة توفى (٨٨٩ / ٢٧٦) وحزمة الاصفهاني (توفى ٩٧٠ / ٣٦٠) وابي الحسن السعدي (توفى ٩٤٥ / ٩٥٦) حتى بلغ التاريخ الاسلامي قمته على يد الطبري ، محمد بن جرير (توفى ٩٢٣ / ٣١٠) وعبد الرحمن بن عبد الله بن الحكم (توفى ٨٧١ / ٢٥٧) وغيرهما . وقد وصلنا بهذا الى دور التاريخ الاسلامي الصحيح ، والقصة بعد ذلك طويلة لا يتسع لها المجال

انظر :

F. Wüstenfeld, Die Geschichtschreiber der Araber (Gottingen, 1882)

D.S. Margolouth, Lectures on Arabic Historians, Calcutta 1930

J. Horowitz, The Earliest Biographies of the Prophet (in Islamic Culture, Heyderabad 1928)

وقد ترجمه الى العربية الدكتور حسين نصار باسم « كتب المغازي الاولى واصحابها » القاهرة ، ١٩٥٤ . وانظر ايضا كتابه « نشأة الكتابة الفنية عند العرب » (القاهرة ١٩٥٦) Lévi Provençal, Les Historiens des Chorf (Paris, 1922)

ومادة تاريخ بقلم هـ.أ.ر. جيب في ملحق دائرة المعارف الاسلامية

Rosenthal, History of Moslem Historiography (New-Haven 1953)

وهو ترجمة للاعلان والتوبيخ للسخاوي وتعليق ضيف عليه

(١) ابن خلكان ٥٠٧ ج ١

(*) نشره ادوارد سخاو E. Sachau في لايدن في ثمانية مجلدات من عام ١٩٠٤ الى ١٩١٧ ، ثم نشر بعد ذلك المجلد التاسع وهو يضم الفهرس . ونشر منه مجلد واحد يحوى سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم في القاهرة سنة ١٩٢٥ . وينسب الى ابن سعد ايضا قصيدة مازالت مخطوطة في دار الكتب المصرية عنوانها القصيدة الحلوانية في افتخار العدنانيين على القحطانيين . فهرس الدار ٢ / ٢٨٣

ثم طبقات الشعراء لابن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦ هـ وقد طبع في لندن في هذا العام بعناية الاستاذ دى خويه المستشرق الهولندى الشهير (❦) . ثم ألف الناس طبقات كثيرة في أزمنة مختلفة ، ومنها استخرجوا كتب التراجم الكبرى ، كوفيات الأعيان ، والوفاء فى الوفيات ، وفوات الوفيات ، وغيرها مما سيأتى ذكره ، غير التراجم الدخيلة فى تواريخ البلاد ، كتاريخ دمشق لابن عساكر فى ثمانين مجلدا ، وتاريخ بغداد للخطيب البغدادى فى نحو ذلك وفيهما تراجم كثيرة

وكان طلاب الأدب الراحلون فى جمع اللغة والشعر من أفواه أهل البادية يلتقطون أخبار العرب ووقائعهم وحوادثهم ويدونون ذلك فى كتب الادب كما تقدم . ناهيك بالأخبار المستخرجة من تلك الاشعار - قال ابن يونس : « لولا شعر الفرزدق لذهب نصف أخبار الناس » (١)

ولما استبد بنو أمية بالخلافة واعوجوا فى أحكامهم عن سبيل الخلفاء الراشدين ، كثر تحدث الناس بأخبار الراشدين وتذكر أعمالهم المؤسسة على العدل والرفق - وذلك طبيعى فى هذه الأحوال . ثم ألف بعضهم كتباً فى تاريخ الخلفاء الراشدين ، ثم فى الخلفاء على الاجمال ، وأقدمهم الدينورى المتوفى سنة ٢٨١ هـ ، ويقال نحو ذلك فى تأليف تراجم الوزراء ، وتواريخ عمال الشرطة وتواريخ الاذكياء والبخلاء والعشاق وغيرهم

التواريخ العامة:

فانقضى القرن الثانى للهجرة ونصف الثالث وكتب التاريخ عند المسلمين الطبقات والمغازى والسير والفتوح على ماتقدم . أما التواريخ العامة مثل تواريخ الأمم أو البلاد قديما أو حديثا فلم يشتغلوا بها الا بعد ذلك ، وأقدم من كتب فى التاريخ العام ابن واضح المعروف باليعقوبى ، وكتابه مطبوع فى جزئين : جزء فى التاريخ القديم كاليهود والهنود واليونان والروم والفرس وغيرهم ، والثانى فى تاريخ الاسلام من ظهوره الى أيام المعتمد العباسى الذى تولى الخلافة سنة ٢٥٦ هـ . ويليهِ ابن جرير الطبرى المفسر الشهير المتوفى سنة ٣١٠ هـ وتاريخه كبير مرتب على السنين ينتهى الى حوادث سنة ٣٠٢ هـ . وقد ألف الفرغانى عليه ذيل ينتهى الى سنة ٣١٢ هـ ، وكلاهما مطبوع . ثم المسعودى المتوفى سنة ٣٤٦ هـ صاحب « مروج الذهب » وفيه وصف البلاد والبحار والحيوانات وغيرها ، فضلا عن التاريخ ، وهو محبوب حسب الدول أو الأمم ومطبوع . وللمسعودى كتاب سماه « أخبارالزمان » قد ضاع ولم يقف له أحد على أثر ، ولكن يظهر مما ذكر عنه فى مروج

(❦) عنوان الكتاب « الشعر والشعراء » لابی محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الكوفى ، وقد أمد نشره بعد دى خويه الاستاذ احمد محمد شاکر فى طبعة متقنة فى مجلدين ، القاهرة ١٣٦٤ - ١٣٦٥

الذهب أنه مطول جدا . يليه حمزة الأصفهاني صاحب « تاريخ سنى ملوك الارض » فرغ من تأليفه سنة ٣٥٠ هـ

وظل الناس على هذه التواريخ وقليل غيرها الى القرن السابع للهجرة ، اذ انقضت الدول الإسلامية العربية : العباسية في العراق ، والفاطمية في مصر ، والأموية في الاندلس . وقامت دول الاتراك والاكرد والبربر ، فانتقل الناس الى عصر جديد ، فعمدوا الى تدوين تاريخ العصر المنقضى ، فاستعانوا بالكتب التى تقدم ذكرها فاختصروا مطولها ووبؤوا مشوشها وجمعوا بين موضوعاتها وأضافوا ما لم يدركه أصحابها . والفوا عدة تواريخ مطولة ، أشهرها وأوعاها وأضبطها كتاب « الكامل » لابن الأثير المتوفى سنة ٦٣٠ هـ فقد ضمنه تاريخ الطبرى كله بعد حذف الأسانيد واختصار النصوص المطولة ، وزاد عليه ما حدث بعده وما حدث فى زمن الطبرى فى الاندلس وغيرها . ورتب ابن الأثير كتابه على السنين ، مثل كتاب الطبرى ، فجاء ١٢ مجلدا كبيرا ، وهو مطبوع . وجاء بعده أبو الفداء صاحب حماه ، المتوفى سنة ٧٣٢ هـ ، فأخذ الكامل فلخصه وأدخل فيه كثيرا من أخبار الأدباء والعلماء ، وتوسع فى أخبار العرب الجاهلية وأبقاه على حوادث السنين ، فجاء فى ثلاثة مجلدات ، وهو مطبوع ومنشور . وجاء بعده عمر بن الوردى المتوفى سنة ٧٤٩ هـ فأختصر تاريخ أبى الفداء

ثم نبغ العلامة ابن خلدون المتوفى سنة ٨٠٨ هـ والعرب قد ذهبت دولهم تمام الذهاب واتضحت عبرة التاريخ . وكان ابن خلدون عالما دقيق النظر صحيح القياس ، فألف تاريخه المشهور ورتبه على الدول بدل السنين ، وأفاض خصوصا فى أخبار المغرب والاندلس مما لم يسبقه اليه أحد . ويمتاز هذا التاريخ عما سبقه بمقدمة فلسفية لم ينسج أحد على مثاليها قبلها ، حتى علماء اليونان والرومان وغيرهم من الامم القديمة . وفى شهرتها ما يغنى عن وصفها

ونهج بعض المؤرخين فى تأليفهم منهجا آخر ، فجعلوا مؤلفاتهم بأسماء المدن فضمنوا كتبهم وصف تلك المدن وتراجم الذين عاشوا فيها . وأطول المؤلفات من هذا الصنف تاريخ بغداد للخطيب البغدادى المتوفى سنة ٦٦٣ هـ ، وتاريخ دمشق لابن عساكر المتوفى سنة ٥٧١ هـ فى ثمانين مجلدا وقد تقدم ذكرهما ، وكلاهما لم يطبع ، والثانى أكثر وجودا من الاول . ومن هذا القبيل خطط مصر للكندى ثم للقضاعى ثم للمقرزى ، وهذه الاخيرة مشهورة ومثلها أخبار مصر القاهرة لأبى المحاسن والسيوطى

التراجم والمجمعات :

وأما التراجم فكانت فى القرون الاولى تدون فى الطبقات ، باعتبار المهن أو العلم الذى يجمع كل طبقة كما تقدم . فلما نضج العلم وأخذ العلماء فى الترتيب والتبويب ، نبغ جملة من المؤرخين استخرجوا من الطبقات وغيرها كتب التراجم ورتبوها على حروف المعجم ، وأشهر تلك الكتب

« وفيات الأعيان » لابن خلكان المتوفى سنة ٦٨١ هـ ، ثم « فوات الوفيات » لصلاح الدين بن شاعر الكتبي المتوفى سنة ٧٦٤ هـ استدرك فيه ما فات ابن خلكان ذكره ، وكلاهما مطبوعان ومشهوران . وكتاب « الوافي في الوفيات » لصلاح الدين الصفدى المتوفى سنة ٧٦٤ هـ ، وهو كبير لكنه لم يوجد مجموعا في مكتبة واحدة ولا جمعه بعد ، فهو لم يطبع ومنه أجزاء متفرقة في مكتبات أوروبا (*) . ومثله كتاب « مرآة الزمان » لسبط ابن الجوزى المتوفى سنة ٦٥٤ في ٤٠ مجلدا ، وهو مشتمل (*) . وفي تراجم أهل الاندلس كتب كثيرة منها كتاب « الصلة » لابن بشكوال المتوفى سنة ٥٧٨ هـ وكتاب « المعجم » لابن الأبار وغيرهما (***)

ومن هذه المعجمات التاريخية ما هو خاص بفئة من الناس أو طبقة من طبقاتهم ككتاب « أسد الغابة » في أخبار الصحابة لابن الأثير صاحب الكامل ، وهو في خمسة أجزاء كبيرة وخاص بالصحابة ، وهو مطبوع ومنشور . و « تراجم الحكماء » لابن القفطى غير مطبوع (***)

(*) لا زالت مخطوطات كتاب الوافي بالوفيات متفرقة في المكتبات ، وقد نشر مقدمته عمار Amar في المجلة الآسيوية الفرنسية سنة ١٩١١ - ١٩١٢ ، مجلدات ١٧ - ١٨ - ١٩ . وقد نشر المستشرق جابرييلي Gabrieli فهرسا كاملا لواده جمعها من شتى المخطوطات وأحصى ترجماته بأربعة عشر ألفا

(**) سبط ابن الجوزى ، هو شمس الدين أبو الظفر يوسف قزذغلو وكتابه المسمى « مرآة الزمان في تاريخ الأعيان » يعتبر تاريخا عاما من بدء الخليقة الى عصره . لم تنشر منه الا قطعة تضم الحوادث من عام ٤٩٥ الى ٦٥٤ ميلادية ، نشرها J.R. Jewett في شيكاغو سنة ١٩٠٧ ونشرت منه فقرات عن حوادث السنوات من ٤٠٠ الى ٣٢٢ هـ في مجموع مؤرخى الحروب الصليبية المعروف باسم

Recueil des Historiens des Croisades, Historiens Orientaux, III, p. 65 sqq.

(***) نشر كتابا ابن الأبار وابن بشكوال المشار اليهما في السلسلة المعروفة باسم Bibliotheca Arabico-Hispanica وهي تضم مايلي :

ابن بشكوال : كتاب الصلة ، مجلد ١ و ٢ مدريد ١٨٨٢ - ١٨٨٣

الضبي : بغية المتنيس في تاريخ رجال الاندلس ، مجلد ٣ مدريد ١٨٨٥

ابن الفرضي : تاريخ علماء الاندلس ، مجلد ٤ - ٥ ، مدريد ١٨٨٦

ابن الأبار : كتاب التكملة ، مجلد ٥ و ٦ مدريد ١٨٨٧ - ١٨٩٠

ابن خير ، فهرست ما رواه عن شيوخه من الدواوين المصنفة في ضروب العلم وانواع المعارف ، مجلد ٩ و ١٠ ، مدريد ١٨٩٤ - ١٨٩٥

وقد قام على نشر هذه المكتبة الحافلة بالتراجم المستشرقان الاسبانيان كوديرا وريبيرا . وقد طبع الاستاذ العطار الحسيني كتاب الصلة لابن بشكوال وكتاب تاريخ علماء الاندلس لابن الفرضي معتمدا على طبعة مدريد

انظر عن هؤلاء جميعا : تاريخ الفكر الاندلسي لجندالد بالنشيا ، ترجمة حسين مؤنس ، الفهرس

(***) طبع فيما بعد . وقد أورد المؤلف اسمه اعلام المؤرخين ، فرأيت أن أوردتهم هنا مع بيان اهم طبقات مؤلفات كل منهم :

ابن الأثير ، علي بن احمد بن أبي الكرم - « الكامل في التاريخ » :

- نشره C.J. Tornberg في لايدن في ١٤ مجلدا ١٨٥١ - ١٨٧٦ وجعل له عنوانا لاتينيا هو : Chronicon quod perfectissimum inscribitur

- وطبع في بولاق في ١٢ مجلدا سنة ١٢٧٤

- وطبع أخيرا في القاهرة طبعة غير متقنة ولا مفهرسة ، سنة ١٩٢٠ في عشرة مجلدات

الإصفيهاني ، أبو الفرج - « الأغاني » :

- طبع في بولاق طبعة جيدة في ٢١ جزءا سنة ١٢٨٥ ، وعمل فهرسا مفصلا لهذه الطبعة المستشرق الإيطالي أنجزيو جويدي ، وترجم الفهرس الى العربية محمد مسعود ، ونشره الساسي في القاهرة سنة ١٣٢٣

على أن كثيرا من التراجم والاخبار التاريخية منتشرة في كتب الأدب، ككتاب الأغاني والعقد الفريد والكشكول والمستطرف والبيان والتبيين . وقد تجد فصولا تاريخية مهمة في كتب العلم الطبيعي ، ككتاب حياة الحيوان للدميري فان فيه فصولا تاريخية قلما نعر عليها في كتب التاريخ

-
- تعيد دار الكتب المصرية طبعه منذ سنة ١٩٠٣ وصدر الجزء الخامس عشر ، ولم تتم الطبعة الى الآن
 لوتيفا ، سعيد بن البطريق — « التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق » :
 — طبع في بيروت سنة ١٩٠٩
 البغدادي : ابو علي احمد بن علي — « تاريخ بغداد او مدينة السلام » :
 — طبع في القاهرة في ١٤ جزءا سنة ١٢٤٩/١٢٣٦
 البلاذري ، احمد بن يحيى بن جابر — « فتوح البلدان » :
 — نشره M. J. de Joeje في لايدن سنة ١٨٦٦
 — ترجمه الى الانجليزية فيليب حتى ، ونشر الترجمة بعنوان
 The origins of the Islamic State. 2 vols. New-York, 1916.
 — ترجمه O. Rescher الى الالمانية ونشره في مجلدين ، لايسيك ١٩١٧ — ١٩٢٣
 — نشر في القاهرة مرات متعددة نشرات غير علمية ويدون فهارس
 البلخي ، ابو زيد بن سهل — « كتاب البدء والتاريخ » ، وينسب ايضا الى مطهر بن طاهر المقدسي :
 — نشر في باريس سنة ١٨٩٩ — ١٩٠٧ في ستة مجلدات
 البيروني ، ابو الريحان محمد بن احمد — « الآثار الباقية عن القرون الخالية » :
 — نشره مع ترجمة انجليزية ادوارد سخاو في لايسيك ١٨٧٨ — ١٨٧٩
 حاجي خليفة ، مصطفى بن عبد الله المعروف بكتاب شلبي — « كشف الظنون عن اسماء الكتب والفنون » :
 — نشره G. Fluegel وطبع في لايسيك سنة ١٨٣٥ — ١٨٥٨ وترجمه الى الالمانية ونشر الترجمة سنة ١٨٥٨
 — طبع في الاستانة سنة ١٣١٠ — ١٣١١ في ٤ مجلدات
 — طبع في بولاق ١٢٧٤
 الجهشيارى ، ابو عبد الله محمد بن عبدوس — « الوزراء والكتاب » :
 — نشر في القاهرة سنة ١٩٣٨ نشره علمية محققة مفهرسة بعناية مصطفى السقا وابراهيم الاببارى وعبد الحفيظ شلبي
 ابن خلدون ، ابو زيد عبد الرحمن بن محمد — « العبر وديوان المبتدأ والخبر وتاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوى الشأن الاكبر » :
 — طبع في بولاق (بما في ذلك المقدمة) في ٧ اجزاء ، ١٢٤٨
 — أعيد طبعه مع المقدمة في بيروت في اجزاء صغيرة كثيرة سنة ١٩٥٦ باشراف أسعد داغر طبعة غير محققة ، ولكنها مفهرسة
 — طبعت المقدمة في القاهرة طبعات كثيرة
 — طبعها طبعة جيدة الاب لويس شيخو في بيروت سنة ١٨٨٦
 — نشر الجزئين ٤ و ٦ الخاصين بالبربر البارون دي سلان M.J. De Slane في مجلدين في الجزائر سنة ١٨٤٧ — ١٨٥١ وترجمه الى الفرنسية بعنوان
 Histoire des Berbères et des dynasties Musulmanes de l'Afrique Septentrionale Paris, 1862
 — نشر المقدمة وترجمها الى الفرنسية Etienne Quatremère بعنوان Les Prolegomènes
 بيروت ١٨٨٦
 ابن خلكان ، شمس الدين ابو العباس احمد بن ابراهيم — « وفيات الاعيان » :
 — نشر في بولاق ١٢٨٣ هـ .
 — ترجمه دي سلان ونشر الترجمة في باريس ١٨٤٢ — ١٨٤٨
 — نشر في الطبعة اليمنية بالقاهرة سنة ١٣١٠ واعاد طبعه محيي الدين عبد الحميد في ستة مجلدات مع فهارس . القاهرة

ويمتاز التاريخ عند العرب على سواه عند سائر الأمم التي تحضرت قبلهم بكثرة ما كتبوه من التراجم ، وأكثره بشكل القواميس وهم السابقون في ذلك وعنهم أخذ أهل العالم تأليف المعجمات التاريخية . فعندهم من قواميس التراجم بضعة صالحة ، هي كنوز في التاريخ والجغرافية والأدب

- الدينوري** ، أبو حنيفة أحمد بن داود - « الأخبار الطوال » :
 - نشره W. Guirgass في لايدن ١٨٨٨
 - نشر في القاهرة نشرة غير محققة بدون تاريخ
- السيوطي** ، جلال الدين أبو الفضل عبد الرحمن بن أبي بكر :
 - « تاريخ الخلفاء وأمراء المؤمنين القائلين بأمر الأمة » ، نشر في القاهرة سنة ١٣٥١
 - « الاتقان في علوم القرآن » ، نشر في كلكتا ١٨٥٢ - ١٨٥٤ وأعيد نشره في القاهرة مرارا ١٢٧٨ - ١٣٠٧ - ١٣١٥
- « حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة » ، نشر في القاهرة في مجلدين سنة ١٣٢٧
الشهابي ، أبو الحسن علي بن محمد - « كتاب الديارات » :
 - نشرته في دمشق المستشرق سورديل تومين سنة ١٩٥٣ ، وترجمته ونشرت الترجمة الفرنسية سنة ١٩٥٦
- الشهرستاني** ، أبو الفتح محمد بن عبد الكريم - « الملل والنحل » :
 - طبع في القاهرة في ٥ مجلدات ١٣١٧
 - أعيد نشره نشرة علمية في القاهرة سنة ١٩٥٦
- ابن طباطبا** ، محمد بن علي بن طباطبا المعروف بابن الطقطقي - « الفخرى في الآداب السلطانية والدول الإسلامية » :
 - نشر في القاهرة ١٩٢٣ وأعيد طبعه مرارا
- الطبري** ، أبو جعفر محمد بن جرير - « تاريخ الرسل والأمم والملوك » :
 - طبعه دي غويه في لايدن في ١٠ مجلدات مع فهرس ، لايدن ١٨٨١
 - طبع في القاهرة مرارا طبعات غير محققة
- ابن عبد ربه** ، شهاب الدين أحمد - « العقد الفريد » :
 - طبع في القاهرة مرارا ، وأحسن طبعاته طبعة أحمد أمين وآخرين في ٧ أجزاء ، القاهرة ١٩٤٠ - ١٩٤٧
- ابن عسار** المراكشي - « البيان المغرب في أخبار إفريقية والمغرب » :
 - نشر الجزء ١ و ٢ رابنهارت دوزي ، لايدن ١٨٤٨ - ١٨٥١
 - نشر الجزء الثالث ليفي بروفنسال سنة ١٩٣٢
 - نشر الجزء الرابع امبروزيو هويشي في مدريد سنة ١٩١٤ بعنوان « تاريخ الوحدين »
 - بدأ في إعادة طبعه على مخطوطات جديدة ليفي بروفنسال وج. م. س. كولان في لايدن ونشرا الجزئين ١ و ٢
- طبع في بيروت طبعة غير محققة في مجلدين
أبو الفتح ، اسماعيل بن علي عماد الدين صاحب حماء - « المختصر في أخبار البشر » :
 - نشر في الاستانة في أربعة أجزاء سنة ١٢٨٦
 - أعيد طبعه في القاهرة ١٣١٥
- ابن قتيبة** ، أبو محمد عبد الله بن مسلم :
 - « كتاب المعارف » ، القاهرة ١٣٥٣/١٩٣٤
 - « عيون الأخبار » ، ٤ أجزاء ، القاهرة ١٣٤٣ - ١٣٤٨
- قعاية** ، أبو الفرج بن جعفر :
 - « نيل من كتاب الخراج وصناعة الكتاب » نشره دي غويه في لايدن ١٨٨٩
- « نقد النثر » ، حققه طه حسين وعبد الحميد العبادي ، القاهرة ١٩٣٤
 - عثرت على أجزاء أخرى من « كتاب الخراج » وتبين من المقدمة أن الكتاب كان في أصله أشبه بموسوعة لعمال الدواوين والكتاب ، وأن كتاب نقد النثر جزء منه
- القنطري** ، جمال الدين علي بن يوسف بن إبراهيم - « أخبار العلماء بأخبار الفقهاء » :
 - نشره Lippert في لايبزيك ١٩٠٣

والعلم . فوفيات الأعيان معجم يزيد عدد الترجمات فيه على ٨٢٠ ترجمة مرتبة على أحرف الهجاء ، غير ما جاء عرضا في أثناء الكلام على الآخرين . ومن مزاياه أنه يضبط الاعلام من أسماء الرجال والاماكن ، ويذكر سنى

- أعيد نشره في القاهرة سنة ١٣٢٦
- القلقشنقى ، أبو العباس أحمد - « صبح الاعشى في صناعة الانشا » :
- طبعته دار الكتب المصرية في ١٤ مجلدا ، القاهرة ١٩١٣ - ١٩١٧
- الكتنبى ، محمد بن شاكر بن أحمد الحلبي - « فوات الوفيات » :
- نشر في القاهرة ١٢٩٩ في جزئين
- أعاد نشره محيى الدين عبد الحميد في مجلدين ، القاهرة ١٩٥٠
- الكندى ، أبو عمر محمد بن يوسف - « كتاب الولاة وكتاب القضاة » :
- نشره Rhuven Guest في لندن ١٩١٧
- ابن تغرى بردى ، أبو المحاسن جمال الدين بن يوسف - « النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة » :
- تنشره دار الكتب المصرية منذ سنة ١٩٢٩ في عدة أجزاء
- W. Popper ثلاثة أجزاء (٥ - ٧) منه في مطبوعات جامعة كاليفورنيا ١٩٠٩ - ١٩٣٦
- الأسعودى ، أبو الحسن على - « مروج الذهب ومعادن الجوهر » :
- طبع في القاهرة في جزئين سنة ١٣٤٧
- نشره نشرة علمية مع ترجمة فرنسية المستشرق Barbier de Meynard ، باريس ١٨٧٧ - ١٨٦١
- « كتاب التنبيه والاشراق » ، نشره دى غويه في لايدن سنة ١٨١٣
- ترجمه الى الفرنسية كارادى فو ونشره في باريس ١٨٩٦
- أعيد نشره في القاهرة سنة ١٩٢٧
- المقرئى ، تقي الدين أحمد بن على - « المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار »
- نشر في القاهرة سنة ١٢٧٠ في جزئين
- بدأ نشره نشرة علمية G. Wiet في القاهرة سنة ١٨١١ ولم يتمه
- « السلوك لمعرفة دول الملوك » ، نشر منه مجلدين في القاهرة الدكتور محمد مصطفى زيادة وهو يواصل نشره
- ترجم كارترير قطعة كبيرة من السلوك ونشرها في باريس ١٨٣٧ - ١٨٤٥
- « أتعاط الجنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء » ، نشره في القاهرة الدكتور جمال الدين الشيال سنة ١٩٤٧
- « أغاة الأمة بكشف الغمة » ، نشره الدكتوران الشيال وزيادة ، القاهرة ١٩٤٦
- ابن النديم ، محمد بن اسحاق - « كتاب الفهرست » :
- نشره Fluegel في لايبسك ١٨٧١
- نشر في القاهرة ١٣٤٨
- ياقوت ، شهاب الدين أبو عبد الله الرومى :
- « معجم البلدان » ، نشره في ستة مجلدات في لايبسك ١٨٦٦ - ١٨٧٣ المستشرق فستنفلد
- نشر في القاهرة في ١٠ أجزاء سنة ١٩٠٧
- « معجم الادباء » (ارشاد الأريب الى معرفة الأديب) ، نشره مارچوليوت في القاهرة ١٩٠٧ - ١٩٣١
- نشره أحمد فريد رفاعى في القاهرة سنة ١٩٣٨ في ٢٠ جزءا
- اليعقوبى ، أحمد بن أبى يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح :
- « تاريخ اليعقوبى » ، نشره Houtsma في لايدن ١٨٨٣
- « كتاب البلدان » نشره Juynbull ، لندن ١٨٦١ وترجمه الى الفرنسية G. Wiet
- ونشره في القاهرة ١٩٣٧
- أبو يوسف ، يعقوب بن إبراهيم - « كتاب الخراج » :
- بولاق ١٣١٢
- نشره في القاهرة سنة ١٣٤٦ الشيخ محمد محمود شاكر
- وقد اقتصرنا هنا على من ذكرهم المؤلف او من سيدكرهم فيما يلى من فصول الكتاب

الوفاة والولادة ، ويضمن التراجم كثيرا من الفوائد الأدبية والعلمية مما يندر في سواه . ويقال نحو ذلك في قواميس التراجم الأخرى ، كفوات الوفيات وفيه أكثر من ٥٠ { ترجمة لم يذكرها ابن خلكان ، وكتاب الوافي في الوفيات ، وأسد الغابة في أخبار الصحابة ، وكتاب تراجم الحكماء . غير كتب التراجم المرتبة على غير الهجاء ، ككتب الطبقات للشعراء والفقهاء والأطباء ، ومن أحسنها كتاب طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة المتوفى سنة ٦٦٨ هـ ، فإنه جامع تاريخ الطب والأطباء والعلم والعلماء والفلسفة والفلاسفة عند اليونان والفرس والهنود والكلدان ، فضلا عن العرب والمسلمين ، وهو مرتب بحسب العصور والبلاد ، ناهيك بما يتخلل ذكر مؤلفاتهم ووصفها من العادات والآداب الاجتماعية وغيرها ، وهو مطبوع ومشهور

عدد كتب التاريخ :

فالمسلمون الفوا في التاريخ كتب لا تحصى ، وما من أمة قبل العصر الحديث بلغت في هذا العلم ما بلغ إليه المسلمون . فان كتب التاريخ الواردة أسماؤها في كشف الظنون فقط تزيد على ١٣٠٠ كتاب ، غير الشروح والاختصارات وغير ما ضاع من تلك الكتب وأهمل ذكره وهو كثير جدا . يدل ذلك على ذلك ما تراه في مقدمات بعض كتب التاريخ أو الجغرافية ، اذ يذكر المؤلف كتباً مديدة نقل عنها أو اعتمد عليها في تأليف كتابه ، فاذا بحثت عنها رأيت أكثرها ضاع ولم يرد ذكره في كتب الفهارس ككشف الظنون أو غيره . فالمسعودي ذكر في مقدمة كتابه « مروج الذهب » عشرات من الكتب التي كانت شائعة في أيامه ، وقد نقل عنها ولم يذكر منها صاحب كشف الظنون الا القليل . فلو بقيت الكتب التي ألفها العرب في التاريخ كلها لزادت على بضعة آلاف ، وفيها كتب كبيرة يدخل الواحد منها في أربعين مجلدا أو خمسين أو ثمانين ، ومنها في عشرة أو خمسة أو اقل أو أكثر

ومن كتب التاريخ العام ما هو مرتب أحسن ترتيب باعتبار السنين ، كالطبري وابن الأثير وأبى الفداء ، أو باعتبار الأمم أو الدول كالمسعودي والغفرى وابن خلدون ، أو بحسب المدن أو الملوك مما لا يحصى . وأكثرها حسن العبارة بليغها مع اسهاب ريماء زاد في بعض الأحوال حتى يخرج عن موضوع الكتاب . ويغلب الصدق في روايات كتاب المسلمين ، لما تعودوه من الاسناد في تناقل الأخبار ، الا ما دخل تواريخهم في العصر الاول لأغراض بعض ذوي المطامع أو الأهواء والعرب لا يزالون على سداجتهم

عيوب المؤرخين المسلمين :

وانما يعاب المؤرخون المسلمون لاقتصارهم في التواريخ على إيراد الحوادث على عواهنها كما بلغت اليهم ، وقد يسندونها الى راو أو عدة رواة بلا انتقاد

ولا تمحيص ولا قياس اكتفاء بالاسناد . وقد فاتهم أن بعض الاخبار المسندة موضوع في الصدر الاول أو ما بعده لأغراض سياسية ، كما وضع كثير من الأحاديث لأسباب تقدم بيانها

ومما ينتقد عليهم أيضا أنهم يصرفون عنايتهم في التواريخ الى تدوين أخبار الحرب والفتح والعزل والولاية والولادة والوفاة ، وقلما يذكرون تاريخ الآداب أو العلوم ، أو أحوال الدولة من الحضارة وأسبابها ، وتعليل الحوادث وما نجم عنها ، وقياس بعضها على بعض الا ما يجيء عرضا . فيندر أن ترى لمؤرخ منهم رأيا في حادثة ، أو انتقادا على خليفة أو أمير ، أو ملاحظة على نكتة ، حتى في الأحوال التي يعلم أنه لا يسىء فيها الى الخليفة ، بل قد يكون في انتقاده ما يسر ذلك الخليفة ، كما كانت حال مؤرخى الدولة العباسية في شؤون الدولة الأموية ، فان شدة العباسيين على الأمويين مشهورة ، ومع ذلك فان المؤرخين الذين كتبوا في عهد الدولة العباسية قلما ذكروا شيئا من مساوئ بني أمية ، الا ما قد يجيء عرضا . ولعل السبب في ذلك السكوت أن حوادث التاريخ الاسلامى أكثرها متصل بأسباب دينية أو شرعية بين فرقة وأخرى أو مذهب وآخر . فاذا انتشبت حرب بين خليفتين أو أميرين مسلمين ، لا يخلو أن يكون أحدهما ظالما والآخر مظلوما ، فالمؤرخ المسلم يتحاشى الطعن في أحدهما احتراما لمقام الدين ، فينقل الخبر على علاته ويترك الحكم فيه للقارىء ، وهذا هو السبب فيما نقاسيه من العناء في استخراج حقائق التمدن الاسلامى من كتب التاريخ

وقد يكون من أسباب سكوتهم عن مساوئ بعض الأمراء التزلف اليهم أو الاستجداء بمذبحهم ، وكثيرا ما كان الخلفاء والأمراء أو السلاطين يقترحون على المؤرخين تأليف الكتب ويجيزونهم على تأليفها ، فكان المؤرخون يراعون بها جانب المقترح ولو خالفوا الحقيقة وهم يعلمون . ومن الطف الشواهد على ذلك ما قاله أبو اسحق الصابى الكاتب الشهير ، وقد كلفه عضد الدولة ابن بويه أن يؤلف له كتابا في أخبار الدولة الدليمية ، فألف له تاريخا سماه « التاجى » فاتفق وهو يؤلفه أن دخل عليه صديق له فسأله عما يعمل فقل : « أباطيل أنمقها وأكاذيب ألفقها . . » (١)

وقد يكون السبب عداوة بين المؤلف والمترجم فيبخره حقه عمدا ، كما فعل الفتح بن خاقان في ترجمة ابن باجة الفيلسوف الاندلسى الشهير (٢) ويندر أن ترى من بعض المؤرخين تصريحاً بمساوئ أحد الخلفاء أو الأمراء أو غيرهم من أولى الأمر . وأكثر ما عثرنا عليه من أمثال ذلك في

(١) ابن خلكان ١٢ ج ٢

(٢) نفح الطيب ٦١٢ ج ٤

كتاب الفخرى والآداب السلطانية لابن طباطبا ، وتاريخ ابن خلدون . أما ابن طباطبا فقد صرح بذلك انتصارا لآل على ، كقوله على أثر حكاية وقعت للرشيد مع أبى نواس اذ أورد قول أبى نواس فى الرشيد :

قد كنت خفتك ثم أمننى من أن أخافك خوفك الله

ثم قال : « ولم يكن الرشيد يخاف الله وأفعاله بأعيان آل على (عم) أولاد بنت نبيه بغير جرم الخ » ، وهذا تصريح لم نر له شبيها فى كتب مؤرخى المسلمين الا ما قد يقوله الشيعة فى أعمال أهل السنة أو بالعكس . وأما ابن خلدون فقد انتقد أعمال بعض الدول أو الخلفاء مدفوعا بالقياس الصحيح والحكم الفلسفى

ومما يؤاخذ به مؤرخو المسلمين أيضا - بالنظر الى آداب هذه الايام - انهم اذا عرض لهم فى بعض الاخبار الفاظ بذئة ، أو واقعة يخجل سماعها الأديب فانهم يذكرونها بألفاظها ، كما يذكرون سائر الحوادث ، ويدخل فى ذلك كثير من الأشعار السفيهة ، وهم يسمون ذلك أحماضا . وقد يتبادر الى الذهن أنه من مقتضيات تلك العصور ، أو أنه لم يكن منكرا عندهم . والحقيقة أن أهل الأدب الصحيح من أولئك المؤرخين كانوا يتحاشون الوقوع فى ذلك ، وفى جملتهم ابن خلكان فإنه من أبعدهم عن الفحش فى القول ، ومن الأدلة على أدبه أنه لما ترجم لحسين بن محمد المنعوت بالبارع ، وهو من الشعراء المشهورين ، ساقه الحديث الى قصيدة نظمها أحدهم للبارع المذكور وقصيدة أجابه البارع بها ، فذكر ابن خلكان البيت الاول من القصيدة ثم قال : « لولا ما أودعها من السخف والفحش لذكرتها »

الجغرافية أو تقويم البلدان

لفظ الجغرافية وحده كاف للدلالة على أن هذا الفن ليس من موضوعات العرب ، ولكننا ذكرناه هنا لارتباطه بالتاريخ ، ولأن العرب كتبوا فى وصف الطرق والبلاد والمدن قبل نقل الجغرافية الى العربية لأسباب خاصة بالاسلام لم يقدم البشر على وضع علم أو فن الا لأسباب حملتهم على ذلك ، لأنهم يساقون فى شؤونهم وأعمالهم بالحاجة ، ولذلك قالوا : الحاجة أم الاختراع . واضطروا الى الجغرافية لم يأت دفعة واحدة ، بل جاء بالتدريج فمما واتسع عملا بناموس الارتقاء . وأهم الأسباب التى دعت الى نشوء هذا العلم احتياج الناس قديما الى معرفة الطرق والبلاد والابعاد بينها ، أما للتجارة أو للفتح ، فجمعوا معلومات التجار والفاحين بتوالى الأزمان ، وجعلوا يتداولونها ويتدارسونها للعمل بها ، حتى أتيت لها من رتب أبوابها وضبط أجزاءها وجعلها علما

وأول من وضع أساس هذا العلم الفينيقيون ، لأنهم أقدم تجار العالم وأكثرهم أسفاراً ، فقد رادوا شواطئ البحر الأبيض واستعمروا بعضها منذ بضعة وثلاثين قرناً . وكانت مدينة صور مركز العالم التجارى في تلك الايام ، تجتمع حاصلات الأمم ومصنوعاتهم فيها وتتفرق منها حتى الهند ، فقد كانوا يحملون منها العاج والطيب والقردة وغيرها . وأسماء هذه السلع الباقية في الفينيقية والعبرانية تدل على أصلها الهنـدى . فاطلع الفينيقيون في أثناء أسفارهم على أحوال كثير من البلاد وعرفوا المسافات بينها وأخبار أهلها

ولما حمل الاسكندر بجيوشه على العالم واخترق آسيا الى بلاد الهند برا وبحرا ، اطلع رجاله على أحوال أواسط آسيا وأعاليتها فاشتغلوا في جمع الاخبار والافصاف لغرابتها . وفعل البطالسة نحو ذلك بشواطئ البحر الاحمر الى الحبشة ، ثم الرومان وغيرهم

فكانت تلك المعلومات تتجمع بتوالى الاجيال والناس ينقلونها متقطعة متفرقة ، ثم توجهت الاذهان الى جمعها وترتيبها . وأول من فعل ذلك اراتستين Eratostenes اليونانى المتوفى سنة ١٩٦ ق.م على عهد البطالسة ، فآلف كتاباً دون فيه كل ما عرفه الفينيقيون أو رواه قواد الاسكندر وغيرهم . وجاء بعده غيره وغيره كالرحالة استرابون والجغرافى بلينيوس ، الى زمن بطليموس القلوذى في أواسط القرن الثانى للميلاد ، فآلف كتاباً وافياً في الجغرافية عين فيه الاماكن بالحسابات الفلكية ، ورسم الخرائط على الحسابات الرياضية وضبط الاقسام الجغرافية وحقق أماكنها على ما بلغ اليه العلم في عصره ، وذكر فيه أن عدد المدن في أيامه كان ٣٥٠٠ وسماها مدينة مدينة ، وعدد الجبال ٢٠٠ جبل ذكر ما في بطونها من المعادن ، وذكر ما على الارض من الخلائق وغير ذلك . فجاء الاسلام وكتاب بطليموس هو المعول عليه في تقويم البلدان . فلما أخذ العرب في ترجمة العلم في العصر العباسى كان هذا الكتاب في جملة ما نقلوه الى لسانهم وسموه جغرافية ، وترجموا كتابه الآخر في الفلك وسموه المجسطى (المجسطى) ، وعلى هذين الكتابين بنوا أكثر ما كتبوه في علم الجغرافية

الجغرافية عند المسلمين :

ولكن المسلمين يداؤوا بوضع الجغرافية قبل اطلاعهم على كتاب بطليموس . لثلاثة أسباب غير السببين اللذين دعوا اليونان أو غيرهم الى وضعها . لأن العرب من أكثر الأمم فتحة وغزوا ، وقد تفرقوا بعد الاسلام في اربعة أقطار

المسكونة . وهم - وخصوصا أهل الحجاز - كانوا تجارا من زمن الجاهلية ثم اتسعت تجارتهم في الاسلام باتساع مملكتهم . أما الأسباب الثلاثة التي يمتاز بها العرب على سواهم : فأولها الحج ، لأن المسلمين على اختلاف بلادهم وأقاليمهم يحجون الى مكة ، والحج فريضة على المسلم ولو كان في الهند أو الصين أو غيرهما ، والقعود الى مكة يستلزم معرفة الطرق والمنازل . وثانيها الرحلة في طلب العلم ، فقد رأيت فيما تقدم أن المسلمين كانوا يرحلون في طلب العلم الى سائر الأمصار الاسلامية ، والرحلة تستلزم معرفة الأماكن والمناطق . ولذلك كان أول ما ألفه العرب في الجغرافية من عند أنفسهم ذكر الأماكن العربية والمنازل البدوية . وأول من ألف في ذلك رواة الأدب والشعر ، كالاصمعي والسكوني ، ثم ألفوا في بلاد العرب كلها كما فعل الهمداني في جزيرة العرب وأبو الأشعث الكندي في جبال تهامة (١) وغيره . والسبب الثالث أن العرب فتحوا العالم واختلفوا في طرق الفتح باختلاف البلاد بين أن تكون قد فتحت صلحا أو عنوة أو أمانا أو قوة ، ولكل من ذلك حكم في قسمة الفىء وأخذ الجزية وتناول الخراج واجتناء المقاطعات والمصالحات وأنالة التسويات والاقطاعات لايسع الفقهاء جهلها فضلا عن الأمراء . فأصبح علم ذلك عندهم من قبيل الدين ، ولا يتوصل اليه الا بالتاريخ والجغرافية

ولما ترجمت الجغرافية الى العربية واطلع العرب عليها أخذوا في تأليف الكتب على مثالها ، وتوسعوا في ذلك وزادوا عليه ما عرفوه من قبل . ولم يكتفوا بالنقل والسماع ، ولكنهم ركبوا البحار وجابوا الاقطار شرقا وغربا وشمالا وجنوبا ، وكتبوا ما شاهدوه أو تحققوه وصححوا كثيرا من أخطاء بطليموس . والظاهر أن علم الجغرافية عند العرب لم ينضج الا في القرن الرابع للهجرة ، فتهافت الناس على التأليف فيه مثل تهافتهم على تأليف التاريخ العام في ذلك القرن

وأول من دون الجغرافية منهم على نحو ما عند اليونان الشيخ أبو زيد البلخي ، ألف في أول القرن الرابع كتابا في الجغرافية سماه « صور الاقاليم » ذكر فيه أمثلة منها بعد أن قسمها الى عشرين جزءا ، ثم شرح كل مثال ولكنه اختصره وترك كثيرا من أمهات المدن . وكان من معاصريه رجل من علماء الفرس اسمه أبو اسحق الفارسي الاصطخرى المعروف بالكرخي ، وكان محبا للأسفار فسافر وحقق بنفسه كثيرا من البلاد والبحار والمدن وعول فيما بقى على كتاب البلخي ، وألف كتابا سماه « مسالك الممالك » وهو مطبوع ومنشور . وأما كتاب البلخي فقد ضاع

وجرى الاصطخري في كتابه على تقسيم الباليخى ، فجعل بلاد المسلمين عشرين قسما بدأ بديار العرب وانتهى الى ما وراء النهر (تركستان) ووصف كل قسم على حدة ، وذكر البلاد وحرفها وتجارها وغير ذلك . ونبغ نحو ذلك الزمن ابن حوقل ، فآلف كتاب « المسالك والممالك » وقد سار بنفسه أيضا لمشاهدة البلاد . قال في مقدمة كتابه : « فبدات سفرى هذا من مدينة السلام يوم الخميس لسبع خلون من شهر رمضان سنة ٣٣١ هـ » فلما أتم رحلته كتب الكتاب المذكور ووضحه بالخرائط الكثيرة ، لكل اقليم من أقاليم الاسلام خريطة أو غير خريطة ، ورسم المدن والأنهار والجبال والبحار والجزر وغيرها ، وتقسيمه كتقسيم الاصطخري ، والعبارة تكاد تكون واحدة في كثير من الاماكن

ثم ألف ابن الفقيه الهمداني والمقدسى والمسعودى وغيرهم . وقد رحل المسعودى رحلات عديدة بلغ بها الى اقاصى الهند وذكر ما شاهده وخبره في كتبه الجغرافية والتاريخية . وجميع هؤلاء من اهل القرن الرابع للهجرة وكتبهم مطبوعة الآن الا الخرائط فقد ضاعت ولم يبق غير ذكرها أو الإشارة إليها

وظل الناس على هذه الكتب وقليل غيرها ، حتى نهض المسلمون لتأليف التاريخ وترتيبه وجمعه على ما بيناه في مكانه ، فنهض جماعة ألفوا في الجغرافية كما ألفوا في التاريخ ، فوضعوا المعجمات الجغرافية على أحرف الهجاء ، وأشهر من فعل ذلك ياقوت الحموى المتوفى سنة ٦٢٦ هـ فقد ألف كتابا ضخما سماه « معجم البلدان » أتى فيه على وصف البلدان والجبال والأودية والقيعان والقرى والمحال والأوطان والبحار والأنهار والأصنام والأبداد والأوثان ، وضمن ذلك كثيرا من تراجم الناس في أثناء ذكره للبلاد التى ولدوا فيها أو نسبوا إليها . فهو قاموس جغرافى تاريخى أدبى . ولأبى الفداء صاحب حماه أيضا كتاب في تقويم البلدان ولغيره غيرها ، فضلا عن الرحلات الكثيرة التى خلد الم العرب بها الجغرافية ، فنكتفى بالإشارة إليها ونترك التفصيل لتاريخ آداب اللغة العربية (❖)

(❖) لم يستعمل العرب لفظ «جغرافية» (بضم الجيم أو فتحها) للدلالة على ذلك العلم الا في القرن التاسع الميلادى ، أما قبل ذلك فكان لفظ جغرافية مقصورا على جغرافية بطليموس ، فاذا قالوا الجغرافية فالمراد ذلك الكتاب وحده . وأول من استعمل اللفظ للدلالة على العلم هو المسعودى في « التنبيه والإشراف » ، فقد قال : « الجغرافية هى قطع الأرض » والمراد بالقطع هو الوصف والتفصيل فالترجمة على ذلك صحيحة ، وقد وردت عبارة « علم الجغرافية » لأول مرة في رسائل اخوان الصفاء وفسروها بأنها « صورة الأرض » ، ولتتبع تطور هذا اللفظ وما يقابله انظر «كشف الظنون» لحاجى خليفة ، طبعة الاستانة ١٣١١ ح ١ ص ٢٩٤

ولا يتسع المقام لتتبع تطور هذا العلم وأهم مؤلفاته وخصائصها ومؤلفيه وما يمتازون به ، ونحيل القارئ على المادة الوافية التى كتبها المستشرق كرامرز عن لفظ جغرافية في ملحق دائرة المعارف الاسلامية . وقد أورد في نهاية بحثه نبأ وافيا بالراجع . وقد نشرنا في ترجمتنا لتاريخ الفكر الاندلسى لجندالد بالنشيا فصلا مطولا عن الجغرافية عند الاندلسيين

الآداب العربية الجاهلية

الخطابة بعد الاسلام

الخطابة والشعر من الفنون الجاهلية التي زادها الاسلام رونقا وبلاغة وارتقاء ، ولكن الخطابة سبقت الشعر في الارتقاء ، لحاجة المسلمين اليها في الفتوحات والغزوات ، والعرب يومئذ لا يزالون على بداهتهم ، تتأثر نفوسهم بالتصورات الشعرية سواء سبكت في قالب الخطابة أو الشعر . والخطابة اقرب تناولا ، ولم يرد في القرآن ما ينفر الناس منها كما ورد في الشعر والشعراء . فكما كان الشاعر في الجاهلية يقدم على الخطيب لفرط حاجتهم الى الشعر الذي يقيد مآثرهم ويفخم شأنهم ويهول على عدوهم ويهيب بفرسانهم ، أصبح الخطيب في الاسلام مقدما على الشاعر لفرط حاجتهم الى الخطابة (١) في استنهاض الهمم وجمع الاحزاب وارهاب الاعداء

والفرق بين الخطابة في الجاهلية وفي الاسلام ، أن الاسلام زادها بلاغة وحكمة بما كان يتوخاه الخطباء من مجازاة أسلوب القرآن واقتباس الآيات القرآنية ، وقد كان للقرآن نحو هذا التأثير في الشعر أيضا ، ولكن الخطابة اوسع مجالا للاقتباس . فأخذ الخطباء يرصعون خطبهم بالآيات تمثيلا أو إشارة أو تهديدا ، حتى لقد يجعلون الخطبة برمتها مجموع آيات ، كما فعل مصعب بن الزبير لما قدم العراق وأراد أن يحرض أهله على الطاعة لأخيه عبد الله ، فصعد المنبر وقال : « بسم الله الرحمن الرحيم . طسم ، تلك آيات الكتاب المبين ، نتلو عليك من نبي موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون ، أن فرعون علا في الارض وجعل أهلها شيعة ، يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيى نساءهم انه كان من المفسدين (وأشار بيده نحو الشام) ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الارض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين . (وأشار بيده نحو الحجاز) ونمكن لهم في الارض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون (وأشار بيده نحو العراق) » (٢)

وزادت الخطابة بعد الاسلام قوة ووقعا في النفوس ، بنهضة العرب للحروب وانتصارهم في أكثر مواقعها ، فازدادوا أنفة وسمت نفوسهم فسموا بها ذوقهم في البلاغة ، وشحذت قرائحهم بما شاهدوه من البلاد الجديدة والأمم الجديدة والألسنة الجديدة ، فلبغت الخطابة عندهم مبلغا قلما سبقهم

(٢) البيان والتبيين ٢٩ ج ٢

(١) البيان والتبيين ١٨ ج ٢

فيه احد من الأمم التى تقدمتهم بلاغة وإيقاعا وتأثيرا حتى اليونان والرومان .
لا ننكر ما كان من تفوق هاتين الامتين فى الخطابة ، وما نبغ بين رجالهما
من الخطباء الذين لا يشق لهم غبار كديموستينيس واشينس وهيريدس
من خطباء اليونان ، وشيشرون ويوليوس قيصر وسالوستس ولوكيرتس من
خطباء الرومان ، ولكن العرب لم يأتوا بأقل مما أتى به أولئك بلاغة ووقعا .
وربما كان الخطباء فى الاسلام أكثر عددا وخطبهم أوفر وأبلغ ، مع اعتبار
الفرق بين الامتين لغة وخلقا وأدبا

فقد ذكروا لديموستينيس أخطب خطباء اليونان ٦١ خطبة نصفها منسوب
اليه خطأ ، وهذه خطب الامام على تعدد بالمئات . وأما فى كثرة الخطباء
فالعرب كانوا فى صدر الاسلام من أكثر الأمم خطباء ، لأن خلفاءهم وأمراءهم
وقوادهم كان معظمهم من الخطباء حتى النساك والزهاد (١) ولا غرابة فى
ذلك ، لأن العرب أهل خيال وذوو نفوس حساسة ، وللبلغة تأثير شديد
فى عواطفهم تقنعهم وتقيمهم . وقد كان ذلك من جملة ما ساعد على نشر
الاسلام بينهم . وكثيرا ما توقف فتح البلد أو الحصن على خطاب يتلوه
القائد على رجاله ، فتثور فيهم النخوة وتسرى فى عروقهم الحماسة
فيستهلكون فى الدفاع أو الهجوم . وفى أخبار الفتوح أدلة كثيرة لا يساعد
المقام على ايرادها . ونعرف قوادا انما ساعدتهم على النصر قوة عارضتهم
وتأثير خطبهم فى نفوس رجالهم

فالحجاج بن يوسف كان خطيبا بليغا زادته الخطابة عظمة وسطوة .
كان العراق متمردا على عبد الملك ، فلما أعجزه أمره ولى عليه الحجاج ،
فدخل الحجاج الكوفة وصعد المنبر مثلثا متنكبنا قوسه واضعا ابهامه على
فمه ، فاحتقره الناس وكادوا يرمونه بالحصى كما كانوا يفعلون فى الولاة
قبله . فوقف وأزاح لثامه عن وجهه وألقى خطبته التى قال فى مطلعها :

انا ابن جلا وطلاع الثنايا متى اضع العمامة تعرفونى
الى أن قال :

» أما والله لأحمل الشر بثقله واحذوه ينعله وأجزيه بمثله . أما والله انى
لأرى بعوسا قد أينعت وحن قطافها ، وكأنى أرى الدماء بين العمائم واللحي
هذا أوان الشد فاشتدى زيم قد لفها الليل بسواق حطم

« الا وان أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان نثر كنانته فجمع عيدانها فوجدني أصليها عودا فوجهني اليكم . . فانكم أهل بغى وخلاف وشقاق ونفاق ، طالما سعيتم في الضلالة وسننتم سنن البغى . . اما والله لالحنكم لحو العصا ، ولأعضبنكم غضب السلمة ، ولأقرعنكم قرع المروة ، ولأضربنكم ضرب غرائب الابل . . والله ما أخلق الا فريت ، ولا أعد الا وفيت . . الخ » (١)

فما فرغ من خطبته حتى هابوه وأذعنوا له ، وكان شديدا عليهم . وأمره مشهور . ومع ذلك فقد كان اذا رقى المنبر وذكر احسانه الى أهل العراق وصفحه عنهم واساءتهم اليه ، يخيل للسامع أنه صادق وان أهل العراق ظالموه . . (٢) ولذلك كان الأمراء والخلفاء يخافون الخطباء كما يخافون الشعراء ، لما في أقوالهم من التأثير في تلك النفوس الحساسة

واذا رجعت الى حوادث الفتح أو جمع الأحزاب أو اخماد الثورات رأت عجبا ، وأول ثورة كادت تهب في الاسلام لما بلغ أهل المدينة موت النبي (صلعم) فهاجوا حتى خاف الصحابة سوء العاقبة ، فقام أبو بكر خطيبا فقال : « أيها الناس ، ان يكن محمد قد مات فان الله حي لم يميت (وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل ، أفئن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم) وقد علمتم اني أكثركم قتبا في بر ، وجارية في بحر ، فأقروا أميركم وأنا ضامن ان لم يتم الأمر أن أردّها عليكم » (٣) فهذه الكلمات القليلة كانت كافية لخماد تلك الثورة

وقس على ذلك خطبته في السقيفة ، وخطب من تولى بعده من الخلفاء الراشدين ، وأخطبهم بلا خلاف على بن أبي طالب ، وفي كتاب «نهج البلاغة» المنشور بين ظهرانينا أكبر شاهد على ذلك ، وان لم تصح نسبة كل تلك الخطب اليه ، فأكثرها من أقواله ، وفيها أمثلة من كل ضروب الخطب ، ومنها الدينية والأدبية والعلمية والحماسية والفخرية

وكان أكثر الخلفاء يخطبون ، ولكنهم يتفاوتون في البلاغة وقوة العارضة ، على أن تلك القوة أخذت تضعف فيهم ، بعد الفراغ من الفتوح والانغماس في أسباب الترف والسكون الى الرخاء والبذخ ، وتحولت من الحماسة الى المواقظ ثم الى الشكاية . وتداعى فن الخطابة بتداعى دولة العرب في الشرق ، فلما قامت دولتهم في الاندلس بعثوه وقربوا الخطباء كما قربوا الشعراء ،

(١) العقد الفريد ٧ ج ٣ وغيره (٢) البيان والتبيين ٢٠ ج ١

(٣) البيان والتبيين ١٢٢ ج ١ والشهرستاني ١١ ج ١

لكنهم قلما كانوا يستخدمونهم لانهاض الهمم أو اخماد الفتن ، لذهاب الحاجة الى ذلك بذهاب البداوة والفراغ من الفتح . على أنهم كانوا اذا احتفلوا بتنصيب خليفة أو بالنصر على عدو أو باستقبال قادم كبير ، تقدمت الخطباء للترحيب به واعظام شأنه أو شأن مقعده ووصف ما تهيأ له من توطيد الخلافة (١)

واما الأمراء والقواد فكانوا يخطبون في الجند قبل الاغارة على العدو فيحرضونهم على الثبات . وكثيرا ما كانت الخطبة سببا للنصر ، كخطبة خالد بن الوليد في وقعة اليرموك ، وخطبة المغيرة في وقعة القادسية ، وخطبة خليلد بن المنذر في غزوة فارس ، وخطبة طارق بن زياد في فتح الاندلس ، ونحو ذلك مما لا تسعه المجلدات

ناهيك بشيوع الخطابة في القبائل على اختلاف أصقاعها كما كانت في الجاهلية . وكانت ترد الوفود الى المدينة أو دمشق أو بغداد أو غيرها من عواصم المسلمين لتهنئة الخليفة أو استنفاذه أو استنجاده أو استجدائه . وكان شباب الكتاب اذا قدم الوفد حضروا لاستماع بلاغة خطبائهم ، لشيوع حب الخطابة فيهم (٢) ولأقتباس أساليب البلاغة منهم

ويعد من قبيل الخطابة عند العرب البلاغة في المكاتبات ، فقد كان الخلفاء وخصوصا في صدر الاسلام اذا كاتبوا أميرا في أمر تعمدوا البلاغة كأنهم واقفون على منبر الخطابة ، والغالب في قوى المعارضة في الخطابة أن يكون بليغا في الكتابة . وقد مر الكلام على ذلك

الشعر بعد الاسلام

الشعر وبنو أمية :

لما ظهر الاسلام ودهش العرب بأساليب القرآن وبالنبوة والوحى ، واشتغلوا بالغزو والفتح ونشر الاسلام ، انصرفت قرائنهم الشعرية الى الخطابة لحاجتهم اليها في استنهاض الهمم وتحريك الخواطر للجهاد واستحثاث القلوب على العبادة . فانقضى عصر الراشدين والعرب في شغل عن الشعر ، حتى اذا طمع بنو أمية في الخلافة مع كثرة المطالبين بها من أهل البيت واحتاجوا الى من يؤيدهم ، استنفروا الناس لنصرتهم وابتاعوا الأحزاب بالأموال واستخدموهم بالدهاء ، فكان الشعر في جملة ما تساعدوا به على ذلك لما قدمناه من تأثيره في النفوس . وكان خلفاؤهم يبالغون في اكرام الشعراء ، اما ليرغبوا الناس في خلافتهم أو ليقطعوا السننهم فيسكتوا

عن هجوههم ، ولذلك عبروا عن اجازة الشاعر بقطع لسانه

فكان الخلفاء من بنى أمية يرغبون الناس في الشعر ويجيزونهم بأعظم الجوائز ، على نسبة الجودة في أشعارهم ومكانهم في أقوالهم ، وكانوا يطالبون أولادهم بحفظ الأشعار والآثار . على أن تحريض الناس على تعليم أولادهم الشعر بدأ في أيام عمر كما تقدم ، أما بنو أمية فقد بذلوا المال والسعي في هذا السبيل . قال معاوية مؤسس دولتهم : « اجعلوا الشعر أكبر همكم وأكثر آدابكم » (١) وكان يبالغ في اكرام الشعراء ولو هجوه ، واقتدى به خلفاؤه وأمرأؤه ، حتى الحجاج فانه كان يهتم بذلك ويسأل أدباء زمانه عن أشعر الشعراء ويبحث في تفاضلهم ، وإذا امتنع عليه ذلك مشافهة كاتب به أهل العلم ، كما كاتب قتيبة بن مسلم (٢) . وكانوا إذا أمسك الشعراء عن أبوابهم استوفدوهم واستزاروهم وغمروهم بالأموال والاكرام . ومن أكثرهم رغبة في الشعر عبد الملك بن مروان ، فكان الناس في أيامه حيثما اجتمعوا يتناشدون الأشعار ويتدارسون أخبار الشعراء (٣)

وقد يتبادر الى الأذهان أنهم كانوا يفعلون ذلك رغبة في الأدب وتنشيطا لأهله ، لأن الشعر سجية في العرب ودولة الأمويين عربية بحثة فلا يبعد أن يكون لذلك يد في الامر ، ولكن الاغلب أنهم كانوا يفعلونه للاستعانة بالسنة الشعراء على مقاومة أهل البيت ، لعلمهم أن الجمهور يعتقد أن الحق في الخلافة لهؤلاء . وكثيرا ما كان الشعراء المغمورون بنعم بنى أمية لا يتمالكون عن التصريح بذلك في بعض الاحوال

فالفزدق مثلا امتدح بنى أمية ونال جوائزههم ، وكان متشيعا في الباطن لبنى هاشم ، والأمويون يعلمون ذلك ويسترضونه . ومن جملة أخباره أن مروان بن الحكم ، وكان عاملا لمعاوية على المدينة ، بلغه عن الفزدق قول أوجب حده فطلبه ففر الفزدق الى البصرة ، فقال الناس لمروان : « أخطأت فيما فعلت ، فانك عرضت عرضك لشاعر مضر » فوجه وراءه رسولا ومعه مائة دينار وراحلة خوفا من هجائه . ومع ذلك اتفق أن الخليفة هشام ابن عبد الملك ذهب الى الحج ، وبينما هو في الطواف شاهد على بن الحسين وأكرهه ، فسأل عنه . وكان الفزدق حاضرا ، فنظم قصيدته المشهورة في مدح أهل البيت ومطلعها :

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته والبيت يعرفه والحل والحرم

(٢) الزهر ٤٢٠ ج ١

(١) ابن خلكان ١٠٧ ج ٢

(٣) لطائف المعارف ٧٠

ومما يدل على أن بنى أمية كانوا يقربون الشعراء لغرض عائد الى تأييد سلطانهم ، أن عمر بن عبد العزيز أتقاهم وأعدلهم لما أراد أن يتمثل بالخلفاء الراشدين في التقوى والزهد ، منع الشعراء من بابه وأعلن أنه لا يقبل الشعر ولا يقابل الشعراء (١) فلم يطل حكمه ، وعاد خلفاؤه الى المباراة في اكرام الشعراء والاغداق عليهم بالأموال

الشعر وبنو العباس :

فلما انقضت دولة بنى أمية وقامت دولة العباسيين ، عدل المنصور عن اكرام الشعراء ، وكانوا قد تعودوا الوفود على الخلفاء أو نيل جوائزهم ، فأصبحوا إذا أتوا المنصور منعهم من الدخول عليه أياما ، حتى تنفذ نفقاتهم ويمهلوا الانتظار وحاجبه يرفع أمرهم اليه وهو يؤخرهم . ثم إذا أذن لهم بعد ذلك ، اشترط عليهم أن يمدحوه كما كانوا يمدحون بنى أمية (٢) وكان بخيلا عليهم ، فتخربت قلوب الشعراء عليه ، فساعد ذلك على تباعد قلوب العرب عنه وميلهم الى العلويين ، فاستفحل أمر محمد بن عبد الله بالمدينة وقاسى المنصور أمر العذاب في اخماد ثورته . فأصبح الخلفاء بعد المنصور يتجنبون اغصاب الشعراء ويبالغون في اكرامهم . وكان الشعراء يتقربون اليهم بهجو العلويين ، وخصوصا الرشيد ، فقد كان مروان بن أبي حفصة يتقرب اليه بهجائهم (٣) وبعد أن كان الشعراء يسمون في أيام بنى أمية السؤال سماهم وزيره جعفر الزوار . وبالعالم المأمون في اكرامهم ، حتى كان يفضي عنهم إذا هجوه . ذكروا أن دعبلا الخزاعي الشاعر هجا ابراهيم بن المهدي ، فرفع ابراهيم أمره الى المأمون ، فقال له المأمون : « لك أسوة بي ، فقد هجاني واحتملته وقال في :

أيسومني المأمون خطة عاجز أو ما رأى بالامس رأس محمد ؟
انى من القوم الذين سيوفهم قتلت أخاك وشرفتك بمقعد
شلالدا بذكرك بعد طول خمولة واستنقذك من الحضيض الأوهده »

فقال ابراهيم : « زادك الله حلما يا أمير المؤمنين » (٤)

وتزاحم الشعراء ببناب المهدي والرشيد والمأمون ، ونبغ بشار بن برد العقيلي وأبو نواس وأبو العتاهية وغيرهم

الشعر ودول العرب :

والشعر كما قدمنا من العلوم العربية ، فلما تغلب العنصر الاعجمي في

(١) العقد الفريد ١١٥ ج ١ (٢) العقد الفريد ١٢ ج ١

(٣) ابن خلكان ٨٩ ج ٢ (٤) ابن خلكان ١٧٩ ج ١

دولة بنى العباس وصارت الأمور الى أيدي الأتراك ضعف أمر الشعراء . حتى اذا قامت دولة بنى حمدان ، وهم عرب ، عاد الشعر الى رونقه وتزاحم الشعراء بباب سيف الدولة ، حتى قيل انه لم يجتمع بباب خليفة من شيوخ الشعر ونجوم الدهر ما اجتمع ببابه . وكان هو أدبيا شاعرا ، فاشتهر في عصره أبو فراس والمتنبي والسري الرفاء وأبو العباس أحمد بن محمد النامي وأبو الفرج عبد الواحد البغاء وأبو الفرج الواواء وغيرهم (*)

فلما انقضت تلك الدولة العربية عاد الشعر في الشرق الى الخمول ، وكان قد ائنع في دولة بنى أمية بالاندلس وراجت سوقه واتسع نطاقه وكثرت فنونه على ما سيجيء

أما دول المسلمين غير العرب ، فقد كان فيهم من يحب الشعر ويكرم الشعراء ، ولكن الغالب فيهم أن يفعل الملك منهم ذلك على سبيل القدوة أو المباهاة ، وهو لا يفهم ما يقرأه من مدائحه . ومما يضحك من هذا القبيل أن الشعراء وفدوا على يوسف بن تاشفين أمير دولة المرابطين وكان من بربر قبيلة لمتونة البربرية بالمغرب ونظموا القصائد في مدحه بواسطة المعتمد بن عباد ، فلما أنشدوه قصائدهم قال له المعتمد : « أيعلم أمير المسلمين ما قالوه ؟ » قال : « لا أعلم ، ولكنهم يطلبون الخبز .. » . ولما انصرف المعتمد الى ملكه كتب الى ابن تاشفين رسالة قال في جملتها :

بنتم وبنا فما ابتلت جوانحنا شوقا اليكم ولا جفت مآقينا
حالت لفقدكم أيامنا ففدت سودا ، وكانت بكم بيضا ليالينا
فلما قرىء عليه هذان البيتان قال للقارىء : « يطلب منا جوارى سودا
وبيضا ؟ » قال : « لا يامولانا .. ما أراد الا أن ليله كان بقرب أمير
المسلمين نهارا لأن ليالى السرور بيض ، فعاد نهاره يبعده ليلا لأن ليالى
الحزن سود .. » . فقال : « والله جيد .. اكتب له في جوابه أن دموعنا
تجرى عليه ، ورعوسنا توجعنا من بعده ! » (١) (*)

جمع الشعر ورواته :

لما أخذ المسلمون في تفسير القرآن واحتاجوا الى تحقيق معاني الالفاظ ،

(*) انظر من هؤلاء الشعراء جميعا « يتيمة الدهر » للثعالبي ، نشره محمد محيي الدين عبد الحميد ، القاهرة ١٩٤٧ ، ح ١ ، الفهرس

(١) نفع الطيب ٧٨١ ج ٢

(*) روى هذه الحكاية ابو الوليد الشنقدي في « رسالة في فضل الاندلس » التي أوردها المقرئ في نفع الطيب (طبعة أوروبا) ح ٢ ص ١٢٦ وما بعدها ، وبيتا الشعر الواردان هنا هما لابن زيدون ، والقصة من افتراءات الاندلسيين على المرابطين

كان الشعر في جملة ما رجعوا اليه في تحقيقها ، فاضطروا الى جمعه بالأخذ عن رواته . شرعوا في ذلك من القرن الأول للهجرة . وأكثر الناس اشتغالا بجمع الشعر أهل العراق مما يلي بلاد العرب أى في البصرة والكوفة ، وكان أهل الكوفة أجمع للشعر من أهل البصرة (١) وأول من جمع أشعار العرب وساق أحاديثها حماد الراوية الديلمي الكوفي المتوفى سنة ١٥٥ هـ (٢) وخلف ابن حيان الأحمر الفرغانى مولى أبى بردة (٣) وأبو عمرو بن العلاء وأبو عبيدة والأصمعى وغيرهم ، وأكثرهم من رواة الأدب واللغة ، وقد مر الكلام على ذلك في باب

وبلغ ما جمع من شعر الجاهلية عشرات الألوف من القصائد ، مما لم يسمع له مثيل في أمة من الأمم كما تقدم . على أن بعض الرواة كانوا ينظمون الشعر وينسبونه الى العرب لأسباب دعتهم الى ذلك ، لكنهم لم يفعلوا في هذا النحو ما يتجاوز الأبيات القليلة . قال خلف الأحمر : « أتيت الكوفة لأكتب عنهم الشعر فدخلوا على يه ، فكنت أعطيهم المنحول وأخذ الصحيح ، حتى مرضت فقلت لهم : « ويلكم ! أنا تائب الى الله .. هذا الشعر لى » فلم يقبلوا منى ، فبقى منسوباً الى العرب لهذا السبب » (٤) وقال أبو عمرو بن العلاء : « ما زدت في شعر العرب الا بيتاً واحداً وهو : وانكرتنى وما كان الذى تكرت من الحوادث الا الشيب والصلعا ادخلته في جملة أبيات الاعشى » . وفعل حماد أيضاً نحو ذلك (٥) على أن العرب ما لبثوا أن أخذوا في تمحيص الروايات بالاسانيد ، بعد أن تعودوا ذلك في رواية الحديث

ومن عادة العرب في رواية الشعر ، أنهم كانوا من أيام الجاهلية اذا نبغ الشاعر صحبه رجل يروى أشعاره ويتلوها ، أو يروى له أشعار غيره للشاهد أو نحوه . ويقلب على الراوية أن يكون مرشحاً للشاعرية ، كأنه تلميذ يتدرب على يد أستاذه يأخذ عنه . وكانت عمدتهم في الجاهلية على الحفظ ، لأنهم لم يكونوا يكتبون ، فكان كثير عزة راوية جميل بثينة ، وجميل راوية هدية بن خشرم ، وهدبة كان راوية الحطيئة ، والحطيئة راوية زهير

(١) الزهر ٢٠٦ ج ٢ (٢) ابن خلكان ١٦٤ ج ١
(٣) طبقات الادباء ٦٩ (٤) ابن خلكان ٢٠٨ ج ١
(٥) ابن خلكان ٢٨٧ ج ١

وابنه (١) وكان الراوية في الجاهلية وأوائل الاسلام يروى للشاعر الواحد ويصحبه وينشد له ، ويعجب به اعجاب التلميذ بأستاذه ويناضل عنه ويفضله على سواه . فلما احتلج العرب الى جمع الشعر كثر رواته أو جماعه ، وكل منهم يجمعه ويرويه لفرض . فالتحويون كانوا يعتنون بحفظ الأشعار التي يستشهد بها في الاعراب ، والشعراء كانوا يروون كل شعر فيه لفظ غريب أو معنى صعب يحتاج الى الاستخراج ، والاخباريون كانوا يجمعون من الشعر ما يجدون فيه الشاهد والمثل . وكان فيهم من يروى أشعار المجانين ولصوص الاعراب والأرجاز الاعرابية القصار وأشعار اليهود، على أن هؤلاء لم يكونوا يعدون من الرواة . وتفرد جماعة بجمع كل أنواع الشعر ، وهم الرواة الذين ذكرناهم ومنهم حماد وخلف وغيرهما . وكانت لهم في الحفظ نواذر غريبة ، لتعود ذاكرتهم على ذلك مذ أخذ الناس في ذلك العصر بتعويد حوافظهم على حفظ القرآن والحديث ، لتجنب الكتابة للأسباب التي قدمناها . فكان فيهم من يحفظ بضعة وعشرين ألف قصيدة ، يرويها بأسانيدھا ومعاني ألفاظها كما تقدم . وكان للشعراء عناية خاصة في حفظ أشعار العرب ، لاكتساب ملكة العرب فيها ، لأنهم كانوا يعتقدون أن من يحفظ شعر شاعر فحل يشعر مثله ، أو للجواب على ما قد يعرض عليهم من الاسئلة ، اذ كان للخلفاء والأمراء في الدولة الأموية وصدر الدولة العباسية عناية كبيرة في استطلاع أشعار العرب

طبقات الشعراء :

العرب مطبوعون على الشعر، ولكنه يختلف فيهم معنى وأسلوبا باختلاف العصور والاقاليم . فالبدوى الذي كان ينظم القصيدة وهو يسوق بعيره في عرض البداء لا يرى حوله الا رمالا أو أطلالا ، اذا للعتة الشمس أو جنة الظلام أوى الى بيت من الشعر أو الوبر، أنيسه فيه البعر والفرس وطعامه اللبن والتمر وضجيج السيف والرمح ، يتوسد على حذر من عدو يبغته أو حشرة تلسعه ، واذا واعد حبيبته فموعدهما الرقمتان أو العقيق فيلتقيان على أكمة أو في واد ، يعبد آلهة من الحجارة أو الأخشاب أو يصنعها من التمر ، واذا جاع أكلها . . فالبدوى الذي هذه حاله لا يكون خياله الشعري مثل خيال رجل نشأ بين القصور السماء والحدائق الفناء ، ولبس الحرير وتوسد الديباج وتعود أبهة الدولة وجلال الملك ، وعاشر الخلفاء والوزراء وعانى أسباب التأنق وانغمس في الترف والبذخ . فان الشعر تختلف طبقاته باختلاف هذه الأحوال . ولذلك كان الشعر الجاهلي

أقرب الى الخشونة والمتانة ، مع خلوه من زخرف الكلام واساليب الكتابة والمجاز

فلما جاء القرآن وشاع حفظه وحفظ الاحاديث ، وعنى الناس بجمع الآداب والأمثال واستظهار أحاسنها وأحسن الشعر ، نهضت طباع الناس وارتقت أذواقهم في البلاغة ورسخت ملكاتهم واتسعت تصوراتهم في الشعر والخطابة . فكان كلامهم في نظمهم ونثرهم أسمى رتبة وأصفى روتقا ، واقتبسوا من الفرس أساليب الاطناب . ولذلك كان الشعراء الاسلاميون اعلى طبقة في البلاغة وأذواقها من شعراء الجاهلية . فشعر حسان بن ثابت وعمر بن ربيعة والحطيئة وجريير والفرزدق ونصيب وذى الرمة والأحوص أرفع طبقة في البلاغة والتفنن في أساليب التعبير من شعر النافعة وعنتره وعمرو بن كلثوم وزهير وعلقمة وطرفة (١) كما كان الخطباء الاسلاميون أحسن ديباجة وأبلغ عبارة من خطباء الجاهلية

فالجاهليون طبقة أولى ، تليهم طبقة الاسلاميين الى أواخر دولة بنى أمية وهم المخضرمون ، ثم طبقة ثالثة في الدولة العباسية هي طبقة المولدين ، تليها طبقة المحدثين . ولا يسعنا تعيين حد فاصل بين كل طبقة وما تليها ، لأن كثيرين من الشعراء أدركوا أواخر إحدى هذه الطبقات وأوائل التي تليها . فمن شعراء الجاهلية من أدرك الاسلام ، ومن المخضرمين من أدرك زمن المولدين ، وقس على ذلك

وانما تقسم الشعراء الى هذه الطبقات تقسيما اجماليا . فالطبقة الأولى شعراء الجاهلية ، والمراد بهم من كان شعره جاهليا أو نظم أكثره قبل الاسلام . ومزية الشعر الجاهلي البساطة والخشونة ، فاذا وصفوا عاطفة مثلوها بطبيعتها ، أو وصفوا أسدا أو بيتا أو ظبيا لم يكن في عبارتهم تكلف ولا تعمل أو مبالغة . وأشهر أهل هذه الطبقة أصحاب المعلقات

والطبقة الثانية ، وهي المخضرمون ، تشبه الأولى من حيث بقاء أهلها على البداوة في عهد الامويين ، ولكنها أسمى منها في البلاغة للأسباب التي قدمناها ، وعليها مسحة من الحضارة . ومن أشهر الشعراء المخضرمين حسان بن ثابت وكعب بن زهير وجريير والأخطل والفرزدق

والطبقة الثالثة المولدون ، وشعراؤها من معاصري الرشيد والمأمون ، في عصر الزهو العباسي ، عصر الترف والبذخ والتأنق والرخاء ، فرقت طباعهم وارتقت أذواقهم بالمعاصرة والمخالطة ، فظهر ذلك في أشعارهم فعمدوا الى وصف الخمر ومجالس الأنس وحدائق القصور ونحو ذلك . فشعر المولدين

يمتاز عن الطبقتين السابقتين بالركة والخلاعة ، وأشهر المولدين بشارالعقيلي وأبو العتاهية وأبو نواس وأبو تمام والبحترى
وأما الطبقة الرابعة فتريد بها الشعراء الذين نبغوا بعد انتشار الفلسفة اليونانية وعلوم اليونان وشيوع علم الكلام ، وفي شعر أهل هذه الطبقة صبغة فلسفية حكمية جدلية ، كشعر المتنبي والمعري والشريف الرضى والصفي الحلي

الشعراء في الاسلام وأشعارهم :

تكاثر الشعراء في العصر الاسلامي فوق تكاثرهم في العصر الجاهلي ، لرواج سوق الشعر في القرون الأولى . على ان احصاءهم بالضبط غير متيسر لضياح أكثر أخبارهم ، لكننا نستدل من بعض النصوص على أن عددهم كان عظيما جدا ، فقد ذكر ابن خلكان : « أن هرون بن علي المنجم البغدادي صنف كتاب البارح في أخبار الشعراء المولدين وجمع فيه ١٦١ شاعرا ، وافتتحه بذكر بشار العقيلي وختمه بمحمد بن عبد الملك بن صالح » ، والفترة بينهما قصيرة ، وذكر المؤلف انه اقتصر على خيرة الشعراء ونخبتهم . فقس على ذلك الشعراء المخضرمين والمحدثين من أهل الطبقة الرابعة ، ناهيك بشعراء الاندلس فانهم يعدون بالمئات

أما مقدار ما نظمه أولئك الشعراء من القصائد والدواوين فمما لا يحصيه عد ، وقد فقد معظمه في الفتن وغيرها في العصور الاسلامية الوسطى ، فنكتفى منها بما ذكره صاحب كشف الظنون ، فانه ذكر نحو ستمائة ديوان لستمائة شاعر من المشاهير ، أورد أسماءهم وألقابهم وسنى وفاتهم ، وهم من أهل العراق والشام وفارس وخراسان ومصر والاندلس وغيرها . ويختلف حجم هذه الدواوين ومقدار صفحاتها من ألفى صفحة الى مائة وما تحتها ، وتقدير الورقة في اصطلاحهم صفحتان كل صفحة عشرون سطرا . فديوان بشار العقيلي مثلا ألف ورقة في ألفى صفحة أى ٤٠٠٠٠ سطر أو بيت ، وابن هرمة ٥٠٠ ورقة في ٢٠٠٠٠ بيت ، وشعر أبى نواس في نحو ألف ورقة ، ومسلم بن الوليد ٢٠٠ ورقة ، وقس على ذلك (١)

واذا اعتبرت الدواوين التى ضاعت وفات صاحب كشف الظنون ذكرها ، والشعراء الذين لم تجمع أشعارهم ولم يكن لهم دواوين ، زاد استغرابك من كثرة الشعر العربى وتعداد شعرائه مما لا تجد له مثيلا في لغة من لغات العالم القديم أو الحديث

مروض الشعر :

المشهور أن الخليل بن أحمد المتوفى سنة ١٧٠ هـ هو أول من وضع

عروض الشعر العربى ، أى استنبطه وأخرجه الى الوجود وحصر أقسامه فى خمس دوائر يستخرج منها خمسة عشر بحرا ، ثم زاد فيه الاخفش بحرا واحدا سماه الخبب (١) . ولكن الغالب أن بحور الشعر كانت معروفة من قبل ، ولولا ذلك لم يستطع العرب ضبط منظوماتهم على ما نراه فى أشعارهم . ويؤيد ذلك قول الوليد بن المغيرة منكرا قول من قال ان القرآن شعر : « لقد عرفت أضرب الشعر وهزجه ورجزه وكذا وكذا فلم أراه يشبه شيئا من ذلك » (٢) فكيف يقول هذا وهو لا يعرف بحور الشعر ؟ فالظاهر أن الخليل أول من جعل العروض علما ورتبه هذا الترتيب وزاد فيه أنواعا من الشعر ليست من أوزان العرب (٣) وربما زادوا فيه بعد ذلك شيئا من بحور اليونان أو أساليبهم ، لأن بعض الذين كانت لهم عناية باللغة اليونانية فى ذلك العصر كانوا يقابلون بين شعرها وشعر العرب . ولابن الهيثم فى أوائل القرن الخامس للهجرة رسالة فى صناعة الشعر ممتزجة من اليونانى والعربى (٤) لم تقف عليها . على أن ابن شرشير - الشاعر المعروف بالناشئ الأكبر المتوفى سنة ٢٩٣ هـ - كان قد نظر فى قواعد العروض وأدخل عليها شبيها ومثلها بغير أمثلة الخليل (٥)

ولا مشاحة فى أن عروض الشعر ارتقت وتفرعت بتوالى القرون ، شأن كل ما هو من قبيل الاحياء . (أى كل ما هو من صنع البشر) ، فتولد فى النظم ضروب من القصائد كالاصمعيات والشعر البدوى والخورانى وغيرها

أما الاندلس فقد كان للشعر فيها تاريخ خاص لرواجه عندهم بعد اشتغال الأمم الأخرى عنه ، فانهم هذبوا مناحيه وفنونه حتى بلغ التتميق فيه الفاية ، واستحدثوا الموشح ونظموا به الموشحات الاندلسية المشهورة . استنبطه مقدم بن معاذ القبرى الاندلسى فى أواخر القرن الثالث للهجرة (٦) ولما شاع التوشيح عندهم وأخذ به الجمهور ، لسلاسته وتنميق كلامه ، نسجت العامة من أهل الامصار على منواله ونظموا فى طريقته بلغتهم الحضرية من غير أن يلتزموا فيها اعرابا ، واستحدثوا فنا سموه « الزجل » شهره أبو بكر بن قزمان القرطبى ويعرف بامام الزجالين (٧)

(١) ابن خلكان ١٧٢ ج ١ (٢) الزهر ١٧٧ ج ٢

(٣) الزهر ٢٠٢ ج ٢ (٤) طبقات الاطباء ٩٤ ج ٢

(٥) ابن خلكان ٢٦٣ ج ١ (٦) ابن خلدون ٥١٨ او ابن الاثير ٢٨ ج ٨

(٧) عن الشعر الاندلسى انظر تاريخ الفكر الاندلسى لجندل بالثنيا ، الترجمة العربية باب الشعر ، وكذلك كتاب « الشعر الاندلسى » لقرسية غومس ، وقد ترجمناه الى العربية ونشرناه سنة ١٩٤٨ وهو حافل بالمراجع ، اما عن الازجال والموشحات فانظر كتاب الدكتور عبد العزيز الاهوانى « الزجل فى الاندلس » القاهرة ١٩٥٧

ثم استحدث أهل الامصار في المغرب فنا آخر من الشعر في أعاريض مزدوجة ، نظموا بلغتهم الحضرية وسموه « عروض البلد » استنبطه ابن عمير الاندلسي . وشاع هذا الفن بفاس فنوعوه أصنافا سموها : المزدوج ، والكارى ، والمالعة ، والفزل وغيرها ، كما شاعت الآن أنواع الزجل المصرى في مصر ، والقريض اللباني ، والمعنى في الشام (*)

وكان لعامة بغداد فن من الشعر يسمونه « المواليا » تحته فنون كثيرة ، ذكروا منها « القوما » و « كان وكان » (١) ومنه مفرد ومنه في بيتين وغير ذلك . ثم انتقل الى الامصار وتغنوا فيه ، وهو شائع الآن في سوريا والعراق ومصر

الشعر والدولة :

بينا في كلامنا عن الشعر في الجاهلية ما كان له من التأثير في نفوس العرب لشدة حساسيتها وسرعة تأثرها . فلما صار العرب دولة وارتقت عقولهم زاد شعورهم رقة فازدادوا حساسية وتضاعف تأثير الشعر فيهم . واتسعت دائرة ذلك التأثير باتساع دولة المسلمين واهتمامهم بالشعراء وأشعارهم . فقد رأيت ما كان من احتفاء بنى أمية بالشعراء واستقدامهم اليهم ، وظل ذلك في صدر الدولة العباسية وفي كل دولة عربية . فاذا وفد الشاعر على الخليفة أو الأمير استأذن في الدخول عليه ، فاذا حل أنشد قصيدته جهارا والخليفة وأرباب مجلسه يسمعون (٢) ويترنمون فيأمر الخليفة أو الأمير بالجائزة وقد تتجاوز مائة ألف درهم الى ألف ألف (٣) وقد يرتب له الرواتب الشهرية ويخلع عليه الخلع ويقلده الوظائف (٤) . ومن أكثر الخلفاء سخاء على الشعراء المهدي والرشيد العباسيان والناصر والحكم المستنصر الاندلسيان . ومن أسخى الأمراء خالد القسرى أمير العراقيين في زمن الأمويين وسيف الدولة بن حمدان

على أن الخلفاء والأمراء عموما كانوا يبذلون الأموال للشعراء الاندلسيين ، وكانوا يعينون يوما كل أسبوع أو كل شهر أو سنة يستقبلون فيه الشعراء لا يدخلون فيه سواهم (١) كأنهم يريدون التفرغ للنظر في الشعر وآدابه . وكان الشعراء يتناظرون ويتنافسون في ذلك المجلس ، ولا يخفى ما يترتب على تلك المناظرة من شحذ الأذهان وانهاض العزائم . وكان الاندلسيون أكثر

(*) انظر الفصل الخامس بالازجال في نهاية مقدمة ابن خلدون ، ومادة « زجل » في دائرة المعارف الاسلامية

(١) ابن خلكان ٥٣٠ ج ١ (٢) ابن خلكان ٧٢ ج ١

(٣) ابن خلكان ١٩٨ ج ١ (٤) نفع الطيب ٧٢٩ ج ٢

(٥) الاغانى ٤٤ ج ٩ وابن خلكان ١٦٦ ج ١

عناية في ذلك من سواهم : كان للمعتضد بن عباد أمير اشبيلية المتوفى سنة ٤٦١ هـ ، دار خاصة بالشعراء يجلسون فيها على الرحب والسعة ، فاذا آن يوم الشعراء - وهو يوم الاثنين من كل أسبوع - يدخلون عليه ولا يدخل عليه سواهم . وكان للشعراء مراتب عندهم ولهم رئيس يوليه السلطان (١) وسجل خاص يقيدون فيه أسماءهم كأنهم يعدونهم من جملة موظفي الحكومة (٢) وكان أمراء الاندلس اذا عاد أحدهم من فتح جلس الناس فيقرأ القراء ثم يقوم الشعراء فينشدون . ونظنهم كانوا يبالغون في اكرام الشعراء اقتداء بخلفاء بغداد ، كما اقتدوا بهم في كثير من آدابهم ونظمهم وسائر أحوالهم

الشعر والخلفاء والأمراء :

ومن أسباب رواج صناعة الشعر في الدولة العربية أن الخلفاء أنفسهم كانوا ينظمون الشعر ويبحثون فيه ، ول بعضهم القصائد والمقاطيع الحسنة . ومن أشهر الخلفاء الشعراء يزيد بن معاوية ، فقد جمعوا شعره في ثلاث كراريس ذكر ابن خلكان أنه قرأها وحفظ أبياتها لشدة غرامه بها (٣) ولا غرابة في ذلك لأن يزيد نشأ في البادية ، ووالدته ميسون بنت بحدل الكلبية التي لم تعجبها قصور معاوية في الشام فحنت الى البادية وأنشدت الأبيات التي مطلعها :

ليبت تخفق الأرواح فيه أحب الى من قصر منيف

ولبس عباءة وتقر عيني أحب الى من لبس الشفوف

فسمعها معاوية فطلقها ، فسارت الى أهلها في نجد وهي حامل بيزيد فولدته بالبادية فأرضعته سنتين (٤) هناك . ومن الخلفاء الشعراء أيضا الوليد بن يزيد بن عبد الملك وهرون الرشيد . وأكثر الخلفاء العباسيين كانوا ينظمون الشعر ، وأشعرهم بلا استثناء عبد الله بن المعتز المتوفى سنة ٢٩٦ هـ ، ولم يتول الخلافة الا يوما وليلة ، وكان من رجال العلم وله ديوان شعر (٥) قد طبع ونشر بمصر . وآخر من نظم الشعر منهم الرازي بالله المتوفى سنة ٣٢٩ هـ ، فانه آخر خليفة دون له شعر ، وآخر خليفة خطب على منبر وجالس الندماء ووصل اليه العلماء (٦)

واما خلفاء الاندلس وأمرأؤهم فقد نظم الشعر منهم عبد الرحمن الأوسط

(١) نفح الطيب ١١٩ ج ٢

(٢) نفح الطيب ٨٩٥ ج ٢

(٣) ابن خلكان ٥٠٨ ج ١

(٤) اللعمرى ٢١٨ ج ٢

(٥) ابن خلكان ٢٥٨ ج ١

(٦) الفخرى ٢٥٢

والمستعين بالله (*). وقد ألف الصولى كتابا مستقلا فى اشعار خلفاء بنى العباس ، فحسدهم خلفاء بنى أمية بالاندلس ، فكان هم الخليفة الحكم الأندلسى من يؤلف له كتابا فى شعراء خلفاء بنى أمية مثل كتاب الصولى فى بنى العباس (١)

وإذا تدبرت ما تقدم رأيت أكثر الخلفاء والأمراء عناية فى الشعر أكثرهم اقتدارا على نظمه ، لأنهم كانوا يقدرون الشعر قدره . وذلك شأن العلم فى الدول المطلقة ، فانما يروج فيها من الصنائع والفنون والعلوم والآداب ما كان للملوك أو الأمراء رغبة فيه . فالوليد بن يزيد بن عبد الملك أعطى يزيد ابن منبته على قصيدة مدحه بها عن كل بيت ألف درهم (٢) وهو أول خليفة عد الشعر وأعطى على البيت ألف درهم (*). ويقال نحو ذلك فى سائر الخلفاء الشعراء ، وكذلك الأمراء ، فان سيف الدولة لم يرج الشعر فى عصره الا لأنه كان هو نفسه شاعرا (٣)

فكان الغرض من تقريب الشعراء فى أول دولة بنى أمية سياسيا ، ثم صار أدبيا يندفع الخلفاء والأمراء اليه تلذذا بالشعر وآدابه . ولذلك كانوا يجالسون الشعراء ويقترحون عليهم نظم القصائد والأبيات ، أو يستقدمونهم للسؤال عن بيت استغلق عليهم فهمه أو نسوا بعضه ، وقد يكون بينهم وبين الشاعر بعد شاسع . فقد بعث هشام بن عبد الملك بدمشق الى أميره على العراق يوسف بن عمر الثقفى أن يوجه اليه حمادا الراوية ويدفع له خمسمائة دينار وجملا مهريا ، فسار حماد الى الشام فى ١٢ ليلة ، ولما وصلها وسأل عن سبب استقدمه قال له هشام : « خطر بيالى بيت لا أعرف قائله وهو :

دعوا بالصباح يوما فجاءت قينة فى يمينها ابريق »

فقال حماد : « يقوله عدى بن زيد العبادى » وأنشده باقى القصيدة (٤) . وكثيرا ما كانوا يفعلون ذلك وهم فى مجلس من مجالس الطرب لا يجوزه الشرع ، فان يزيد بن عبد الملك صاحب حباة التى مات فى سبيل تهتكه بها ، كانت تغنيه ذات ليلة وتسقيه فطرب ثم غنته :

إذا رمت عنها سلوة قال شافع من الحسن ميعاد السلو المقابر
فسألها عن قائل هذا البيت فقالت : لا أدري ، فبعث الى الزهرى

(*) نظم الشعر من امراء الاندلس غير هذين كثيرين ، وقد أورد اشعارهم ابو عبد الله بن الأبار القضاى فى كتابه « الحلة السراء » نشر دوزى جزءا كبيرا منه فى لايدن
(١) نفع الطيب ١٠٠٣ ج ٢ (٢) ابن الأثير ١٣٧ ج ٥
(*) الوليد بن يزيد هو اشعر بنى أمية فى الشرق على الاطلاق ، ودبوانه معروف . انظر « التطور والتجديد فى الشعر الاموى » لشوقى ضيف ، لقاهرة ١٩٥١
(٣) ابن خلكان ٣٦٥ ج ١ (٤) ابن خلكان ١٦٥ ج ١

ليستخبره وكان قد ذهب من الليل شطّره ، فجاء وهو يرتعد خوفا فلما علم السبب سرى عنه (١)

على أن الغالب في مجالسة الشعراء أن تكون لغرض أدبي ، كوصف منظر أو أداة ، كما فعل الهادي إذ استقدم الشعراء اليه واقترح عليهم أن يصفوا سيفاً أهده اليه المهدي ، وهو سيف عمرو بن معديكرب ، فوضع السيف بين يديه وقال للشعراء : صفوه ، فنال الجائزة ابن يامين المصرى (٢)

وكان الرشيد من أكثر الخلفاء بحثاً في الشعر وقائليه ، فقد سأل أهل مجلسه مرة عن صدر هذا البيت : « ومن يسأل الصعلوك أين مذهب » فلم يعرفه أحد ، وكان الأصمعي مريضاً لا يقدر على المجيء ، فأرسل اليه اسحق الموصلي وبعث معه ألف دينار لنفقته ، فجاء الجواب أن البيت من قصيدة لأبي النشاش التهشلي ، وهذا صدره :

وسائلة أين الرحيل وسائل ومن يسأل الصعلوك أين مذهب (٣)
وكثيراً ما كان الرشيد يعقد المجالس للبحث في معنى بيت ، وقد سأل أهل مجلسه يوماً عن معنى هذا البيت :

قتلوا ابن عفان الخليفة مجرماً ورعاً فلم أر مثله مخدولاً

وكان في المجلس الكسائي والأصمعي ، فطال الجدل بينهما والخليفة يسمع (٤) وأعطى الرشيد الفضل خاتماً قيمته ١٦٠٠ دينار مكافأة على أحسن بيت قالته العرب في الذئب (٥) والمأمون ولى ابن الجهم ولاية من أجل بيت طلبه منه واشترط عليه ذلك (٦) وقس على ذلك ما كان يجري من هذا القبيل في مجالس سيف الدولة وغيره من محبي الشعر

تأثير الشعر في الدولة :

ويقال بالاجمال ان الشعر كان عند العرب كل آدابهم ، يتناشدونه ويتسامرون به ويتذكرون فيه ، ولم يكن ذلك قاصراً على الخلفاء أو الأمراء أو الأدباء ، ولكنه كان عاماً في الرجال والنساء . وكانوا لكثرة ما يحفظونه منه يرمزون باسم الشاعر الى بيت من أبياته مشهور بمعنى ويريدون ذلك المعنى ، كما اتفق لرجل كان قاعداً على جسر بغداد فوجد امرأة بارعة في الجمال قادمة من جهة الرصافة ، فاستقبلها شاب فقال : « رحم الله على ابن الجهم » . فقالت له المرأة : « رحم الله أبا العلاء المعري » وما وقفا بل سارا مشرقاً ومغرباً . قال الرجل : « فتبعت المرأة وقلت لها : والله ان

(١) حلبة الكمي ٦٠ (٢) السعدي ١٨٧ ج ٢
(٣) الزهر ٨٢ ج ١ (٤) الزهر ٢٧٨ ج ١ (٥) النجوم الزاهرة ٤٦٢ ج ١
(٦) الاغانى ١٦ ج ١٣

لم تقولى لى ما اراد وما اردت لأفضحك ! » . قالت : اراد بعلى بن الجهم قوله :

عيون المها بين الرصافة والجسر جلبن الهوى من حيث ادري ولا ادري
واردت بأبى العلاء قوله :

فيادارها بالخيف ان مزارها قريب ولكن دون ذلك أهوال (١)
فلا غرو بعد ما تقدم ان رأيت للشعر تأثيرا شديدا في نفوس كبار
القوم ، حتى يترتب على انشاد البيت الواحد ايقاد نار الحرب او قتل جماعة
او انقاذهم من القتل

ومن أمثلة ذلك أن أبا العباس السفاح أول خلفاء بنى العباس ، لما
استوثق له الأمر بالخلافة تتبع بقايا بنى أمية ورجالهم ووضع السيف
فيهم . ولكن جماعة من كبارهم كانوا قد استأمنوا وصاروا يحضرون مجلس
السفاح ، فاتفق مرة أن أحدهم سليمان بن هشام بن عبد الملك كان في
مجلس السفاح وقد أكرمه ، فدخل سديف بن ميمون الشاعر وأنشد :

لا يفسرنك ما ترى من رجال ان تحت الضلوع داء دويا
فضع السيف وارفع السوط حتى لا ترى فوق ظهرها أمويا
فالتفت سليمان وقال : قتلتنى يا شيخ ! ثم أخذ سليمان فقتل .
ودخل على السفاح شاعر آخر ، وقد قدم الطعام وعنده نحو سبعين رجلا
من بنى أمية فأنشده :

أصبح الملك ثابت الأساس بالبهايل من بنى العباس
ثم ذكر مظالم بنى أمية الى أن قال :

واذكروا مصرع الحسين وزيدا وقتيلا بجانب المهراس (*)
والقتيل الذى بحران أضحى (**) ثاويا بين غربة وتناس

فأمر بهم السفاح فضربوا بالسيوف حتى قتلوا ، وبسط النطوع عليهم
وجلس فوقهم فأكل الطعام وهو يسمع أنين بعضهم حتى ماتوا
جميعا (٢) (***)

(١) حلبة الكميت ٩٥
(*) الإشارة الى مقتل حمزة عم النبي صلى الله عليه وسلم في وقعة أحد ، والمهراس ماء
بجبل أحد قتل عنده حمزة
(**) الإشارة الى مصرع الإمام ابراهيم بن محمد بن على بن عبد الله بن العباس
(٢) الفخرى ٣١٤
(***) روى هذا الخبر ايضا ابن الاثير ١٧٤/٥ ، والخبر ظاهر المبالغة والاختلاق ، اذ كيف
يتصور انه بسط النطوع على ٧٠ رجلا قتلهم ثم جلس عليها وأكل وهو يسمع أنين بعضهم
حتى ماتوا جميعا ؟!

ويقال نحو ذلك في القصيدة التي هاجت الرشيد لمحاربة تقفور ملك الروم ومطلعها :

نقض الذي أعطيته تقفور فعليه دائرة اليوار تدور (١)
وكثيرا ما كان ينجو الرجل من القتل ببيت يعجب به الخليفة فيخلى
سبيله ، وحكاية مالك بن طوق مع الرشيد مشهورة ، فانه بعد أن استوجب
القتل وركع على النطع قال القصيدة التي مطلعها :
أرى الموت بين النطع والسيف كامنا يلاحظني من حيشما أتلفت
إلى أن قال :

وما بي من خوف أموت وأنتى لأعلم أن الموت شيء موقت
ولكن خوفي صيبة قد تركتهم وأكبادهم من حسرة تتفتت
كأنى أراهم حين أنعى اليهم وقد خمشوا تلك الوجوه وصوتوا
فان عشت عاشوا آمنين بغبطة أذود الردى عنهم ، وان مت موتوا
فكم قائل : لا يبعد الله داره ! وآخر جلدان يسر ويشمت
فبكى الرشيد وقال : « لقد سكت على همة وتكلمت على علم وحكمة ،
وقد عفوت لك عن الصبوة ووهبتك للصيبة ، فارجع الى ولدك ولا تعاود »
فقال : « سمعا وطاعة » وانصرف (٢)

وكم من قائد رجع عن الهزيمة ببيت تذكره فتحمس . قال معاوية يرغب
الناس في الشعر : « .. فان فيه مآثر أسلافكم ومواضع ارشادكم ، فلقد
رأيتنى يوم الهزيمة وقد عزمت على الفرار فما ردنى الا قول ابن الاطنابة
الانصارى :

أبت لى عفتى وأبى بسلانى واخذى الحمد بالثمن الريح» (٣)
وقس على ذلك كثيرا من أمثال هذه الحوادث في الجاهلية والاسلام

(١) المسعودى ١٤٢ ج ١ (٢) فوات الوفيات ١٤٣ ج ٢ (٣) ابن خلكان ١٠٧ ج ٢

العلوم الدخيلة

فرغنا من الكلام فيما اقتضاه التمدن الاسلامى من العلوم الاسلامية ، وفى الاسباب التى دعت الى نشوئها ، وفى الآداب العربية الجاهلية وما بلغت اليه فى الاسلام ، ونحن متقدمون فيما يلى الى الكلام فى العلوم الدخيلة التى نقلها المسلمون الى العربية ، ونريد بها العلوم القديمة التى كانت شائعة عند ظهور الاسلام فى الممالك التى عرفها المسلمون . وهى عبارة عن خلاصة أبحاث رجال العلم والفلسفة والأدب فى ممالك التمدن القديم ، على اختلاف الأمم والدول والأماكن والأصقاع فى القرون المتوالية ، من أقدم أزمنة التاريخ الى أيامهم ، وفيها زبدة علوم الاشوريين والبابليين والفينيقيين والمصريين والهنود والفرس واليونان والرومان . ولا يراد بذلك أن العرب أخذوا علم كل أمة عن أهلها رأسا ، ولكنهم جاءوا والعلوم قد تحطبت بتوالى العصور وتفاعل العناصر ، واجتمع معظمها لليونان فبوبوها ورقوها وظهرت النصرانية فأنثرت فيها ، وبقي بعضها فى بقايا الدول القديمة كالفرس والكلدان والهنود وغيرهم ، ممن دانوا للمسلمين وانتظموا فى خدمتهم ، فأخذوا من هؤلاء جميعا . ولذلك كان من جملة أفضال التمدن الاسلامى على العلم أنه جمع شتات تلك العلوم من اليونانية والفارسية والهندية والكلدانية الى العربية وزاد فيها ورقاها كما سيأتى

فلنبحث أولا فى حال العلم والآداب فى البلاد التى عرفها المسلمون ، وهو يتناول النظر فى آداب اليونان والفرس والهنود والكلدان على ما يأذن به المقام . ثم نتقدم الى الكلام فيما نقله العرب من ذلك والأسباب التى دعت الى نقله

آداب اللغة اليونانية

أصل اليونان من القبائل الآرية التى نزحت قبل زمن التاريخ من أعالي الهند واستقرت فى الارخبيل اليونانى وما يقابله من شواطئ آسيا الصغرى حول بحر ايجه . وللشعوب الآرية آداب مشتركة وأخلاق متشابهة (*) .

(*) كان ذلك هو الراى السائد حتى قبل ٣٠ سنة ، اذ كان العلماء يقسمون البشر الى حاميين وساميين وآريين لكل منهم خصائص خلقية وطبيعية لا توجد عنه الآخرين . وقد انصرف العلماء اليوم من هذا الراى ، لأن الذين يسمونهم آريين يختلف بعضهم عن بعض اختلافات تزيد على ما بينهم جملة وبين الساميين مثلا . والاساس اليوم فى تقسيم البشر هو مقاييس الجسم وشكل الرأس ومقاييسه ، أما السامية والآرية والحامية فتقسيم لغوى ، فالمراد بالساميين الآن هم الامم التى تتكلم لغات متقاربة تجمعها رابطة السامية ، وكذلك الآريون والحاميسون

فنزل اليونان هناك ومعهم كثير من معتقدات أسلافهم وعاداتهم التي نزل بها اخوانهم الآريون الى بلاد الهند ، ودونوا معظمها في كتبهم الدينية السنسكريتية (البرهمية) في اقدم ازمنة التاريخ

أما اليونان فكانوا يسمون هلاس (※) أو الهيلينيين ، وهم ثلاث قبائل كبرى : اليونيون Ionoi والايوليون Aeoloi والدوريون Dorioi . فنزل اليونيون شواطئ آسيا الصغرى ، والايوليون في لسبس وما والاها ، ونزل الدوريون في المورة وصقلية وغيرهما . وكان التمدن القديم يومئذ مزدهرا في وادي النيل ووادي الفرات ، وكان الفينيقيون جيران اليونيين برا والدوريين بحرا ، وقد استعمروا شواطئ آسيا الصغرى مما يلي بلادهم . فأصبح اليونيون (أو اليونان الاسيويون) على مقربة منهم ، فحمل اليهم الفينيقيون كثيرا من أسباب التمدن ، وأكثره منقول عن البابليين والاشوريين والمصريين . فاقتبس اليونيون مبادئ العلم والأدب كالفلك والطب والدين ، ونقلوها الى اخواتهم الدوريين في الجناوب القربى من بحر ايجه . وكان اليونانيون على الاجمال اهل ذكاء ونشاط ، فما لبثوا حيناً حتى نظموا الشعر والقوا الخطب وهى من قرائحهم الفطرية ، ونبغ منهم الشعراء والخطباء ثم الفلاسفة والعلماء والاطباء ، وجعلوا للعلم قواعد لا تزال مرعية في أكثر وجوهها الى اليوم

ويقسم تاريخ آداب اللغة اليونانية الى ثلاثة عصور :

(١) عصر الآداب اليونانية القديمة ، ويبتدىء قبل زمن التاريخ الى سنة ٥٢٩ للميلاد ، وهى السنة التى أمر فيها القيصر جستنيان باغلاق المدارس الوثنية في مملكة الروم

(٢) العصر البيزنطى أو القسطنطينى ، ويبتدىء سنة ٥٢٩ م ، وينتهى بفتح العثمانيين القسطنطينية سنة ١٤٥٣ م

(٣) العصر الحديث ، يبتدىء بذلك الفتح ولا يزال

ولا يهمننا في هذا المقام الا العصر الاول وبعض الثانى

الآداب اليونانية القديمة

من قبل التاريخ الى سنة ٥٢٩ م

وتقسم الآداب اليونانية القديمة الى ثلاثة أدوار: (١) دور الشعر وينتهى سنة ٤٧٥ قبل الميلاد (٢) دور الروايات التمثيلية والتاريخ والفلسفة من سنة ٤٧٥ - ٣٠٠ قبل الميلاد (٣) دور العلم بعد نضجه أو الدور الاسكندري ، ويقسم الى عصرين : العصر اليونانى ، والعصر الرومانى

(※) هلاس Hellas هو الاسم الذى أطلق على الجد الاسطورى لليونان ، ويتسبون اليه فيقال هيلينيون وتسمى بلاد اليونان بلاد هيلاس

١ - الشعر اليونانى

اليونان من الأمم التى استنبطت آدابها الخيالية استنباطا ، ولم تقلد بها احدا ولا أخذتها عن أحد ، وشأنهم فى ذلك شأن العرب فى علومهم الاسلامية وآدابهم العربية . وأقدم آداب اليونان الشعر ، وقد أتقنوه وأجادوا فيه من قديم الزمان ، لأن كل قبيلة منهم تولت إتقان فرع منه ، فاشتغل اليونانيون فى الشعر القصصى ، والايوليون فى الشعر الموسيقى البسيط ، واشتغل الدوريون فى إتقان هذا الشعر والتوسع فيه ، وأخيرا اشتغل الاتيون Attioi - وهم فرع من اليونانيين - فى إتقان الشعر التمثيلى وسائر الفنون الخيالية ، وتطرقوا منها الى الفنون النثرية كالتاريخ والفلسفة وغيرهما . وكانت لغات هذه القبائل تختلف بعضها عن بعض ، مثل اختلاف لغات قبائل العرب فى عصر الجاهلية .

ويغلب على الظن أن اليونان نظموا الشعر قبل تشتت قبائلهم ، وأقدم اشعارهم « أناشيد الفصول » ، تليها اشعار وصفوا بها الآلهة أو الحروب على شكل الحكايات المتقطعة كانوا يتناشدونها بالآلات الموسيقية . فلما تفرقوا اختص اليونانيون بالشعر القصصى ، فالفوا من تلك الحكايات الملاحم ، وأقدم الملاحم الإلياذة والأديسية نظمهما هوميروس فى القرن التاسع قبل الميلاد ، وصف بهما الأيام العشرة الأخيرة من حصار طروادة

وقد زها الشعر القصصى عند اليونان قبل سائر ضروب الشعر ، لأنه يصف وقائعهم وحروبهم . وكانوا فى أوائل أحوالهم مثل قبائل العرب ، وكان أمراءهم يحبون سماع أخبار أسلافهم من الأبطال وأنصاف الآلهة ، فحببوا الى أصحاب القرائح نظم تلك الأخبار فى الملاحم . وفى أواسط القرن الثامن قبل الميلاد أخذت السلطة الاستبدادية فى الأفول ، وأخذ اليونان يتمتعون بحريتهم الشخصية استعدادا للحكم الجمهورى . فنما شعورهم الاستقلالى ، وأحس كل منهم بذاتيته ، وتولد فيه الميل الى وصف عواطفه وميوله ، فنظمها شعرا هو الشعر الغنائى ، وأكثر المشتغلين به الايوليون والدوريون ، وله عند كل منهما مميزات . وأشهر نوابغ الشعر الموسيقى عند اليونان سميونيدس وبندار . الأول يونى الاصل دورى النظم ، وأكثر منظوماته فى وصف أحوال الحرب بين اليونان والفرس ، والثانى دورى الولد والمنشأ وأسلوبه ونظمه دوريان

٢ - الأدب والعلم والفلسفة عند اليونان

من سنة ٤٧٥ - ٣٠٠ ق . م

الأدب والتاريخ :

ويسمى هذا الدور أيضا الدور الأثني أو الأتيكي نسبة الى أتيكا في جزائر اليونان ، وسكانها مزيج من اليونانيين والدوريين . فيعد أن اشتغل اليونانيون والايوليون والدوريون في انشاء الشعر ودنوا به أخبارهم ووصفوا حروبهم وعبروا به عن عواطفهم وعواطف ذويهم ، استحثتهم قرائحهم الوقادة الى ما يمثلون به تلك الاخبار ويشخصون به العواطف ، ليراها الناس رأى العين أو يشعروا بها كأنها بين جنبيهم فأحدثوا فن التمثيل (الدراما) ومنه التراجيديا والكوميديا ، وأجادوا في كليهما ونبغ منهم مشاهير عظام من أهل هذا الفن مما يطول بنا الكلام فيه ، وهو خارج عن موضوعنا . وإنما يقال بالاجمال ان اليونان اتقنوا الشعر على اختلاف ضروبه وموضوعاته قبل أن يعتنوا بالنثر المرسل لاستغنائهم عنه بالشعر القصصى . وأقدم آثارهم النثرية وأكملها كتابات هيرودوتس الرحالة الشهير المتوفى سنة ٤٠٦ ق.م ، وهى بالنظر الى نثر اليونان مثل الياذة هوميروس بالنظر الى شعرهم

على أن هيرودوتس ليس أول من كتب النثر المرسل عندهم ، فقد ظهر قبله جماعة من العلماء دونوا به آراءهم فى الفلسفة أو الميثولوجيا أو التاريخ أو غيرها من العلوم النثرية . وأما هيرودوتس فتغلب نثره على نثرهم لحسن أسلوبه وأهمية الموضوعات التى كتب فيها . فقد كتب رحلته قبل سنة ٤٣١ ق.م ، وهى التاريخ المعروف باسمه ، بين فيه أسباب الحروب التى نشبت بين الفرس واليونان فى القرن السادس وأول الخامس قبل الميلاد . ولا يزال كتابه فريدا فى بابيه الى اليوم ، ولذلك لقبوه بأبى التاريخ . وبعده بقليل نشبت بين أهل أثينا وأهل المورة (**) حرب أهلية هائلة ، هى الحرب المورية أو البيلوبونيسية من سنة ٤٣١ - ٤٠٤ ق.م فأرخها ثوسيدس ، وكان معاصرا لهيرودوتس وأصغر منه . ثم ظهر جماعة من كتاب التاريخ عندهم كخينوفون (**) وغيره ، ثم اشتغل اليونان بالخطابة ونبغ منهم ديموستينيس واشينيس وهيريدس وغيرهم ، واشتغل آخرون فى وضع الشرائع مثل صولون ، وآخرون بوضع قواعد اللغة أو غيرها مما لايهمنا البحث فيه هنا

(*) المراد بهم الاسبرطيون

(**) يكتب أيضا زينوفون Xenophon

وهما من نتاج الدور الآتى ، فقد ظل اليونانيون على نحو ما تقدم من الآداب الشعرية والتاريخية والأدبية ، حتى تنبّهت أذهانهم الى البحث فى الخليقة والعلل والمعلولات بنهضة حدثت على أثر الحروب المورية المذكورة . فانها توالى ٢٧ سنة ، وفى نهايتها دخلت أثينا فى حوزة اللقديمونيّين Laecedemonoi وأصبح الاثينيون بعد العز أذلاء ، فساقتم العبرة والمذلة الى النظر فى الوجود فنهضوا نهضة فلسفية زعيمها وواضع أساسها سقراط . والحروب يغلب أن يعقبها نهضة أدبية أو علمية أو سياسية ، على ما قررناه فى غير هذا المكان

على أن اليونان تنبّهوا الى النظر فى الموجودات الطبيعية وأحوالها قبل تلك النهضة ، على أثر احتكاك الافكار فى أثناء حروبهم مع الفرس . وانما كان نظرهم فيها قاصرا على تفهم نواميسها على نحو ما نعر عنه اليوم بالطبيعيّات . وأقدم من وصل خبره اليها من الفلاسفة الطبيعيّين طاليس الملىطى ، ولد فى مليطة من بلاد يونيا سنة ٦٤٠ قبل الميلاد ، وقد أخذ علمه من فينيقية ومصر وكريت ويونيا ، وغلب عليه النظر فى النجوم والهندسة ، وله آراء فى الوجود والموجودات وأصل العناصر ، ووضع كثيرا من القواعد الرياضية لاستخراج الكسوف والخسوف وقيام الاجسام المرتفعة بالنظر الى ظلها . ونبغ بعده جماعة من تلامذته وتلاميذهم ، ومنهم أرخيلوس وهو الذى نقل الطبيعيات من يونيا الى أثينا ، وهناك تتلمذ له سقراط المولود سنة ٤٦٩ ق.م ، وفى أيام هذا الفيلسوف حدثت الحرب المورية ، فامتزجت الطباع وتحاكى الافكار فهاجت القرائح وثارت العواطف ، وأصبح الناس متضاغنين متناقسين ، وربما كان للرجل عدو من قبيلته وأهله

فلما أصيبت أثينا بالذل بعد تلك العظمة أصاب أهلها اضطراب وانكسار، والانسان اذا أصيب بنكية لا حيلة فى دفعها اشتغل عنها بالتعليلات الفلسفية عن الوجود وأصله ليخفف وطأة تلك المصيبة عليه ، خصوصا فى مثل ما أصيبت به أثينا بعد عزها ورفعة شأنها ، وأصبح أهلها بعد سقوطها يتلفتون الى الوراء آسفين وينظرون الى الامام خائفين ، وقد ذهبت أسباب مفاخرتهم القديمة ولم تنتظم حكومتهم الجديدة ، فتنبّهت أذهانهم وانصرفت قرائحهم الى النظر فى شؤون الانسان على الجملة وشؤونهم هم على الخصوص . فكانت وجهة تلك النهضة الادب والفلسفة ، فدخل القرن الرابع قبل الميلاد والناس يتناقلون آراء بعض المتقدمين من العلماء على ما يوافق أحوالهم ، ونفوسهم تشتاق الى الزيادة

سقراط :

وكان الناس في ذلك اذ نبغ سقراط الحكيم ، وراى النظر في الفلسفة الطبيعية لا يجدى نفعا في تلك الاحوال ، فانصرفت عنايته الى الفلسفة الادبية فدرسها جيدا ، وخلصها مما كان يعتورها من الرموز والغوامض ، وطبقها على حاجات الاثنيين يومئذ ، وقسم شرائعه الى ما يتعلق بالانسان من حيث هو انسان ، والى ما يتعلق به من حيث هو أب ومدير ، والى ما يتعلق به من حيث هو عضو في الجماعة ، وذهب الى خلود النفس . ويعتبره اليونانيون واضع الفلسفة الادبية العلمية ، أو هو محول الفلسفة القديمة من الخيال الى العمل ، قال شيشرون : « ان سقراط أنزل الفلسفة من السماء الى الارض »

ويندر أن ينجو النوايغ وأصحاب الآراء الجديدة من حساد يتمنون أذيتهم أو يسعون فيها . وقد كان في تعاليم سقراط ما يخالف اعتقاد الاثنيين يومئذ ، فقاموا عليه واتهموه بافساد عقول الشباب وحكموا عليه بالموت ، فشرب السم ومات

افلاطون :

مات سقراط ولم يدون شيئا من تعاليمه ، فدونها تلامذته من بعده ، ولكنهم اختلفوا في تفسير أقواله فانقسموا الى ثلاث فرق تعرف بالكيريانية والكلبية والاشراقية . وهذه الاخيرة أشهرها وتسمى أيضا الافلاطونية نسبة الى صاحبها افلاطون المولود سنة ٤٢٨ قبل الميلاد . ومذهبه مقتبس من ثلاثة مذاهب قديمة ، فانه تبع هيرقليطس في الطبيعيات ، وفيثاغورس فيما وراء الطبيعة والنقليات ، وتبع سقراط في الفلسفة الادبية والاخلاق . وقال بثلاثة أصول هي : الاله ، والمادة ، والادراك . والآلهة عنده ثلاث طبقات : علويون ، ومتوسطون ، وسفليون ، وعلم يتناسخ الارواح . وكتب افلاطون على أسلوب المحاورات ، وسيأتى ذكرها في كلامنا عما نقله المسلمون من كتب الفلسفة الى العربية

أرسطو :

وانقسم تلامذة افلاطون أيضا الى فرق ، أهمها فرقة المشائين وصاحبها أرسطو أو أرسطوطاليس الذي أجمع العلماء على أنه أقدر الفلاسفة القدماء ، ويسميه العرب المعلم الأول . ولد سنة ٣٨٤ وتوفي سنة ٣٢٢ ق.م ، وعنه نقل العرب أكثر كتب الفلسفة والمنطق . جمع أرسطو في كتبه زبدة ما بلغ اليه العلماء في عصره ببلاد اليونان من الفلسفة والعلم . اما الفلسفة فأخذها عن أستاذه افلاطون ، ويدخل فيها الأبحاث المنطقية والعقلية

والنفسية والسياسية . وأما العلم ، ويراد به الحقائق المبنية على المشاهدة والاختبار كالرياضيات والطبيعات ونحوها ، فقد كانت من جملة ما طالعه من علوم القدماء وما اختبره بنفسه ، وكان غرض أرسطو ايضاح الفلسفة بالعلم واخضاع كل بحث عقلى أو نظرى الى النواميس الطبيعية . ولم يكن يهيمه تزويق العبارة أو برقشة الالفاظ ، وانما كان يهيمه الغرض الاصلى من الموضوع ، فكان يبذل جهده فى تجريد عبارته من الخيالات الشعرية التى مازجت فلسفة أفلاطون

فلما اظهر أرسطو فلسفته شغف الناس بها ، وكان يلقيها فى أروقة حول هيكل أبولو قرب أكاديمية أفلاطون ، وكان يتلو دروسه وهو يمشی هناك فسمى تلامذته المشائين أو الرواقيين . ومن حظ أرسطو أن الاسكندر المقدونى ظهر فى أيامه وتتلذذ له وأمدّه بالاموال لأبحاثه فى الطب والحیوان وغيرهما . ولما سافر الاسكندر للفتح ظل أرسطو فى أثينا ، فلما جاء الخبر بموت الاسكندر سقط حزبه وفى جملة هم أرسطو . وكان فتوح الاسكندر هزت القرائح اليونانية كما هزتها حرب المورة من قبل ، فنهضت نهضة ثانية والعقول أكثر استعدادا وأقوى على الأبحاث . ولا يبعد أن يكون الاسكندر قد نقل الى أثينا بعض علوم فينيقية وبابل وفارس ، كما سيأتى، فأدخلها أرسطو فى فلسفته وألف فى كل موضوع عقلى وطبيعى وفلسفى ومنطقى ولغوى . ومؤلفاته كثيرة ، وينسبون اليه كتباً لم يؤلفها هو . وأما الكتب التى ثبتت نسبتها اليه فنحو ١٩ كتاباً ، نقل المسلمون أكثرها الى العربية وسيأتى ذكرها

والكتب المنسوبة اليه خطأ أكثرها فى الميكانيكيات والبلاغة والادبيات والرياضيات ، مما لا حاجة الى ذكره ، وانما نذكر منها كتابين مشهورين له وهما : كتاب المقولات (قاطيفورياس) فى المنطق ، وكتاب التفسير

قد جاء أرسطو فى أواخر عصر الزهو اليونانى ، فجمع ما ولدته العقول اليونانية الى أيامه من الآراء والأبحاث والاختبارات فى العلم والفلسفة ، ورتبها فى كتب تعليمية توخى فيها الوضوح والسهولة ، فعاشت تعاليمه أدهارا ولم تستغن عنها أمة من الأمم التى تمدنت فى عصر اليونان أو بعدهم كالرومان والفرس والعرب وغيرهم ، ولا يزال كثير منها مرجعاً الى اليوم

مؤلفات أرسطو :

ولمؤلفات أرسطو تاريخ غريب لأبأس من إirاده : لما دنا أجله عهد بكتبه ومسوداته الى أكبر تلامذته ثيوفراستوس ، وبعد ٣٥ سنة توفى هذا وقد عهد بها بكتبه هو الى تلميذ اسمه نيلیوس . فرحل هذا الى وطنه سبسس

فى آسيا الصغرى فبقيت عنده حتى توفى ، فخاف ورثته عليها من ملك
برجامس حينئذ فأخفوها فى مغارة بقيت فيها ١٨٧ سنة . فلما
استخرجوها فى رأس المائة الاولى قبل الميلاد ، وجدوا بعضها قد تهرأ
بالعفونة والرطوبة والبعض الآخر أكله الدود والعث ، فباعوها صفقة واحدة
الى كتبى اسمه ايليكون فأرجعها الى أثينا . فلما استولى سولا الرومانى
على أثينا سنة ٨٦ ق.م ، كانت مكتبة هذا الرجل فى جملة غنائم الرومانيين ،
فنقلوها الى رومية فتوصل إليها بعض اليونانيين المقيمين هناك فاشتغلوا
فى نسخها وضبطها . وأول المشتغلين فى ذلك تيرانيون صاحب شيشرون .
ثم تولى اندرونيكوس الرودى تصحيحها وترميمها ، ثم تناقلها الناس .
فكل ما وصل الى العالم من مؤلفات أرسطو انما هو من تصحيح
اندرونيكوس المذكور فى أواسط القرن الاول قبل الميلاد

على انها ما لبثت أن ظهرت فى العالم حتى تناولها الناس واشتغلوا فيها
بين درس ونقل وترجمة وتلخيص وشرح ونقد . بدأ بذلك اليونان أنفسهم ،
ثم الرومان فالفرس فالعرب ، فأهل العصور الوسطى فى أوربا ، فأهل أوائل
التمدن الحديث ، وخصوصا فلاسفة القرون الاولى لهذه النهضة . وكانت
مدرسة الاسكندرية الآتى ذكرها تعلم الفلسفة بكتب ينسبونها الى أرسطو
وكتبه لا تزال مدفونة . فلما فتح الرومان الاسكندرية - وكانوا قد وقفوا
على نسخ اندرونيكوس - اعتمدوا عليها دون سواها وأصبحت عمدة
التعليم فى رومية والاسكندرية على السواء . حتى ظهرت النصرانية ، فبطل
تعليمها فى رومية وظل فى الاسكندرية . ولما سعى قياصرة الروم فى ازالة
الوثنية من مملكتهم ، بحثوا عن العلوم الوثنية وأبطلوها ومن جملتها كتب
أرسطو الا بعض كتبه المنطقية . على أنهم كانوا يعلمونها سرا ، حتى جاء
الاسلام وانتقل التعليم من الاسكندرية الى انطاكية أيام عمر بن عبد العزيز ،
فانتقلت الى هناك وظل تعليمها محظورا لا يتعلمها الا بعض اليهود أو الحرائين
لتقوى بها حجتهم على النصرانية

الطب والنجوم :

والطب أيضا من ثمار تلك النهضة على أثر الحرب المورية ، وكان اليونان
قبل ذلك يعالجون مرضاهم بالكهانة ، وينسبون الامراض الى أعمال الشياطين
والعلاج الى أعمال الآلهة . وكان الفلاسفة يتكلمون فى الطب باعتبار أنه
فرع من العلم الطبيعى ، ولم يستقل أحد منهم بالبحث فيه . وأول من
رتب الطب ويوبه وبناه على أسس صحيحة أبقرات المتوفى سنة ٣٥٧ ق.م ،
ولذلك سموه أبا الطب . وهو من نتاج الحرب المورية ، فقلد نشأ فى أثيناها
ونبغ بعد انتقضائها وسافر الى سوريا ، ولعله اطلع على طب البابليين

والمصريين فأضافهما الى طب اليونان والى ألف فيه الكتب . وأساس علاجه الاعتماد على الطبيعة ، وكان يفصد ويحجم ويكوى ويحقن ويشخص الامراض بالسماعة ويصف المسهلات النباتية والمعدنية . وله كتب فى الطب كثيرة ، ذكروا منها ٨٧ كتابا ولم يثبت له منها الا نحو العشرين ، وسيأتى ذكرها فيما نقله المسلمون من كتب الطب الى العربية . وما زالت كتب ابقراط معول الأطباء الى العصر الحديث ، وفيهم من شرحها أو فرسها أو ترجمها أو علق عليها . وممن اشتغل من اليونانيين فى ترقية العلوم الطبية بعد ابقراط أرسطو وغيره من الفلاسفة العظام ، فلما انشئت مدرسة الاسكندرية على عهد البطالسة كان للطب شأن كبير فيها كما سيحىء

وعلم النجوم — أو علم الفلك — قديم عند سائر الأمم ، كما قد رأيت فى كلامنا عن علوم العرب قبل الاسلام . أخذ اليونان مبادئ هذا العلم عن سبقهم من أمم التمدن القديم ، على يد الفينيقيين وتوسعوا فيه من عند أنفسهم . وكان النظر فيه من جملة أبحاث الفلاسفة وأقدمهم طاليس المتقدم ذكره ، وقل من جاء بعده من فلاسفة اليونانيين ولم يتعرض لهذا الفن ، وأشهرهم فيه أنكسيمندر وأنكسيمينس وأنكساغوراس . وكان للقسم الايطالى من بلاد اليونان عناية كبرى فى النجوم ، ومقدم فلاسفتهم فيه فيثاغورس الشهير المتوفى سنة ٥٠٠ ق.م ، أخذ بعض هذا العلم من مصر وتوسع فيه وتبعه فى ذلك كثيرون . ولا يكاد يخلو فيلسوف من فلاسفة اليونان من النظر فى النجوم وأحكامها مما يطول شرحه . على أن هذا العلم بلغ قمة مجده فى مدرسة الاسكندرية . ويقال نحو ذلك فى سائر العلوم الرياضية كالحساب والهندسة ، فقد اشتغل فيها الفلاسفة لكنها لم تنضج الا فى مدرسة الاسكندرية على يد أوقليدس

٣ - الدور الاسكندري

مدرسة الاسكندرية ومكتبتها :

لم يكد اليونان يتخلصون من مصائبهم بالحروب المورية حتى انقض عليهم الرجل المقدونى العظيم (الاسكندر) فغلبهم على ما فى أيديهم ، ثم حمل بهم على العالم المتمدن فى ذلك العهد ، ففتح مصر وبنى فيها الاسكندرية واكتسح الشام والعراق وفارس الى بلاد الهند . فأصاب العالم بتلك الحروب هزة انتفضت لها أعصابه واختلطت عناصره ، فالتقى اليونانى بالفينيقى والمصرى والفارسى والكلدانى والهندي ، وتحاكت الافكار وتلامست المطامع وتقاطعت المصالح ، وكان من أقل نتائجها : أولا ، نشر علوم اليونان وآدابهم وتمدنهم فى أمم الارض ، ثانيا نقل علوم الفرس والكلدان وغيرهم الى

بلاد اليونان أو مصر . فقد ذكروا أن الاسكندر لما فتح ااصطخر عاصمة
الفرس خرب ابنيتها وشوه نقوشها ونسخ ما كان مجموعا من ذلك في
الدواوين والخزائن هناك ونقله الى اللسان اليوناني والقبطى . وبعد فراغه
من نسخ حاجته منه احرق ما كان مكتوبا بالفارسية ، واخذ ما كان يحتاج
اليه من علم النجوم والطب والطبائع وبعث به وبسائر ما اصاب من العلوم
والأموال والخزائن والعلماء الى بلاد مصر (١)

ولما مات الاسكندر سنة ٣٢٣ ق.م ، انقسمت مملكته بين قواده ، فانقل
علماء اليونان من بلادهم للإقامة في مستعمراتهم الجديدة في مصر والشام
والعراق ، فابتنوا المدارس في الاسكندرية وأنطاكية وبيروت وغيرها ، وكان
حظ البطالسة في الاسكندرية أوفر من حظوظ سائر الدول اليونانية في
الشرق في ترقية شؤون العلم والفلسفة . وكان بطلميوس الاول - الملقب
بسوتر - أول البطالسة عادلا محبا للعلم (حكم من سنة ٣٠٦ - ٢٨٥
ق.م) فتقاطر اليه العلماء والفلاسفة من بلاد اليونان على اختلاف القبائل
والاماكن ، فأكرم وفادتهم ونشطهم في مواصلة البحث والدرس ، وأطلق لهم
الأموال فزادوا احتراماً له ورغبة في العلم

وكان في جملة المقربين اليه خطيب أثيني اسمه ديمتريوس فاليروس ،
أشار عليه بانشاء مكتبة يجمع اليها الكتب من أنحاء العالم فأجابته الى ذلك
وهي مكتبة الاسكندرية الشهيرة التي بحثنا عن أسباب حرقها فيما تقدم
والظاهر أن الكتب التي بعثها الاسكندر من ااصطخر وغيرها وضعوها في هذه
المكتبة . وديمتريوس هذا هو الذى سماه ابن القفطى « زميرة » ، وسبب
الفرق تصحيف في النسخ . وبإشارته أيضا أنشأ سوتر المتحف أو النادي
Museum على هيئة مدارس أوربا الجامعة (*) ، يجتمع فيه العلماء والادباء
والفلاسفة للدرس والبحث ، وهو مدرسة الاسكندرية الشهيرة

وكان البطالسة خلفاء سوتر يقتفون أثره في تنشيط العلم ، وأكثرهم من
العلماء وخصوصا فيلادلفوس (**). (من سنة ٢٨٥ - ٢٤٧ ق.م) فانه
أضاف الى المكتبة ما لم يكن فيها من كتب العلم اليونانية وغير اليونانية ،
فابتاع الكتب وجمع كثيرا من مؤلفات اليهود والمصريين القدماء حتى لا ينقص
هذه المكتبة علم ولا خبر ، وخلفه بطلميوس أورجيتس (***) (سنة ٢٤٧ -
٢٢٢ ق.م) فأضاف الى المكتبة كثيرا من كتب الادب والشعر والتمثيل
مما وجدوه في خزائن أثينا ، وفرض على كل من يقيم في الاسكندرية أو

(١) القهرست ٢٢٩ (*) المراد بالمدارس الجامعة هنا ما يعرف اليوم بالكليات Colleges
وهي فروع الجامعات (***) هو بطلميوس فيلادلف ثاني ملوك البطالة في مصر
(***) هو بطلميوس الثالث المعروف باسم ايورجيتيس Euryetes

يمر بها من رجال العلم أن يقدم للمكتبة نسخة من كل ما يملكه من الكتب ، فزهت الاسكندرية بالعلم ونُبغ فيها العلماء في كل موضوع ، حتى فاقت كل ما تقدمها أو عاصرها من مدن العالم القديم ، وما زالت رافلة بالعلم والعلماء الى ظهور الاسلام ، أى عبارة عن نيف وتسعمائة سنة تقسم الى مدتين : الاولى ، يونانية تبتدىء بولاية سوتر وتنتهى بدخول مصر في حوزة الرومان سنة ٣٠ قبل الميلاد ، والثانية رومانية تبتدىء من هذه السنة وتنتهى سنة ٦٤٠ م ، لما فتحها ابن العاص . وكان غرضها في المدة الاولى علميا ادبيا ، وغايتها ترقية العلوم اليونانية وتوسيع نطاقها ، وكانت المرجع العلمى الوحيد في تلك العلوم الى أواخر القرن الثانى للميلاد ، فأخذت تتقهقر لأسباب كثيرة ، أهمها فساد الحكومة واعوجاج الاحكام وظهور مدارس أخرى من نوعها في سوريا ورودرس وغيرها ، فتحولت همم رجال العلم الى بلاد العدل والحرية . فلما دخلت الاسكندرية في حوزة الرومان اتسعت شهرتها باتساع دولتهم ، ولكن رغبة رجال العلم تحولت عنها الى رومية . واتفق ظهور الديانة المسيحية واشتغال ذوى القرائح في اثباتها أو نفيها . ونظرا لتوسط الاسكندرية وقربها من ميدان الجدل اتخذت مدرستها خطة فلسفية دينية . فلمدرسة الاسكندرية بهذا الاعتبار عصران : الاول ، يونانى علمى أدبى ، والثانى رومانى فلسفى دينى .(*)

العصر الاسكندرى اليونانى من سنة ٣٠٦ - ٣٠ ق . م

زهت الاسكندرية في عصرها الاول بمن انتقل اليها من جالية اليونان ، على أثر ما أصاب بلادهم من الذل بعد ذهاب استقلالهم ، وحملوا معهم كتب العلم والفلسفة والطب والشعر والادب واللغة والتاريخ ، غير ما جمعه البطالسة من الكتب الاخرى كما تقدم ، فأقام اليونانيون في الاسكندرية على الرحب والسعة في ظل حكومة يونانية وعادات وآداب يونانية . لكنهم كانوا قد أضاعوا أنفة الاستقلال وروح الحرية ، لتقيد عواطفهم وشعائهم بالحكم المطلق الذى لا يقترب منه الا المتزلفون ، ففسدت القرائح وضاعت العقول ، فاشتغل يونانيو الاسكندرية في الشعر والخطابة والتاريخ والميثولوجيا ، لكنهم لم يجيدوا شيئا منها مثل اجادتهم في أثينا والمورة وساقس وغيرها ، ناهيك بانصراف الاذهان الى العلوم الطبيعية والرياضيات ، وقد كان لهذه العلوم حظ وافر في تلك المدرسة ، فنُبغ فيها جماعة من علماء الفلك والطب

(*) انظر عن تاريخ مكتبة الاسكندرية

Parsons, The Library of Alexandria. New-Orleans, 1954

وعن الاسكندرية انظر : ابراهيم نصحي : تاريخ البطاللة ، الطبعة الاولى في مجلدين ، القاهرة

١٩٤٤

ومحمد صقر خفاجى : شعراء الاسكندرية

والهندسة والجغرافية ، وإن كانت مؤلفاتهم في الغالب مبنية على مؤلفات القدماء أو شروحا لها

الرياضيات :

نبخ اقليدس الصورى المولود سنة ٣٢٣ ق.م ، وقد طلب العلم في بلاد اليونان وأتقن الرياضيات بنوع خاص ، وكانت الاسكندرية قد دخلت في حكم البطالسة وأفضت الحكومة الى بطليموس فيلادلفوس ، فاستقدمه اليه في جملة من استقدمهم من رجال العلم ، ووسع له الرزق وأمره بتدريس الهندسة وكان فيلادلفوس أول من تلقاها عنه ، وهناك ألف كتابه المعروف بأصول اقليدس ولا يزال عليه المعول في هذا الفن الى اليوم ، وقد نقل الى كل لغات العالم المتمدن

ونبغ من الرياضيين بعد اقليدس أرخميدس - أو أرشميدس - الصقلى المولود سنة ٢٨٧ قبل الميلاد ، وجاء مدرسة الاسكندرية وتلقى فيها الرياضيات وعاد الى بلاده ، وكان ملكها يحترمه فقربه اليه ، وكان في حرب ضد الرومان فأعانه من علمه بما لم يستطعه القواد يسوفهم ، ولكنه ذهب ضحية تلك الساعى ، فقتله بعض جنود الرومان في أثناء الفتح وهو لا يعرفه . ولأرخميدس اكتشافات مهمة في النواميس الطبيعية المتعلقة بالهندسة أو الحساب ، وذكروا له من الكتب كتابا في الكرة والاسطوانة ، وآخر في تربيع الدائرة وتسبيعها والدوائر الماسة والمثلثات والخطوط المتوازية والمأخوذات والمفروضات (١)

ثم نبغ أبولونيوس المولود سنة ٢٥٠ ق.م صاحب الابحاث في قطع المخروط ، وهيبارخوس المتوفى سنة ١٢٥ ق.م مؤسس الراى الفلكى للسماوات ، واشتغلوا في أثناء ذلك بالجغرافية الرياضية ، وأول من كتب فيها أراتستين المتوفى سنة ١٩٥ ق.م ، وهو أول من وضع جداول أسماء الملوك القراعنة وأول من قاس الارض

ثم ظهر بطليموس القلوذى الشهير في أواسط القرن الثانى بعد الميلاد ، فأخذ راى هيبارخوس وبنى عليه كتاب المجسطى الذى كان عليه المعول في مدارس العالم الى عهد غير بعيد . ومن أقوالهم : « لا يعرف كتاب ألف في علم من العلوم قديمها وحديثها فاشتمل على جميع ذلك العلم وأحاط بأجزائه غير ثلاثة : كتاب المجسطى في علم هياة الفلك وحركات النجوم ، وكتاب أرسطوطاليس في صناعة المنطق ، وكتاب سيبيويه في النحو » (٢)

(١) الفهرست ٢٦٦

(٢) تراجم الحكماء (خط)

ومن مؤلفات بطليموس المذكور كتاب الاربعة ، وكتاب الحرب والقتال ، وكتاب الجغرافية في المعمور وغيرها

واشتغل علماء الاسكندرية خصوصا برصد الافلاك واستخراج الازياج ، وكان عندهم مرصد يرصدون منه الاجرام ، وظل هو المرصد الوحيد في العالم الى ايام الاسلام

الطب :

أما الطب فقد كان يعلم في مدرسة برجامس ، فلما زهت مدرسة الاسكندرية توجهت الانظار اليها وكثر طلبية الطب فيها ، وكانت عمدة التدريس فيها على مؤلفات أبقرات ، لكنهم اشتغلوا خصوصا في فن التشريح حتى فاقوا فيه سائر مدارس الطب في ذلك العهد ، واشتهر فيها أثناء العصر اليوناني طبيبان لكل منهما مذهب في الطب والعلاج وهما : هيروفيلوس ، وأراسستراتس . الاول من خلقيدونية ، وتلقى العلم في مدارس اليونان واشتغل خصوصا في التشريح ، وألف كتبا وافق أبقرات في أكثرها ، ويعدونه في المنزلة الاولى بعده . أما الثاني فكان معاصرا لهيروفيلوس ، وهو من انطاكية وجاء الاسكندرية للتبحر في علم التشريح ، وله مؤلفات ذهب فيها مذهبها غير مذهب هيروفيلوس ، فكان لكل من هذين الطبيين تلامذة يؤيدون رأيه . وأصحاب هيروفيلوس ينصرون أبقرات والآخرين ضده . وظل المذهبان الى القرن الثاني بعد الميلاد ، وقد مهد الارستراتيون الطريق للتدجيل الذي شاع بعدئذ في الاجيال المظلمة

انقضى عصر مدرسة الاسكندرية اليوناني وبعض العصر الروماني والاطباء فئتان لهما مذهبان متناقضان ، حتى ظهر جالينوس القلوذى المولود في برجاموس سنة ١٣٠ م . تلقى أصول العلم على أبيه ثم شرع في درس الطب هناك ، وسافر سنة ١٥٠ م الى أزمير ، ثم قدم الى الاسكندرية لاتقان فن التشريح ، وطاف بلادا أخرى في طلب العلم حتى عاد سنة ١٥٨ م . الى برجاموس وسافر سنة ١٦٤ الى رومية وهي آهلة بالعلماء ، واتفق له معالجة بعض كبار القوم وشفائهم على يديه فذاع صيته وسموه « الطبيب العجيب » ، فحسده زملاؤه فرجع الى بلده سنة ١٦٨ ، ثم تمكن من الرجوع الى رومية وخدم بعض أباطرتها حتى توفي سنة ٢٠٠ م ، وله مؤلفات عديدة في الطب أشهرها يعرف بالكتب الستة عشر ، وبعضها يعرف بأسماء خاصة حسب موضوعاتها ، وسيأتى ذكرها في جملة ما نقل من كتب الطب الى العربية . وجالينوس ليس من أهل العصر الاسكندري اليوناني الذي نحن بصددده ، وإنما ذكرناه استيفاء للكلام في تاريخ الطب

هو العصر الاسكندري الثاني ، ويبتدىء في الحقيقة قبل الفتح الروماني ينصف قرن ، اى منذ دخول اثينا في حوزة الرومان في القرن الاول قبل الميلاد ، فان قائدهم « سولا » - بعد أن فتح اثينا - حمل منها الى رومية أحمالا من كتب العلم والفلسفة كما تقدم ، فانقل العلم من ذلك الحين من اثينا الى رومية ، ولما أسس أوغسطس قيصر المكتبة الشهيرة في رومية قسمها الى قسمين : لاتينى ويونانى . ولم تثر رومية كتب اثينا فقط ولكنها ورثت علماءها وفلاسفتها أيضا ، فأصبح اليونان انفسهم اذا أرادوا التبحر في العلم رحلوا الى رومية . وليس من شأننا الآن البحث في آداب الرومان

فمدرسة الاسكندرية أخذت في الانحطاط قبل دخولها في حوزة الرومان، فلما صارت رومانية زادت ضعفا . وكانت علومها قد تغيرت وجهتها وانحصرت في الفلسفة ، لأن الاسكندرية ما برحت منذ تأسيسها وفيها جماعة من اليهود ، نزحوا اليها كعادتهم في الرحيل للارتزاق أو فرارا من الاضطهاد ، فانسوا في الاسكندرية ترحابا وراحة فتكاثروا . فترتب على اختلاطهم باليونان وتمازج الأذواق والابحاث تطور مهم في الفلسفة والدين ، لأن اليهود أهل توحيد ووحى وتقليد، واليونان أهل فلسفة ومنطق وخرافات دينية ، فأدى التمازج الى التقارب وزاد ذلك بظهور النصرانية . ولما تأيدت النصرانية واعتنقها اليونان أخذوا في تطبيق فلسفتهم على الدين ، فتولد من ذلك ما يسمى الفلسفة الافلاطونية الجديدة Neo-Platonic (*) والفلسفة الفيثاغورية الجديدة Neo-Pythagoric ، وجملة القول أن العصر الاسكندري الثاني قلما أفاد العلم لأن أبحاثه كانت غايته فلسفية دينية

ومما اختلفت مدرسة الاسكندرية في ترفيته من العلوم : أولا التشريع ، لأن المصريين كانوا يفتحون الجثث لأجل تحنيطها فسهل عليهم درس فن التشريع بها . ثانيا علم الكيمياء ، لأنه كان في مصر قبل دخولها في سلطة اليونان ، ولما أنشئت مدرسة الاسكندرية اشتغل علماءها في درس هذا العلم وجمعوا ما كان عند الأمتين في علم واحد

وظلت مدرسة الاسكندرية مركز التدريس في الشرق الى أواخر القرن الاول للهجرة ، حتى نقله عمر بن عبد العزيز الى مدرسة انطاكية فمدرسة حران وغيرهما من مدارس تلك الايام (١)

(*) تسمى ايضا الافلاطونية نسبة الى افلاطون المصرى ، وهو من مواليد اسيوط
(١) طبقات الاطباء ١١٦ ج ١

سمى هذا العصر بالبيزنطى نسبة الى بيزانتيوم (القسطنطينية) لأن آداب اللغة اليونانية هناك كان لها فيه شأن خاص ، فلا بأس من الإشارة الى ما يهمننا منه . ويقال بالاجمال ان الآداب اليونانية قلما تقدمت في تلك العاصمة ، مع أن العلم كان في خزائنها كما كان في خزائن الاسكندرية ، وخصوصا بعد موت جستنيان . فلما قامت الخصومة على الايقونات (*) كان من جملة نتائجها اعدام الكتب واهمال العلم ، واقتصرت النوايغ فيها على ما لا يحتاج الى مواهب خاصة ، أو الى بحث أو نظر ، فكانوا اذا نشأ أحد القياصرة وأراد التشبه بمنشطى العلم القدماء رغب الناس في المطالعة والتأليف . وتأليفهم عبارة عن تلخيص القديم أو شرحه أو جمعه على شكل الموسوعات ، وقد يفعل القيصر نفسه ذلك . فان قسطنطين السابع (٩٠٥ - ٩٥٩ م) كان محبا للعلم مشتغلا بالتأليف ، فألف كتابا متسلسلة في تاريخ الحكومة ونظامها . وكذلك كانوا يفعلون في سائر الموضوعات الادبية ، كالتاريخ والشعر واللغة ، بدون نقد ولا نظر كما فعل مؤلفو العرب بعد ذلك مثل هذه الحال . أما الفلسفة فتحولت عندهم الى اللاهوت ، لأن علماء النصرانية استخدموا الأدلة الفلسفية لاثبات بعض العقائد أو الآراء الدينية في مجادلاتهم أو في مواعظهم ، على نحو ما قدمناه عن الفلسفة الأفلاطونية الجديدة . ومن اشتهر في هذا الشأن يوحنا الدمشقى (٧١٨ - ٧٤١ م) صاحب المؤلفات الكثيرة في الدين والفلسفة وغيره مما لاحاجة بنا الى ذكره

آداب اللغة الفارسية قبل الاسلام

الفرس من الشعوب الآرية اخوان الهنود واليونان ، وهم أمة قديمة حاربت اليونان قبل المسيح ببضعة قرون ، فجردت على بلادهم جيشا قد يمتنع على أعظم دول الأرض اليوم حشده ونقله بمهامته ومؤنثه من أواسط آسيا الى البحر الابيض ، فكيف منذ بضعة وعشرين قرنا ؟ فالدولة التى هذا مبلغ قوتها لا تخلو من أدب وعلم ، والفرس أهل ذكاء وتعلم ، وفيهم استعداد فطرى لأسباب التمدن ، فلا بد من اجادتهم نظم الشعر على نحو ما فعل اخوانهم الهنود في المهابارات ونحوها ، وإن كان ما وصل منه إلينا قليلا . ناهيك بالعلوم القديمة التى هى من قبيل الطبيعيات والرياضيات

(*) المراد بالايقونات هنا الصور والتماثيل الدينية التى توضع في الكنائس ، وقد كانت جملة تعرف بالايقونيين - أى اهداء الصور - تطالب باخراجها من الكنائس وعرضت في ذلك جملة انضم اليها الرهبان ، فكانت الخصومة المثار إليها في المتن

كالنجوم والانواء ، فقد أحرزوا شيئاً منها وخصوصاً لأنهم ورثوا البابليين والاشوريين واحتكوا باليونان وهم في ابان تمدنهم واختلطوا بجيرانهم الهنود . وكانوا يعرفون الكتابة وينقشونها على الاحجار باللغة الفهلوية ، ويؤيد ذلك ما جاء في كتب الاخبار عن فتح الاسكندر بلاد فارس ، وما عثر عليه في عاصمتهم اصطخر (*) من خزائن الكتب فاستنسخها وأحرقها كما تقدم ، وفيها ما كان قد جمعه الفرس من علوم الهند والصين الى تلك الايام

وليس ذلك كل ما كان عند الفرس من كتب العلم ، فقد عثروا في أوائل القرن الرابع للهجرة على مخايبء في رستاق جى بفارس ، هي عبارة عن أزج معقود بالحجارة فوجدوا هناك كتباً كثيرة مكتوبة في لحاء التوز (**) ، وفيها أصناف من علوم الأوائل باللغة الفارسية القديمة (الفهلوية) وقد تبين من قراءتها « أن ظهثورث الملك المحب للعلوم والعلماء خاف الامطار على كتب العلم فأودعها ذلك الرستاق » وهي كتب نفيسة في علم النجوم وعلل حرقاتها مما كان عند الفرس والروم والكلدان (١) . وعثروا نحو ذلك الزمن أيضاً على أزج آخر انهار فأنكشف عن كتب كثيرة لم يهتد أحد الى قراءتها . والظاهر أن عادة حبس الكتب في المغارات أو نحوها كانت شائعة في ذلك الزمان . قال ابن النديم : « والذي رأيته أنا بالمشاهدة أن أبا الفضل بن العميد أنفذ الى هنا في سنة نيف وأربعين (وثلثمائة) كتباً متقطعة أصيبت بأصفهان في سور المدينة في صناديق ، وكانت في اليونانية فاستخرجها أهل هذا الشأن مثل يوحنا وغيره ، وكانت أسماء الجيش ومبلغ أرزاقهم ... الخ »

على أن الشائع من علوم الفرس لم يكن يتجاوز بعض الاشعار والاخبار وكتب العقائد والاديان الى أيام سابور بن اردشير من الدولة الساسانية في أواسط القرن الثالث للميلاد . وفي أيامه ظهرت طائفة المانوية ، ونشبت بين سابور والروم حروب انتهت بنصرته ، وقد حمل معه عدداً كبيراً من أسراهم الى بلاده ، فأنشأ لهم في الاهواز مدينة سماها جنديسابور نسبة اليه ، وأكرم وفادتهم فحببوا اليه العلم فعمل على استرجاع علوم الفرس من اليونان أو الاستعاضة بمثلها . فبعث الى بلاد اليونان فاستجلب كتب

(*) يذكر بعض مؤرخي العرب أن عاصمة فارس كانت اصطخر ، والمعروف أن عاصمتها كانت كترفون Ctesiphon التي يعربها العرب الى طيشفون وهي المعروفة عادة باسم المدائن أو مدائن كسرى

(**) الأزج السرداب المبنى تحت الأرض . وهي فارسية معربة . والتوزشجر

(١) الفهرست ٢٤٠

الفلسفة وأمر بنقلها الى الفارسية (١) واختزنها في مدينته ، واخذ الناس في نسخها ودراستها

فلما تولى كسرى أنوشروان العادل (من سنة ٥٣١ - ٥٧٨) فتح للفرس مورد جديد للعلم والفلسفة بما كان من اضطهاد جستنيان قيصر الروم للفلاسفة الوثنيين على اثر اقفاله الهياكل والمدارس الوثنية . وكانت الفلسفة الافلاطونية الجديدة قد نضجت ، ففر بعض أصحابها من وجه الاضطهاد وتفرقوا في العالم ، وجاء منهم سبعة الى أنوشروان فآكرم وفادتهم ، وأمرهم بتأليف كتب الفلسفة أو نقلها الى الفارسية ، فنقلوا النطق والطب (٢) وألفوا فيهما الكتب فطالعهما هو ورغب الناس فيها . وعقد المجالس للبحث والمناظرة كما فعل المأمون بعده بقرنين وبعض القرن ، حتى خيل لليونان الذين جالسوا أنوشروان أنه من تلامذة افلاطون . والمظنون أن تلك الفلسفة كانت أساسا لتعاليم الصوفية التي نشأت بعد ذلك

ولم يقتصر أنوشروان على نقل علوم اليونان الى لسانه ولكنه نقل علوم الهنود أيضا من السنسكريتية الى الفارسية (٣) وأنشأ في جنديسابور مارستانا (مستشفى) لمعالجة المرضى وتعليم صناعة الطب ، استقدم اليه الاطباء من الهند وبلاد اليونان ، وكانوا يعلمون فيه الطيين : الهندي والابقراطي فجمع بين الحسنيين . وبلغ هذا المارستان من الشهرة ما لم يسبق له مثيل ، وكان له شأن كبير بعد الاسلام كما سيأتى

وجملة القول ان الفرس اشتغلوا قبل الاسلام في الفلسفة والطب ، وثققت عقولهم وذاع صيتهم وكان لهم اطلاع خاص في علم النجوم واحكام الافلاك ، مما توارثوه عن أسلافهم أو تقلوه عن جيرانهم . وقد زها العلم عندهم في أيام أنوشروان العادل ، والعلم لايزهو الا في ظل العدل والحرية

آداب اللغة السريانية قبل الاسلام

السريان بقايا الكلدان أو البابليين القدماء ، الذين أنشأوا تمدنا ووضعوا علوما هامة ورصدوا الكواكب واخترعوا المزاول ووضعوا أسس الطب قبل الميلاد بقرون ، ثم دالت دولتهم واستولى الفرس على بلادهم فذهب علمهم بذهاب حريتهم ، حتى اذا قامت النصرانية وانتشر دعائها في البلاد وافترقت الى طوائف ومذاهب ، كان للسريان حظ كبير من كل ذلك وكان لهم تأثير ذو شأن في تاريخ النصرانية

(١) ابو الفداء ٥٠ ج ١ (٢) الفهرست ٢٤٢

(٣) E. Browne's Literary History of Persia, 167

وانما يهمننا في هذا المقام ماكان عندهم من العلم والفلسفة . وهم في ذلك تلامذة اليونان ، لانهم تعلموا فلسفتهم وطبهم وسائر علومهم ، كما تعلمها الرومان قبلهم واقتبسها الفرس معهم وكما تعلمها المسلمون بعدهم . والسريران اهل ذكاء ونشاط ، فكانوا كلما اطمأنت خواطرهم من مظالم الحكام وتشويش الفاتحين انصرفوا الى الاشتغال بالعلم ، فانشأوا المدارس للاهوت والفلسفة واللغة ، ونقلوا علوم اليونان الى لسانهم وشرحوا بعضها ولخصوا بعضا . ومنهم خرج أكثر الذين ترجموا العلم للعباسيين وأكثرهم من النساطرة كما سيجيء . ونقتصر هنا على ذكر اشتغالهم بالعلم لأنفسهم

كان للسريران فيما بين النهرين نحو خمسين مدرسة ، تعلم فيها العلوم بالسريانية واليونانية ، أشهرها مدرسة الرها وفيها ابتدأ السريان يشتغلون بفلسفة أرسطو في القرن الخامس للميلاد . وبعد ان تعلموها أخذوا في نقلها الى لسانهم ، فنقلوا المنطق في أواسط القرن المذكور . ثم اتم دراسة المنطق سرجيس الرأس عيني الطبيب المشهور ، وفي المتحف البريطاني بلندن نسخ خطية من ترجمته الإيسافوجي الى السريانية ، وكذلك مقولات أرسطو لفرفوروس ، وكتاب النفس وغيرها ، وقد نشر بعضها من عهد قريب

وفي أوائل القرن السابع للميلاد اشتهرت مدرسة قسرين على الفرات بتعليم فلسفة اليونان باللغة اليونانية ، وتخرج منها جماعة كبيرة من السريان وفي جملتهم الاسقف ساويرس ، فقد انقطع فيها لدرس الفلسفة والرياضيات واللاهوت . ولما تمكن من تلك العلوم نقل بعضها الى السريانية ، ولا تزال بعض ترجماته في الفلسفة محفوظة في المتحف البريطاني . وقد اتمها بعده تلميذه يعقوب الرهاوي واضع علم النحو السرياني ومن تلامذة أنثاسيوس جورجوس المعروف بأسقف العرب (٦٨٦م) فقد ترجم بعض كتب أرسطو . واشتغل جماعة آخرون في ترجمة كتب أفلاطون وفيثاغورس وغيرهما مما يطول شرحه . واشتهرت هناك مدارس أخرى كمدرسة نصيبين التي كان عدد تلامذتها نحو ثمانمائة ، وكانت تعلم فيها كل العلوم العقلية والنقلية

اما الطب فقد كان لهم فيه حظ وافر على أثر انشاء مارستان جنديسابور ، واشتهر فيهم من اهل هذه الصناعة كثيرون ، منهم سرجيس الرأس عيني المتقدم ذكره ، وأتاتوس الامدي ، وسمعان الطيبوتي ، والاسقف غريغوريوس ، والبطريرك ثيودوسيوس ، وغيرهم من الاطباء الذين ادركوا الدولة العباسية وخدموها

وقد نقل اطباء السريان كثيرا من كتب الطب من اليوناني الى السرياني ، حتى في اثناء اشتغالهم بنقلها الى العربية ، لانهم كانوا كثيرا ما ينقلونها الى

السريانية فقط أو الى السريانية والعربية معا . فسر جيس ترجم بعض كتب جالينوس الى السريانية ، ثم نقلها في الاسلام موسى بن خالد الى العربية (١). والطيبوتى ألف في أواخر القرن السابع للميلاد كتابا في الطب ، وترجم غير كتاب ، ناهيك بما كان من مؤلفات آل بختيشوع وآل حنين وغيرهما

ولهم في النجوم مؤلفات كثيرة ، لتسلسل هذا العلم فيهم عن آباءهم الكلدانيين ، فان البرديصاني له كتاب في النجوم لم يصل إلينا غير خبره ، وألف الرأس عيني في تأثير القمر وحركة الشمس . وألف السبكتي في صور الابراج . ومن ألف في النجوم أيضا يعقوب الرهاوى المتقدم ذكره ، وداود البيت رباني وموسى بن كيفا وعمونيل البرشهارى وغيرهم (*)

واشتغل السريان أيضا في الكيمياء والحساب والرياضيات ، فضلا عن اشتغالهم في لغتهم وضبط قواعدها وحركاتها . والمشهور أنهم اقتبسوا قواعد النحو عن اليونان ، وحركات أحرفهم عبارة عن أحرف يونانية صغيرة توضع فوق الحروف أو تحتها . وقد استغرقوا في آداب اللغة اليونانية وشعرها ، فترجموا الإلياذة والأوديسية الى لسانهم . ترجمها ثيوفيل الرهاوى سنة ٨٧٥ م وقد ضاعت الترجمة ولم يبق منها الا بيتان . ويقال أنهم تنبهوا لاستخدام الحروف اليونانية مكان الحركات لما أراد ناظم الإلياذة ضبط الأعلام اليونانية فيها . وذلك غير النقط التي كانت تقوم عندهم مقام الحركات ، وقد تقدم ذكرها في كلامنا عن حركات الخط العربى . ولا تزال الحركات عند السريان النقط والأحرف اليونانية الى اليوم ، الاولى شائعة عند السريان الشرقيين ، والثانية عند الغربيين

آداب اللغة الهندية قبل الاسلام

الهنود أمة قديمة ، والطبقة العليا منهم اخوان الفرس واليونان ، وقد نظموا الملاحم ودونوا الاخبار شعرا من قديم الزمان ، ولهم آداب خاصة وتواريخ خاصة تولدت عندهم بتوالى القرون ، كما يستدل من مراجعة تواريخهم ودرس أحوالهم . حتى انه كثيرا ما كان ملوك الفرس يستعينون بأطباء الهنود ، كما فعل أنوشروان في مارستان جنديسابور ، وكما وقع للخلفاء العباسيين في أوائل نهضتهم ، فانهم كانوا يستقدمون الأطباء من الهند ويستشيرونهم في أمراضهم ، بعد أن تفرغ حيل أطباء الفرس والسريان من

(١) طبقات الأطباء ١٨٩ ج ١

(*) انظر من هؤلاء جميعا : مراد كامل ومحمد حمدي البكري : تاريخ الادب السريانى ، القاهرة ١٩٥٢ . صدر منه الجزء الاول فقط

معالجتهم . لأن للطب الهندي طرقا غير ما للطب اليوناني أو الفارسي ، وقد اشتهر منهم عدة أطباء القوا في الهندية ، ونقل المسلمون بعض كتبهم الى العربية كما سيجيء ، ومنهم كنكة وصنجهل وشاناق وغيرهم (*)

وكانت لهم معرفة حسنة بالنجوم ومواقعها وأبراجها ، ولها أسماء خاصة بلسانهم ، وكان لهم فيها ثلاثة مذاهب : مذهب الارجهير ، ومذهب الاركند ، ومذهب ثالث يقال له بالسنسكريتية سدهنتا Siddhanta وهو عبارة عن زيج (**) ذكروا فيه آراءهم في حركات الكواكب ، وهو الذى وصل الى العرب ونقلوه الى لسانهم وسموه السندهند . والهنود هم الذين اخترعوا الارقام ، وعنهم أخذها العرب ، ولهم طرق خاصة في الحساب اكتسبها العرب عنهم . وكان لهم معرفة بفن الموسيقى ، ولهم فيها كتب ترجم المسلمون بعضها الى العربية وسيأتى ذكرها

الخلاصة

هذه حال العلوم في العالم وبعض نواحي المملكة الاسلامية لما عزم المسلمون على نقلها الى العربية ، وقد رأيت أن أكثرها يونانية الاصل ، وضعها اليونان في أيام وثنييتهم مع ما اقتبسوه من الأمم التى تمدنت قبلهم . ثم تنوعت بالنصرانية وبانتقالها الى الفرس والسرّيان ، على مقتضيات آداب تلك الأمم وعاداتهم

وكان العراق على الخصوص حافلا بالعلماء ، وفيهم الأطباء والفلاسفة والمنجمون والحساب وغيرهم ، ممن تجمعوا من بلاد فارس وما بين النهرين ، وفيهم السرّيان والفرس والروم والهنود . فلما أراد الخلفاء نقل تلك العلوم الى لسانهم وجدوا بين ظهرائهم من يلبي الطلب ويفى بالفرض

(*) لا زال الطب الهندي القديم يمارس في الهند الى اليوم ويدرس في الجامعات ، وقوامه على العلاج بالاعشاب . والراجع ان أصل الطب الهندي مصرى ، وقد اخذ مسحة افريقية بعلغزو الاسكندر لشمال الهند ، ولهذا يعرف اليوم في الهند بالطب اليوناني ، ويسمى الطبيب الذى يعالج به اليوم « يونانيا حكيما »

(**) الزيج هو ما يعرف اليوم بالتقويم ، وسيرد الكلام على الازياج مفصلا فيما بعد

العلوم الدخيلة

ما الذى حملهم على طلبها ؟

قد رأيت فيما كتبناه عن « العرب والقرآن والاسلام » ان المسلمين كانوا يعتقدون في الصدر الأول « ان الاسلام يجب ما قبله » ، وانه « لا ينبغي أن يتلى غير القرآن » ، وبناء على ذلك هان عليهم احراق ما عثروا عليه من كتب اليونان والفرس في الاسكندرية وفارس (*) . ثم اشتغلوا عن طلب تلك العلوم بما احتاجوا اليه في صدر الاسلام من أسباب انشاء الدولة ، فأصبحوا لا عناية لهم الا بالقرآن واحكامه وما ترتب عليه من العلوم الاسلامية في الفقه واللغة والمغازى وسير الفتح ونحو ذلك . وكان أهل البلاد الاصيليون من الروم والفرس يحبون الى الخلفاء الاشتغال بعلوم الاوائل ، وخصوصا الطب والفلسفة وهم لا يصفون ولا يقبلون . يحكى أن ماسرجويه البصرى من معاصري مروان بن الحكم كان عالما في الطب ، وهو سريانى الجنس يهودى المذهب ، وكان في أيامه كتاب في الطب هو كناش (حاوى) من أفضل الكنائش ألفه القس أهرون بن اعين في اللغة السريانية فنقله ماسرجويه الى العربية . فلما تولى عمر بن عبد العزيز وجد هذا الكتاب في خزائن الكتب في الشام ، فحرضه بعضهم على اخراجه الى المسلمين للانتفاع به . فاستخار الله في ذلك أربعين يوما ثم أخرجه الى الناس وبثه في أيديهم (١) . ويدل ذلك على التردد الذى استولى على الخليفة في اخراج هذا الكتاب مع انه من كتب الطب وليس الفلسفة

ولما اتسع سلطان المسلمين وفرغوا من انشاء العلوم الاسلامية - وقد تأيدت دولتهم وذهبت عنهم السداجة والغفلة عن الصناعات ، وأخذوا في أسباب الحضارة بالحظ الوافر وتفننوا في الصناعات والعلوم - تشوقوا الى الاطلاع على العلوم الفلسفية بما سمعوه من الاساقفة والقساوسة وهان عليهم ذلك يلاسناد الى الحديث النبوى القائل : « الحكمة ضالة المؤمن ، يأخذها ممن سمعها ولا يبالي في أى وعاء خرجت » ، وقوله : « خذوا الحكمة ولو من أسنة المشركين » (٢) ، و « طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة » ، و « اطلبوا العلم من المهد الى اللحد » ، و « اطلبوا العلم ولو

(*) ناقشنا هذا الرأى فيما سبق

(١) تاريخ الحكماء (خط)

(٢) العقد الفريد ١٦٠ ج ١

بالصين « (١) . على أنهم لم يقدموا على طلبها دفعة واحدة وانما طلبوها تدريجا تبعا لمقتضيات الاحوال

أول من اشتغل بها

أقدم من اشتغل من العرب بهذه العلوم النضر بن الحارث بن كلدة الثقفي، وهو ابن خالة النبي (صلعم) ، وكان قد رحل الى بلاد فارس وغيرها كأبيه الحارث الطبيب الشهير في عصر النبي (صلعم) ، واجتمع بالعلماء وعاشر الاحبار والرهبان وحصل من العلوم القديمة أشياء جليلة ، واطلع على علوم الفلسفة وأجزاء الحكمة وتعلم من أبيه صناعة الطب . وكان يجارى أبا سفيان في عداوة النبي (صلعم) لأنه ثقفي ، وكان بنو ثقيف حلفاء بني أمية . فكان النضر كثير الأذى للنبي (صلعم) ، يتكلم فيه بأشياء كثيرة . ثم وقع النضر أسيرا في واقعة بدر ، فأمر النبي (صلعم) بقتله وذهب خبره (٢)

على أن النضر اقتصر من تلك العلوم على المطالعة ولم ينقل منها شيئا الى العربية . أما أول من اشتغل في نقلها فخالد بن يزيد الاموي المتوفى سنة ٨٥ هـ حفيد معاوية الأكبر ، ويسمونه حكيم آل مروان . وكان طامعا في الخلافة بعد وفاة أخيه معاوية الثاني ، فغلبه على ذلك مروان بن الحكم وانتقلت به الخلافة من بيت أبي سفيان الى بيت مروان . فلما يئس خالد من الخلافة - وهو ذو مطامع وذكاء - انصرف ذهنه الى اكتساب العلم . وكانت صناعة الكيمياء رائجة يومئذ في مدرسة الاسكندرية ، فاستقدم جماعته منهم راهب رومي اسمه مريانوس طلب اليه أن يعلمه صناعة الكيمياء ، فلما تعلمها أمر بنقلها الى العربية ، فنقلها له رجل اسمه اصطفان القديم (٣) وهذا أول نقل في الاسلام من لغة الى لغة

وكان خالد راغبا في علم النجوم أيضا ، وأنفق الاموال في طلبه واستحضار آلاته ، ولعلمهم ترجموا له شيئا منه لم يصلنا خبره . على أن بعض الذين اطلعوا على مكتبة القاهرة في أواسط القرن الرابع للهجرة شاهدوا فيها كرة من نحاس من عمل بطليموس وعليها مكتوب : « حملت هذه الكرة من الأمير خالد بن يزيد بن معاوية » (٤)

ويلي نقل خالد للكيمياء نقل ماسرجويه - أو ماسرجيس المتقدم ذكره - لكنائش اهرود من السرياني الى العربي ، وهو ثلاثون مقالة زاد عليها ماسرجويه مقالتين (٥)

(١) كشف الظنون ٤٣ و ٤٢ ج ١
(٢) طبقات الاطباء ١١٢ ج ٤
(٣) الفهرست ٢٤٢ و ٢٤٤
(٤) تراجم الحكماء
(٥) طبقات الاطباء ١٠٩ ج ١

نقل العلوم في العصر العباسي المنصور والنجوم والطب

أول الخلفاء العباسيين السفاح ، ولم يعن بشيء من العلم لقصر مدة حكمه . ثم افضت الخلافة الى أخيه المنصور (سنة ١٣٦ - ١٥٨ هـ) وكان شديدا حازما كثرت في أيامه الفتوح فاضطر الى حروب كثيرة ، وقد طالت مدة حكمه لكنه قضى معظمها في تثبيت دعائم دولته وبناء مدينته « بغداد »

النجوم

وكان المنصور مع براعته في الفقه ميالا الى التنجيم لا يكاد يعمل عملا الا استشار النجمين فيه ، وهو أول خليفة قرب النجمين وعمل بأحكام النجوم (١) واقتدى به أكثر الذين خلفوه . وكانت صناعة النجوم رائجة عند الفرس ، ونبغ فيها جماعة تقربوا بها اليه أشهرهم نوبخت النجم الفارسي - كان مجوسيا وأسلم على يده ، وكان بارعا في اقترانات الكواكب وحوادثها ، وكان يصحب المنصور حيثما توجه . ولما ضعف عن خدمته قال له المنصور: « أحضر ولدك ليقوم مقامك » فأحضره وهو أبو سهل بن نوبخت (٢) وتوالى آل نوبخت في خدمة العباسيين ، وترجموا لهم كتباً في الكواكب وأحكامها ، وكانوا فضلاء ولهم رأى ومشاركة في علوم الاوائل

وخدم المنصور أيضا في النجوم ابراهيم الفزارى النجم وابنه محمد ، وعلى بن عيسى الاسطرلابى النجم (٣) . ونظرا لكلف المنصور بحركات الكواكب وجهه الاطلاع عليها قصده أصحابها من بلاد فارس والهند والروم ، وفي جملتهم رجل من الهند بارع في حساب السدھنتا المتقدم ذكره جاءه سنة ١٥٦ هـ وعرض عليه كتابا في النجوم مع تعاديل معمولة على مذاهب الهند ، فأمر المنصور أن ينقل هذا الكتاب الى العربية ، وأن يؤلف فيه كتاب يتخذ العرب أصلا في حركات الكواكب ، فتولى ذلك محمد بن ابراهيم الفزارى وعمل منه كتابا سماه المنجمون « السندھند الكبير » وظل أهل ذلك الزمان يعملون به الى أيام المأمون (٤)

فاهتم الناس من ذلك الحين بعلم النجوم ومتعلقاتها ، وجرحهم النظر في

(١) السمودي ٣٦٤ ج ٢ (٢) ابو الفرج ٢١٦
(٣) السمودي ٣٦٤ ج ٢ (٤) تراجم الحكماء (خط)

الافلاك الى الهندسة ، فكتب المنصور الى ملك الروم أن يبعث اليه بكتب التعاليم مترجمة ، فبعث اليه بكتاب اقليدس وبعض كتب الطبيعيات (١) ولعل المجسطى من جملتها ، لانه في النجوم . والظاهر أن ترجمة هذه الكتب لم تكن مضبوطة ، لاننا رأينا اقليدس والمجسطى في جملة ما ترجم للرشيد والمأمون . وجملة القول أن رغبة المنصور في النجوم دعت الى ترجمة بعض كتب النجوم وما يتعلق بها

الطب

ومما اهتموا بنقله من العلوم الطبيعية في أيام المنصور الطب . والسبب في ذلك أن المنصور أصابه في أواخر أيامه (سنة ١٤٨ هـ) مرض في معدته فانقطعت شهوته ، وكان الأطباء القائمون في خدمته يعالجونه ولا يجدى علاجهم نفعا . فجمعهم يوما وقال لهم : « هل تعرفون من الأطباء في سائر المدن طبيبا ماهرا ؟ » فقالوا : « ليس في وقتنا هذا أحد يشبه جورجيس رئيس أطباء جنديسابور » . وهو جورجيس بن بختيشوع السرياني ، فقد كان ماهرا في الطب وله فيه مصنفات باللغة السريانية ، وكان من الذكاء والفضل على جانب عظيم ، حتى أصبح رئيس أطباء مارستان جنديسابور أشهر مدارس الطب في تلك الأيام . فبعث المنصور في طلبه على عجل ، فلما جاء الرسول الى جورجيس أراد استمهاله فهدده بالقتل اذا أبطأ . فعهد بأمر المارستان الى ابنه بختيشوع ، واصطحب اثنين من تلامذته هما : ابراهيم وعيسى بن شهلا وركب الى بغداد . فلما وصل استقدمه المنصور اليه فدخل ودعا له بالفارسية والعربية . وكان جورجيس ذا هيبة ووقار وفصاحة ، فوقع عند المنصور موقعا حسنا فأجلسه أمامه وسأله بعض الاسئلة فأجابه عليها بسكون ، فازداد إعجابا به فأخبره عن علته من ابتدائها . فقال له جورجيس : « أنا أدبرك كما تحب » فخلع عليه وأنزله في قصر خاص وأمر باكرامه . ورجع في الغد ونظر في قارورة الماء (زجاجة البول) ودبره تدبيرا لطيفا ، فشفى ورجع الى مزاجه فازداد فرحه به ومنعه من الرجوع الى بلده . ومما زاده رغبة فيه أنه رآه عفيفا صادقا في تدينه . وكان المنصور قد علم أن جورجيس خلف امرأته في جنديسابور وليس عنده في بغداد من يخلمه ، فأرسل اليه ثلاث جوار روميات وثلاثة آلاف دينار فقبل الدنانير ورد الجوارى ، فلما عاتبه المنصور في الغد أجابه : « أنسا معشر النصارى لا نتزوج الا بامرأة واحدة ، وما دامت المرأة حية لاناخذ غيرها » (٢) فحسن

(١) ابن خلدون ٤٠١ ج ١

(٢) طبقات الأطباء ١٢٤ ج ١

موقع ذلك عند المنصور وأطلق له الدخول الى حظاياه وحرمه ليطبهن ،
وتعلق به تعلقا شديدا

وكان جورجيس محبا للتأليف كما رأيت ، وكان يعرف اللغة اليونانية فضلا عن السريانية والفارسية والعربية . فلما رأى وثوق المنصور به نقل له كتباً طبية من اليونانية الى العربية ، غير ما ألفه في السريانية . أما التأليف في الطب فقد سبقه اليه أكثر الأطباء الذين خدموا المسلمين على عهد بني أمية . وكان الطبيب اذا خدمهم ألف لنفسه أو لولده أو لأحد تلامذته كتاباً أو غير كتاب في الفن الذي يتعاطاه . والغالب أن يؤلفوا الكنائش ، كالكناش الذي ألفه ثياذوق المتوفى سنة ٩٠ هـ طبيب الحجاج ، ألفه لابنه والف له أيضاً كتاباً في الأدوية ومعالجتها . وتوالى آل بختيشوع في خدمة العباسيين وخدموا الطب والعلم في ظلهم خدمة نافعة

فالمنصور أول من عنى بنقل الكتب القديمة ، ولكنه اقتصر منها على النجوم والهندسة والطب . وفي أيامه ترجم ابن المقفع كليله ودمنة . وأما الفلسفة والمنطق وسائر العلوم العقلية فترجمت في أيام المأمون . وقد ذكر صاحب الفهرست أن ابن المقفع نقل من الفارسية الى العربية كتباً في المنطق والطب كان الفرس قد نقلوها عن اليونانية . فلعله نقلها لنفسه

المهدى والرشيد

أما المهدى (١٥٨ - ١٦٩ هـ) فإنه اشتغل عن العلم بما ظهر في أيامه من البدع الدينية ، وما انتشر من كتب ماني وابن دميان ومرقيون مما نقله ابن المقفع وغيره وترجمت من الفارسية والفهلوية الى العربية ، وما صنّفوه في تأييد هذه المذاهب في العربية ، فكثرت الزنادقة وظهرت آراؤهم في الناس ، فأمر المهدى أهل البحث من المتكلمين بتصنيف الكتب لإبطال تلك المذاهب . أما الهادي ، فلم تطل أيامه ولم يأت أمراً يذكر

فلما أفضت الخلافة الى الرشيد (١٧٠ - ١٩٣ هـ) كانت الافكار قد نضجت والاذهان قد زادت تنبها الى علوم الاقدمين بما كان يتقاطر الى بغداد من الاطباء والعلماء من السريان والفرس والهنود . وكانوا أهل تمدن وعلم كما رأيت ، وكانوا يتعلمون العربية ويعاشرون المسلمين ويباحثونهم في تلك العلوم ، والمسلمون يتهيبون من ذلك لما سبق الى اذهانهم من مخالفته للدين الا الكتب الطبية فكانوا يرغبون في نقلها أو مطالعتها . ولكن الاطباء انفسهم كانوا يومئذ من غير المسلمين ، ويغلب أن يكونوا من محبي الفلسفة والمنطق ، وكانوا من الجهة الثانية يخدمون الخلفاء ويجالسونهم ويعاشرونهم كأنهم بعض أهلهم كما سترى . فادى ذلك الى ائتلاف الخلفاء بذكر الفلسفة ،

وأصبحوا اذا فتحوا بلدا ووجدوا فيه كتباً لا يأمرؤن باحراقها أو اعدامها ، بل يأمرؤن بحملها الى عاصمتهم والاحتفاظ بها لنقلها الى لسانهم ، كما اتفق الرشيد في اثناء حربه في انقرة وعمورية وغيرهما من بلاد الروم ، فانه عثر هناك على كتب كثيرة حملها الى بغداد وأمر طبيبهم يوحنا بن ماسويه بترجمتها (١) ولكنها ليست من الفلسفة في شيء وانما هي في الطب اليوناني (٢)

وفي أيام الرشيد نقل كتاب افليدس النقلة الاولى على يد الحجاج بن مطر، وتسمى الهارونية تميزا لها عن النقلة المأمونية التي نقلها للمأمون (٣) . وفي أيامه نقل المجسطي الى العربية ، وأول من عنى بنقله يحيى بن خالد البرمكي، ففسره له جماعة لم يتقنوه فندب لتفسيره أبا حسان وسلمة صاحب بيت الحكمة ، فاتقناه واجتهدا في تصحيحه

المأمون والفلسفة والمنطق

فالكذب الفلسفية لم يقدم المسلمون على ترجمتها الا في أيام المأمون ، لسبب متصل بالمأمون نفسه . وذلك ان المسلمين تعودوا من أول الاسلام حرية الفكر والقول والمساواة فيما بينهم ، فكان اذا خطر لأحدهم رأى في خليفة أو أمير لا تمنعه هيبة الملك من ابداء رأيه . وكان ذلك شأنهم أيضا في الدين ، فاذا فهم أحدهم من الآية أو الحديث غير ما فهمه الآخر صرح برأيه وجادله فيه . فلم ينقض عصر الصحابة حتى أخذ المسلمون يفترقون في المذاهب ، ولم يدخل القرن الثاني حتى تعددت الفرق وتفرعت ، وفي جملتها المعتزلة . والمعتزلة طوائف كثيرة ، أساس مذهبهم تطبيق الاحكام العقلية على النصوص الدينية ، ولو طالعت مذاهبهم لرأيت بعضها يوافق أحدث الآراء الانتقادية في الدين مع مرور الاجيال على تمحيصها . ولذلك فهم يسمون أصحاب العدل والتوحيد

المأمون والاعتزال

ظهر مذهب الاعتزال في أواخر القرن الاول للهجرة ، وكثر أشياعه بسرعة لارتياح العقل الى أدلته . وقد تقدم في كلامنا عن الفقه أن المنصور أخذ بناصر أصحاب الرأي والقياس واستقدم أبا حنيفة الى بغداد ونشطه لهذه الغاية ، وظل الميل الى القياس متواصلا في بني العباس . والاعتزال اقرب المذاهب الى أصحاب الرأي ، لأن عمدة المعتزلة في اثبات مذهبهم البرهان العقلي ، ولذلك كانوا اذا رأوا رجلا مطلعاً على منطق أرسطو أو أقواله في

(٢) ابو الفرج ٢٢٧

(١) طبقات الأطباء ١٧٥ ج ١

(٣) الفهرست ٢٦٥ و ٢٦٨

الجدل ونحوه استعانوا بما يسمعون منه في تأييد مذهبهم ، واحتاجوا الى ذلك ، خصوصا في أيام المهدي لدفع أقوال الزنادقة كما تقدم . فلعلهم احتاجوا الى الاستعانة بمنطق اليونان وفلسفتهم ، أو شعروا باحتياجهم اليها على الأقل ، وأخذوا في انشاء علم الكلام . وكان البرامكة من أصحاب الرأي أيضا ، وفيهم ذكاء وميل الى العلم ، فاشتغلوا في ترجمة الكتب القديمة قبل المأمون (١) وكانوا يعقدون مجالس المباحثة والمجادلة في منازلهم ولكن يظهر أن الرشيد لم يكن يوافقهم على ذلك فلم يتظاهروا به

فلما أفضت الخلافة الى المأمون (١٩٨ - ٢١٨ هـ) تغير وجه المسألة ، لأنه كان مع فطنته وسعة علمه شديد الميل الى القياس العقلي . وقد تعلم وتفقه وطالع ما نقل الى عهده من كتب القدماء ، فازداد رغبة في القياس والرجوع الى أحكام العقل ، فتمسك بمذهب الاعتزال وقرب اليه أشياخه كآبي الهذيل العلاف وإبراهيم بن سيار النظام ، وجالس المتكلمين فتمكن من مذهب الاعتزال . فأخذ بناصر أشياخه وصرح بأقوال لم يكونوا يستطيعون التصريح بها خوفا من غضب الفقهاء ، وفي جملة القول بخلق القرآن أي أنه غير منزل (٢) . وكان المسلمون في أيام الرشيد يخافون المأمون في ذلك ، لأنه ظهر فيه قبل توليه الخلافة ، وكان الفضيل بن عياض يتمنى طول عمر الرشيد لما تبين له من أمر المأمون من هذا القبيل

فلما تظاهر المأمون بالاعتزال وقال بخلق القرآن ، قامت قيامة الفقهاء وعظم ذلك على غير المعتزلة وهم أكثر عددا ، ولم يعد في وسعه الرجوع عن قوله فعلم على تأييده بالبرهان وجعل يعقد المجالس للمناظرة في هذا الموضوع (٣) . وتأييدا لصحة الجدل أمر بنقل كتب الفلسفة والمنطق من اليونانية الى العربية ، واطلع هو عليها فقويت حجته وازداد تمسكا بالاعتزال . ولما يئس من اقناع الناس بالبرهان والقياس عمد الى العنف ، باشر ذلك في العام الاخير من حكمه وهو خارج بغداد ، فكتب الى عامله فيها اسحق بن إبراهيم ان يمتحن القضاة والشهود وجميع أهل العلم بالقرآن ، فمن أقر أنه مخلوق محدث خلى سبيله ومن أبى فليعلمه به (٤) فالراجح عندنا أن المأمون ، لسعة علمه وحرية فكره ورغبته في القياس

(١) ابن خلكان ٦٧٥ ج ١

(٢) ليس هذا هو معنى خلق القرآن ، إذ المراد بذلك انه مخلوق يخلقه الله وينزل آياته بحسب الحوادث على الرسول صلى الله عليه وسلم ، وقد قال بذلك نفر من المعتزلة ، أما خصومهم فقد قالوا انه قديم ، أي أن الله خلقه حين خلق الكون ، فهو ليس متعلقا بالحوادث وإنما انزل بمناسبتها فقط ، وقد ايد المعتزلة القول بخلق القرآن لأنه يتفق مع مذهبهم في تحكيم العقل في مسائل الدين ، وقد ايدهم في ذلك المأمون والمعتصم وائزلا المحنة بالفقهاء والقضاة الذين لم يقرؤا بخلق القرآن ، ومنهم أحمد بن حنبل . وكان زعيم القائلين بخلق القرآن على أيام المأمون أحمد بن أبي داود القاضي

(٣) الديمري ٧٢ ج ١ (٤) أبو الفداء ٣٣ ج ٢

العقلي ، لم يكن يرى بأسا من نقل علوم اليونان الى العربية ، وانه بدأ بنقل كتب الفلسفة والمنطق تأييدا لمذهب الاعتزال ، ثم جعل الترجمة عامة لكل مؤلفات أرسطو في الفلسفة وغيرها . وقد ابتدأ بترجمة تلك الكتب في أعوام بضعة عشر ومائتين ، فتلقى المعتزلة تلك الفلسفة تلقى الظمان لموارد الماء ، وأقبلوا على تصفحها والتبحر فيها فاشتد سعادهم بها (١) فتولد من اشتغال المسلمين بالفلسفة علم الكلام (٢) كما تولد من اشتغال النصارى بها « الفلسفة الافلاطونية الجديدة » (٣)

(١) المقرئ ٢٥٧ ج ٢ (٢) الشهرستاني ١٨ ج ١ (٣) نشأ علم الكلام - على اقرب الآراء الى الصحة - عند المعتزلة في اثناء بحثهم في صفات الله تعالى ، وقد اختلفوا في كلام الله : هل هو من صفات الله ، أم من ذاته . ورأى معظمهم ان الصفات منفصلة عن الذات ، وكلام الله تعالى منفصل عن ذاته . وقد ثار الجدل حول ذلك الموضوع وتصدى أهل السنة للحض رأى المعتزلة ، وشيئا فشيئا اتسع معنى « الكلام » حتى صار مرادفا للبحث في شئون الدين . قال ابن خلدون : « وكان ذلك سببا لانتهاض أهل السنة بالادلة العقلية على هذه العقائد ، دفعا في صدور هذه البدع ، وقام بذلك الشيخ ابو الحسن الأشعري امام المتكلمين ، فتوسط بين الطرق ونفى التشبيه واثبت الصفات المعنوية وقصر التنزيه على ما قصره عليه السلف وشهدت له الادلة المخصصة لعمومه ، فأثبت الصفات الاربعة المعنوية والسمع والبصر والكلام القائم بالنفس بطريق النقل والعقل ، ورد على البتدية في ذلك كله ، وتكلم معهم فيما مهدوه لهذه البدع من القول بالصلاح والاصلاح والتحسين والتقبيح ، وكمل العقائد في البعثة واحوال الجنة والنار والثواب والعقاب ، والحق بذلك الكلام في الامامة ... وكثر اتباع الشيخ ابي الحسن الأشعري واقتفى طريقته من بعده تلاميذه كابن مجاهد وغيره ، واخذ عنهم القاضي ابو بكر الباقلاني ، فتصدر للامامة في طريقتهم وهذبها ووضع القدمات العقلية التي تتوقف عليها الادلة والانظار ، وذلك مثل اثبات الجوهر الفرد والخلافة وان العرض لا يقوم بالعرض وانه لا يبقى زمانين ، وامثال ذلك مما تتوقف عليه ادلتهم ، وجعل هذه العقائد تبعا للعقائد الايمانية ... » . ثم اعقب ذلك بالكلام على بقية المتكلمين على مذهب أهل السنة ، مثل ابي المعالي الجويني امام الحرمين وابي حامد الغزالي - المقدمة الفصل الخاص بعلم الكلام)

وخلاصة كلامه ان « الكلام » أصبح يشمل كل النواحي التأملية من الفقه ، ولهذا سمي بالفقه الاكبر ، اما بقية فروع الفقه وهي الخاصة بالعبادات والمعاملات فسميت بالفقه الاصغر . وقد وقف أهل السنة بالكلام عند حدود طريقتهم ، ولم يتطرقوا الى استخدام طريقة الفلاسفة بل كرهوا ذلك ، ومنهم ابو حامد الغزالي الذي ينتهي عنده الكلام على طريقة أهل السنة في المشرق ، اما في المغرب فينتهي عند ابي محمد علي بن حزم ، غير ان المتأخرين من أهل الكلام لم يترددوا في سلوك طريقة الفلاسفة ، كما ترى عند الرازي المتوفى سنة ٦٠٦ هـ . وقد توسع من جاء بعده في التأويل حتى نفر منهم السلفيون وهاجمهم ابن خلدون في المقدمة ونظرا لان الكلام يتناول الناحية العامة من الفقه ، ناحية الاصول التي تتعلق بالخالق والمخلوق والبعث والقيامة والنبوة والوحي وما الى ذلك ، فقد وجد رجال الدين من كل ملة محالا طبيا للاخذ عن فقهاء المسلمين في هذه النواحي ، لانها مشتركة بين الاديان جميعا ، ومن هنا اخذ النصارى واليهود عن المسلمين كثيرا من مسائل الكلام واساليبهم في اثبات وجود الله واثبات الوحي وضرورة النبوة والخلق وما الى ذلك مما يدخل تحت ما يسمى بالالهيات ، ومن هنا جازان تقول ان الكلام هو الالهيات عند المسلمين . وقد ترجم الكثير مما كتبه فقهاء المسلمين في موضوعات الكلام الى اللاتينية والعبرية واصبح من الاصول التي تعتمد عليها مدارس الاسكولاستيين الاوربيين في العصور الوسطى ، وخاصة ما دار بين المتكلمين والفلاسفة المسلمين من صراع . فقد وجد اللاهوتيون النصارى انفسهم في مثل هذا الموقف مع اصحاب الفلسفة عندهم ، فجنحوا الى الاخذ عن المسلمين ، واهتم فلاسفتهم بما قاله فلاسفة الاسلام في الرد على المتكلمين ، واصبح رجال الفقه الاسلامي وفلاسفتهم من هذه الناحية اساتذة لاهل اوروبا في العصور الوسطى . انظر : اجناس جولتسيهر : العقيدة والشريعة في الاسلام ، ترجمة وتعليق محمد يوسف موسى وعبد العزيز عبد الحق وعلى حسن عبد القادر ، القاهرة ١٩٤١

S. Horowitz, Ueber den Einfluss der griechischen Philosophie auf die Entwicklung des Kalams. Breslau, 1909

ومادة « كلام » التي كتبها دنكان بلاك ماكدونالد في دائرة المعارف الاسلامية

المأمون ونقل الكتب

وقد ذكروا لمباشرة المأمون نقل تلك الكتب أسبابا كثيرة . قال أبو اسحق النديم صاحب كتاب الفهرست في سبب ذلك ، ان المأمون رأى في منامه أرسطوطاليس الحكيم وسأله بعض الاسئلة ، فلما نهض من منامه طلب ترجمة كتبه ، فكتب الى ملك الروم يسأله الاذن في انفاذ ما يختار من كتب العلوم القديمة المدخرة ببلد الروم ، فأجابه الى ذلك بعد امتناع . فأخرج المأمون لذلك جماعة منهم الحجاج بن مطر وابن البطريق وسلموا صاحب بيت الحكمة وغيرهم ، فأخذوا مما وجدوا ما اختاروا ، فلما حملوه اليه امرهم بنقله فنقل (١)

وذكر نحو ذلك ابن أبي أصيبعة صاحب طبقات الاطباء ، وأبو الفرج صاحب مختصر الدول وغيرهما . والغالب في ظننا انهم نقلوا ذلك عن ابن اسحق المذكور . ومهما يكن السبب ، فلا مشاحة في أن المأمون بذل جهده في استخدام الترجمة لنقل تلك الكتب وغيرها . وكان ينفق في سبيل ذلك بسخاء ، حتى أعطى وزن ما يترجم له ذهبا . وكان لشدة عنايته في النقل يضع علامته على كل كتاب يترجم له . وكان يحرض الناس على قراءة تلك الكتب ويرغبهم في تعلمها ، وكان يخلو بالحكماء ويأنس بمناظراتهم ويلتذ بمذاكراتهم (٢)

واقتدى بالمأمون كثيرون من أهل دولته ، وجماعة من أهل الوجهاء والثروة في بغداد ، فتقاطر اليها المترجمون من أنحاء العراق والشام وفارس ، وفيهم النساطرة واليعاقبة والصائبة والمجوس والروم والبراهمة ، يترجمون من اليونانية والفارسية والسرانية والسنسكريتية والنبطية واللاتينية وغيرها . وكثر في بغداد الوراقون وباعة الكتب ، وتمددت مجالس الادب والمناظرة ، وأصبح هم الناس البحث والمطالعة ، وظلت تلك النهضة مستمرة بعد المأمون الى عدة من خلفائه ، حتى نقلت أهم كتب القدماء الى العربية

نقلة العلم في العصر العباسي

رأيت فيما تقدم أن السريان كانوا في نهضة علمية قبل الاسلام ، وانهم اخذوا في نقل كتب اليونان الى لسانهم ، ودرسوا كثيرا منها وخصوصا الفلسفة والطب ، وبرزوا في هذه الصناعة حتى تولى بعضهم رئاسة مارستان جنديسابور كما تقدم ، وأن اللغة اليونانية كانت تعلم في مدارسهم . فلما انتقل كرسي الخلافة الى بلادهم (العراق) وعمرت بغداد بالوافدين من

(١) الفهرست ٢٤٣ (٢) ابو الفرج ٢٣٦ وطبقات الاطباء

اطراف المملكة الاسلامية وغيرها ، كان أولئك السريانيون من جملة الوفود التماسا للرزق ، فتعلموا لسان العرب كما نتعلم نحن لغة الانجليز اليوم لهذا السبب . وطاب لهم الاختلاط بالعرب - أو المسلمين - لما آتسوه من عدل العباسيين في أول دولتهم ، واطلاق حرية الاديان لرعاياهم ، حتى كثيرا ما كانوا يوسطونهم في فض الخلاف بين طوائفهم أو أساقفتهم . ولهذا السبب أيضا انتقل جماعة من الفرس الى بغداد ، وكانوا أهل دولة وحكومة ، فاستخدمهم الخلفاء في ادارة شؤون حكومتهم ، وفيهم جماعة كبيرة من أهل العلم والادب ، واستقدم الخلفاء أيضا جماعة من أطباء الهند للانتفاع بطبهم فلما أراد الخلفاء نقل كتب العلم الى العربية ، كان واسطة ذلك النقل أهل العراق والشام وفارس والهند . فرغبهم الخلفاء في ذلك بالبذل الكثير وجعلوا لبعضهم رواتب وأرزاقا ، وبالقوا في أكرامهم ومحاسنتهم ، فتكاثروا . وأكثرهم من السريان النساطرة ، لأنهم أقدر على الترجمة من اليونانية وأكثر اطلاعا على كتب الفلسفة والعلم اليوناني . وفيهم جماعة من أهل فارس والهند وغيرهم ، للنقل من الفارسية أو الهندية ، وكان أكثرهم تتوالي الترجمة في أعقابه فيتولاها هو وأولاده وأحفاده . واليك أشهر نقلة العلم في العصر العباسي :

(١) آل بختيشوع : وهم من السريان النساطرة ، أولهم جورجيس بن بختيشوع طبيب المنصور وقد تقدم ذكره ، وخلفه عندهم ابنه بختيشوع ابن جورجيس استقدمه الرشيد من جنديسابور كما استقدم المنصور أباه قبله . فلما دخل على الرشيد دعا له بالفارسية والعربية ، فقال الرشيد لوزيره يحيى : امتحنه ، فلما يحيى الأطباء لامتحانه - وهم أبو قريش عيسى وعبد الله الطيفوري وداود بن سراييون وغيرهم - فلما رآوه قال أبو قريش : « يا أمير المؤمنين ليس في الجماعة من يقدر على الكلام مع هذا ، لأنه كون الكلام وهو وأبوه وجنسه فلاسفة » . وبذل ذلك على منزلة آل بختيشوع من العلم والفلسفة . فولاه الرشيد رئاسة الأطباء ، وخلفه فيها ابنه جبريل وكان حظيا عند الخلفاء ونال جوائزهم وعطاياهم . وكان له من الرواتب شيء كثير قد فصلناه في الجزء الثاني من هذا الكتاب . وخلفه ابنه بختيشوع بن جبريل ، وقد بلغ من عظم المنزلة وال الحال وكثرة المال ما لم يبلغه أحد من أطباء عصره . ومنهم جبريل بن عبيد الله بن بختيشوع ، خدم المقتدر العباسي . وخلفه عبيد الله بن جبريل . فهؤلاء ستة من آل بختيشوع ، كلهم من مهرة الأطباء ، ولم يعن بالترجمة منهم الا جورجيس الاول . وانما أوردنا ذكرهم لأن أكثرهم ألف في الطب كتباً مفيدة ، وبعضهم

استخدم التراجمة في نقل بعض كتب الطب الى السريانية (١) (*)

(٢) آل حنين : أولهم حنين بن اسحق العبادى شيخ المترجمين ، وهو من نصارى الحيرة . ولد سنة ١٩٤ هـ وكان أبوه صيرفيا ، ولما ترعرع انتقل الى البصرة فتلقى فيها العربية ، ثم انتقل الى بغداد ليشغل بصناعة الطب ، فلقى في ذلك مشقة لأن الاطباء - وخصوصا أهل جنديسابور - كانوا يكرهون أن يدخل في صناعتهم أبناء التجار . وكان أعمر مجالس الطب في بغداد يومئذ مجلس يوحنا بن ماسويه أحد متخرجى مارستان جنديسابور، فجعل حنين يحضره . فاتفق أنه سأله مرة مسألة مما كان يقرأه عليه ، فغضب يوحنا وقال : « ما لأهل الحيرة وصناعة الطب ؟ فصر الى فلان قرابتك ، حتى يهب لك خمسين درهما ، تشتري بها قفافا صفارا بدرهم ، وزرنيخا بثلاثة دراهم ، واشترى بالباقي فلوسا كوفية وفارسية ، وزرنخ القادسية في تلك القفاف ، واقعد على الطريق وصح : الفلوس الجياد للصدقة والنفقة ! وبع الفلوس ، فانه أعود عليك من هذه الصناعة .. » ثم أمر به فأخرج من داره ..

فخرج حنين باكيا مكروبا ، وقد بعثه ذلك على زيادة النشاط للسعى في تعلم الطب بلفته الاصلية . فغاب عن بغداد سنتين ، ثم عاد وقد تعلم اليونانية وآدابها في الاسكندرية وحفظ أشعار هوميروس (٢) فأصبح أعلم أهل زمانه بالسريانية واليونانية والفارسية فضلا عن العربية ، وأصبح أطباء بغداد في حاجة اليه لنقل الكتب، حتى ابن ماسويه نفسه فانه استخدمه في نقل بعض كتب جالينوس الى السريانية وبعضها الى العربية ، واحتذى فيها جذو الاسكندرانيين (٣) . وترجم أيضا لجبريل بن بختيشوع كتاب التشریح لجالينوس ، وكان جبريل يخاطبه بالتبجيل فيقول له : « بن حنين » في اصطلاح السريان أى : « يا معلمنا حنين » . ولما أراد المأمون نقل فلسفة اليونان الى العربية سأل عمن يستطيع ذلك فأرشدوه الى حنين ، لأنه لم يكن ثمة من يضاهيه وهو لا يزال شابا ، فأخرج المأمون جماعة من التراجمة وهم الحجاج بن مطر وابن البطريق وسلم صاحب بيت الحكمة وغيرهم

(١) طبقات الاطباء ١٢٨ ج ١

(*) انظر عن آل بختيشوع :

ابن النديم : الفهرست ، ص ٢٦٦

ابن ابى أصيبعة (طبعة ملر) ص ١٢٣-١٤٨

ابن القفطى (طبعة ليبيرت Lippert) ص ١٥٨ - ١٦٠ - ١٠٠ - ١٠١ - ١٠٢ - ١٠٤ ، ١٤٦ - ١٥١

Wuestenfeld, Geschichte der Arabischen Aerzte und Naturforscher. p. 14-18.

Leclerc, Histoire de la médecine arabe, I, 371.

Brockelmann, G. A.L.I., 236, 483.

(٢) طبقات الاطباء ١٨٥ ج ٢ (٣) طبقات الاطباء ١٨٦ ج ١

وعليهم حينئذ المذكور ليصلح ما يترجمونه . وكان المأمون يعطيه من الذهب زنة ما ينقله الى العربية مثلا بمثل ، ولذلك فقد كان حينئذ يكتب الترجمة بحروف غليظة واسطر متفرقة على ورق غليظ جدا لتعظيم حجم الكتاب وتكثير وزنه . وذكر ان حينئذ رحل بنفسه في طلب الكتب من بلاد الروم لنقلها ، وكان يترجم ايضا لبنى شاكر الآتي ذكرهم ولغيرهم

وكان الحنين ولدان : داود واسحق ، صنف لهما كتباً طبية في المبادئ والتعليم ، ونقل لهما كتباً كثيرة من مؤلفات جالينوس ، فأفلح اسحق وتميز ، واشتغل في الترجمة مثل أبيه من اليونانية الى العربية ، الا أن عنايته كانت مصروفة الى نقل كتب الحكمة ، مثل كتب ارسطوطاليس وغيره من الحكماء . اما أبوه فكان أكثر اشتغاله في نقل كتب الطب ، وخصوصاً كتب جالينوس . ويندر أن يوجد من جالينوس كتاب الا وهو بنقل حنين أو باصلاحه ، وما لم يكن كذلك لم يكن معتبراً عندهم ، لبراعة حنين في العربية فضلاً عن تميزه بصناعة الطب . واشتغل حنين في زمن المتوكل (تولى سنة ٢٣٣ هـ) فاختره لرئاسة الترجمة ، فعين جماعة من الترجمة كاصطفان بن باسيل وموسى بن خالد ، فكانوا يترجمون ويتصفح حنين ترجماتهم وينقحها . وكان يلبس زناراً على عادة النصارى في تلك الايام وتوفي سنة ٢٦٤ هـ . واشتهر ابنه اسحق ايضا ، وأكثر نقله من كتب ارسطو في الفلسفة وشروحها ، وكان مع أبيه ثم انقطع للقاسم بن عبيد الله وزير المعتضد ، وكان يفضي اليه بأسراره ، وله فضلاً عن المنقولات مؤلفات في الطب والصيدلة وغيرهما (❦)

(٣) حبيش الأعسم الدمشقي : هو حبيش بن الحسن الدمشقي ابن اخت حنين بن اسحق ، وقد تعلم صناعة الطب منه ، وكان قد سلك مسلكه في الترجمة . وقيل : من جملة سعادة حنين صحبة حبيش له ، فان أكثر

(❦) حنين بن اسحاق هو أبو زيد حنين بن اسحاق العبدي ولد سنة ٨٠٩/١٩٤ - ٨١٠ في الحيرة وكان أبوه صيدلياً وأخذ عنه صناعته ونزعت نفسه الى دراسة الطب ، وقد أورد المؤلف الخطوط العريضة لحياته ، وقد توفي سنة ٨٧٥/٢٦٠ . وترجع أهمية حنين الى مؤلفاته وترجماته ، ومن أهم مؤلفاته : « المدخل في الطب » وهو كتاب كان له أثر بعيد في أوروبا بعد ترجمته الى اللغة اللاتينية بعنوان

Isagoge Johannitii ad Tegni Galeni أو *Johannitii Isagoge in artem parvam Galeni* وقد أعاد كتابته مبسطاً بعنوان « كتاب المسائل في الطب للمتعلمين » . وله ايضا « كتاب الولودين » وكتاب « اجتماعات الفلاسفة في بيوت الحكمة في الاعياد وتفاوض الحكمة بينهم » . وقد ترجم الكثير من كتب افلاطون وارسطو وأبقراط وديوسقوريدس وكل مؤلفات جالينوس تقريباً . واشتهر من تلاميذه ، الى جانب ابنه اسحاق ، ابن أخيه حبيش

انظر عنه : ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ١/ ١٨٤ - ٢٠٠

ابن خلكان : وفیات (طبعة فستنفلد) رقم ٢٠٨ و ١٢٧

Wuestenfeld, Gesch. der Arab. Aerzte. No. 69

H. Suter, Die mathematiker und Astronomen der Araber und ihre Werke, p. 21

G. Bergsträsser, Huncain Ibn Ishak und seine Schule, p. 5 sqq.

ما نقله حبيش نسب الى حنين ، وكثيرا ما يرى الناس شيئا من الكتب القديمة مترجما بنقل حبيش فيظنه لحنين وقد صحف ، فيكشطه ويجعله لحنين (١)

(٤) قسطا بن لوقا البعلبكي : وهو من نصارى الشام ، وكان طبيبا حاذقا وفيلسوبا نبیلا ، رحل الى بلاد الروم في طلب العلم ، وكان عالما باللغات اليونانية والسريانية والعربية ونقل كتبا كثيرة من اليونانية الى العربية ، وكان جيد النقل وأصلح نقولا كثيرة وألف رسائل عديدة في الطب ، وكان حسن العبارة جيد القريحة . وفضلا عما نقله فله مؤلفات كثيرة في الطب والتاريخ والفلسفة والجبر والمقابلة والهندسة والمنطق والأدب والدين ، ما يزيد على مائة كتاب . قال أبو الفرج اللطی : « لو قلت حقا قلت أنه أفضل من صنف كتابا ، بما احتوى عليه من العلوم والفنائل وما رزق من الاختصار للألفاظ وجمع المعاني » (٢)

(٥) آل ماسرجويه : أولهم ماسرجويه ، متطبب البصرة ، وهو يهودي المذهب سرياني اللغة . وكان ينقل من السرياني الى العربي ، وقد تقدم ذكره . ثم ابنه عيسى بن ماسرجويه ، وكان يلحق بأبيه ولهما مؤلفات في الطب

(٦) آل الكرخي : أولهم شهدى الكرخي من أهل الكرخ ، وكان قريب الحال في الترجمة ، ثم ابنه وكان مثل أبيه في النقل ثم فاق أباه في آخر عمره ، ولم يزل متوسطا . وكان ينقل من السرياني الى العربي

(٧) آل ثابت : أولهم ثابت بن قرّة الحراني ، وهو من الصابئة المقيمين في حران . وكان صيرفيا ثم تعلم الطب والفلسفة والنجوم ، وكان مع ذلك يعرف اللغة السريانية جيدا ، وكان جيد النقل الى العربية وله تصانيف كثيرة في الرياضيات والطب والمنطق ، وله في السريانية كتاب في مذهب الصابئة . وكان في خدمة المعتضد العباسي ، وبلغ عنده أجل المراتب ، حتى كان يجلس في حضرته في كل وقت ، ويحادثه طويلا ويضاحكه ، فيقبل عليه دون وزرائه وخاصته . يليه ابنه سنان بن ثابت ، وكان مقدما عند القاهر بالله ، وله تصانيف كثيرة ، وكذلك ابنه ثابت بن سنان ، ولكنهما لم ينقلا شيئا

(٨) الحجاج بن مطر : كان في جملة من ترجم للامون ، وقد نقل كتاب

(١) أبو الفرج ٢٥٢ (٢) وقد ترجم له بطرس يولياني Petrus Juliani المعروف ببطرس الاشبوني Petrus Ulyssiponensis بعض كتبه الى اللاتينية . انظر :

Aldo Mieli, Panorama General de Historia de la Ciencia, XI, 6-XV, 4.

المجسطى واقليدس الى العربية ، ثم أصلح نقله فيما بعد ثابت بن قرة
الحرانى

(٩) ابن ناعمة الحمصى : هو عبد المسيح بن عبد الله الحمصى الناعمى ،
كان متوسط النقل وهو الى الجودة أميل . ومن بيت الناعمة الحمصى أيضا
زروبا بن مانحوه ، وكان أضعف من سابقه

(١٠) اصطفان بن باسيل : كان يقارب حنين بن اسحق فى جودة النقل ،
الا أن عبارة حنين كانت أفصح وأحلى

(١١) موسى بن خالد : ويعرف بالترجمان ، نقل كتباً كثيرة من الستة
عشر للجاليوس ، وهو دون حنين

(١٢) سرجيس الرأس عينى : هو من مدينة رأس العين فى العراق ، نقل
كتباً كثيرة ، وكان متوسطاً فى النقل ، وحنين كان يصلح نقله

(١٣) يوحنا بن بختيشوع : هو من غير آل بختيشوع المتقدم ذكرهم ،
وكان ينقل الكتب من اليونانى الى السريانى وليس الى العربى

(١٤) البطريق : كان فى أيام المنصور وقد أمره بنقل أشياء من الكتب
القديمة ، وله نقل كثير جيد الا أنه دون نقل حنين

(١٥) يحيى بن البطريق : كان فى جملة الحسن بن سهل ، وكان لا يعرف
العربية حق معرفتها ولا اليونانية وإنما كان يعرف اللاتينية (١)

(١٦) أبو عثمان الدمشقى : كان من النقلة المجيدين الى العربية

(١٧) أبو بشر متى بن يونس : من أهل دير فنى ، تفقه فى مدرسة
مارمارى على أساتذة عظام ، وإليه انتهت رئاسة المنطقيين فى عصره

(١٨) يحيى بن عدى : هو من أهل المنطق فى القرن الرابع للهجرة ، قرأ
على متى بن يونس وعلى أبى نصر الفارابى ، وهو يعقوبى المذهب خلافاً لأكثر
المرجمين السريان (إذ كانوا نساطرة) وكان سريع الخط يكتب فى اليوم
والليلة مائة ورقة (٢)

هؤلاء أشهر نقله العلم من اليونانى أو السريانى الى العربى . وقد اكتفينا
بما تقدم للاختصار

وأما النقلة من اللسنة الأخرى ، فمنهم من نقل من الفارسية الى العربية
كأبى المقفع وآل نوبخت ، وقد تقدم ذكر نوبخت كبيرهم ولابنه الفضل بن
نوبخت نقل من الفارسية الى العربى فى النجوم وغيرها . ومنهم موسى ويوسف

ابنا خالد ، وكانا يخدمان داود بن عبد الله بن حميد بن قحطبة ، وينقلان له من الفارسية الى العربية ، وعلى بن زياد التميمي ويكنى ابا الحسن نقل من الفارسي الى العربي كتاب زيغ الشهر يار ، والحسن بن سهل وكان من المنجمين . والبلاذري احمد بن يحيى وجبله بن سالم كاتب هشام واسحق ابن يزيد نقل سيرة الفرس المعروفة باختصار نامه . ومنهم محمد الجهم البرمكي وهشام بن القاسم وموسى بن عيسى الكردي وعمر بن الفرخان وغيرهم

ومن الذين نقلوا من اللغة السنسكريتية (الهندية) منكه الهندي ، كان في جملة اسحق بن سليمان بن علي الهاشمي ينقل من اللغة الهندية الى العربية وابن دهن الهندي وكان اليه مارستان البرامكة نقل من الهندي الى العربي (١) ومن الذين نقلوا من اللغة النبطية (الكلدانية) الى العربية ابن وحشية ، نقل كتباً كثيرة سيأتي ذكرها .(*)

السوريون ونقل العلم (*)

إذا تدبرت ما تقدم من أخبار النقلة ومواطنهم ومثلهم ، رأيت معظمهم من السوريين سكان الشام والجزيرة والعراق . وللسوريين شأن كبير في نشر العلوم بين الأمم ونقلها من أمة الى أخرى أو من لسان الى لسان من أقدم أزمنة التاريخ ، يساعدهم على ذلك نشاطهم وذكاؤهم وأقدامهم وتوسط بلادهم بين الشرق والغرب

فالسوريون (أو الفينيقيون) هم الذين نشروا أحرف الهجاء في العالم قبل الميلاد ببضعة عشر قرناً ، فحملوها معهم في أثناء أسفارهم التجارية الى بلاد اليونان والكلدان ، ولا تزال صورها وأسمائها عند سائر أمم العالم المتمدن شاهدة بذلك الى اليوم . وهم الذين توسطوا في نقل العلوم والآداب بين المصريين والكلدانيين ، ثم نقلوها الى اليونان القدماء كما تقدم . وكانوا يدرسون اللغات اليونانية والقبطية والبابلية وغيرها من لغات ممالك الأمم المتمدنة في تلك العصور ، كما يدرسون اليوم الانجليزية والفرنسية وغيرهما

(١) الفهرست ٢٤٥

(*) انظر عن هؤلاء جميعاً :

G. Sarton, An Introduction to the History of science I, 1927 p. 599

Brockelmann, Ueber Thabit ibn Qurra, Sein Leben und werken.

Aldo Mieli, Panorama general de la historia de la ciencia: Epoca medieval, Espasa-Calpe, Madrid, 1946.

Brockelmann, G. A.L. I, 617 sqq. 623 sqq. 635 sqq.

(*) يبدو أن المؤلف يريد بالسوريين هنا السريان أيضاً ، فأشارته الى الفينيقيين منصبة على السوريين ، وبقية الكلام منصبة على السريان ، والفرق بين القومين معروف ، وإن كان المؤلف قد وضعهما في وعاء واحد

من لغات ممالك التمدن الحديث ، لنقل العلم أو الاتجار أو الانتفاع من الخدمة في مصالح تلك الدول

ولما تمدن اليونان واستنبطوا الفلسفة والمنطق وغيرهما ، ونضجت علومهم وانتقلت بفتوح الاسكندر الى العراق والشام ، تلقاها السوريون ونقلوها الى لسانهم وأضافوا اليها بعد انتشار النصرانية الآداب النصرانية اليونانية ، وحفظوها مع الفلسفة اليونانية في أديرتهم ، ثم كانت مصدرا للعلم والفلسفة الى بلاد فارس والهند وغيرهما

وكان السوريون في دولة الفرس الساسانية الواسطة الكبرى في نقل علوم اليونان وطبهم وفلسفتهم الى الفرس . ولما بنى كسرى أنوشروان مارستان جنديسابور (*) لتعليم الطب والفلسفة كما تقدم ، كان جل معتمده في ذلك على نصارى العراق والجزيرة ، ناهيك بما حفظ من الآداب السامية على صبغته الوثنية في حران ، لأن أهلها ظلوا على ديانتهم القديمة . غير ما حفظه أهل العراق من آداب قدماء الكلدان وعلومهم

فلما ظهر الاسلام وأراد الخلفاء نقل العلوم الى العربية ، كان السوريون ساعدهم الأقوى في نقلها من اللغات المعروفة في ذلك العهد ، وفيهم الحمصي والبلعبي والدمشقي والحيري والحراني والبصري . ونقل العلوم من لسان الى آخر لا يتيسر الا باستيعاب تلك العلوم وتفهمها ، فضلا عن اتقان اللغات اللازمة لذلك . ولهذا كان أكثر أولئك المترجمين من أهل العلم الواسع فيما اشتغلوا بنقله ، وفيهم من ألف في أكثر فروع العلم أو الفلسفة أو المنطق أو الطب وغيرها

وذلك شأن السورين أيضا في علوم التمدن الحديث ، فقد كانوا من أكثر الناس اشتغالا في نقلها من لغات أوروبا المختلفة الى اللغة العربية ، ولا يزالون في ذلك الى اليوم

(*) تحتل جنديسابور - أو جندی سابور - مكانا هاما في تاريخ العلوم عند العرب . وهي منسوبة الى سابور الاول ملك فارس وهو من الساسانيين ، وقد سماها ديو سابور ثم حُرف الاسم الى جندی سابور ، وقد عمرها اول الامر بأسرى اليونان ، ومكانها الآن بلدة تسمى شاه آباد ، وقد افتتحها المسلمون سنة ١٧/٦٢٨ على يد أبي موسى الأشعري عندما فتح تستر . وقد أنشأ فيها كسرى الاول ملوستانا هو المشار اليه في المتن ، وكان أطباؤه يتولون تدريس الطب بالسورانية أو الأرمنية ، وكانوا يشترطون في الاستاذ ان يجيد اليونانية حتى يستطيع الاطلاع على مؤلفات اليونان في الطب والرياضيات . وكان القائمون بأمر المارستان من المهارة بحيث استطاعوا ان يقوموا بأمر انفسهم ، فاستمر مارستانهم زاهرا يخرج الاطباء والمترجمين حتى منتصف العصر العباسي ، ثم تضائل أمره بسبب الاضطرابات الكثيرة التي شملت العراق اذ ذاك . وفي أيام ياقوت لم يكن باقيا منها الا خرائب

Barbier de Meynard, Dictionnaire Géographique de la Perse (Paris, 1861)

pp. 169-170

Brockelmann, G. A.L. I, 202

نقل العلم لشير الخلفاء

قد رأيت فيما تقدم أن الخلفاء هم الذين سعوا في نقل كتب العلم على يد الترجمة . فلما نقل بعض تلك الكتب واطلع عليها أهل بغداد ، نهض جماعة من كبرائهم واقتدوا بالخلفاء في نقلها ، واستخدموا الترجمة وبذلوا الأموال في البحث عنها وترجمتها

وأشهر هؤلاء ثلاثة يعرفون ببني شاعر أو بني موسى ، لأنهم أولاد موسى ابن شاعر ، وهم : محمد وأحمد والحسن ، ويعرف أولادهم بعدهم ببني المنجم . وكان والدهم موسى يصحب المأمون ، والمأمون يرعى حقه في أولاده هؤلاء . أما موسى فلم يكن من أهل العلم والأدب ، بل كان في حدائته لصا يقطع الطريق ويتزيا بزى الجند ، وكان شجاعا مجريا . وكان يصلى العتمة مع جيرانه في المسجد ثم يخرج متنكرا فيقطع الطريق على فراسخ كثيرة في طريق خراسان ، ويركب فرسا له أشقر يشد على قوائمه خرقا بيضاء ليوهم من يراه في الليل أنه محجل . وكان له جاسوس يأتيه بخبر من يخرج ومعه مال ، وربما لقي الجماعة وفارسهم وغلبهم فينصرف من ليلته فيصلى الصبح مع الجماعة في المسجد . فلما كثر فعله واشتهر اتهم ، فشهد له الجماعة بملازمته الصلاة معهم فاشتبه أمره . ثم انه تاب ومات وخلف هؤلاء الثلاثة صفارا ، فوصى بهم المأمون اسحق بن ابراهيم المصعبى وأثبتهم مع يحيى بن أبى منصور في بيت الحكمة . وكان المأمون اذا سافر بعث الى اسحق أن يراعيههم ، حتى قال اسحق : « جعلنى المأمون داية لأولاد موسى » . وكانت حالهم رثة رقيقة وأرزاقهم قليلة ، ولكنهم خرجوا نهاية في علومهم . وكان أكبرهم وأجلهم محمد ، وكان وافر الحظ في الهندسة والنجوم ، عالما باقليدس والمجسطى وغيرهما من علوم الفلك والطبيعيات والرياضيات . وكان أخوه أحمد دونه في العلم الا صناعة الحيل (الميكانيكات) فانه قد فتح له فيها ما لم يفتح مثله لأخيه . وكان أخوهما الحسن منفردا بالهندسة ، وله طبع عجيب فيها لا يدانيه أحد فيه ، مع أنه علم كل معلمه من نفسه بدون تعليم ، ولا قرأ كتب الهندسة الا ست مقالات من اقليدس (١)

وتفانى أولاد شاعر في طلب العلوم القديمة ، وبذلوا فيها الرغائب وأنعبوا أنفسهم في جمعها ، وأنفذوا الى بلاد الروم من أخرجها اليهم ، وأحضروا النقلة من الأصقاع والأماكن بالبلد السنى . وكان في جملة من أنفذوه للبحث عن الكتب حنين بن اسحق (٢) وغيره . وأقاموا الترجمة وفي

(١) تراجم الحكماء (خط) وطبقات الأطباء (٢) الفهرست ٢٤٣

جملتهم حنين وحبيش وثابت بن قرة ، وكانوا ينفقون ٥٠٠ دينار في الشهر للنقل والملازمة (١) . ولبنى موسى مؤلفات كثيرة في الفلك والحيل والهندسة ، ولهم استنباطات في هذا العلم لم يسبقهم اليها أحد . وقد برهنوا للمأمون أن محيط الأرض ٢٤٠٠٠ ميل برهانا محسوسا ، فضلا عن مهارتهم في الرصد وغيره

وممن بذلوا المال في نقل العلوم غير الخلفاء محمد بن عبد الملك الزيات ، كان يقارب عطاؤه للنقلة والنساخ ٢٠٠٠ دينار في الشهر ، ونقل باسمه كتب عديدة . ومنهم على بن يحيى المعروف بابن المنجم ، كان أحد كتاب المأمون ونقل له كثير من كتب الطب ، وكذلك محمد بن موسى بن عبد الملك ومنهم ابراهيم بن محمد بن موسى الكاتب ، وكان حريصا على نقل كتب اليونانيين الى لغة العرب ، كثير البذل في سبيلها . ومنهم تادري الأسقف في الكرخ ، وكان راغبا في طلب الكتب متقربا الى قلوب نقلتها ، وصنف له الاطباء النصارى كتباً كثيرة . وعيسى بن يونس الكاتب الحاسب من أهل العراق، وكانت له عناية في تحصيل الكتب القديمة والعلوم اليونانية . ومنهم شير شوع (كذا) بن قطرب من أهل جنديسابور، وكان يبر النقلة ويهدى اليهم ويتقرب الى تحصيل الكتب بما يمكنه من المال ، وكان يجيد النقل الى السرياني أكثر مما الى العربي . وقس على ذلك جماعة من أطباء الخلفاء ، كيوحنا بن ماسويه وجبريل بن بختيشوع وداود بن سراييون وسلمويه وابن الطيفوري وغيرهم . واقتنذى بالخلفاء العباسيين في نقل العلوم الى العربية أيضا كثيرون من أمراء المسلمين المستقلين عنهم ، فقد كان عند سيف الدولة طبيب اسمه عيسى الرقي ينقل له من السرياني الى العربي (٢)

الكتب التي ترجمت في النهضة العباسية

قد رأيت الاسباب التي حملت الخلفاء على نقل علوم القدماء في النهضة العباسية وقبيلها ، وقد ذكرنا الذين اشتغلوا في ترجمتها من اللسان المختلفة . بقى علينا أن نذكر الكتب التي نقلت وكان عليها معول علماء المسلمين فيما ألفوه بعد ذلك . وهي كثيرة تصعب الاحاطة بها لتشتت أخبارها وضياع كثير منها ، على أننا نكتفى بما يبلغ اليه الامكان

وتسهيلا للاحاطة بموضوعات تلك الكتب واللغات المنقولة هي عنها تقسمها باعتبار اللغات التي نقلت عنها وهي : اليونانية والفارسية والهندية (السنسكريتية) والنبطية والعبرانية واللاتينية والقبطية . ونقسم منقولات كل لغة الى أقسام باعتبار الموضوعات على ما يقتضيه المقام :

١ - الكتب المنقولة عن اليونانية

هي أكثر ما نقلوه الى العربية في تلك النهضة ، وأكثرها في الفلسفة والطب والرياضيات والنجوم وفروع العلم الطبيعي . واليك كتب كل علم على حدة ، مرتبة باعتبار المؤلفين ، وبازاء كل كتاب اسم المترجم الذي نقله

١ - كتب الفلسفة والادب :

كتب أفلاطون.

١	كتاب السياسة	قوله حنين بن اسحق
٢	» المناسبات	» يحيى بن عدى
٣	» النواميس	» حنين ويحيى
٤	» طيماوس	» ابن البطريق وأصلحه حنين
٥	» أفلاطن الى أقرطن (*)	» يحيى بن عدى
٦	» التوحيد	»

(*) لم أجد لابي زكريا يحيى بن عدى (المعروف بالنطيقى) التكريتي المنوف ١٨٢/٣٦٢ أو ٣٦٤ كتابا بهذا الاسم . انظر قائمة كتبه ومترجماته عند بروكلمان : تاريخ الاداب العربية ، ملحق ١/٢٧٠

وانظر عنه : ابن القفطى ، ٣٦١

البيهقى : التتمة ، ص ٩٠

ابن العبرى : مختصر تاريخ الدول ص ٢١٧

Meyerhof, Von Alexandria nach Baghdad p. 36 m. 8

G. Graf, Die Christliche Arabische Literatur, 46-51

وانظر كتاب الفهرست لابن النديم (القاهرة ١٢٤٨) ص ٣٦١

المرء عيوب نفسه « نقله توما وأصلحه حنين ، وكتاب « الاخلاق » نقله حبيش ، وكتاب « انتفاع الاخيار بأعدائهم » نقله حبيش ، و « المحرك الاول لايتحرك » نقله حبيش وعيسى وغيرها
 ٢ - كتب الطب وفروعه :

كتب أبقراط

١	كتاب عهد أبقراط	نقله حنين إلى السريانية وحبيش وعيسى إلى العربية
٢	الفصول	د حنين لمحمد بن موسى
٣	الكسر	د د د د د
٤	تقدمة العرق	د د وعيسى بن يحيى
٥	الأمراض الحادة	د عيسى بن يحيى
٦	ايذعيا	د د د
٧	الأخلاط	د د د لاسعد بن موسى
٨	قاطيطيون	د حنين لمحمد بن موسى
٩	الماء والهواء	د د وحبيش
١٠	طبيعة الانسان	د د وعيسى

كتب جالينوس

وأشهر كتب جالينوس الكتب الستة عشر ، وهى : كتاب الفرق ، الصناعة ، كتاب النبض ، شفاء الامراض ، المقالات الخمس ، الاسطقصات ، كتاب المزاج ، القوى الطبيعية ، العلل والامراض ، تعرف علل الاعضاء الباطنة ، كتاب النبض الكبير ، كتاب الحميات ، البحران ، أيام البحران ، تدبير الاصحاء ، حيلة البرء ، وقد نقلها كلها حنين بن اسحق إلى العربية الا كتاب العلل الباطنة ، وكتاب النبض الكبير ، وكتاب تدبير الاصحاء ، وكتاب حيلة البرء ، فقد نقلها حبيش . اما ما بقى من كتب جالينوس الطبية فاليك اسماءها مع اسماء ناقليها :

١	التشريح الكبير	نقله حبيش الأعسم	٩	آراء أبقراط وأفلاطون	نقله حبيش الأعسم
٢	اختلاف التشريح	د د د	١٠	العادات	د د د
٣	تفريح الحيوان الحى	د د د	١١	خصب البدن	د د د
٤	د الميت	د د د	١٢	المنى	د د د
٥	علم أبقراط بالتشريح	د د د	١٣	منافع الأعضاء	د د د
٦	الحاجة إلى النبض	د د د	١٤	تركيب الأدوية	د د د
٧	علوم أرسطو	د د د	١٥	الرياضة بالكرة الصغيرة	د د د
٨	تفريح الرحم	د د د	١٦	الكبرة	د د د

١٧ الحث على تعلم الطب	نقله حبش الأعمش	٣٣ قوى الاغذية	نقله حنين
١٨ قوى النفس وزاج البدن	» » »	٣٤ التدبير اللطيف	» »
١٩ حركات الصدر	{ نقله اصطفاان وأصلحه حنين	٣٥ مداواة الأمراض	» »
٢٠ علل النفس	نقله اصطفاان وأصلحه حنين	٣٦ أبقرات في الأمراض الحادة	» »
٢١ حركة العضل	» » »	٣٧ الى تراسبولوس	» »
٢٢ الحاجة الى النفس	» » »	٣٨ الطبيب والفيلسوف	» »
٢٣ الامتلاء	» » »	٣٩ كتب أبقرات الصحة	» »
٢٤ المرة والسوداء	» » »	٤٠ محنة الطبيب	» »
٢٥ الحركات المجهولة	نقله حنين	٤١ أفلاطون في طبائوس	» » واسحق عيسى
٢٦ علل الصوت	» »	٤٢ تقدم المعرفة	» »
٢٧ أفضل الهيئات	» »	٤٣ القصص	» » واصطفاان
٢٨ سوء المزاج المختلف	» »	٤٤ صفات لصبي يصرخ	» » ابن الصات
٢٩ الأدوية المفردة	» »	٤٥ الأورام	» »
٣٠ المولود لسبعة أشهر	» »	٤٦ الكيموس	» » ثابت وحيش
٣١ رداءة التنفس	» »	٤٧ الأدوية والأدواء	» » عيسى
٣٢ الدبول	» »	٤٨ الترياق	» » ابن البطريق

وهناك كتب في الطب وتوابعه ذكرها صاحب الفهرست ولم يذكر ناقلها. وأما مؤلفوها فمنها بضعة وعشرون كتابا لروفس من أهل افسس كان قبل جالينوس، ولعلها لم تنقل كلها. ومما ذكر ناقلوه بضعة كتب لأوريباسيوس، وهى كتاب الأدوية المستعملة نقله اصطفاان بن باسيل، وكتاب السبعين مقالة نقله حنين وعيسى بن يحيى الى السريانية، وكتاب الى ابنه اسطاث نقله حنين، وكتاب الى أبيه ارنافيس نقله حنين. ولد يسقوريدس العين زربى - ويقال له السائح في البلاد لسياحته في طلب العقاقير والحشائش - كتاب في الحشائش سيأتى تاريخ نقله. ولاسكندروس كتاب « البرسام » نقله ابن البطريق، وغير هؤلاء مما لم يعرف ناقلوه

٢ - كتب الرياضيات والتجوم وسائر العلوم :

ويشتمل النظر في ذلك على علم التجوم والهندسة والحساب والموسيقى والميكانيكيات، وهالك خلاصة الكلام فيها :

(١) كتب اقليدس : منها اصول الهندسة ، نقله الحجاج بن مطر نقلين :

الهارونى والمأمونى (١*) ، ونقله اسحق بن حنين وأصلحه ثابت بن قرة ، ونقله أبو عثمان الدمشقى (٢*) ، ولا يزال هذا الكتاب باقيا الى الآن . ومن كتب اقليدس التى لم يعرف مترجموها : كتاب الظاهرات ، وكتاب اختلاف المناظر ، وكتاب الموسيقى ، وكتاب القسمة ، وكتاب القانون ، وكتاب الثقل والخفة (٣*)

(٢) كتب ارخميدس : وقد تقدم ذكرها فى كلامنا عن آداب اليونان ، وهى عشرة لم يعرف ناقلوها (٤*)

(٣) ابلونيوس : صاحب كتاب المخروطات وكتاب قطع السطوح وقطع الخطوط والنسبة المحدودة والدوائر المماسية ، ولم يعرف ناقلوها (٥*)

(٤) منالوس : له كتاب الاشكال الكروية وكتاب أصول الهندسة ، نقله الى العربية ثابت بن قرة (٦*)

(٥) بطليموس القلوزى : صاحب كتاب المجسطى الشهير ، وقد تقدم خبر نقله وتفسيره على يد يحيى البرمكى . ولبطليموس ايضا كتاب الاربعة ، نقله ابراهيم بن الصلت وأصلحه حنين ، وكتاب جغرافيا المعمور وصفة الارض نقله ثابت الى العربية نقلا جيدا . ولبطليموس ١٥ كتابا آخر فى الجغرافية وغيرها لم يعرف ناقلوها (٧*)

(٦) ابرخس : له كتاب صناعة الجبر ويعرف بالحدود وكتاب قسمة الاعداد ، لم يعرف ناقلهما (٨*)

(٧) ذيوفنتس : له كتاب صناعة الجبر لم يعرف ناقله

وهناك كتب عديدة فى الرياضيات والهيئة والازياج ونحوها ، ذكرها ابن النديم ولم يذكر ناقلها ، منها : كتاب العمل بالاسطرلاب المسطح لابيون البطريق ، وكتاب جرم الشمس والقمر لارسطرخس ، وكتاب العمل بذات

(١*) العبارة هنا مبتكرة ، وهناك نصها من فهرست ابن النديم (ص ٣٧١) «الكلام على كتابه فى أصول الهندسة ، واسمه الاسطروشيا ، ومعناه اصول الهندسة ، نقله الحجاج بن يوسف ابن مطر نقلين (أى ترجمه مرتين) احدهما يعرف بالهارونى وهو الاول ونقل ثانيا يعرف بالمأمونى ، وعليه يعول »

(٢*) نص العبارة من الفهرست (نفس الصفحة) : « ونقل أبو عثمان الدمشقى منه مقالات ، رأيت منها العاشرة بالموصل فى خزانة على بن أحمد العمرانى ، واحد غلمانه أبو الصقير القبيصى ، ويقرأ عليه المجسطى فى زماننا »

(٣*) نص الفهرست (ص ٣٧٢) : « ومن كتب اقليدس ، كتاب الظاهرات ، كتاب اختلاف المناظر ، كتاب المعطيات ، كتاب النغم ، ويعرف بالموسيقى (وهو) منحول ، كتاب القسمة اصلاح ثابت (بن قرة) ، كتاب الفوائد (وهو) منحول ، كتاب القانون ، كتاب الثقل والخفة ، كتاب التركيب ، منحول ، كتاب التحليل ، منحول »

(٤*) انظر بيانها فى فهرست ابن النديم ، ص ٣٧٢

(٥*) قاتمتها اكبر من ذلك بكثير ، انظر الفهرست ، ص ٣٧٢

(٦*) انظر الفهرست ، ص ٣٧٤

(٧*) انظر الفهرست ، ص ٣٧٤ - ٣٧٥

(٨*) انظر الفهرست ، نفس الصفحة

الحلق ، وكتاب جداول زيچ بطليموس المعروف بالقانون المسير ، وكتاب العمل بالاسطرلاب - وكلها لثاؤن الاسكندري ، غير ما تقدم ذكره من الكتب الرياضية في أثناء ذكر كتب الفلسفة رغبة في ايرادها لأصحابها مع سائر مؤلفاتهم . وقد نقل للمسلمين من كتب الموسيقى عن اليونانية كتاب الموسيقى الكبير لنيقوماخس الجهراسيني ، وكتاب الموسيقى المنسوب لافليدس وقد تقدم ذكره ، ومقالات في الموسيقى لفيثاغورس وغيره . وكتاب الريموس ، وكتاب الايقاع لارسطكاس ، وكتاب الآلات المصوتة المسماة بالارغن البوقى والارغن الزمرى لمورطس

ونقل لهم من كتب الميكانيكيات ، غير ما جاء في كتب أرخميدس ، كتاب الحيل الروحانية ، وكتاب شيل الأثقال لايرن ، وكتاب استخراج المياه لبادروغوغيا ، وكتاب الآلات المصوتة على ستين ميلا لمورطس

٢ - الكتب المنقولة عن الفارسية

أكثر الكتب المنقولة عن الفارسية في النهضة العباسية من قبيل الآداب والخبار والسير والاشعار ، وبعضها في النجوم مما نقله آل نوبخت وعلى ابن زياد التميمي وغيرهم . أما ما بقى من كتبهم المنقولة الى العربية فهي مع أسماء ناقلها :

١	كتاب رستم واسفنديار نقله جبلة بن سالم	٩	كتاب الآداب الصغير نقله عبد الله بن المقفع
٢	» بهرام شوس » » » »	١٠	» اليقعة » » » »
٣	» خديانامه في السير » عبد الله بن المقفع	١١	» هزار افسانه لم يذكرناقله (*)
٤	» آيين نامه » » » »	١٢	» شهرزاد مع ابرويز » » » »
٥	» كلياته ودمنة » » » »	١٣	» الكارنامة ابوشروان » » » »
٦	» مزدك » » » »	١٤	» دارا والصنم الذهب » » » »
٧	» التاج في سيرة » » » »	١٥	» بهرام ونرسي » » » »
	» أنوشروان » » » »	١٦	» هزارستان » » » »
٨	» الآداب الكبير » » » »	١٧	» الادب والتعلب » » » »

١٨ سير ملوك الفرس ، وهي غير كتاب - تزجيم احدها محمد بن جهم البرمكي ، والآخر ترجمه زادويه بن شاهويه الاصفهاني والآخر محمد بن بهرام بن مطيار الاصفهاني (١)

ومما يجب ذكره من مترجمات الفرس ، وان كان من مؤلفاتهم بعد نشوء التمدن الاسلامي ، كتاب « شاهنامه » التي نظمها الفردوسي للسلطان محمود الغزنوي سنة ٣٨٤ هـ في نحو ٦٠٠٠ بيت على نسق الياذة هوميروس ، وقد تضمنت تاريخ الفرس القديم نقلها الى العربية الفتح بن علي

(*) هو الاصل الفارسي لكتاب الف ليلة (١) رسائل شبلى في اللغة الهندستانية

البندارى الاصبهاني نثرا للملك المعظم عيسى الايوبى اتم ترجمتها سنة ٦٩٧ هـ (١) ولا ريب أن العرب نقلوا من اللغة الفارسية كتباً أخرى تاريخية وأدبية ، وخصوصاً مما يتعلق بالمذاهب القديمة ونحوها

٣ - الكتب المنقولة عن اللغة الهندية

نقل العرب عن اللغة الهندية (السنسكريتية) كثيراً من كتب الطب والنجوم والرياضيات والحساب والاسمار والتواريخ. والكتب الطبية المنقولة عنها كثيرة وإن لم يصل إلينا من أخبارها إلا القليل ، لأن بغداد كانت في إبان الزهو العباسي محج العلماء والأطباء والتجار والسياح من كل الملل ، وكان للبرامكة عناية في استقدام أطباء الهند إليها ، وقد بعث يحيى بن خالد فاستقدم بضعة صالحة منهم كمنكه وبازيكر وقليرفل وسندباز وغيرهم (٢) ويظهر مما كتبه المسلمون بعد العصر العباسي في الأدب أو الطب أو الصيدلة أو السير أنهم اعتمدوا في جملة مصادره على كتب هندية الأصل. راجع قانون ابن سينا مثلاً أو الملوكى للرازي أو غيرهما من كتب الطب الكبرى، فتراهم يذكرون بعض الأمراض ويشيرون إلى أن الهنود يسمونها مثلاً كذا وكذا أو يعالجونها بكذا وكذا . وإذا قرأت العقد الفريد لابن عبد ربه أو سراج الملوك للطرطوشي ، أو غيرهما من كتب الأدب المهمة ، رأيت مؤلفيها إذا ذكروا بعض الآداب أو الأخلاق أو نحوها قالوا : « وفي كتاب الهند كذا وكذا »

كتب الطب وفروعه :

على أننا نعلم مما جاء في كتاب طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة أنه اشتهر حوالى العصر العباسي جماعة من علماء الهند في الطب والنجوم والفلسفة وغيرها ، منهم كمنكه الهندي وهو من متقدميهم وأكابرهم وخصوصاً في علم النجوم فضلاً عن الطب وله مؤلفات كثيرة ، منها كتاب النمودار في الأعمار وكتاب أسرار المواليد وكتاب القرائن الكبير والصغير وكتاب في الطب يجري مجرى الكنز وكتاب في التوهم وكتاب في أحداث العالم والدور في القرآن. ومنهم أيضاً صنجل وباكر وغيرهما ، وقد نقل كثير من مؤلفاتهم في النجوم والطب إلى اللغة العربية ، أما رأساً أو بواسطة اللغة الفارسية ، بأن ينقل الكتاب من الهندي إلى الفارسي ثم ينقل من الفارسي إلى العربي . منها كتاب سيرك الهندي ، وقد نقله من الفارسي إلى العربي عبد الله بن علي ، وكتاب آخر في علامات الأدوية ومعرفة علاجها أمر يحيى بن خالد البرمكي بنقله .

(١) كشف الظنون ٤٧ ج ٢ (٢) البيان والتبيين ٤٠ ج ١

وكتاب فيما اختلف فيه الروم والهند في الحار والبارد وقوى الأدوية وكتب أخرى في فروع الطب

ومن مشاهيرهم منكه الهندي المتقدم ذكره بين المترجمين ، وقد أتى بغداد بإشارة يحيى بن خالد لمعالجة الرشيد فشفاه فأجرى عليه الرشيد رزقا واسعا . وكان منكه يعرف الفارسية أيضا فكان ينقل من الهندي إلى الفارسي ، وله حديث طويل ذكره صاحب طبقات الأطباء (١) . ومنهم صالح ابن بهلة الهندي جاء العراق في أيام الرشيد أيضا ونال شهرة واسعة وخالف أطباءها يومئذ واختلطوا به ، فإذا لم يكونوا نقلوا شيئا من كتبه فلا بد من اقتباسهم شيئا من آراء الهند عنه

ومن مشاهيرهم أيضا شاناق ، وله كتاب في السموم خمس مقالات نقله من اللسان الهندي إلى الفارسي منكه الهندي ، وأوعز يحيى بن خالد إلى رجل يعرف بأبي حاتم البلخي بنقله إلى العربية ، ثم نقل للمأمون على يد العباس بن سعيد الجوهري مولاه . ولجودر الحكيم كتاب في المواليد نقل إلى العربية أيضا

ومن الكتب الطبية التي نقلت من الهندية إلى لسان العرب في العصر العباسي غير ما تقدم ذكره (٢)

١	كتاب سررد في الطب	نقله منكه
٢	» أسماء عقاير الهند	» لاسحق بن سليمان
٣	» استانكر الجامع	» ابن دهن
٤	» صفوة النجج	» »
٥	» مختصر الهند في العقاير	لم يذكر ناقله
٦	» علاجات الجبال للهند	» » »
٧	» روسا الهندية في علاجات النساء	» » »
٨	» السكر للهند	» » »
٩	» التوهم في الأمراض والعلل	» » »
١٠	» رأى الهندي في أجناس الحيات وسمومها	» » »

كتب النجوم والرياضيات :

أما في الرياضيات والكواكب فللهند شأن كبير، وقد ذكرنا خبر السندهند فيما تقدم ، وكان لثقل هذا الزيج تأثير في علم النجوم عند العرب وقد قلده وألقوا على مذهبه . ومن ألف على هذا المذهب محمد بن إبراهيم الفزاري وحش بن عبد الله البغدادي ومحمد بن موسى الخوارزمي وغيرهم (٣) والفزاري أول من عمل اسطرلابا في الاسلام (٤) . وما من فلكي من فلكيي

(١) طبقات الأطباء ٣٣ ج ٢ (٢) الفهرست ٣٠٣

(٣) تراجم الحكماء (خط) (٤) الفهرست ٢٧٣

المسلمين أراد التوسع في علم النجوم الا وطالع كتبهم ، اما في اللغة الهندية أو في ترجمتها الى العربية . وأكثر المسلمين عناية في ذلك واطلاعا على آداب الهند وعلومهم أبو الريحان البيروني المتوفى سنة ٤٤٠ هـ فانه طاف بلاد الهند واطلع على علومهم وآدابهم ثم ألف كتابه « الآثار الباقية عن القرون الخالية » وله من المؤلفات ما يعد بالعشرات ، ومنها كثير في علوم الهند اما ترجمة أو تصحيحا أو نقدا ، ومما ذكره من كتبه التي ألفها في هذا الصدد قوله :

« وعملت في السندهند كتابا سميته جوامع الموجود لخواطر الهنود في حساب التنجيم ، جاء ما تم منه ٥٥ ورقة . وهذبت زيچ الاركنند وجعلته بالفاظي اذ كانت الترجمة الموجودة منه غير مفهومة والفاظ الهند فيها متروكة لحالها . وعملت كتابا في المدارين المتحددين والمتساويين ، وسميته بخيال الكسوفين عند الهند وهو معنى مشتهر فيما بينهم لا يخلو منه زيچ من أزياجهم ، وليس بمعلوم عند أصحابنا . وعملت تذكرة في الحساب والعد بأرقام السند والهند في ٣٠ ورقة ، وكيفية رسوم الهند في تعلم الحساب ، وتذكرة في أن رأى العرب في مراتب العدد أصوب من رأى الهند فيها ، وفي راسكيات الهند ، وترجمة ما في أبرهم سدهاند من طرق الحساب . ومقالة في تحصيل الآن من الزمان عند الهند . ومقالة في الجوابات على المسائل الواردة من منجمي الهند . ومقالة في حكاية طريقة الهند في استخراج العمر . وترجمة كلب باره وهى مقالة للهند في الامراض التي تجرى مجرى العقونة » وغير ذلك ، فيؤخذ من هذا أن الهنود اهل علم ورأى في النجوم وعلومها وأن المسلمين نقلوا عنهم شيئا كثيرا

كتب الادب :

وأما كتب الهند في الأدب والتاريخ والمنطق والأسمار والخرافات مما نقل الى العربية ، فأولها كتاب كليله ودمنة وقد نقل عن طريق الفارسية كما تقدم ، وبعد نقله الى العربية نظموه شعرا كما نظمه الفرس من قبلهم . وممن نظمهم في العربية ابان بن عبد الحميد بن لاحق بن عفير الرقاشي وعلى ابن داود . (٢) كتاب سنديباد الكبير (٣) كتاب سنديباد الصغير (٤) كتاب البد (٥) كتاب يوذاسف (٦) يوذاسف مفرد (٧) كتاب أدب الهند والصين (٨) كتاب هابل في الحكمة (٩) كتاب الهند في قصة هبوط آدم (١٠) كتاب طرق (١١) كتاب ديك الهندي في الرجل والمرأة (١٢) كتاب حدود منطق الهند (١٣) كتاب ساديرم (١٤) كتاب ملك الهند القتال والسباح (١٥) كتاب بيدبا

في الحكمة (١) .(*)

ومما نقله العرب من الهنود كتاب في الموسيقى اسمه في الهندية (بيافر)
ومعناه ثمار الحكمة وفيه أصول الألحان وجوامع تأليف النغم (٢)

{ - الكتب المنقولة عن النبطية

قد رأيت فيما تقدم كتباً كثيرة فلسفية وطبية نقلت من اليونانية الى العربية عن طريق اللغة السريانية أخت النبطية أو هي عينها فلا نتعرض لذكرها . وإنما المراد بهذا الباب الكتب التي كانت مكتوبة في اللغة الكلدانية أو النبطية ونقلت الى العربية رأساً ولولا نقلها لضاعت . وأهم تلك الكتب كتاب الفلاحة النبطية فانه فريد في بابهِ ، وقد نقله الى العربية أحمد بن علي ابن المختار النبطي المعروف بابن وحشية سنة ٢٩١ هـ ، وظل معتمد أهل الزراعة الى أمد غير بعيد ، وقد نقل الى اللغات الافرنجية ولولا نقله الى العربية لضاع وخسر العالم كما يؤخذ من مطالعة مقدمته ، فقد قال ابن وحشية وهو يعلّي الكتاب على بن محمد بن الزيات سنة ٣١٨ هـ : « اعلم يا بني اني وجدت هذا الكتاب في كتب الكسدانيين (الكلدان أو النبط) يترجم معناه في العربية كتاب فلاحه الارض واصلاح الزرع والشجر والثمار ودفع الآفات عنها . وكان هؤلاء الكسدانيون أشد غيرة عليها ، لئلا يظهر هذا الكتاب فكانوا يخفونه بجهدهم . وكان الله عز وجل قد رزقني المعرفة بلفتهم ولسانهم ، فوصلت الى ما أردت من الكتب بهذا الوجه . وكان هذا الكتاب عند رجل متميز فأخفى عني علمه ، فلما اطلعت عليه لمته في اخفاء الكتاب عني وقلت له : انك ان اخفيت هذا العلم دثر ومضى ولا يبقى لأسلافك ذكر . وما يصنع الانسان بكتب لا يقرؤها ولا يخلى من يقرأها فهي عنده بمنزلة الحجارة والمدر ؟ فصدقني في ذلك وأخرج الى الكتب ، فجعلت

(١) الفهرست ٣٠٥

(*) النص الكامل لعبارة ابن التديم في الفهرست (ص ٤٢٤) يعطى فكرة عن تاريخ كتاب كليله ودمنة عند العرب : « كتاب كليله ودمنة ، وهو سبعة عشر باباً ، وقيل ثمانية عشر باباً ، فسرّه عبد الله بن المقفع وغيره ، وقد نقل هذا الكتاب الى الشعر ، نقله ابان بن عبد الحميد بن لاحق بن عفير الرقاشي ، ونقله على بن داود الى الشعر ، ونقله بشر بن المعتمد ، والذي خرج بعضه ، ورأيت أنا في نسخة زيادة بابين ، وقد عملت شعراء العجم هذا الكتاب شعراً ، ونقل الى اللغة الفارسية بالعربية (كذا) ولهذا الكتاب جوامع والتزامات عملها جماعة منهم ابن المقفع ، وسهل بن هارون ، وسلم صاحب بيت الحكمة ، والبريد الاسود الذي استلعمه المتوكل في أيامه من فارس »

أما كتاب البد الوارد في المتن ، فقد ورد في الفهرست على هذه الصورة ، ويرجح انه كتاب البدا على اعتبار أنه حياة بودا . وكتاب يوذاسف يقلب على الظن انه قصة يواصف الذي يترجم الى الافرنجية باسم يوسافات Josophat . وفي نص الفهرست : يواصف وبلوهر ، ولهذا تستحسن قراءته يواصف لا يوذاسف ، وبلوهر يقلب على الظن انها بلرهن تحريف لاصل الاسم وهو برلم او برلن ويترجم في الافرنجية الى برلام Barlaam وقد ترجمناه نحن في تاريخ الفكر الاندلسي برلعم (٢) تراجم الحكماء (خط)

انقل كتابا بعد كتاب . فكان أول كتاب نقلته كتاب دواناي البابلي في معرفة اسرار الفلك والاحكام على حوادث النجوم ، وهو كتاب عظيم المحل ، ونقلت كتاب الفلاحة هذا بتمامه الخ» (١) (٢) كتاب طرد الشياطين ويعرف بالاسرار (٣) كتاب السحر الكبير (٤) كتاب السحر الصغير (٥) كتاب دوار على مذهب النبط (٦) كتاب مذاهب الكلدانيين في الاصنام (٧) كتاب الاشارة في السحر (٨) كتاب أسرار الكواكب (٩) كتاب الفلاحة الصغير (١٠) كتاب في الطلسمات (١١) كتاب الحياة والموت في علاج الامراض (١٢) كتاب الاصنام (١٣) كتاب القرايين (١٤) كتاب الطبيعة (١٥) كتاب الاسماء وأكثرها من نقل ابن وحشية (٢) غير ما لابد من نقله من كتب الدين واخبار الكلدان القدماء (❖)

٥ - الكتب المنقولة عن العبرانية واللاتينية والقبطية

لاريب ان كثيرا من تعاليم اليهود وآدابهم المدونة في التلمود وغيره من كتبهم قد نقل الى العربية ، وان كنا لا نرى شيئا منها مدونا بصفة ترجمة لأنهم كانوا ينقلونها شفاهيا للصحابة وغيرهم على ما تقدم ، وربما دونوا منها شيئا وضاع . وأما ما وصل إلينا خبره من المنقول عن العبرانية فترجمة أسفار التوراة ، نقلها سعيد الفيومي المتوفى سنة ٣٣٠ هـ وهو أقدم من نقل التوراة الى العربية مما وصل إلينا خبره ، وله أيضا شروح وتفسير عليها (٢) ولا يبعد أن يكون قد نقل الى العربية بعض الكتب عن اللاتينية ، لأنها كانت تحوى كثيرا من العلوم الفلسفية والتاريخية والشرعية وغيرها ، وربما فات نقلة الأخبار ذكر ما نقل عنها . وقد رأينا في جملة المترجمين أن يحيى ابن البطريق لا يعرف غير اللغة اللاتينية وأنه ترجم عدة كتب ، فالظاهر أنه ترجمها عن اللاتينية

(١) كتاب الفلاحة النبطية (خط) (٢) الفهرست ٣١٢

(❖) الدراسات كثيرة عن كتاب الفلاحة النبطية المنسوب الى أبى بكر احمد بن على بن المختار بن عبد الكريم بن جريث بن يدينا بن بوراطيا بن علاطيا الكسداني الصوفي المعروف بابن وحشية ، وقد شك كثير من العلماء منهم Noeldeke, Gutschmid, Chwolson فيما ذكره ابن وحشية من انه ترجم الكتاب عن الكلدانية ، وكذلك شسك Von Hammer Burgstall في اصالته كتابه الذى سماه أصل الكتابات ، وقد عرض الموضوع كله الدكتور احمد عيسى في كتابه «تاريخ النبات عند العرب» (القاهرة ١٩٤٤) ص ٩٧ - ٩٩ . وقد لخص الدكتور عيسى محتويات الكتاب فيما يلى : «استنباط المياه وهندستها ، وكيفية حفر الآبار ، والاحتياال في زيادة ماء البئر ، وإزالة البخارات الردية منها ، وإفلاح الأرض ، وعلاج الشجر ، وزكاة الشمار وتجويدها ، وزكاة الزرع ، والكلام على خواص الاشياء ، وخواص البلدان ، والازمنة ، واختلاف طباع الادوية ، وبراكيب الشجر وغروسها وإفلاحها ، ودفع الآفات عنها ، واستخراج منافع النباتات والحشائش ، والمداواة بها ودفع الآفات عنها ، وعن أبدان الحيوانات ، ودفع آفات الشجر والنابت بعضها ببعض ، وطرائف ماركبوا من الاشياء ، حتى حدث عنها أشياء غيرها ، اما قربة منها أو بعيدة منها ، ودليل مجيء المطر والبرد والصحو والسحاب ، ومعرفة ما ينتج من الزرع في أى سنة أردت ذلك »

انظر : دائرة المعارف الاسلامية ، مادة ابن وحشية

وبروكلمان : تاريخ الادب العربى ، ٢٤٢/١ - ٢٤٣ والمراجع المعطاة هناك

(٣) الفهرست ٢٣

وأما القبطية فاذا لم ينقل العرب عنها رأسا فلا نشك في أنهم نقلوا كثيرا من علوم المصريين بواسطة اللغة اليونانية ، وخصوصا صناعة الكيمياء القديمة وغيرها مما برع فيه المصريون ، وأما الكيمياء فقد نقلت عن القبطى واليونانى معا بأمر خالد بن يزيد (١) . (٢)

الخلاصة

وفى الجملة فان المسلمين نقلوا الى لسانهم معظم ما كان معروفا من العلم والفلسفة والطب والنجوم والرياضيات والأدبيات عند سائر الأمم المتقدمة فى ذلك العهد ، ولم يفادروا لسانا من السن الأمم المعروفة اذ ذلك لم ينقلوا منه شيئا ، وان كان أكثر نقلهم عن اليونانية والفارسية والهندية . فأخذوا من كل أمة أحسن ما عندها ، فكان اعتمادهم فى الفلسفة والطب والهندسة والموسيقى والمنطق والنجوم على اليونان ، وفى النجوم والسير والآداب والحكم والتاريخ والموسيقى على الفرس ، وفى الطب (الهندى) والعقاقير والحساب والنجوم والموسيقى والاقاصيص على الهنود ، وفى الفلاحة والزراعة والتنجيم والسحر والطلاسم على الانباط والكلدان ، وفى الكيمياء والتشريح على المصريين ، فكانهم ورثوا أهم علوم الاشوريين والبابليين والمصريين والفرس والهنود واليونان ، وقد مزجوا ذلك كله وعجنوه واستخرجوا منه علوم التمدن الاسلامى (الدخيلة)

ومما نلاحظه من أمر ذلك النقل أن العرب ، مع كثرة ما نقلوه عن اليونان، لم يتعرضوا لشيء من كتبهم التاريخية أو الادبية أو الشعر ، مع أنهم نقلوا ما يقابلها عند الفرس والهنود ، فقد نقلوا جملة صالحة من تواريخ الفرس وأخبار ملوكهم وترجموا الشاهنامة . ولكنهم لم ينقلوا تاريخ هيرودتس ، ولا جغرافية استرابون ، ولا الياذة هوميروس ولا أوديسيته . والسبب فى ذلك أن أكثر ما بعث المسلمين على النقل رغبتهم فى الفلسفة والطب والنجوم والمنطق ، لأسباب تقدم بيانها . وأما التواريخ والآداب فقد كان التراجمة ينقلونها غالبا من عند أنفسهم ، حبا فى اظهار مآثر أسلافهم أو جيرانهم . فالترجمون الفرس نقلوا شيئا من تواريخ الفرس وآدابهم ، وكذلك فعل التراجمة السريان بآداب أجدادهم وكذلك التراجمة الهنود . فلو كان فى أولئك المترجمين واحد من اليونان لنقلوا كثيرا من تواريخ أمتهم وأشعارها .

(١) الفهرست ٢٤٢

(٢) لم يدرس بعد موضوع ما نقله العرب من علوم قداماء المصريين مما كان مدونا بالقبطية ، وليس لدينا الا اشارتان الى الموضوع هما :

Von Hammer Burgstall, Ancient Alphabets and hieroglyphic characters explained with an account of the Egyptian priests, their classes, initiation and sacrifices in the Arabic language, by A. B. Abu Bakr ibn Wahschieh. London 1810
ومقدمة طبعة دى ساسى لرحلة عبد اللطيف البغدادي

ولا ريب أن من جملة ما منعهم من نقل الإلياذة الى العربية ذكر الالهة والأصنام فيها ، ولكن في الشاهنامة أيضا كثيرا من ذلك فلم يمنعهم من نقلها (*)

ويلاحظ أيضا أن العرب نقلوا من علوم تلك الأمم في قرن وبعض القرن ما لم يستطع الرومان بعضه في عدة قرون ، وذلك شأن المسلمين في أكثر أسباب تمدنهم العجيب

محاسبة الخلفاء للعلماء غير المسلمين

ومن العوامل الفعالة في سرعة نضج العلم في النهضة العباسية ، وكثرة ما ترجم في تلك المدة القصيرة ، أن الخلفاء أصحاب تلك النهضة كانوا يبذلون كل مرتخص وغال في سبيل نقل الكتب ، ويرغبون النقلة وغيرهم بالبذل والاكرام والمحاسنة ، بقطع النظر عن ملهم أو نحلهم أو أنسابهم ، وقد كان فيهم النصراني واليهودي والصابي والسامري والمجوسي . فكان الخلفاء يعاملونهم كافة بالرفق والاكرام ، مما يصح أن يكون مثالا للاعتدال والحرية وقدوة لولاة الأمور في كل العصور

بلغ من اكرام المنصور لطيبه جورجيس بن بختيشوع (١) أنه أمر أن يحضروا له المشروب وهو محرم في الاسلام . وذلك أنه رأى وجهه يتغير على اثر اقامته في بغداد ، فقال المنصور لحاجبه الربيع : « أرى هذا الرجل قد تغير وجهه . . أتكون قد منعت مما يشربه على عادته؟ » . قال الربيع: «لم تأذن له أن يدخل الى هذه الدار مشروبا » فأجابه المنصور بقبیح وقال : « لابد أن تمضي بنفسك حتى تحضره من المشروب كل ما يريده » . فمضى الربيع الى قطربل وحمل منها اليه غاية ما أمكنه من الشراب الجيد (٢) وكان ذلك شأن المنصور مع أكثر أطبائه ، حتى كان يستشير بعضهم في أهم الامور . فلما طلب أهل خراسان عقد البيعة لابنه المهدي كان من أطبائه طبيب يهودي اسمه فرات بن شحاتا وكان حاضرا ، فقال له المنصور : « ما تقول يا فرات ؟ » فأشار عليه بما يراه

وبلغ من اكرام الرشيد لطيبه جبريل بن بختيشوع أنه دعا له وهو في الموقف بمكة دعاء كثيرا ، فأكر عليه بنو هاشم ذلك وقالوا : «ياسيدنا ذمى» فقال : « نعم ، ولكن صلاح بدنى وقوامه به ، وصلاح المسلمين بى ، فصلاحهم بصلاحه وبقائه » فقالوا : « صدقت يا أمير المؤمنين ! » (٣) . أما المأمون فلفظه واکرامه العلماء أشهر من أن يذكر

(*) أوفى دراسات لما نقله العرب عن اليونان قام بها الدكتور عيد الرحمن بدوى في سلسلة قيمة من الكتب : « دبيع الفكر اليونانى » ، « كتاب الشعر » ، « أفلوطين عند العرب » ، « منطق أرسطو »

(١) ويقال أيضا جورجيس بن جبرئيل (٢) طبقات الاطباء ١٢٤ ج ١ (٣) طبقات الاطباء ١٢٠ ج ١

وكثيرا ما كان الخلفاء يطلقون أيدي أطبائهم في دورهم ، ويستشيروهم في مهام أمورهم الادارية والسياسية ، وربما كلفوهم التوقيع عنهم . فكان المعتصم قد استطب سلمويه بن بنان النصراني ، وبلغ من اكرامه اياه انه كان اذا ورد الى الخليفة كتاب يقتضى توقيعا ، وكان سلمويه حاضرا ، أمره أن يوقع عنه بخطه . وكل ما كان يرد على الأمراء والقواد من خروج أمر أو توقيع من الخليفة فبخط سلمويه . وكذلك كان شأن داود بن ديلم مع المعتضد (١) ومن أدلة اكرام المعتصم لسلمويه انه ولي أخاه ابراهيم بن بنان خزن بيوت الاموال في البلاد وخاتمه مع خاتم الخليفة ، ولم يكن أحد عنده مثل سلمويه وأخيه في المنزلة . وكان المعتصم يدعو سلمويه « أبى » وكان اذا قرب الفصح أو غيره من أعياد النصارى اذن له بالذهاب الى بلده القادسية ليقيم في كنيستها ويتقرب ، ويزوده بالاكسية والمسك والبخور . ولما اعتل سلمويه عاده المعتصم وبكى عنده وقال له : « تشير على بعدك بما يصلحني ؟ » فأشار عليه ببوحنا بن ماسويه . فلما مات سلمويه امتنع المعتصم من أكل الطعام يوم موته ، وأمر بأن تحضر جنازته الدار ويصلى عليه بالشمع والبخور على زى النصارى الكامل ، ففعلوا وهو بحيث يبصرهم ويباهى في كرامته (٢)

وكذلك كان المتوكل والمهتدى وغيرهم في اكرام الاطباء وتقديمتهم والاحسان اليهم ، وكانوا اذا حضروا مجلس الخليفة جلسوا معه على السدة (٣) وربما جلس الطبيب والوزراء والأمراء وقوف ، كما كان شأن ثابت بن قرة الصابى مع المعتضد بالله (٤) . وكانت مواكبهم اذا ركبوا مثل مواكب الأمراء والوزراء . وكان الخلفاء يمازحونهم ويماجنونهم ، وهم أول من يدخل عليهم للنظر فيما يحتاجون اليه مما يصلح أبدانهم ، ويختارون لهم الأطعمة المناسبة . ولم يكن الخليفة يتناول دواء الا باذن طبيبه ، فاذا فعل ولم يستأذنه جر عليه غضب الطبيب واضطر لاسترضائه . ذكروا أن المتوكل احتجم مرة بغير اذن طبيبه اسرائيل بن الطيفورى ، فغضب اسرائيل فافتدى الخليفة غضبه بثلاثة آلاف دينار وضبعة نغل في السنة ٥٠٠.٠٠٠ درهم (٥) وكان جبرائيل الكحال أول من يدخل على المأمون بعد الصلاة ، فيفسل أجفانه ويكحل عينيه ، فاذا انتبه من قائلته فعل مثل ذلك (٦)

وطبيعى أن يأتس الانسان بطبيبه ويكرمه ، وخصوصا في دور الخلفاء في ذلك العصر ، والمطالبون بالخلافة كثيرون ومن أقرب الطرق الى نيل مطالبهم

(١) طبقات الاطباء ٢٣٤ ج ١ (٢) طبقات الاطباء ١٦٥ ج ١

(٣) ابو الفرج ٢٤٩ (٤) طبقات الاطباء ٢١٦ ج ١

(٥) طبقات الاطباء ١٥٧ ج ١ (٦) طبقات الاطباء ١٧١ ج ١

أن يقتلوا الخليفة بالسم ، وذلك حين على الطبيب . وكثيرا ما كانوا يخافون ذلك من ملوك الروم . فكان الخلفاء يخافون أن يفعل الاطباء ذلك طمعا في مال أو منصب ، فكانوا يبذلون الجهد في أن يملأوا جيوبهم وعيونهم وقلوبهم . وكثيرا ما كانوا يمتحنون أمانتهم وسلامة ذمتهم قبل التسليم لهم ، كما فعل المتوكل بحنين بن اسحق لما أراد أن يستطبه وقد خافه على نفسه ، فبعث إليه فلما حضر أقطعه أقطعا سنيا وقرر له جاريا وخلع عليه ثم قال له : « أريد أن تصف لي دواء يقتل عدوا نريد قتله سرا » فقال حنين : « ما تعلمت غير الأدوية النافعة ، ولا علمت أن أمير المؤمنين يطلب مني غيرها ، فإن أحب أن أمضي وأتعلم فعلت » فقال : « هذا شيء يطول بنا » . ثم رغبه وهدده وحيسه في بعض القلاع سنة ، ثم أحضره وأعاد عليه القول وأحضر سيفا ونطعا وهدده بالقتل فقال : « لي رب يأخذ لي حقي غدا في الموقف العظيم » فتبسّم المتوكل وأخبره أنه أراد امتحانه (١)

ولنفس هذا السبب كان الخلفاء يوجبون على أطبايهم النصراني أو غيرهم التمسك بطقوس دياناتهم (٢) ويكرمون أهل تلك الأديان من أجلهم . فقد كان ثابت بن قرة صابئيا ، فلما نال حظوة عند المعتضد تجددت الرئاسة للصابئة في مدينة السلام . وقلما كانوا يريدونهم على الإسلام إلا نادرا ، كما أراد القاهر بالله سنان بن ثابت المذكور فهرب ثم أسلم خوفا منه . على أن الصابئة كثيرا ما كانوا يصومون شهر رمضان مع المسلمين ، كما كان يفعل أبو اسحق الصابي الكاتب المشهور في أيام عز الدولة ، ومع ذلك فلما أراده عز الدولة على الإسلام لم يفعل ، لأنه كان متمسكا بدينه . والصابي هذا هو الذي رثاه الشريف الرضي بقصيدته الدالية التي مطلعها (٣) :

أرايت من حملوا على الاعواد أرايت كيف خبا ضياء النادى ؟

ولم يمنعه شرفه في الإسلام من هذا الرثاء . ويدل ذلك على أن التعصب أو التساهل إنما يكون مصدرهما من صاحب الأمر والنهي ، فإذا كان الأمير معتدلا أو متعصبا كانت رعيته مثله . ولذلك فقد كان التساهل في عصر النهضة العباسية شاملا على الخصوص أهل الخلفاء وأهل الوجاهة والعلم . ولم يكن العالم المسلم يستنكف أن يأخذ العلم عن نصراني ، حتى الفارابي الفيلسوف الكبير فقد أخذ بعض علمه عن أحد نصاري حران (٤) وكان النصراني من الجهة الأخرى لا يستنكفون من قراءة التوراة والإنجيل على فقيه مسلم (٥)

(١) أبو الفرج ٢٥١ (٢) طبقات الأطباء ١٦٠ ج ١ (٣) ابن خلكان ١٣ ج ١ (٤) ابن خلكان ج ٢ (٥) ابن خلكان ١٣٣ ج ٢

أما بذل الأموال للأطباء فلا حاجة إلى ذكره لشهرته ، ومن مراجعة ثروة جبريل بن بختيشوع في الجزء الثاني من هذا الكتاب كفاية . فضلا عما كانوا يكسبونهم من الأموال غير الرواتب ، فإن المأمون أمر أن كل من يتقلد عملا لا يخرج إلى عمله إلا بعد أن يلقي طبيبه جبريل ويكرمه . وللمأمون شعر فيه :

أق طبعك يا جبريل ل ما يشفى ذوى العلة ؟
غزال قد سبى عقلى بلا جرم ولا زلة (١)

كيف لا يزهو العلم ويزهر ويثمر في ظل هؤلاء ؟

ولم تكن تلك المحاسنة خاصة بالنهضة العباسية ، بل كانت تتناول كل دولة نهضت للعلم ، فالدولة الفاطمية بمصر كان أكثر أطبائها من التصارى واليهود والسامريين ، وكانت لهم عندهم منزلة الأطباء في الدولة العباسية ، فكانوا يغدقون عليهم الأموال ، ويولونهم الوظائف والمناصب ويستشيرونهم ويكرمونهم ويلقبونهم بألقاب الشرف ، كسلطان الحكماء وأمين الدولة ومعمد الملك (٢) ويخاطبونهم كما يخاطبون الأمراء والوزراء . كان طبيب العزيز بالله الفاطمي نصرانيا اسمه منصور بن مقشر ، فاعتل الطبيب وتأخر عن الركوب ، فلما تمائل كتب إليه الخليفة العزيز بخط يده « بسم الله الرحمن الرحيم . على طبيبنا - سلمه الله - سلام الله الطيب ، وأتم النعمة عليه . وصلت إلينا البشارة بما وهبه الله من عافية الطبيب وبرئه ، والله العظيم لقد عدل عندنا ما رزقناه نحن من الصحة في جسمنا . أقالك الله العشرة ، وأعادك إلى أفضل ما عودك من صحة الجسم وطيبة النفس وخفض العيش بحوله وقوته » (٣)

ويقال نحو ذلك في دولة الاندلس ، فقد كان للأطباء والعلماء في أيام الحكم المستنصر بن الناصر ما كان لهم في أيام المأمون لمشابهة بين الخيفتين ، فقد كان الحكم محبا للعلم والعلماء جماعا للكتب كما سيأتى . على أن حال هؤلاء العلماء كانت تختلف باختلاف الخلفاء واختلاف العصور

انتشار العلوم الدخيلة في المملكة الإسلامية

لم تكن العلوم الدخيلة تنقل إلى العربية حتى أخذ المسلمون في درسها والاشتغال بها . وكان اشتغالهم في بادئ الرأي على سبيل التلخيص أو الشرح أو التعليق ، حتى إذا نضج تمدنهم وانتشرت العلوم في البلاد -

(١) طبقات الأطباء ١٢٨ ج ١ (٢) تراجم الحكماء (٣) أبو الفرج ٣١٦

لأسباب الآتية - أخذ المسلمون في التأليف من عند أنفسهم ، وبعد أن كانت العلوم في القرنين الأولين نقليّة انما تحتاج الى الإذخار في الذاكرة ، أصبحت في القرنين التاليين ومابعدهما عقلية عمدتها النظر والقياس والتحليل والتركيب

وكانت بغداد كعبة العلم ومحج العلماء ومنبت أهل الفضل ومقر نقلة العلم في اثناء النهضة العباسية ، وخصوصا في أيام المأمون . حتى اذا تولى المعتصم واستكثر من الاتراك ، وظهرت منهم الاساءة لأهل بغداد نفر الناس وتباعدت القلوب ، ولكن المعتصم كان على مذهب أخيه المأمون في الاعتزال واکرام الشيعة ، فظلت بغداد على نحو ما كانت عليه في أيام المأمون . وكان الواثق يتشبه بالمأمون في حركاته وسكناته ، وكان يعقد المجالس مثله للمباحثة بين الفقهاء والمتكلمين في أنواع العلوم العقلية والسمعية في جميع الفروع (١)

فلما توفي الواثق سنة ٢٣٣ هـ خلفه أخوه جعفر المتوكل ، وكان شديد الانحراف عن الشيعة والمعتزلة ، حتى أمر بهدم قبر الحسين بن على وماحوله من المنازل ومنع الناس من آتيانه ، وكان كثير الاستهزاء بعلى (٢) وكان يجالس من اشتهر ببغضه . وخالف ما كان عليه المأمون والمعتصم والواثق من الاعتقاد ، فأبطل القول بخلق القرآن ، ونهى عن الجدل والمناظرة في الآراء ، وعاقب عليه ، وأمر بالرجوع الى التقليد ونصر السنة والجماعة ، وأمر الشيوخ والمحدثين بالتحديث ، فانحط علم الكلام بعد أن بلغ رونقه في أيام الرشيد وخلفائه ، فأخذ في التقهقر في أيام المتوكل ، لأنه كان شديد الوطأة على أصحاب الرأي وأصحاب الفلسفة وسائر العلوم الدخيلة . وأخذ منذ تولى الخلافة في مناوأتهم ، فأهلك جماعة من العلماء وحط مراتبهم وعادى العلم وأهله ، ولاقى أهل الذمة منه الشدائد بتفسيرهم وتذليلهم واهانتهم (٣) . ومن أشهر حوادث نقمته على خدمة العلم ، انه غضب على بختيشوع الطبيب وقبض ماله ونفاه الى البحرين ، وقتل أبا يوسف يعقوب المعروف بابن السكيت (٤) وسخط على عمر بن مصرح الراجحي وكان من عليّة الكتاب ، وأخذ منه مالا وجوهرا وأمر أن يصفع في كل يوم ، فأحصى ما صفع به فكان ستة آلاف صفقة (٥)

ومات المتوكل مقتولا سنة ٢٤٧ هـ ، قتله رجاله بتجريض ابنه فاضطربت أحوال الخلافة واستفحل شأن الاتراك ، فنشرت قلوب طلبة العلم وأكثرهم من الفرس والعرب ، فتفرقوا من بغداد رويدا رويدا الى أنحاء المملكة الاسلامية شرقا وغربا ، ولذلك كان أكثر من ظهر من العلماء - بعد نضج

(١) المسعودى ٢٦١ و ٣٦٧ ج ٢ (٢) ابو الفداء ٤٠ ج ٢ (٣) تاريخ المشارقة (خط)
(٤) ابو الفداء ٤٣ ج ٢ (٥) المسعودى ٢٦٦ ج ٢

العلم في القرن الرابع للهجرة فما بعده - انما نبغوا خارج بغداد ، وفيهم
الاطباء والفلاسفة والمهندسون والمتكلمون وأصحاب المنطق والفقهاء واللغويون
وغيرهم

فكان مركز الطب والطبيعات والفلسفة - عند ظهور الاسلام - في
الاسكندرية ، ثم انتقل في أيام عمر بن عبد العزيز في آخر القرن الأول للهجرة
الى ايطاليا . وكان مركز العلوم الاسلامية في أول الاسلام في المدينة ، ثم
انتقل الى البصرة ، ومنها الى الكوفة . فلما بنيت بغداد انتقلت اليها تلك
العلوم ، ثم انضمت اليها العلوم الدخيلة ، فأصبحت بغداد أم المدائن في العلم
والادب والفلسفة والطب وسائر العلوم العقلية والنقلية . فلما اضطربت
أحوال الخلافة في أيام المتوكل ، ثم لما نشأت الدول الجديدة في أنحاء المملكة
الاسلامية بالتفرع والتشعب على مقتضى ناموس الارتقاء ، تفرق العلماء
وأصبح للعلم مراكز كثيرة قد يتفاضل بعضها على بعض . وتدرج الانتقال
من بغداد أولا الى العراق العجمي ، فخراسان وما وراء النهر من المشرق ثم
الى القاهرة وما اليها من المغرب والاندلس .

وربما كانت الاندلس اسبق من سواها الى الادب والشعر ، لأنها ورثت
دول المشرق في ذلك ، فأصبحت قرطبة في الدولة الروانية قبة الاسلام
ومجتمع العلماء ، واليها كانت الرحلة في رواية الشعر ومناشدة الشعراء (١)
وهي في ذلك وفي غيره مدينة لبغداد وخصوصا في العلوم الدخيلة . فان
الموسيقى نقلت اليها من بغداد على يد زرقون وعلون ، دخلا في أيام الحكم
ابن هشام (٢) . وأما الفلسفة فقد دخلتها في عهد عبد الرحمن الأوسط
المعاصر للمأمون وازدهت في أيام الحكم بن الناصر (٣) أما الطب فدخل المغرب
ثم الاندلس على يد اسحق بن عمران ، أصله من بغداد ورحل الى المغرب
ونقل الطب معه (٤) في أوائل القرن الثالث . على أن أطباء الاندلس ومصر
ما زالوا حينما من الدهر يرحلون في اتقان الطب وغيره من العلوم الدخيلة
الى بغداد . حتى يهود الاندلس فقد كانوا يستخرجون فقههم من يهود
بغداد (٥) ويقال نحو ذلك في سائر بلاد الاسلام (٦)

وبالجملية فان بدور العلم التي ألقاها خلفاء النهضة العباسية في بغداد ،
ظهرت ثمارها في خراسان والري وخوزستان وأذربيجان وما وراء النهر ،

(١) نفع الطبيب ٢١٧ ج ١ (٢) نفع الطبيب ٧٥٣ ج ٢ (٣) طبقات الاطباء ٦٢ ج ٢
(٤) طبقات الاطباء ٣٦ ج ٢ (٥) طبقات الاطباء ٥٠ ج ٢
(٦) عرضنا لذلك كله بالتفصيل في كتاب « تاريخ الفكر الاندلسي » لجندالد بالنيثا الذي
نقلناه الى العربية ونشرناه في القاهرة ١٩٥٥

وفي مصر والشام والاندلس وغيرها . وظلت بغداد مع ذلك حافلة بالعلماء بقوة الاستمرار وبما فيها من أسباب الثروة ولأنها مركز الخلافة . فنبغ فيها جماعة من أهل العلم المسلمين ، فضلا عن الأطباء النصارى الذين كانوا يخدمون الخلفاء في التطبيب والترجمة

على أن أكثر العلماء غير المسلمين ، الذين نبغوا فيها بعد تلك النهضة ، كانوا يتقاطرون اليها من أنحاء جزيرة العراق وغيرها لخدمة الخلفاء . أما المسلمون فالغالب أن يكون ظهورهم خارج العراق ، ولاسيما وأن أكثر ملوك الدول الجديدة التي تفرعت من الدولة العباسية اقتدوا بخلفاء النهضة العباسية ، في ترغيب أهل العلم واستقدامهم الى عواصمهم في القاهرة وغزنة ودمشق ونيسابور واصطخر وغيرها . فالرازي من الزى ، وابن سينا من بخارى في تركستان ، والبيروني من بيرون في بلاد الهند ، وابن جليل النباتي (*) من أهل الاندلس ، وكذلك ابن باجة الفيلسوف وابن زهر الطبيب وأقاربه آل زهر وابن رشد وابن الرومية النباتي وكلهم من الاندلس

أما مصر فأكثر أطبائها المشاهير من النصارى واليهود والسامريين ، وقد نبغ فيها ابن الهيثم من أهل الفلسفة والطبيعات ، وعلى بن رضوان الطبيب الشهير والشيخ السديدي رئيس الأطباء ، ورشيد الدين أبو حليقة الطبيب الفيلسوف ، وضياء الدين بن البيطار النباتي الشهير . أما الشام فقد نبغ منها الفارابي الفيلسوف ، وأبو المجد بن أبي الحكم ، وشهاب الدين السهروردي ، وموفق الدين البغدادي الرحالة ، ناهيك بعدد عديد من النصارى الذين خدموا الخلفاء والأمراء في الطب والفلسفة وغيرهما ممن نبغ في الشام

ويقال نحو ذلك في علماء العلوم الإسلامية ، كالفقهاء والمحدثين واللغويين والشعراء ، فإنهم مع بقاء بغداد أهلة بهم فقد ظهر جماعة كبيرة منهم في خارجها ، والقابهم تدل على أماكنهم ، كالبخاري والشيرازي والنيسابوري والسجستاني والفرغاني والبلخي والخوارزمي والفيروزيابادي والحموي والدمشقي والفيومي والسيوطي والقرطبي والاشبيلي وغيرهم

الخلفاء والأمراء والعلم

اشتغال الخلفاء والأمراء بالعلم :

فلا غرو إذا احتفى الخلفاء والأمراء بأهل العلم وحاشنهم ، وهم أنفسهم

(*) نشر الأستاذ فؤاد السيد كتاب « أخبار حكماء الاندلس » لسليمان بن جلجل ، القاهرة ١٩٥٥

كانوا من طلبة العلم ومريديه ، وإذا كان الملك أو الأمير عالماً زها في أيامه العلم وسعد خدمته . ومن شروط الخلافة في الإسلام أن يكون الخليفة عالماً بالأمور الشرعية ، ولذلك كان الخلفاء في الغالب عالين بها ، يعقدون المجالس للنظر فيها ويقربون الفقهاء والمحدثين ، وتطرقوا من ذلك إلى الرغبة في النحو واللغة والتاريخ ، لارتباط تلك العلوم بعضها ببعض ، والعلم مترابط يطلب بعضه بعضاً . فلما أقاموا في العراق ، وأحاط بهم أهل العلوم الطبيعية والفلسفة والنجوم من السريان والفرس ، واطلعوا على شيء من تلك العلوم ، تأقت أنفسهم إليها واشتغلوا بها ، وكان ذلك الاشتغال باعثاً على استنارة الخلفاء والأمراء ، فنبت من ذلك العصر فما بعده جماعة من الخلفاء ، انتظموا في سلك أهل العلم الطبيعي فضلاً عن الأدبي

وأعلم خلفاء بني العباس المأمون ، فقد كان عالماً بالشرع واللغة والنجوم والفلسفة والمنطق ، ويقابله في الدول الإسلامية الأخرى الحكم المستنصر بن الناصر الأموي في الأندلس (توفي سنة ٣٦٦ هـ) والحاكم بأمر الله الفاطمي في مصر (توفي سنة ٤١١ هـ) أما الحكم فقد كان مع رغبته في العلم جليلاً للكتب يبذل الأموال في استجلابها من الأقطار . وأما الحاكم فقد كان عالماً بالنجوم وبنى مرصداً وأنشأ مكتبة كما سيأتي . وكذلك كان عبد الرحمن الأوسط أمير الأندلس المتوفى سنة ٢٣٨ هـ (١) وهو أول من وصلت إليه كتب الفلسفة من أمراء الأندلس واطلع عليها وتظاهر بها ، اقتداء بالمأمون لقرب عهده منه . أما قبلهما فلم يكن أحد من الخلفاء يعرف الفلسفة ، وإذا عرفها فلا يجسر على التظاهر بها ، ولكنهم كانوا يعرفون النجوم ويشغلون بها ، كما فعل المنصور والرشيد . أما بعد النهضة العباسية فقد تظاهر بعض الخلفاء بالفلسفة والعلم الطبيعي (٢)

أما الأدب والشعر فكان للخلفاء حظ وافر منهما ، وقد ذكرنا بباب الشعر من اشتغل به منهم . أما الأدب فقد كان السفاح تعجبه الحادثة ومفاجرات العرب من نزار واليمن (٣) وكان المنصور صاحب أخبار وآداب وله كتاب فيها (٤) وكان الهادي يجالس الأدباء يقصون عليه الأخبار والأشعار . وابن المعتز أول من ألف في علم البديع (٥) وإبراهيم بن المهدي كان من عليّة أهل الأدب والشعر . ويقال نحو ذلك في بني حمدان في حلب ، وبني عباد في الأندلس ، وبني بويه في بغداد

(١) نفح الطيب ١٦٤ ج ١ (٢) أفاض في الكلام على موقف الخلفاء من العلوم وتقديرهم لأصحابها ومداخلتهم فيها غريغوريوس أبو الفرج بن أهرن الطيب اللطى المعروف بابن العبري في كتابه « مختصر تاريخ الدول » (طبعة الأب أنطون صالحاني في بيروت سنة ١٨٩٠) . انظر مثلاً كلامه عن المأمون والعلماء ص ٢٢٥ وما بعدها

(٢) المسعودي ١٥٩ ج ١ (٣) البيان والتبيين ١٥٤ ج ٢ (٤) ابن خلكان ٢٥٨ ج ١

وكان هؤلاء الخلفاء أو الامراء يقدمون اهل العلم ويستوزرونهم . ومن الوزراء العلماء : يحيى بن خالد وزير الرشيد ، ويعقوب بن كلس وزير العزيز بالله بمصر ، وكذلك كان أكثر الوزراء في الدولة العباسية وغيرها

وإذا كان السلطان من اهل العلم فلا غرو اذا كثر العلماء في عصره وزها العلم على يده ، لأن الناس على ما يريد ملوكهم وخصوصا في الحكم المطلق ، لأن الافكار تتجه الى ارضاء الحاكم المطلق فيشتغلون بما يرضيه . قال أسامة بن معقل : « كان السفاح راغبا في الخطب والرسائل يصطنع أهلها ويثيبهم عليها ، فحفظت ألف رسالة وألف خطبة طلبا للخطوة عنده فنلتها ، وكان المنصور بعده معنيا بالاسماروالاخباروايام العرب يدني أهلها ويجيزهم عليها ، فلم يبق شيء من الاسمار أو الاخبار الا حفظته طلبا للقريب منه ، وكان موسى الهادي مغرما بالشعر يستخلص أهله ، فما تركت بيتا نادرا ولا شعرا فاخرا ولا نسيبا سائرا الا حفظته ، ولم أر شيئا ادعى الى تعلم الآداب غير رغبة الملوك في أهلها وصلاتهم عليها » (١)

تأليف الكتب للخلفاء والأمراء

وهذا هو الواقع في كل عصر وكل دولة . فالأماون لولا حبه العلم واحرازه شيئا منه لم يقدم على ترجمة الكتب ، وقد كان يعقد المجالس للمناظرة والمحاورة ، وهو الذي أمر الفراء بجمع أصول النحو وإخلاه في غرفة وأطلق له الاموال (٢) فزها العلم في أيامه وخصوصا الفلسفة لأنه كان يحبها . وما من أمير ولا ملك محب للعلم الا اجتمع العلماء حوله ، والفوا له الكتب فيما يحبه من فروع العلم وهو يجيزهم عليها . فمحمد بن اسحق الراوية الشهير ألف كتاب المغازي للمنصور وهو في الحيرة (٣) وابن بكار ألف كتاب الاخبار المعروف بالموفقيات للموفق بالله (٤) والرازي ألف كتابه المنصوري باسم المنصور بن اسحق ، ولما تولى عضد الدولة بن بويه دار السلام قرب اليه اهل العلم ، فقصدوه من كل بلد وصنفوا له « كتاب الايضاح » في النحو و « كتاب الحجة » في القراءات و « كتاب الملكى » في الطب و « التاجى » في تاريخ الديلم وغيرها (٥) وسعيد بن هبة الله الطبيب ألف كتاب المغنى في الطب للمقتدى بأمر الله (٦) وقد يؤلفون الكتب للوزراء والأمراء ، فقد ألف الحريرى مقاماته لأنوشروان وزير المسترشد (٧) وألف جبريل بن عبيد الله ابن بختيشوع كتاب الكافي بلقب صاحب بن عباد لمحبتة له . وقس على

(١) كتاب البلدان للهمداني (٢) طبقات الادباء ١٢٧ (٣) ابن خلكان ٤٨٣ ج ١

(٤) السعوى ٢٤١ ج ٢ (٥) ابو الفداء ١٢٨ ج ٢

(٦) طبقات الاطباء ٢٥٥ ج ١ (٧) الفخرى ٢٧٤

ذلك كثيرين الفوا الكتب بأسماء الخلفاء والامراء أو الوجهاء . والغالب أن يكون الغرض من ذلك الطمع في العطايا الوافرة ، وكانوا ينالون شيئا كثيرا منها . فالمنصور الاندلسي اثناب على كتاب الفصوص بخمسة آلاف دينار (١) (ج) والفردوسى نظم الشاهنامه للسلطان محمود الغزنوى على أن يعطيه على كل بيت دينارا فبلغت ٦٠٠٠ بيت

على أنهم لم يكونوا يجيزون على تأليف الكتب اعتباطا ، وانما كانوا ينظرون فيها فاذا لم يتوسموا فيها نفعا نبذوها وربما عاقبوا مؤلفيها ، فأبو بكر الرازى الطبيب ألف للمنصور بن اسحق المذكور كتابا فى صناعة الكيمياء فأجازه عليه بألف دينار ، ولكنه طالبه بآثبات ما فيه فلما عجز عن ذلك قال له المنصور : « ما اعتقدت أن حكيما يرضى بتخليد الكذب فى كتب ينسبها الى الحكمة يشغل قلوب الناس بها . وقد كافأتك على قصدك وتعبك بألف دينار ، ولا بد من معاقبتك على تخليد الكذب ! » ثم أمر أن يضرب بالكتاب على رأسه حتى يتقطع ، ثم جهزه وأرجعه الى بغداد (٢)

وكان بعض الامراء والسلاطين يتفاخرون بتقريب العلماء وتأليف الكتب بأسمائهم ، وخصوصا فى الاندلس بعد ذهاب دولة بنى أمية منها وقيام دول الطوائف . فانهم كانوا يقلدون الخلفاء فى حب العلم وتنشيط العلماء ، وكان أكثرهم يحاضر العلماء والادباء ويحب أن يشهر عنه ذلك وخصوصا عند مباديه فى الرئاسة (٣) وكانوا يتباهون أن يقال ان العالم الفلانى عند الملك الفلانى ، والشاعر الفلانى مختص بالملك الفلانى . وكان العلماء والشعراء يدلون عليهم ويستعزون ، وربما أبى الشاعر أن يمدح الملك الا بمال معين يشترطه سلفا والملوك يسترضونهم بما يريدون ، وقد يقترح الامر على العالم أن يؤلف كتابا باسمه فلا يرضى ولو بالمال الكثير . حكى أن أبا غالب تمام بن غالب اللغوى القرطبى المتوفى سنة ٤٣٦ هـ ، لما ألف كتابه فى اللغة بعث اليه أبو الجيش مجاهد العامرى ملك دانية ألف دينار ومركوبا وكساء ، على أن يجعل الكتاب المذكور باسمه فيزيد فى آخره : « هذا الكتاب مما ألفه أبو غالب لأبى الجيش مجاهد » فرد الدينار وقال : « كتاب ألفته لينتفع به الناس وأخلد فيه همتى أجعل فى صدره اسم غبرى وأصرف الفخر له ؟ » فلما بلغ هذا مجاهدا استحسن أنفته وأضعف له العطاء وقال : « هو فى

(١) ابن خلكان ٣٩٦ ج ١ (ج) المراد هنا المنصور محمد بن أبى عامر وزير هشام المؤيد من خلفاء بنى أمية بالاندلس والغالب على دولته ، وكتاب الفصوص وضعه صاعد الاندلسى ، ثم اتضح بعد ذلك انه نقله من كتب الآخرين ، وقد تتبعه الادباء وكشفوا عن حقيقته ، فأمر المنصور بإلقائه فى الماء . وكان صاعد هذا صاحب دعاية ومجون يفتى بهما ما كان يدينه من علم

(٢) ابن خلكان ٧٨ ج ٢ (٣) نفح الطيب ١٠١ ج ١

حل من أن يذكرني فيه لا نصده عن غرضه « (١) (*)

على أن بعض العلماء كانوا يؤلفون الكتب لأبنائهم وأخوانهم وأصدقائهم لا يهتمون على ذلك أجرا ، وقد يؤلفون لأنفسهم ، ومن لطيف ما جاء في مقدمة كتاب حياة الحيوان للدميري قوله : « هذا الكتاب لم يسألني أحد تأليفه »

وجملة القول أن التمدن الاسلامي كان حافلا بأهل العلم ، من قصور الخلفاء الى المساجد ومنازل الامراء والعامة الى مجالس الغناء . وكانوا يعقدون المجالس للمناظرة في العلوم على اختلافها ، وفي الآداب على تنوع وجهاتها ، وفي الشعر وغيره . وكانوا يفرضون العلم على أولادهم وأخوانهم ومماليكهم وجواريهم وسرايرهم . وكانوا يعلمون الجواري ويثقفونهن ويحفظونهن القرآن ويروونهن الأشعار والخبار ويعلمونهن النحو والعروض والغناء ثم يتهادونهن . وقد كان عند زبيدة أم الامين مائة جارية يحفظن القرآن ، وكان يسمع من قصرها دوى كدوى النحل من القراءة (٢) حتى المخائث فقد كانوا يؤدبونهم ، وكان في قرطبة في أوائل القرن الخامس للهجرة جملة من الفتيان المخائث ممن أخذ من الادب بأوفر نصيب ولهم فيه مؤلفات (٣)

وأغرب من ذلك بذلهم الاموال للمطالعين ، فضلا عن المؤلفين ، فالملك المعظم شرف الدين عيسى الايوبي صاحب دمشق كان من رغب الادب ، فاشتترط لكل من يحفظ كتاب المفصل للزمخشري مائة دينار وخلعة ، فحفظه جماعة كبيرة (٤) وهذه منقبة لم يسمع بمثلها

المؤلفون والمؤلفات

فلا عجب والحالة هذه اذا كثر المؤلفون وتعددت مؤلفاتهم واتسعت مباحثهم ، وكان منهم الملوك والامراء والوزراء والاغنياء والفقراء ، وفيهم العرب والفرس والروم واليهود والسريان والهنود والترك والديلم والقبط ، وغيرهم من الملل الخاضعة للإسلام في أنحاء العالم المتمدن يومئذ ، في الشام ومصر والعراق وفارس وخراسان وما وراء النهر والهند وفي المغرب والاندلس وغيرها . وقد حوت مؤلفاتهم البحث في كل ما انتجته قريحة الانسان الى ذلك الزمان ، من الطبيعيات والالهيات والعقليات والرياضيات والنقليات . ودعت أبحاثهم

(١) نفع الطيب ٧٨٠ ج ٢ وابن خلكان ١٧ ج ١

(*) روى هذه الحكاية أبو عبد الله محمد بن فتوح الحميدى في « جذوة المقتبس » (القاهرة ١٣٧١) في ترجمة أبي غالب تمام بن غالب المعروف بابن التبانى الرسى ص ١٧٢ - وذكر السيوطى في « بنية الرعاة » اسم الكتاب وهو « تلقيح العين » (ص ٢٠٩)

(٢) أبو المحاسن ٦٣٢ ج ١ (٣) نفع الطيب ٧٢٩ ج ٢ (٤) ابن خلكان ٣٩٦ ج ١

الواسعة الى تشعب العلوم وتفرعها حتى زادت على خمسمائة علم ، ذكرها طاشكبرى زاده في مفاتيح العلوم (١) ومنهها ما لم يكن له وجود قبل الاسلام ، كالاقتصاد السياسى ، وفلسفة التاريخ ، والموسوعات التاريخية ، والجغرافية . غير العلوم الاسلامية الخاصة بلغة العرب وآداب المسلمين

وقد تعددت مؤلفاتهم حتى أصبحت تعد بعشرات الالوف ، ويستدل على كثرتها مما بقى من خبرها الى القرن الحادى عشر للهجرة على ما فى كشف الظنون . فقد بلغ عدد المؤلفات المذكورة هناك ١٤٥٠١ غير الشروح والتعليق ، وغير ما ضاع خبره منها فى التكتبات المتوالية فى اثناء الفتن الداخلية بين الفرق الاسلامية وغيرها ، وما كان يحرقه ولاية الامر من كتب الفلسفة ومتعلقاتها ، اضطهادا لأصحابها كما سيجىء ، حتى ذهب معظم ما ترجموه أو ألفوه ولم يبق منها الا النزر اليسير

ولا ريب عندنا أن الضائع من كتب المسلمين يزيد على اضعاف الباقي . ومما يؤيد ذلك أن بعض المؤلفين القدماء ، كالمسعودى والطبرى وابن الاثير وغيرهم ، ذكروا فى مقدمات كتبهم كثيرا من أسماء المؤلفات التى نقلوا كتبهم عنها وقلما نجد أسماءها فى الفهارس

ومن المؤلفين المسلمين من بلغت مؤلفاته بضع مئات الى الالف ، فمؤلفات أبى عبيدة ٢٠٠ مؤلف فى علوم مختلفة ، ومؤلفات ابن سريج ٤٠٠ ، ومؤلفات ابن حزم ٤٠٠ مجلد ، ومؤلفات الكندى ٢٣١ ، ومؤلفات القاضى الفاضل مائة كتاب . وقس على ذلك مؤلفات كثير من العلماء فى الموضوعات المختلفة ، كمؤلفات الرازى والسيوطى وابن سينا ، وقد بلغت مؤلفات بعضهم ألف كتاب كعبد الملك بن حبيب عالم الاندلس (١) وقد عدت مؤلفات جمال الدين العيني الحافظ وقسمت على عمره فبلغ كل يوم تسع كرايس (٢)

ناهيك بضخامة تلك المؤلفات ، فان بعضها يتألف من عشرات المجلدات ، وخصوصا كتب التاريخ ، فكتاب مرآة الزمان لسبط ابن الجوزى أربعون مجلدا ، وتاريخ دمشق لابن عساكر ثمانون مجلدا ، وتاريخ بغداد للخطيب

(١) طاشكبرى زادة هو عصام الدين ابو الخير مصطفى بن مصلح الدين المعروف بطاشكبرى زادة من أكبر علماء الاتراك الذين ألفوا بالعربية . ولد فى بروسة ١٤٩٥/١١٠ وتوفى ١٥٦٠/١٦٨ بعد حياة حافلة بالبحث والدرس والتأليف ، وقد راجعنا قائمة مؤلفاته الكثيرة عند بروكلمان (تاريخ الادب العربى - ج ٢ ص ٥٦٠ - ٥٦١) فلم نجد كتابا اسمه مفاتيح العلوم ، والاعلم أن المراد هنا كتاب « مفتاح السعادة ومصباح السيادة » وهو موسوعة تتناول البحث فى ١٥٠ علما ، ومنه نسخة خطية فى دار الكتب المصرية (ج ٤ ص ٢٠٠ من الطبعة الاولى من الفهارس وص ١٩١ من الطبعة الثانية) ، وقد ترجمه ابنه كمال الدين الى التركية بعنوان « موضوعات العلوم » وله مختصر يسمى « مدينة العلوم » موجود فى دار الكتب المصرية . أما « مفاتيح العلوم » فمن تأليف الخوارزمى وهو مطبوع

(١) نفع الطيب ٣٣١ ج ١ (٢) ابن خلكان ٢٩٧ ج ١

البغدادى ١٤ مجلدا ، والاغانى عشرون مجلدا ، وابن الاثير ١٢ مجلدا ، ويقال نحو ذلك فى غير كتب الادب كشرح كتاب النبات لأبى حنيفة الدينورى فانه بلغ ستين مجلدا (١) وتقدير المجلد يختلف باختلاف الاحوال ، فاذا اعتبرنا تقسيم ابن الاثير والاغانى الى مجلدات رأينا المجلد عبارة عن ٢٠٠ صفحة فأكثر . ولكننا رأينا فى بعض النصوص أن تقدير المجلد عشر ورفات (٢) وربما اختلف ذلك باختلاف الموضوعات

والغالب فى المؤلفات الكبرى عندهم أن تكون من قبيل الموسوعات الحاوية فى موضوعها وما يقاربه . فمعجم ياقوت موضوعه الاصلى فى الجغرافية ، ولكنه يحوى تراجم جملة كبيرة من علماء الاسلام وأدبائه ، والاغانى فى الغناء ولكنه يشمل فوائد ذات شأن فى تاريخ العرب وآدابهم فى الجاهلية وأوائل الاسلام ، والعقد الفريد كتاب فى الادب ، ولكن فيه فوائد كثيرة فى الشعر والعروض والاخلاق والتاريخ وغيرها ، وقس على ذلك سائر كتب التراجم أو التواريخ المطولة . ومن هذا القبيل الكتب الطبية كالقانون لابن سينا ، فانه عبارة عن قاموس جامع لفنون الطب كالتشريح والفسولوجيا والباثولوجيا والنبات والصيدلة وغيرها ، وكذلك كتاب الرازى . وقد يجمع الكتاب الواحد موضوعات متباعدة ، ككتاب حياة الحيوان للدميرى ، فان موضوعه علم الحيوان ولكنه حوى شيئا كثيرا من التاريخ والآداب والاخلاق والطب والصيدلة والنبات ، والكشكول كتاب فى الادب والحكم ولكن فيه مقالات وفصولا فى فنون متناقضة ، كالجبر والهندسة والمنطق والنجوم والفلسفة والتاريخ والادب واللاهوت والفقه والحديث وغيرها

(١) نفع الطيب ٨٨٤ ج ٢ (٢) ابن خلكان ٢٢٠ ج ٢ وطبقات الادباء ١٠٥

تأثير الإسلام في العلوم الدخيلة

لما نضج التمدن الإسلامي وانتشرت العلوم الدخيلة في بلاد الإسلام ، عنى المسلمون بدرسها ونبع منهم جماعة فاقوا أصحابها وأدخلوا فيها آراء جديدة ، فتنوعت وارتقت على ما اقتضاه الإسلام والآداب الإسلامية وما مزجها من علوم الأمم الأخرى ، فأصبحت على شكل خاص بالتمدن الإسلامي . فلما نهض أهل أوروبا إلى استرجاع علوم اليونان ، أخذوا معظمها عن اللغة العربية وفيها الصبغة الإسلامية . فلنبحت فيما اثره التمدن الإسلامي في علوم التمدن القديم

١ - الفلسفة في الإسلام

قرأ المسلمون الفلسفة في كتب أفلاطون وأرسطو ، وما غلقه عليها اليونان من الشروح وأضافوا إليها من الآراء ، وهي تشمل المنطق والطبيعات والالهيات والأخلاق . فبدأ المسلمون أولاً بدرس هذه الكتب ، ثم أخذوا في شرحها أو تلخيصها ، ثم عمدوا إلى الكتابة في تلك الموضوعات من عند أنفسهم . ويندر أن يشتغل الواحد منهم في الفلسفة دون الطب والنجوم ، أو في الطب دون الفلسفة والنجوم ، أو بالعكس . ومن أقوال حنين : « ان الطبيب يجب أن يكون فيلسوفا » لكنهم كانوا يلقبون العالم بما غلب اشتغاله فيه

الفلاسفة المسلمون في الشرق :

وأكبر فلاسفة المسلمين وأشهرهم وأسبقهم يعقوب بن اسحق بن الصباح الكندي ، وهو عربي الأصل دون سواه من الفلاسفة ، ويتصل نسبه بملوك كندة ولذلك سموه فيلسوف العرب . فبعد أن كان العرب في صدر الإسلام يستنكفون من الاشتغال بالعلوم حتى الإسلامية ، وبعد أن عملوا على إبادة ما عثروا عليه من علوم الأقدمين في مصر وفارس ، أصبحوا لا يستنكفون من الاشتغال حتى بالعلوم الفلسفية الدخيلة . وأول من اشتغل بها منهم أبناء ملوكهم . كان الكندي معاصراً للمأمون والمعتصم إلى المتوكل ، وكانت له عندهم منزلة سامية ، وقد برع في الطب والفلسفة والحساب والمنطق والألحان والهندسة وطبائع الأعداد وعلم النجوم ، وقد نبغ وليس في المسلمين فيلسوف غيره ، وحذا في تأليفه حذو أرسطوطاليس ، وله ترجمات عديدة

نقلها لنفسه ، وكان يعد من حذاق الترجمة ولم يذكر بينهم لأنه لم يرتزق بالترجمة . وقد ألف الكندى فى معظم العلوم الدخيلة كتباً كثيرة ، ذكرها صاحب الفهرست واليك عددها باعتبار العلوم :

فى الفلسفة	٢٢ كتاباً	فى الطبيعيات الخ	٣٣ كتاباً
» الحساب	١١ »	» الكريات	٨ كتب
» النجوم	١٩ »	» المنطق	٩ »
» الهندسة	٢٣ »	» الموسيقى	٧ »
» الفلكيات	١٦ »	» الأحكام	١٠ »
» الطب	٢٢ »	» النفس	٥ »
» الجدل	١٧ »	» الأبعاد	٨ »
» السياسة	١٢ »	» مقدمة المعرفة	٥ »
» الأحداث	١٤ »	المجموع كله	٢٣١ كتاباً *

وأكثر هذه الكتب قد ضاع . ويتضح من مراجعة أسمائها أن الرجل كان كثير التضلع فى هذه العلوم ، حتى انتقد أصحابها وخطأهم . وللكندى تلامذة حذوا حذوه

ويليه أبو نصر الفارابى المتوفى سنة ٣٣٩ هـ ، أصله من فاراب ببلاد الترك لكنه فارسى المنتسب (١) وقد نشأ فى الشام واشتغل فيها ، وكان فيلسوفاً كاملاً درس كل ما درسه الكندى من العلوم ، وفاقه فى كثير منها وخصوصاً فى المنطق ، وتعمق فى الفلسفة والتحليل وانحاء التعاليم ، وأفاد التعليم وجوه الانتفاع بها ، وألف كتباً فى موضوعات لم يسبقه أحد إليها ، كتبها « فى احصاء العلوم والتعريف بأغراضها » وهو أشبه بقاموس علمى على شكل موسوعات العلوم لم يذهب مذهبه فيه أحد قبله ، وكتاب « السياسة المدنية » وهو الاقتصاد السياسى الذى يزعم أهل التمدن الحديث أنه من مخترعاتهم ، وقد كتب فيه الفارابى منذ ألف سنة ، ثم كتب فيه ابن خلدون فى مقدمته . وبرع الفارابى خصوصاً فى علم الموسيقى حتى أصبح لا يضاويه فيه أحد ، واخترع القانون كما سيأتى فى باب الموسيقى ، وأصلح ما بقى من

(*) أخذ المؤلف هذه القائمة من الفهرست لابن النديم . وقد أورد الكتب بأسمائها (ص ٢٥٧ وما بعدها) وقد وردت كتبه فى الأحكام عند ابن النديم تحت عبارة « كتبه الأحكاميات » ، والأحكام هى فرع من الفلسفة ، وكذلك وردت كتبه فى الأحداث تحت عنوان « كتبه الإحداثيات » ، والأحداث علم يبحث فى العلل والمعلولات وأهم أبوابه علل الكون والفساد ، وكتب مقدمة المعرفة وردت تحت عنوان « كتبه التقديميات » ، واسقط له المؤلف كتباً أخرى كثيرة وقد نشر الدكتور محمد عبد الهادى أبو ريده « رسائل الكندى الفلسفية » فى مجلدين فى القاهرة ، وقدم لها بمقدمة ضافية عن الكندى

(١) طبقات الأطباء ١٣٤ ج ٢

الترجمات غير مصلح فسموه المعلم الثانى (١) (*)

وممن غلبت عليه الفلسفة من علماء المسلمين الشيخ الرئيس ابن سينا المتوفى سنة ٤٢٨ هـ ، وله من المؤلفات نحو مائة كتاب منها ٢٦ فى الفلسفة فقط (**) ومنهم أبو حامد الغزالى الملقب بحجة الاسلام المتوفى سنة ٥٠٥ هـ ، وهو امام التصوف . غير الذين ظهرُوا فى الاندلس، وسيأتى ذكرهم . على أن الافاضة فى ذكر الفلاسفة ومؤلفاتهم وآرائهم من متعلقات « تاريخ آداب اللغة » ، فنقتصر هنا على تاريخ الفلسفة فى الاسلام وما كان من تأثيرها فى الدين والعلم

اهم ما كان من تأثير الفلسفة فى الاسلام أنهم بنوا عليها علم الكلام وأيدوه بها ، لتقوى حجتهم فيما قام بينهم من المجادلات المذهبية . واشتهر علم الكلام فى المسلمين وعكفوا على درسه ، وخصوصا المعتزلة ، واشتهر به جماعة من عليّة القوم ، وفى جملةهم الشريف المرتضى والزمخشري والباقلانى وغيرهم

وأما الفلسفة فى حد ذاتها فقد كان أصحابها متهمين بالكفر ، وكان الانتساب اليها مرادفا للانتساب الى التعطيل ، ومن أقوالهم : « كان فلان - سامحه الله - يتهم بدينه لكون العلوم العقلية غالبية عليه » (٢) وقد شاع ذلك فى بغداد بين العامة ، حتى فى أيام المأمون ، ولذلك سماه بعضهم أمير الكافرين (٣) ولكنهم لم يكونوا يتظاهرون بذلك ، حتى ذهب عصر المأمون والمعتصم والواثق ، وتولى المتوكل فأصبح مريدو الفلسفة يتجنبون الظهور بها ، أو ينكرونها وهم كلفون بها ، فكانوا يشتغلون فيها سرا فألقوا الجمعيات السرية لهذه الغاية

(١) كشف الظنون ٤٤٨ ج ١

(*) كان الفارابى يعتبر أكبر فلاسفة الاسلام قبل ابن سينا ، حتى ظهر ان الكندى لا يقل عنه . اسمه الكامل محمد بن محمد بن طرخان ابو نصر الفارابى المتوفى ٣٣٩/٩٥٠ . انظر قائمة مؤلفاته عند بروكلمان : تاريخ الادب العربى ٢١٠/١-٢١٣ وكذلك أورد ماكس هورتن قائمة لهذه المؤلفات فى :

M. Horten, Das Buch der Ringsteine Farabis mit dem Kommentar des Emirs Ismail el Hoseini el Farabi (um 1845) uebersetzt und erlaeutert
Beitraege zur Geschichte der Philosophie des Mittelalters, مجموعة
Band V, heft 3, Munster 1906

وقد درس الفارابى ومؤلفاته الدكتور ابراهيم بيومى مذكور ، وتحدث عن كتابه المسمى « المدينة الفاضلة » الاستاذ محمد شفيق غربال فى كتاب « المدينة الفاضلة » القاهرة ١٩٥٥

(**) نشر الاب قناتى بياناً كاملاً بمؤلفات ابن سينا فى كتابه « مؤلفات ابن سينا » من منشورات العيد الالفى لابن سينا . القاهرة ١٩٥١
(٢) ابن خلكان ١٣٤ ج ٢ (٣) اليعقوبى ٥٤٦

جمعية اخوان الصفا

ومن جمعياتهم السرية الفلسفية جمعية اخوان الصفا ، تألفت في بغداد في اواسط القرن الرابع للهجرة ، ذكروا من أعضائها خمسة هم : أبو سليمان محمد بن معشر البستي ويعرف بالمقدسي ، وأبو الحسن علي بن هارون الزنجاني ، وأبو أحمد المهرجاني ، والعمري ، وزيد بن رفاعة (١) وكانوا يجتمعون سرا ويتباحثون في الفلسفة على أنواعها ، حتى صار لهم فيها مذهب خاص ، هو خلاصة أبحاث الفلاسفة المسلمين بعد اطلاعهم على آراء اليونان والفرس والهند ، وتعديلها على ما يقتضيه الاسلام . واساس مذهبهم ان الشريعة الاسلامية تدنست بالجهالات واختلطت بالضلالات ، ولا سبيل الى غسلها وتطهيرها الا بالفلسفة ، لأنها حاوية للحكمة الاعتقادية والمصلحة الاجتهادية ، وانه متى انتظمت الفلسفة اليونانية والشريعة العربية فقد حصل الكمال

وقد دونوا فلسفتهم هذه في خمسين رسالة سموها رسائل اخوان الصفا ، وكنمو اسماءهم . وهي تمثل الفلسفة الاسلامية على ما كانت عليه في ابان نضجها ، وتشمل : النظر في مبادئ الموجودات ، وأصول الكائنات الى نضد العالم ، فالهولي والصورة ، وماهية الطبيعة ، والارض والسماء ووجه الارض وتغيراته ، والكون والفساد ، والآثار العلوية ، والسماء والعالم ، وعلم النجوم ، وتكوين المعادن ، وعلم النبات ، وأوصاف الحيوانات ، ومسقط النطفة وكيفية رباط النفس بها ، وتركيب الجسد ، والحاس والمحسوس ، والعقل والمعقول ، والصنائع العلمية والعملية ، والعدد وخواصه ، والهندسة ، والموسيقى ، والمنطق وفروعه ، واختلاف الاخلاق ، وطبيعة العدد ، وأن العالم انسان كبير والانسان عالم صغير ، والاكوار والادوار ، وماهية العشق ، والبعث والنشور ، وأجناس الحركات ، والعلل والمعلولات ، والحدود والرسوم . وبالجملية فقد ضمنوها كل علم طبيعي أو رياضي أو فلسفي أو الهى أو عقلى . وبين أيدينا خلاصة هذه الرسائل مطبوعة في ليبسك بعناية الدكتور ديتريشى في نحو ٦٥٠ صفحة كبيرة . ويظهر من امعان النظر فيها أن أصحابها كتبوها بعد البحث الدقيق والنظر الطويل . وفي جملة ذلك آراء لم يصل اهل هذا الزمان الى أحسن منها . وفي ذيل الكتاب فصل في كيفية عشرة اخوان الصفا وتعاونهم بصدق المودة والشقة ، وأن الغرض منها التعاضد في الدين . وذكروا شروط قبول الاخوان فيها وغير ذلك

وكان المعتزلة ومن جرى مجراهم يتناقلون هذه الرسائل ويتدارسونها ويحملونها معهم سرا الى بلاد الاسلام ، ولم تمض مائة سنة على كتابتها حتى

دخلت الاندلس على يد ابي الحكم عمرو بن عبد الرحمن الكرماني وهو من اهل قرطبة ، رحل الى المشرق للتبحر في العلم على جاري عادة الاندلسيين . فلما عاد الى بلاده حمل معه الرسائل المذكورة وهو اول من أدخلها الاندلس (١) فما لبثت ان انتشرت هناك حتى تناولها أصحاب العقول الباحثة واخذوا في درسها وتدبرها (*)

فلاسفة الاندلس

وكانت الفلسفة قد دخلت الاندلس في أيام عبد الرحمن الاوسط كما تقدم ، وقد أخذ الاندلسيون بشيء منها ، وظهر فيهم جماعة اشتهروا بعلوم الاوائل والنجوم ، وأولهم أبو عبيدة مسلم بن أحمد المعروف بصاحب القبلة (٢) توفي في أواخر القرن الثالث للهجرة . ثم يحيى بن يحيى القرطبي المعروف بابن السمينة المتوفى سنة ٣١٥ هـ ، وأبو القاسم مسلمة بن أحمد المعروف بالمرجيطي أو المجريطي من اهل قرطبة ، كان امام الرياضيين في عصره بالاندلس توفي سنة ٣٩٨ هـ ، وأنجب تلامذة جلة ، أشهرهم ابن السمع المهندس القرناطي ، وابن الصغار أستاذ الرياضيات في قرطبة ، والزهرراوى صاحب كتاب الاركان في المعاملات على طريق البرهان ، وأبو الحكم عمرو الكرماني المتقدم ذكره ، فانه رحل الى المشرق حتى نزل حران وتعلم فيها الهندسة والطب ، ثم رجع برسائل اخوان الصفا الى الاندلس وتوفى في سرقسطة سنة ٤٥٨ هـ

على أن هؤلاء انما اقتصروا من علوم الاوائل على الرياضيات والنجوم

(١) طبقات الاطباء ٤٠ ج ٢

(*) يغلب على الظن أن اخوان الصفاء كانوا جماعة سياسية دينية ترمي الى أهداف سياسية معينة من وراء ستار ، فان الاتجاه الغالب على رسائلهم اتجاه شيعي ، بل اسماعيلي . وقد كان مركزهم البصرة ، ويرجح أن رسائلهم كتبت في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري ، التاسع الميلادي (ربما تكون قد كتبت سنة ٢٧٣/٩٨٣) ودراساتهم لا تبلغ كلها مبلغا عظيما من الجودة والدقة ، اذ فيها رسائل هي اقرب الى الشبهة منها الى العلم الصحيح ، ككلامهم عن العدد والارقام . وكلامهم عن الفلسفة لا يدل على تمكن ، وهم يفضلون فيثاغورس وهرمس وسقراط وافلاطون على أرسطو مما يدل على عدم اطلاعهم الكامل على كتابات الكندي ، وهم لا يشيرون اليه باسمه بل يشيرون الى تلميذه أبي معشر ، ومحور عقيدتهم الفلسفية هو القول بالاصل الالهي للنفس وعودتها الى الله بعد المات ، وان الكون صدر عن الله كما يصدر الكلام عن المتكلم وكما يصدر النور عن الشمس . وقد درس كتاباتهم وآراءهم الاستاذ أحمد أمين في « ضحى الاسلام »

وانظر ايضا :

« تاريخ الفلسفة في الاسلام » لدى بور ترجمة الدكتور محمد عبد الهادي ابو ريده بروكلمان : تاريخ الادب العربي ١/٢١٤

Goldziher, Ueber die Benennung der Ichwan al Safa, Der Islam I, 22-26
Louis Massignon, Sur la date de la composition des Rasail Ikhwan al-Safa.
Der Islam IV, 324

وقد طبعت الرسائل في أوروبا ، قام على نشرها ديتريش ، وطبعت في بعباي وفي القاهرة

والهندسة ونحوها ، أما الفلسفة بمعناها الحقيقي فلم يعن أهل الاندلس بها الا بعد دخول رسائل اخوان الصفا ، وكان المستنصر بن الناصر قد استجلب كتب الفلسفة من المشرق فتداولها الناس ، ولكنهم لم ينبغوا فيها الا بعد مطالعة تلك الرسائل . فنيخ أبو بكر بن باجة الفيلسوف الاندلسي الشهير المتوفى سنة ٥٣٣ هـ ، ويعرف بابن الصائغ ، ومن تلاميذه القاضي أبو الوليد ابن رشد الفيلسوف القرطبي المتوفى سنة ٥٩٥ هـ ، ونيخ أيضا ابن الطفيل وابن هود وغيرهما ، وقد ألفوا المؤلفات الضافية في فروع الفلسفة مما اتخذها الافرنج قاعدة لفلسفتهم في أوائل نهضتهم (*)

على أن أولئك الفلاسفة كانوا عرضة لاحتقار العامة ، شأنهم في مثل هذه الحال في سائر العصور . وكان الملوك يسايرون العامة في ذلك رغبة في استرضائهم لتوطيد سلطانهم ، فما من ملك الا تقم على الفلاسفة واضطهدهم . ومن أشهر الحوادث من هذا القبيل نقمة المنصور بن أبي عامر صاحب الاندلس ، في أواخر القرن السادس للهجرة ، فانه اضطهد الفلاسفة ونفاهم ، وفي جملتهم ابن رشد وأبو جعفر الذهبي وأبو عبد الله قاضي بجاية وغيرهم (١) وعزم أن لا يترك شيئا من كتب المنطق والحكمة في بلاده ، فأمر باحراقها في النار وشدد النكير على المشتغلين بها ، وأصبح العامة كلما قيل فلان يشتغل في الفلسفة أو التنجيم أطلقوا عليه اسم زنديق وقيدت عليه أنفاسه ، فان زل في شبهة رجموه بالحجارة وأحرقوه (**). أما الخاصة فكانوا يدرسون الفلسفة سرا ، وربما أمر السلطان بقتل بعض الفلاسفة تقريبا من قلوب العامة ، ويكون هو نفسه يحجبها (٢)

(*) درسنا تاريخ الفلسفة وأعلامها في الاندلس في كتاب « الفكر الاندلسي » الذي ترجمناه الى العربية ونشرناه في القاهرة سنة ١٩٥٥ فليرجع اليه من يريد التوسع في الموضوع ، ص ٢٢١ وما يليها . وقد كتب المرحوم جرجي زيدان هذا الكلام والفلسفة في الاندلس لم تدرس بعد ، ولهذا فإنا ننصح بالرجوع الى ذلك الكتاب ، وحسبنا هنا أن ننبه الى ما يلي :

١ - أن أول من اشتهر بعلوم الأوائل والنجوم لم يكن أبا عبيدة مسلم بن أحمد المعروف بصاحب القبلة ، بل أحمد بن عبد الله الحبيبي وأبو وهب عبد العلي بن وهب القرطبي وخليل ابن عبد الملك المعروف بخليل الفغلة . وأول فيلسوف اندلسي جدير بهذا الاسم هو محمد بن مسرة (٢٦٩/٨٨٣ - ٣١٨/٩٣١) وكان ذا اتجاه افلاطوني حديث كان بعيدا في آراء محيي الدين بن عربي

٢ - أن أثر رسائل اخوان الصفاء في الاندلس لم يبلغ هذا المبلغ ، ولا نستطيع القول بأن ابن باجة تأثر بها

٣ - أننا لم نجد بين فلاسفة الاندلس من يسمى ابن هود

(١) طبقات الاطباء ٧٦ ج ٢

(*) عرض هذه الناحية عرضا طبيا أبو الحجاج يوسف بن طموس (١١٦٤/٥٥٩ - ١١٢٣/١٢٠) في مقدمته لكتابه « المدخل الى صناعة المنطق » (نشره آسبن بلانيوس ، مدريد

١٩١٦) وقد أتينا بفقرات من تلك المقدمة في كتاب تاريخ الفكر الاندلسي ، ص ٣١٣ وما بعدها

(٢) نفح الطيب ١٠٤

٢ - الطب في الاسلام

الطب الاسلامى :

الطب الاسلامى خلاصة ما بلغ اليه علم الطب عند الأمم المتقدمة قبل الاسلام . لأن المسلمين نقلوا الى لسانهم كتب أبقراط وجالينوس وغيرهما من أطباء اليونان ، واطلعوا على ما كان عند السريان من الطب اليونانى المزوج ببقايا طب الكلدان القدماء ، ونقل اليهم أطباء مدرسة جنديسابور طب اليونان بصبغته الفارسية ، واطلعوا على طب الهنود ممن جاءوا بغداد من أطبائهم ، غير ما كان عند العرب في أيام الجاهلية وتنوّل في الاسلام . ومن تفاعل هذه العناصر وتمازجها تألف الطب الاسلامى ، الذى تمثل بعد تضيّع العلم في الكتاب الملكى (أو الملوكى) لأبى بكر الرازى الملقب جالينوس العرب ، ألفه للملك عضد الدولة بن بويه ، وجمع فيه كل ما وجدته متفرقا من ذكر الامراض ومداواتها في كتب القدماء الى زمانه في أواسط القرن الرابع للهجرة ، وللرازى من كتب الطب والفلسفة وغيرهما شئ كثير . وما زال الناس يعولون على الكتاب الملوكى حتى ظهر القانون لابن سينا ، وهو منشور ومشهور الى اليوم ، وإذا قلبت صفحاته علمت أنه قاموس في الطب والصيدلة ، وقد جمع خلاصة أبحاث اليونان والكلدان والهنود والفرس والعرب في الامراض ومعالجتها والعقاقير وخصائصها . وليس هو طب اليونان فقط كما توهم البعض ، لأنك تقرأ في أماكن كثيرة منه تفصيلا لآراء الهنود وانتقاداتها واستحسناتها . ومما ذكره من طبهم مثلا أنهم وصفوا أنواع العلق واشكاله وخصائص كل منها (١) ومن آرائهم أن أكل اللبن مع الحوامض أو مع السمك يورث أمراضا منها الجذام . وقولهم أن لا يؤكل ماست مع الفجل ولا مع لحوم الطير ولا سويق على أرز بلبن أو نحو ذلك (٢) ناهيك بالعقاقير الهندية التى تدل أسماؤها على أصلها (٣)

ومن الكتب الطبية الاسلامية التى استفاد منها الافرنج فى نهضتهم الاخيرة كتاب « التصريف لمن عجز عن التأليف » لأبى القاسم خلف بن عباس الزهراوى الأندلسى من أهل القرن الخامس للهجرة ، وهو قاموس في الطب

(١) القانون ١٠٧ ج ١ (٢) القانون ٨٤ ج ١

(٣) لم أجد هذه الفقرة في ص ٨٤ وإنما في ص ١٦٨ ، وهالك النص : « وقد قال أصحاب التجارب من أهل الهند وغيرهم أنه لا ينبغي أن يؤكل لبن مع الحموضات ولا سمك مع لبن ، فانهما يورثان أمراضاً مزمنة منها الجذام ، وقالوا أيضا : لا يؤكل ماش مع الجبن ولا مع لحوم الطير ولا سويق على أرز بلبن .. »

ولم أجد تفسيراً للماش المذكور ، وربما كانت قراءة المؤلف « ماست » أصح وهذا الفصل كله من قانون ابن سينا عظيم الأهمية ، وعنوانه « في تدبير المأكول » ح ١ ص ١٦٣ وما بعدها

ويمتاز عن سواه بالقسم الجراحى (❖) ، وكتاب التيسير لعبد الملك بن زهر
الاندلسى ألفه لابن رشد الفيلسوف فى أواسط القرن السادس للهجرة .
وأطباء المسلمين كثيرون ، وكتبهم كثيرة لا محل لذكرها هنا

الاطباء المسلمون :

ولو أحصينا الاطباء المسلمين الذين نبغوا بعد ترجمة الكتب الطبية الى
انقضاء النهضة العباسية وابتداء عصر التقهقر ، أى فى أثناء ثلاثة أو أربعة
قرون ، لزاد عدد المؤلفين منهم ممن بلغت الينا أسماؤهم على بضع مئات ،
وأكثرهم اشتغلوا بسائر العلوم الدخيلة وألفوا الكتب العديدة ، وترى ذلك
مفصلا فى طبقات الاطباء لابن أبى أصيبعة ، وتراجم الحكماء لابن القفطى ،
وكتاب كشف الظنون وغيرها . أما عدد الاطباء على الإطلاق فمما لا يمكن
حصره لضياح ذلك مع الزمان ، وإنما يستدل من بعض القرائن أنه كان كثيرا
جدا . فقد أحصوا أطباء بغداد وحدها فى زمن المقتدر بالله فى أول القرن
الرابع للهجرة فبلغ ٨٦٠ طبيبا احتاجوا الى الامتحان لنيل الاذن فى التطبيب ،
سوى من استغنى عن الامتحان لشهرته وسوى من كان فى خدمة الخليفة (١)
فلا يمكن أن يكون مجموع ذلك كله أقل من ألف طبيب متعصرين
فى مدينة واحدة . وبلغ عدد أطباء النصارى فقط فى خدمة المتوكل بأواسط
القرن الثالث للهجرة ٥٦ طبيبا (٢) . وكان سيف الدولة اذا جلس على المائدة
حضر معه ٢٤ طبيبا ، ومنهم من يأخذ رزقين لتعاطيه علمين ، ومن يأخذ
ثلاثة أرزاق لتعاطيه ثلاثة علوم (٣)

وكان للأطباء عندهم نظام وعليهم رئيس يمتحنهم ويجيز من يرى فيه
الكفاءة للتطبيب ، وأشهر هؤلاء الرؤساء سنان بن ثابت فى بغداد ومهذب
الدين الدخوار فى مصر . ويقال نحو ذلك فى الصيدلة ، فقد كانوا كثيرا
وتفشى الغش فى الأدوية حتى اضطر أولو الأمر الى امتحانهم واعطاء الاجازات
أو المنشورات الى الذين يحسنون الصناعة ونفى الآخرين . وأول من فعل
ذلك الافشين فى بغداد ، فقد وكل زكريا بن الطيفورى به فى حديث بطول
ذكره (٤) وكان من الاطباء أو الصيادلة من هو خاص بالجند يرافقه فى أسفاره
ومنهم من هو خاص بالخلفاء والأمراء ، ولهؤلاء رواتب خاصة ويعرفون
بالمرتزقين . ومنهم من يطببون العامة وهم غير مرتزقين

(❖) نشر القسم الجراحى من كتاب الزهراوى Channing فى اكسفورد فى القرن
الثامن عشر ونشر صور الآلات الجراحية كما رسمها الزهراوى
(١) طبقات الاطباء ٢٢٢ ج ١ (٢) طبقات الاطباء ١٩٢ ج ١
(٣) طبقات الاطباء ١٤٠ ج ٢ (٤) أبو الفرج ٢٤٤

وكان الاطباء طبقات واصنافا ، وفيهم الطبيب على اجماله والجراح والفاصد والكحل والاسنانى ، ومن يعالج النساء والمحاضى فقط أو يطبب المجانين فقط . على نحو الاطباء الاختصاصيين فى هذه الايام . وكان الكحالون فى مصر اكثر منهم فى سواها لتعرضهم لامراض العين ، وكانوا يعالجون الماء الازرق بقدرح العين على نحو عملية الكتركتا اليوم

ونبغ جماعة من النساء اشتهرن بصناعة الطب ، منهن اخت الحفيد بن زهر الاندلسى وابنتها ، فقد كانتا عاملتين بصناعة الطب ولهما خبرة جيدة بمداواة النساء ، وكانتا تدخلان على نساء المنصور الاندلسى وأهله ولا يقبل المنصور سواهما (١) واشتهر فى أيام بنى أمية بالشام امرأة اسمها زينب طبيبة بنى أود ، كانت عالمة بالاعمال الطبية ومداواة العين بالجراحة (٢) فضلا عن اشتهر منهن بالعلم والادب ، كشهادة الدينورية وبنت ديهن اللوز الدمشقية وغيرهما

وكان الفحص الطبى عندهم قاصرا على فحص البول وجس النبض . فياتى المريض ومعه قارورة الماء ، أى زجاجة البول ، فيسلمها الى الطبيب فينظر فيها ثم يذوقها ، ليتحقق وجود الخوامض أو القوابض أو السكر فيها ، ثم يجس النبض وعند ذلك يحكم فى حال المريض ، لاعتقادهم أن النبض يدل على مزاج القلب ، والبول على مزاج الكبد وحال الاخلاط . ومهما يكن من اعتقادهم فان هذه الطريقة لا تزال مما يعول عليه الاطباء الى اليوم

ما الذى أحدثه المسلمون فى الطب :

بقى علينا النظر فيما أحدثه المسلمون فى الطب من الاختراعات الجديدة أو الآراء المبتكرة ، والحكم فى ذلك يستلزم درسا طويلا لايسعه هذا المكان . على أننا نقول باختصار أن المسلمين جمعوا بين طب اليونان والفرس والهنود والكلدان والعرب كما تقدم ، وأضافوا الى ذلك كثيرا من نتائج اختبارهم فى هذه الصناعة ، كما يظهر من مراجعة كتبهم الطبية ، فانهم كثيرا ما يذكرون رأى جالينوس أو أبقراط مثلا وينتقدونه ويبيّنون وجه الخطأ وصوابه (٣) . فضلا عما أدخلوه من الترتيب والتبويب فى الكتب التى ترجموها ، كما فعل ابن أبى الاشعث بكتب جالينوس ، فانه رتبها وبوبها

(١) طبقات الاطباء ٧٠ ج ٢ (٢) طبقات الاطباء ١٢٣ ج ١

(٣) القانون ٢١ ج ٢

وفصلها تسهيلا لمطالعتها (١) غير ما أحدثوه من الشروح والذبول لكتب القدماء . ففي ذيل ابن جلجل على كتاب ديسقوريدس عقاير لم يعرفها القدماء

أما ما أحدثوه من عند أنفسهم رأسا فالاحاطة به من الامور الشاقة التي يعسر تحقيقها ، فنذكر ما ثبت عندنا حدوثه على سبيل المثال . من ذلك أنهم أحدثوا في الطب آراء جديدة تخالف آراء القدماء في تدبير الامراض ، وان لم يصلنا الا خبر القليل منها ، مثل نقلهم تدبير اكثر الامراض التي كانت تعالج قديما بالأدوية الحارة (على اصطلاحهم) الى التدبير البارد كالفالج والقوة والاسترخاء وغيرها ، وذلك على غير ما سطره القدماء .

وأول من فطن لهذه الطريقة ونبه عليها وأخذ المرضى بالمداواة بها الشيخ أبو منصور صاعد بن بشر الطبيب في بغداد ، فانه أخذ المرضى بالفصد والتبريد والترطيب ومنعهم من الغذاء ، فأنجح تدبيره فعينوه رئيسا للمارستان العضدي ، فرفع منه المعاجين الحارة والأدوية الحارة ، ونقل تدبير المرض الى ماء الشعير ومياه البزور ، فأظهر في المداواة عجائب فاقندى به سائر الاطباء بعده (٢)

والعرب أول من استخدم المرقد (٣) « البنج » في الطب ، يقال انهم استخدموا له الزوان أو الشيلم ، وهم أول من استخدم الخلال المعروف عند الاطباء

وقد وجد محققو الافرنج ان العرب أول من استخدم الكاويات في الجراحة على نحو استخدامها اليوم ، وأنهم أول من وجه الفكر الى شكل الاظافر في المصدورين ، ووصفوا علاج اليرقان والهواء الاصفر ، واستعملوا الافيون بمقادير كبيرة لمعالجة الجنون ، ووصفوا صب الماء البارد لقطع النزف ، وعالجوا خلع الكتف بالطريقة المعروفة في الجراحة برد المقاومة الفجائي ، ووصفوا ابرة الماء الازرق وهو قدح العين ، وأشاروا الى عملية تفتيت الحصاة (*)

وقد ألف العرب في بعض فروع الطب ما لم يسبق احد الى مثله . فالجذام أول من كتب فيه أطباؤهم ، وأول كتاب في هذا الموضوع ليوحنا بن ماسويه وهم أول من وصف الحصبة والجذري بكتاب لأبي بكر الرازي ، غير ما ألفوه من الموسوعات الزاخرة في الطب

(١) طبقات الاطباء ٢٤٦ ج ١ (٢) طبقات الاطباء ٢٣٢ ج ١
(٣) ابن خلكان ٣١٢ ج ١ والانكلوبيديا (*) انظر عن ذلك كله

Wuestenfeld, Geschichte der Arabischen Aerzte und Natur- forsch. Göttingen, 1840.

و Lucien Leclerc, Histoire de la Médecine Arabe و

الصيدلة والكيمياء والنبات :

ومن فروع الطب الصيدلة ، وللعرب فضل كبير فيها . فقد بذلوا الجهد في استجلاب العقاقير من الهند وغيرها . بدأوا بذلك من أيام يحيى بن خالد البرمكى كما تقدم ، ثم نبغ منهم الاطباء والصيدالة ، ووجهوا عنايتهم الى درس العقاقير ، وقد نقلوا كتبها فيها من الهندية واليونانية ثم اشتغلوا هم انفسهم في جمعها . وقد عنى الافرنج بعد نهضتهم الاخيرة بدرس تاريخ فن الصيدلة ، فتحققوا أن العرب هم واضعو أسس هذا الفن ، وهم أول من اشتغل في تحضير الأدوية أو العقاقير ، فضلا عما استنبطوه من الأدوية الجديدة . وانهم أول من ألف الاقرباذين على الصورة التي وصلت اليها (١) وظل العرب في النهضة العباسية يعتمدون في المارستان ودكاكين الصيدالة على اقرباذين ألفه سابور بن سهل المتوفى سنة ٢٥٥ هـ ، حتى ظهر اقرباذين أمين الدولة بن التلميذ المتوفى في بغداد سنة ٥٦٠ هـ . وهم أول من أنشأ حوانيت الصيدلة على هذه الصورة . ومن اقرب الشواهد على ذلك أسماء العقاقير التي أخذها الافرنج عن العرب ، ولا تزال عندهم بأسمائها العربية أو الفارسية أو الهندية كما أخذوها عن العربية (٢)

على أن تقدمهم في الصيدلة تابع لتقدمهم في الكيمياء والنبات ، ولا خلاف في أن العرب هم الذين أسسوا الكيمياء الحديثة بتجارهم ومستحضراتهم . وقد تقدم أن أول من اشتغل في نقلها الى العربية خالد بن يزيد ، نقلها عن مدرسة الاسكندرية ، وعنه أخذ جعفر الصادق المتوفى سنة ١٤٠ هـ ، وبعده جابر بن حيان ، ثم الكندي ، فأبو بكر الرازى وغيرهم ، فاكشفوا كثيرا من المركبات الكيماوية التي بنيت عليها الكيمياء الحديثة . وقد ذكر محققو الافرنج أن العرب هم الذين استحضروا ماء الفضة (الحامض النتريك) ، وزيت الزاج (الحامض الكبريتيك) ، وماء الذهب (الحامض النيتروهيديروكلوريك) ، واكتشفوا البوتاسا ، وروح الشاذر ، وملحه ، وحجر جهنم (نترات الفضة) ، والسليمانى (كلوريد الزئبق) ، والراسب الاحمر (اكسيد الزئبق) ، وملح الطرطير ، وملح البارود (نترات البوتاسا) ، والزاج الاخضر (كبريتات الحديد) ، والكحول ، والقلوى ، والزرنيخ ، والبورق ، وغير ذلك من المركبات والمكتشفات التي لم يصل اليها خبرها . على أننا نستدل على وجود بعض المركبات الكيماوية في أيامهم ، مما لم نسمع له بمثل في تاريخ الكيمياء قبل أواخر القرن الماضى (٣) . فقد أشار ابن الاثير الى أدوية استخدمها العرب في واقعة الزنج سنة ٢٦٩ هـ ، اذا طلى بها

(١) طبقات الاطباء ١٨٣ ج ١ (٢) Encyclopaedia Brit. art. « Medicine » (٣) انظر : الدكتور أحمد عيسى : تاريخ النبات عند العرب ، القاهرة ١٩٤٤

الخشب امتنع احتراقه (١) ولم يذكر ما هي . ومما يعد من قبيل الكيمياء أيضا البارود ، فقد ترجح لنا بالبحث أنهم هم الذين ركبوه (٢) وهم أول من وصف التقطير ، والترشيح ، والتصفيد ، والتبلور ، والتذويب . وقد ألفوا في ابطال الكيمياء القديمة - أول من ألف ذلك منهم حكيمهم وفيلسوفهم يعقوب الكندي في أواسط القرن الثالث للهجرة (٣)

وأما النبات فللعرب القدح المعلى في درسه والتأليف فيه ، وقد أخذوا هذا العلم في النهضة العباسية عن مؤلفات ديسقوريدس وجالينوس ومن كتب الهند . نقل كتاب ديسقوريدس في أيام المتوكل ، نقله اصطفان بن باسيل من اليونانية الى العربية ، فالعقاقير التي لم يعرف لها أسماء في العربية تركها على لفظها اليوناني اتكالا على أن يبعث الله بعده من يعرف ذلك ويفسره . وحمل هذا الكتاب الى الاندلس على هذه الصورة ، فانتفع به الناس الى أيام الناصر صاحب الاندلس في أواسط القرن الرابع للهجرة . فكتبه ملك القسطنطينية سنة ٣٣٧ هـ وهاداه بكتب من جملتها كتاب ديسقوريدس باليونانية « مصور الحشائش » بالتصوير الرومي العجيب ، ولم يكن في الاندلس من يحسن اليونانية ، فبعث الناصر الى الملك يطلب اليه رجلا يعرف اليونانية واللاتينية لينقله الى اللاتينية ، وعارفو هذه اللغة في الاندلس كثيرون . فبعث اليه راهبا اسمه نقولا وصل قرطبة سنة ٣٤٠ هـ ، فتعاونوا على استخراج ما فات ابن باسيل تعريبه من عقاير هذا الكتاب ، ثم جاء ابن جلجل في آخر القرن الرابع فآلف كتابا فيما فات ديسقوريدس ذكره من أسماء العقاقير والأدوية وجعله ذبلا على ذلك الكتاب

حتى اذا نبغ ابن البيطار المالمقى النباتي في أواسط القرن السابع للهجرة ، تناول الكتاب المذكور فدرسه وتفهمه ، ثم سافر الى بلاد اليونان ، والى أقصى بلاد الروم ، ولقى جماعة يعانون هذا الفن ، وأخذ عنهم معرفة نبات كثير عاينه في مواضعه ، واجتمع أيضا في المغرب وغيره بكثير من علماء النبات وعابن منابته بنفسه ، وذهب الى الشام ودرس نباتها ، وجاء الديار المصرية في خدمة الملك الكامل الأيوبي ، وكان يعتمد عليه في الأدوية المفردة والحشائش حتى جعله رئيسا على العشابين وأصحاب البسطات . وبعد طول ذلك الاختبار ألف كتابه في النبات ، وهو فريد في بابهِ (٤) وكان عليه معول أهل أوربا في نهضتهم الأخيرة

(١) ابن الاثير ١٥١ ج ٧ (٢) الهلال ، السنة العاشرة صفحة ٨٧

(٣) كشف الظنون ٣٤١ ج ٢ (٤) طبقات الاطباء ٣٣ ج ٢

ومن البرزين في علم النبات رشيد الدين بن الصوري المتوفى سنة ٦٣٩ هـ صاحب كتاب « الأدوية المفردة » ، وكان كثير البحث والتدقيق يخرج لدرس الحشائش في منابتها ، ويستصحب مصورا معه الاصباغ والليق على اختلافها وتنوعها ، ويتوجه الى المواضع التي بها النبات في لبنان وسوريا فيشاهد النبات ويحققه ، ويريه للمصور فيعتبر لونه ومقدار ورقه وأعضائه وأصوله ويصور بحسبها بالدقة (١) وذلك غاية ما يفعله الباحثون في هذا العلم اليوم

المارستانات في الاسلام :

المارستان أو البيمارستان لفظ فارسي معناه مكان المرضى ويقابله اليوم المستشفى ، ولكن المارستانات كانت في التمدن الاسلامي تشمل مدارس الطب والمستشفيات معا ، لأنهم كانوا يعلمون الطب فيها . والعرب اخذوا المارستانات عن الفرس وأنشأوها على مثال مارستان جنديسابور المتقدم ذكره

وأول من أنشأ المارستانات في الاسلام الوليد بن عبد الملك الاموي ، أنشأ مارستانا بدمشق سنة ٨٨ هـ جعل فيه الاطباء وأمر بحبس المجذومين وأجرى لهم الارزاق (٢) فانقضت الدولة الاموية وليس في الاسلام غير هذا المارستان ، فلما حكم العباسيون كان المنصور أول من استقدم الاطباء من مارستان جنديسابور كما رأيت ، ولم ينشئ مارستانا ولكنه أنشأ دارا للعميان والايام والقواعد من النساء (٣) وأنشأ هو أو من خلفه دورا لمعالجة المجانين (٤)

وأول من أنشأ المارستانات في الدولة العباسية الرشيد ، فانه لما رأى مهارة القاديين عليه من اطباء مارستان جنديسابور ، أراد أن يكون لبغداد مثل ذلك ، فأمر طبيبه جبرائيل بن بختيشوع بإنشاء المارستان في بغداد . وكان رئيس مارستان جنديسابور يومئذ طبيبا هنديا اسمه دهشتك ، فبعث اليه ليقلده مارستان بغداد فاعتذر ودله على ماسويه فولاه اياه ، ثم تولاه ابنه يوحنا بن ماسويه (٥) وكان البرامكة أهل علم ولهم رغبة في طب الهند واطبائهم كما رأيت ، فأنشأوا مارستانا باسمهم وولوا عليه طبيبا هنديا اسمه ابن دهن ، وهو ممن نقل الى العربية من اللسان الهندي رأسا (٦)

ولما اشتهر مارستان بغداد أخذت المدن الاخرى في تقليدها كما قلدها في سائر أسباب ذلك التمدن ، وكان الفتح بن خاقان وزير المتوكل قد أنشأ في مصر مارستانا عرف بمارستان المغافر ، فلما تولاه ابن طولون أنشأ فيها

(١) طبقات الاطباء ٢١٦ ج ٢ (٢) المقريزي ٤٠٥ ج ٢ (٣) ابن خلكان ٤٩٥ ج ١
(٤) الكشكول ٢١٣ (٥) طبقات الاطباء ١٧٤ ج ١ (٦) الفهرست ٢٤٥

سنة ٢٥٩ هـ ، مارستانا عرف باسمه وأنفق على بنائه ٦٠٠٠ دينار ، وشرط أن لا يعالج فيه جندي ولا مملوك بل يعالج فيه العامة من المرضى والمجانين وغيرهم ، وحبس ريعا يضمن بقاءه . وكان يتعهد بنفسه كل يوم جمعة حتى ساءه أحد المجانين فقطع الزيارة (١)

ولم ينقض القرن الثالث للهجرة حتى بنيت المارستانات في مكة والمدينة وغيرهما . ولما دخل القرن الرابع تسابق الخليفة المقتدر ووزراؤه الى انشاء المارستانات في بغداد وضواحيها ، منها مارستان علي بن عيسى الوزير انشأه بالحربية سنة ٣٠٢ هـ وأنفق عليه من ماله وقلده طبيبه ابا عثمان الدمشقي (٢) ومارستان السيدة فتحه سنان بن ثابت بسوق يحيى سنة ٣٠٦ هـ وبلغت النفقة عليه ٦٠٠ دينار في الشهر . وفي تلك السنة أشار سنان المذكور على الخليفة المقتدر أن يتخذ مارستانا ينسب اليه ، فأمر فبنوا له بباب الشام من أبواب بغداد المارستان المقتدري ، وكان ينفق عليه من ماله ٢٠٠ دينار كل شهر . وبنى أيضا الوزير ابن الفرات نحو ذلك الزمن مارستانا بلرب الفضل عرف باسمه (٣) وبنى غيرهم مارستانات أخرى في الري ونيسابور وغيرهما . وفي أواسط القرن الرابع بنى المارستان الكافوري بمصر . ثم انشأ عضد الدولة بن بويه المارستان العضدي سنة ٣٦٨ هـ على طرف الجسر في الجانب الغربي من بغداد ، ورتب له ٢٤ طبيبا فيهم الجراحون والكحالون والمجبرون والفاصدون والاطباء الطبيعيون ، ففاق سائر ما تقدمه من المارستانات ، وكان على الاطباء رئيس يسمونه «الساعور»

وظل المارستان العضدي صدر المارستانات حتى بنى نور الدين زنكي مارستانه الكبير في دمشق في أواسط القرن السادس ، ثم بنى صلاح الدين الايوبي المارستان العتيق في القاهرة وغيره . ولما تولى السلاطين الماليك مصر بنى الملك المنصور قلاوون المارستان المنصوري بالقاهرة سنة ٦٨٣ هـ على مثال مارستان دمشق ، وصفه القريري وصفا مسهبا في الجزء الثاني من خططه . ولا تزال آثار المارستان المنصوري باقية الى اليوم في شارع النحاسين . ثم بنى الملك المؤيد سنة ٨٢١ هـ المارستان المؤيدي بمصر ، ناهيك بما انشأوه من المارستانات في سائر بلاد الاسلام في فارس وخراسان والموصل والشام والاندلس وغيرها ، مما يطول شرحه . وفي رحلة ابن جبیر وصف ما شاهده بنفسه من مارستانات المسلمين في القرن السادس للهجرة هناك

وكانت تلك المارستانات في غاية النظام يعالج فيها المرضى على اختلاف

(١) القريري ٤٠٥ ج ٢ (٢) طبقات الاطباء ٢٣٤ ج ١

(٣) طبقات الاطباء ٢٢٢ و ٢٢٤ ج ١

طوائفهم ونحلهم ، وفيها لكل مرض قلعة أو قاعات خاصة يطوفها الطبيب المختص بها وبين يديه المشارفون والقوام لخدمة المرضى ، فيتفقد المرضى ويصف لهم الأدوية ويكتب لكل مريض دواءه (١) فمن شفى فيها زود السلام ومن مات كفنه ودفنوه . وكانت تلقى فيها الدروس فى الطب والصيدلة وتمارس بها هاتان الصناعتان

وكان من ضروب المارستانات عندهم مارستان تقال يحملونه على الجمال أو البغال على نحو المستشفيات المتنقلة فى دول هذه الايام . فكان فى معسكر السلطان محمود السلجوقى مارستان يحمله اربعون جملا يستصحبه العسكر حيثما توجهوا (٢)

٣ - التنجيم والنجوم أو الفلك

النجوم عند القدماء علمان : علم طبيعى ينظر فى النجوم من حيث مواضعها وحركاتها واحكامها بالنظر الى الخسوف والكسوف ، وعلم ينظر فيها باعتبار علاقتها بحدوث العالم من حيث الحرب والسلم والولادة والوفاة والسعد والنحس والمطر والصحو ونحو ذلك . وتسهيلا للبحث نسمى الاول علم النجوم أو الفلك ، والثانى علم التنجيم . وقد علمت مما تقدم أن العرب كانوا يعرفون هذين العلمين ، فلما تمدنوا ونقلوا العلم أضافوا ما أخذوه عن اليونان والفرس والهند والكلدان الى ما كان عندهم ، فتولد من ذلك كله التنجيم والنجوم عند المسلمين

التنجيم :

وأول من عنى بالتنجيم والنجوم فى النهضة العباسية أبو جعفر المنصور ، فترجموا له السندهند كما تقدم ، واقتدى به خلفاؤه وأصبح للتنجيم شأن كبير عندهم ، حتى فى ابان العصر العباسى . وكان المنجمون فئة من موظفى الدولة كما كان الاطباء والكتاب والحساب ، ولهم الرواتب والارزاق (٣) وكان الخلفاء يستشيرونهم فى كثير من احوالهم الادارية والسياسية ، فاذا خطر لهم عمل وخافوا عاقبته استشاروا المنجمين ، فينظرون فى حال الفلك واقتراحات الكواكب ثم يشيرون بموافقة ذلك العمل أو عدمها . وكانوا يعالجون الامراض على مقتضى حال الفلك ، وكانوا يراقبونها ويعملون بأحكامها قبل الشروع فى أى عمل ، حتى الطعام والزبارة . على أن علماء الشرع الاسلامى كانوا يبينون فساد هذا الاعتقاد ويخطئون ويردونه ، والناس على اعتقادهم ولا يزال بعضهم على ذلك الى اليوم

(١) طبقات الاطباء ١٥٥ ج ٢ (٢) ابن خلكان ٢٧٤ ج ١ وتراجم الحكماء

(٣) الفرج بعد السدة ٩٠ ج ١

كان للمسلمين حظ وافر في علم النجوم وفضل كبير عليه ، يكفيك أنهم جمعوا فيه بين مذاهب اليونان والهند والفرس والكلدان والعرب الجاهلية ، شأنهم في أكثر العلوم الدخيلة . فقد رأيت أن محمد الفزارى نقل السندهند للمنصور ليكون قاعدة علم النجوم عند العرب ، وأنه ظل معولهم عليه الى عصر المأمون . وفي أيامه نبغ محمد بن موسى الخوارزمي ، وكان منقطعا الى بيت الحكمة وله علم واسع في النجوم ، فاصطنع زيجاً جمع فيه بين مذاهب الهند والفرس والروم ، فجعل أساسه على السندهند وخالفه في التعاديل والميل ، فجعل تعاديله على مذاهب الفرس ، وجعل ميل الشمس فيه على مذهب بطليموس ، وأخترع فيه أبواباً حسنة فاستحسنه أهل عصره وطاروا به في الآفاق (*) ولكنه جعل تاريخه على الحساب الفارسي ، فنقله مسلمة ابن أحمد المرجيطي الأندلسي المتوفى سنة ٣٩٨ هـ الى الحساب العربي ، ووضع أواسط الكواكب لأول تاريخ الهجرة . والزيج كتاب فيه جداول حركات الكواكب يؤخذ منها التقويم

واشتهر منهم في علم النجوم بنو شاطر الثلاثة ، وقد تقدم ذكرهم . ومن أعمالهم المأثورة أنهم قاسوا للمأمون درجة خط نصف النهار ، واستعملوا فيها محيط الأرض في حديث ذكره ابن خلكان وغيره . وقد ألف بنو شاطر كتباً جليلة في الفلك والهندسة ، ونبغ في عصرهم أبو معشر البلخي المتوفى سنة ٢٧٢ هـ ، كان معاصراً للكندي يغري به العامة ويشنع عليه بعلوم الفلاسفة ، فدرس له الكندي من حسن له النظر في الرياضيات فدخل ذلك واستغرق فيه واتصل بعلم النجوم وألف فيه كثيراً . ومنهم حنين بن اسحق العبادي المترجم الشهير ، وثابت بن قرة الحراني المتوفى سنة ٢٨٨ هـ ، وأحمد بن كثير الفرغاني ، وسهل بن بشر كان يخدم طاهر بن الحسين ، ومحمد بن عيسى الماهاني ، ومحمد بن جابر الحراني المعروف بالبتاني ، وكان صابياً اصطنع زيجاً عرف بالزيج الصابي وهو نسختان الثانية أصح . ابتداء بالرصد سنة ٢٦٤ الى سنة ٣٠٦ هـ ، وأثبت الكواكب في زيجه سنة ٢٩٩ هـ ، وكان أواخر عصره في فنه وتوفى سنة ٣١٧ هـ (١) وغيرهم . يليهم في القرن الرابع والخامس أبو الوفاء البوزجاني والبيروني ومعاصروه كثيرون . وإمام فلكيي القرن السابع للهجرة نصير الدين الطوسي ، ونبغ في عصره المؤيد العرضي وابنه محمد ، والفخر الرازي بالموصل ، والفخر الخلاطي بتفليس ، ونجم الدين القزويني (٢) وغيرهم في عصور أخرى ، وتفصيل

(*) انظر عنه :

G. Gandz, The origin and development of the quadratic equation in Babylonian, Greek and early Arabic Algebra, Osiris, III, 1933

ولنفس المؤلف :

The origins of Al-Chwarizmi Algebra. Osiris, I, 1933.

(١) الفهرست ٢٧٩ (٢) أبو الفرج ٥٠١

مؤلفاتهم ووصفها من شؤون « تاريخ آداب اللغة » ، وانما يهمننا في هذا المقام النظر فيما أحدثه التمدن الاسلامى فى علم الفلك

وأول ما يستلفت انتباهنا من هذا القليل أن العرب (أو المسلمين) قالوا بإبطال صناعة التنجيم المبنية على الوهم (١) ولعلمهم أول من فعل ذلك وان كانوا لم يستطيعوا إبطالها ، ولكنهم مالوا بعلم النجوم نحو الحقائق المبنية على المشاهدة والاختبار كما فعلوا بعلم الكيمياء ، وكانوا كثيرى العناية بعلم الفلك يرصدون الافلاك ويؤلفون الازياج ويقيسون العروض ويراقبون السيارات ، ويرتحلون فى طلب ذلك العلم الى الهند وفارس ، ويتبحرون فى كتب الاوائل ويتممون ما نقص منها أو يجمعون بين مذاهبها . ولعلم الفلك عند العرب تاريخ طويل لايسعه هذا المكان ، فنذكر أولا المرصد ثم نأتى على أمثلة مما استنبطوه فى هذا العلم

المرصد :

الرصد أساس علم الفلك وعليه المعول فى تعيين أماكن النجوم وحركاتها ، وكان له شأن كبير عند اليونان فرصدوا الكواكب واصطنعوا آلات الرصد . وفى القرن الثالث قبل الميلاد بنوا مرصدا فى الاسكندرية بلغ قمة ارتقائه على عهد بطليموس القلوذى صاحب المجسطى (٢) . وظل المرصد الاسكندرى وحيدا فى العالم ، حتى نهض العرب وأنشأوا المرصد فى بغداد ودمشق ومصر والاندلس ومرافقه وسمرقند وغيرها كما سيجىء

آلات الرصد :

وللرصد آلات كان منها فى عهد التمدن الاسلامى بضعة عشر شكلا تختلف باختلاف الغرض منها ، وهالك أهمها :

(١) اللبنة : وهى جسم مربع مستو ، يستعمل به الميل الكلى وابعاد الكواكب وعرض البلد

(٢) الحلقة الاعتدالية : هى حلقة تنصب فى سطح دائرة المعدل ، ليعلم بها التحويل الاعتدالى

(٣) ذات الاوتار : هى اربع اسطوانات مربعة تغنى عن الحلقة الاعتدالية ، ويعلم بها تحويل الميل

(٤) ذات الحلقي : هى أعظم الآلات هيئة ومدلولا . وتركب من حلقة تقوم مقام منطقة فلك البروج ، وحلقة تقوم مقام المارة بالاقطاب ، تركب احدهما فى الاخرى بالتصنيف والتقطيع . وحلقة الطول الكبرى وحلقة

(١) ابن خلدون ٤٥٧ ج ١

(٢) وصفه ابو البقاء يوسف بن الشيخ البلوى فى معجمه المسمى « الف باء » (مطبوع فى القاهرة) - مادة : الاسكندرية

الطول الصغرى تركب الاولى فى محدب المنطقة والثانية فى مقعرها . وحلقة نصف النهار وقطر مقعرها مساو لقطر محدب حلقة الطول الكبرى . ومن حلقة الارض قطر محدبها قدر قطر مقعر حلقة الطول الصغرى . وهى توضع على كرسى

(٥) ذات السميت والارتفاع : هى نصف حلقة قطرها سطح من سطوح اسطوانة متوازية السطوح ، يعلم بها السميت وارتفاعه ، وهى من مخترعات الرصاد الاسلاميين

(٦) ذات الشعبتين : هى ثلاث مساطر على كرسى ، يعلم بها الارتفاع

(٧) ذات الجيب : هى مسطرتان منتظمتان انتظام ذات الشعبتين

(٨) المشتبهة بالناطق : لمعرفة ما بين الكوكبين من البعد ، وهى ثلاث مساطر

(٩) الاسطرلاب : وهو انواع كثيرة ، منها : التام ، والمسطح ، والطومارى ، والهلالى ، والزورقى ، والعقرى ، والآسى ، والقوسى ، والجنوبى ، والشمالى ، والمبطح ، والمسرطق ، وحق القمر ، والمغنى ، والجامعة ، وعصا موسى . ناهيك من آلات الرصد بالارباع واشكالها ، ولكل شكل تنوعات مما لا يحصىه عد : (١) (*)

للرصاد فى الاسلام :

لما اشتغل المأمون فى نقل علوم الاوائل الى العربية ، ووقف العلماء على كتاب المجسطى وفهموا صور آلات الرصد الموصوفة به ، نزعت به همته الى السير على منهاجه ، فجمع علماء النجوم فى عصره وأمرهم أن يصنعوا آلات يرصدون بها الكواكب كما فعل بطليموس صاحب المجسطى ، ففعلوا وتولوا الرصد بها بالشماسية فى بغداد وجبل قيسون فى دمشق سنة ٢١٤ هـ (١) ولما توفى المأمون سنة ٢١٨ هـ توقفوا عن العمل وقيدوا ماكانوا قد تبينوه من رصدهم وسموه الرصد المأمونى . وكان الذين تولوا ذلك يحيى بن أبى منصور كبير المنجمين فى عصره ، وخالد الروزى ، وسند

(١) أبجد العلوم ٣٤٢

(*) أبرع من استخدم هذه الآلات وكتب عنها ووصفها هو ابراهيم بن يحيى النقاش القرطبي المعروف بالزرقالى ، وهو معروف عند الأوربيين باسم ازراقيل Azraqiel من علماء النصف الثانى من القرن الثامن الهجرى ، الحادى عشر الميلادى ، وقد قام بأبحاث طويلة عنه مياس فاليكروسا

Millas Vallicrosa, Estudios sobre Azraqiel Madrid, Granada 1950

وقد ضاعت الاصول العربية لعظم كتبه وبقيت فى ترجماتها اللاتينية ، وقد عثر الاستاذ المذكور على قطعة من كتابه عن الصفيحة واستخدامها ، ونشرها فى « مجلة الاندلس » ، مجلد رقم ١ . وقد نشرنا منها قطعا فى « تاريخ الفكر الاندلسى » ، ص ٥٢ وما بعدها وقد نشر مياس أيضا كتاب « العمل بالاسطرلاب وذكر اجزائه » لابن الصغار صحيفة المعهد المصرى للدراسات الاسلامية فى مدريد ، مجلد ٣ ص ٤٦ وما بعدها ، وفيه وصف جميع الآلات التى ذكرها المؤلف هنا

ابن على ، والعباس بن سفيد الجوهري ، فالف كل منهم في ذلك زيجا منسوباً اليه . وارصاد هؤلاء أول الارصاد في الاسلام (١)

ثم بنى بنو شاعر مرصدا في بغداد على طرف الجسر عند اتصاله بالطاق ، ورصدوا الكواكب فيه واستخرجوا حساب العروض الاكبر من عروض القمر (٢) وبنى شرف الدولة بن عضد الدولة مرصدا في طرف بستان دار المملكة في أواسط القرن الرابع للهجرة ، وقد رصد فيه الكواكب السبعة أبو سهل الكوهي (٣)

ولما ضعف شأن الخلافة في بغداد وتشعبت المملكة العباسية الى فروع ، تحولت الهمم الى تلك الفروع وأكبرها المملكة المصرية في أيام الفاطميين ، فأنشأوا مرصدا (أو مرصدا) على جبل المقطم عرف بالرصد الحاكمي ، نسبة الى الحاكم بأمر الله المتوفى سنة ٤١١ هـ ، وفيه استخرج على بن يونس الزيج الحاكمي (٤) ثم أعيد بناء هذا الرصد في أيام الأفضل بن أمير الجيوش المتوفى سنة ٥١٥ هـ ، وذكر المقرئزي خبر انشائه في حديث طويل . وأنشأ بنو الأعلام ببغداد سنة ٤٢٥ هـ مرصدا عرف باسمهم . وذكر صاحب فوات الوفيات مرصدا في حدود الشام سماه البيهقي (كذا)

وما زال الرصد الحاكمي عمدة الراصدين ، حتى نشأ نصير الدين الطوسي على عهد هولاكو التتري ، فبنى مرصدا في مراغة من بلاد تركستان سنة ٦٥٧ هـ ، أعد فيه كل ما يلزم من الآلات وأنفق فيه الاموال الطائلة ، وأنشأ له مكتبة فيها ٤٠٠٠٠٠ مجلد (٥) ثم بنى تيمورلنك مرصدا في سمرقند ، وبنى غيرهم مراصد أخرى في أصبهان ومصر والاندلس ، وارصادا خصوصية أو عمومية لم يصل اليها تفصيلها

علم النجوم والاسلام

وفي هذه المراسد اشتغل المسلمون في رصد الكواكب ووضع الازياج ، وأطولها الزيج الحاكمي المتقدم ذكره ، كتبه ابن يونس في أربعة مجلدات وكان عليه تعويل المسلمين بعد ما سبقه من الازياج البغدادية . ومن أشهر الازياج زيج الفزاري صاحب المنصور ، وازياج الخوارزمي ، وأبي حنيفة الدينوري صاحب رصد أصبهان ، وأبي معشر البلخي وضع زيجه على مذهب الفرس ، وزيج أبي السمع القرناطي المتوفى سنة ٤٢٦ هـ ، وزيج أبي حماد الاندلسي ، والزيج الأيلخاني لنصير الدين الطوسي ، وزيج ابن الشاطر الانصاري سنة

(١) كشف الظنون ٥٧٢ ج ١

(٢) فوات الوفيات ١٥١ ج ١ (٣) أبو الفرج ٢٠٧

(٤) ابن خلكان ٣٧٥ ج ١ (٥) فوات الوفيات ١٤٦ ج ٢

٧٧٧ هـ وغيرهم (١) وقد أصلحوا في هذه الأزياج كثيرا من الارصاد اليونانية وللمسلمين طرق جديدة أدخلوها في الرصد من عند أنفسهم ، واخترعوا كثيرا من آلاته كذات السمات والارتفاع اللتين تقدم ذكرهما ، وذات الاوتار والمشبهة بالناطق فانها من اختراع تقي الدين الراصد (٢) . والبديع الاسطرلابي البغدادي المتوفى في أوائل القرن السادس للهجرة زاد في الكرة ذات الكرسي ما كمل عملها بعد أن مرت السنون على نقصها ، وalf رسالة في ذلك وكمل الآلة الشاملة التي ابتدعها الخجندی وجعلها بعرض واحد ، وأقام الأدلة على أنها لا تكون لعروض متعددة ، فنظر فيها البديع المذكور وعملها لعروض متعددة ، غير ما اخترعه من المساطر والبراكير (*) وغيرها (٣) وأدخل الشيخ شرف الدين الطوسي تحسينا في الاسطرلاب ، فاستنبط أن يقع المقصود من الكرة والاسطرلاب في خط ، فوضعه وسماه العصا وعمل فيه رسالة بديعة . وهو أول من أظهر هذا في الوجود ، فصارت الهيئة توجد في الكرة وهي جسم وفي السطح وفي الخط ولم يبق غير النقطة (٤) وبين البتاني نقطة الذنب للأرض ، وأصلح قيمة مبادرة الاعتدالين ، وقيمة ميل دائرة البروج على دائرة خط الاستواء ، وهو أول من استخدم الجيوب والاوتار في قياس المثلثات والزوايا (٥)

والبيروني أول من استنبط تسطيح الكرة ، وقد فصل ذلك في كتابه « الآثار الباقية » (١) ، والبيروني استنباطات جلييلة في الفلك والرياضيات ، يستدل عليها من قراءة كتابه المذكور ومن فهرست مؤلفاته في مقدمة ذلك الكتاب . يكفيه أنه نقل علوم اليونان الى الهند ، ونقل حكمة الهنود الى المسلمين . فقد دخل بلاد الهند وأقام فيها عدة سنين ، وتعلم من حكمائها فنونهم وعلمهم طرق اليونانيين في فلسفتهم (٢) في ظل السلطان محمود الغزنوي ، كما فعل نصير الدين الطوسي في نشر علم النجوم بين المغول في ظل هولاكو التتري ، وكما نشره عمر الخيامي بين السلاجقة ، ومرجع الفضل في ذلك للإسلام

فطار خبر فلكي المسلمين في أقطار العالم ، وأصبح المرجع اليهم في تحقيق المسائل ، فان ملوك الافرنج كانوا يرسلون اليهم في حل المشكلات الفلكية ، فيعرضون عليهم المسائل ويطلبون حلها ليس في الاندلس فقط لقربها من بلادهم ولكنهم كانوا يوفدون الوفود الى ممالك الاسلام في الشرق

(١) كشف الظنون ١٣ ج ٢ (٢) أبجد العلوم ٣٤٢

(*) البراكير جمع بركر ، وهو المعروف اليوم بالفرجار أو البرجل

(٣) تراجم الحكماء (٤) ابن خلكان ١٨٥ ج ٢

(٥) القبة الزرقاء هـ (٦) البيروني ٢٥٧ (٧) أبو الفرج ٣٢٥

لهذه الغاية . ومما نقله ابن أبي أصيبعة أن الانبرور ملك الافرنج أنفذ الى بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل رسولا ويده مسائل في علم النجوم وغيره ، فبعث بدر الدين الى كمال الدين بن يونس في حلها في حديث طويل (١)

ويعترف الاسبان ان العرب علموهم الرقاص . (البندول) لقياس الزمان ، ولا يخفى ما بنى على الرقاص من الآلات الفلكية وغيرها . على أنهم كانوا يعرفون عمل الساعات من قبل ، ويقال ان الرشيد أهدى الملك شارلمان ساعة بديعة تناقل الافرنج خبرها (*)

ومن فضل العرب على الفلك وسائر الرياضيات أنهم نقلوا عن اليونانية كتباً ضاع أصلها بعد نقلها ، وحفظت العلوم في ترجماتها العربية . منها مؤلفات تموخارس وارستلوس وكرويات منيلاوس وكرويات ثاوون وشرحه للمجسطى (٢) ولم يقتصر ذلك على كتب الفلك ولكنه تناول كثيراً من العلوم ، حتى كتب الادب فان كليله ودمنة نقله ابن المقفع من الفارسية ، وقد ضاع أصله الفارسي فلما عمد اهل أوروبا الى ترجمته نقلوه عن العربية

الحساب والجبر والهندسة

كان العرب في صدر الاسلام يستنكفون من تعلم الحساب ، لأنه من شأن عمال الخراج اهل الذمة والموالي ، وكانوا يقتصرون على العمل بوصية عمر بتعليم اولادهم الشعر والفروسية والسباحة والمثل . فلما تحضروا ورأوا افتقارهم للحساب مالوا اليه وشاع فيهم قول ابن التوام : « علم ابنك الحساب قبل الكتاب » (٣) ثم ما لبثوا أن استفرقوا في طلب العلم كله على اختلاف أنواعه ، ونقلوه الى لسانهم فكان الحساب في جملة تلك العلوم ، وهو مما اشتغل فيه الفلكيون والمهندسون ونحوهم ، وقبلما انفرد واحد منهم بالحساب وحده

ومن أكبر مآثر التمدن الاسلامي في الرياضيات نقلهم الحساب الهندي والارقام الهندية من الهند الى سائر أقطار العالم . فالعرب يسمونها أرقاماً هندية لأنهم نقلوها عن الهنود ، والافرنج يسمونها عربية لأنهم أخذوها عن

(١) طبقات الاطباء ٣٠٦ ج ١

(*) الثابت الآن تاريخياً ان هارون الرشيد لم يهد شارلمان شيئاً ، فان مطولات التاريخ الاسلامي لا تشير الى سفارة من الرشيد الى شارلمان ، وقد رجح الدكتور عبد العزيز الدوري في كتابه « دراسات عن العصر العباسي الاول » ان يكون مصدر هذه القصة ان نفراً من تجار المغرب أرادوا أن تكون لهم حظوة عند شارلمان لتيسير أعمالهم التجارية ، فزعموا انهم رسل هارون الرشيد ، وحملوا اليه الهدايا ، ومنها هذه الساعة الدقاقة ، وكان فيها ايضاً فيل سمي بأبي العباس ، ولا يعقل ان يسمى الرشيد فيل بهذا الاسم

(٢) القبة الزرقاء ه (٣) البيان والتبيين ٢١٣ ج ١

العرب (١) وأول من تناول تلك الأرقام من الهنود أبو جعفر محمد بن موسى الخوارزمي (٢) ومن اسمه اشتق الافرنج لفظ *Algorism* الافرنجية (*)

وأما الجبر فللعرب فضل كبير في وضعه أو تأليفه ، فقد رأيت في كلامنا عن نقل العلوم اليونانية أن العرب نقلوا كتابين في الجبر ، أحدهما لذيوفانتوس والآخر لابرخس . وقد وجد الباحثون بعد نهضة التمدن الحديث أن ماكتبه هذان ليس من الجبر في شيء ، أو هي أصول ضعيفة لا يعتد بها ، وهم يعتقدون أن الجبر من موضوعات العرب . والحقيقة على ما نرى أن العرب بعد أن اطلعوا على حساب الهنود أضافوه إلى ما نقلوه عن اليونان ، وبنوا على ذلك علم الجبر . ومن أشهر كتب المسلمين في الجبر كتاب الجبر والمقابلة للخوارزمي المذكور ، فالظاهر أن الخوارزمي جمع بين ما عثر عليه من الأصول الجبرية عند اليونان والهنود والفرس فاستخرج منه الجبر العربي ، كما جمع في زيجته بين آراء الهند والفرس واليونان . وقد عني العرب بشرح كتاب الخوارزمي مرارا . وألف أيضا في الجبر أبو كامل شجاع بن أسلم ، وأبو الوفاء البوزجاني ، وأكثر مؤلفاته في الحساب ، وأبو حنيفة الدينوري المتوفى سنة ٢٨١ هـ ، وأبو العباس السرخسي المتوفى سنة ٢٨٦ هـ وغيرهم . ولما نهض الافرنج في تمدنهم الحديث أخذوا الجبر عن العرب

ومما أحدثه المسلمون في الهندسة أنهم طبقوها على المنطق ، وقد فعل ذلك ابن الهيثم في أوائل القرن الخامس للهجرة ، فانه ألف كتابا جمع فيه الأصول الهندسية والعديدية من أقليدس وأبلونيوس ، ونوع فيها الأصول وقسمها وبرهن عليها ببراهين نظمها من الأمور التعليمية والحسية والمنطقية ، حتى انتظم ذلك مع انتقاص توالي أقليدس وأبلونيوس ، وأدخل في الجبر والحساب أساليب جديدة في استخراج المسائل الحسابية من جهتي التحليل الهندسي والتقدير العددي ، وعدل فيه عن أوضاع الجبريين والفاظهم (٣) (*)

والحسن بن موسى بن شاكر اشتغل في استخراج مسائل هندسية لم يستخرجها أحد من الأولين ، كقسمة الزاوية إلى ثلاثة أقسام متساوية ، وطرح خطين بين خطين ذي توال على نسبة (كذا) ، وكان يحللها ويردها على المسائل الأخرى ولا ينتهي إلى آخر أمرها لأنها أعيت الأولين (٤)

(١) راجع كتابنا « الفلسفة اللغوية » ، الطبعة الثانية ١١٦ (٢) تراجم الحكماء (خط) (*) هي المعروفة الآن باللوغاريتمات . انظر المقال الذي كتبه جستاف فايل ووليام مارسيه من لفظ « مدد » في دائرة المعارف الإسلامية

(٣) طبقات الأطباء ٩٣ ج ٢

(*) انظر : الدكتور مصطفى نظيف : الحسن بن الهيثم ، مجلدان ، القاهرة ١٩٣٠

(٤) تراجم الحكماء

الفنون الجميلة

الفنون الجميلة تسمية جديدة لما تنبسط له النفس من المصنوعات الجماله ورونقه لا لمنفعته ومئاته ، والفنون التى تدخل فى اعتبارهم تحت هذه التسمية قسمان : الاول تظهر أشكاله محسوسة كالخفر والتصوير والنحت والتمثيل . (وتسمى الآن الفنون التشكيلية) ، والثانى ما لا يحس ولا يرى بل هو من قبيل الخيال كالشعر والموسيقى . أو أن الفنون المذكورة ترجع بكليتها الى التصوير ولبعضها صور محسوسة كالمنحوتات والمرسومات ، وللبعض الآخر صور خيالية كالشعر والموسيقى . والامم التى تمدنت قبل الاسلام اشتغلت فى هذه الفنون على تفاوت فى اتقانها . وممن أجاد فيها المصريون واليونان والرومان ، فانهم نحتوا التماثيل وصوروا الصور ومثلوا الحوادث ونظموا الشعر وضبطوا الألحان

ومن الاعتقادات الشائعة أن التمدن الاسلامى مقصر فى هذه الفنون ، لأنه لم يخلف ما خلفه اليونان أو الرومان من الآثار الجميلة كالابنية والتماثيل والصور ونحوها (**) . ولو دققنا النظر لرأينا المسلمين أو العرب من أكثر الأمم استعدادا للفنون الجميلة والاجادة فيها لا يقفون شيئا عن اليونان والرومان ، وربما فاقوهما فى بعضها . أما الجمال المحسوس فقد أجادوا فيما يتعلق منه بالبناء ، ولهم نمط خاص فيه مشهور ، ومن آثارهم البنائية الحمراء فى الاندلس وجوامع القاهرة والشام وفارس والهند ، وهى تدل على تقدم عظيم فى هندسة البناء ، مع ما فيها من زخارفه كالفسيفساء ونحوها مما يدهش النظر . ولهم نحو ذلك فى الصياغة والنسيج ونحوهما من الصنائع الجميلة . أما التصوير فلم يشتغلوا فيه لأنه محرم عندهم كما هو معلوم (**) . أما الشعر فقد بينا فيما تقدم أن العرب أكثر الأمم انطبعا على الشعر واتقانا له وأكثرهم نظما وأوسعهم خيالا

(*) أغلب الظن أن كلام المؤلف هنا منصب على التصوير والنحت ، لان العمارة والابنية الاسلامية معروفة وقد أبدع المسلمون فيها أى ابداع ، بل شارك المسلمون فى التصوير والنحت . انظر مثلا كتاب احمد تيمور : التصوير عند المسلمين ، وقد نشره فى القاهرة الدكتور زكى محمد حسن

(**) ناقش احمد تيمور وزكى محمد حسن هذه المسألة فى كتاب « التصوير عند المسلمين » المشار اليه فى التعليق السابق

الموسيقى :

وأما الموسيقى (١) فالعرب فاقوا سواهم فيها ، وقد وضعوا الألحان واخترعوا الآلات المطربة واتقنوا صنعها ، وكان للموسيقى عندهم شأن كبير . والمشهور أن العرب كان عندهم من الألحان شيء يوافق سذاجتهم وخشونة الجاهلية ، فلما ظهر الاسلام واختلطوا بالروم والفرس اقتبسوا الموسيقى عن تلك الأمم قبل سائر العلوم الدخيلة ، لأن اقتباسها لا يحتاج الى نقل أو ترجمة . وأول من فعل ذلك عبد مكي اسمه سعيد بن مسحج ، كان حسن الصوت مغرما بالموسيقى ، وكان في مكة عند حصار الأمويين لها على عهد عبد الله بن الزبير في الثلث الأخير من القرن الأول للهجرة . واستخدم ابن الزبير بعض رجال الفرس في ترميم الكعبة ، فسمع ابن مسحج بعضهم يغنى بالفارسية فطرب والتقط النغم منه ، ثم رحل الى الشام وفارس وأخذ الألحان الرومية والفارسية ، وألقى منها ما استقبحه من الثبرات والنغم مما لا يألوه الذوق العربي ، وغنى على هذا المذهب . وهو أول من فعل ذلك ، وأخذ عنه من جاء بعده من مغنبي المسلمين ، فنبت منهم جماعة كبيرة . وكان الغناء يزداد اتقاناً ويزداد نبوغ المغنين كلما قربت الدولة من الترف

(١) تقرأ بفتح القاف وكسرهما ، وقد جعلها الخوارزمي في «مفاتيح العلوم» فرعا من الرياضيات وقال أنها فن عمل الألحان ، وقال أن الذي يصنع الألحان يسمى موسيقورا أو موسيقارا أو مطربا . وكان العرب يفرقون بين علم الموسيقى وعلم الغناء ، فاما الأول فهو عندهم فرع من الرياضيات التي أخذوها من اليونان ، وأما الثاني فصناعة الألحان وأداؤها . وقد ذهب الفارابي الى أنه كانت عند العرب في الجاهلية آلة تسمى الطنبور أو الميزاني تقسم انغامها الى طبقات (جمع طبقة) وهو يقابل لفظ Gamme () وتقسم أوتارها الى أربعين قسما متساوية ، وذهب بعضهم الى أن العود الذي اخترعه فيثاغورس كان يقوم على أساس هذا الطنبور الذي سمي بالبغدادى فيما بعد . وينسب كتاب «الإغاني» الى «مسحج» المشار اليه في المتن أنه أخذ عن الفرس والروم أيضا ، وأن طريقته شاعت في شبه الجزيرة كلها ، وأن العود الفارسي حل محل الطنبور العربى وغطى عليه ، مما أدى الى تطور حاسم في الأساس الرياضى الذي كانت تقوم عليه الألحان . وقد أخذ العرب عن الفرس أسماء الأوتار ، فسموا الوتر الأعلى البيم ، والقرار الزير ، أما الوتران الأوسطان فاحتفظا باسميهما : الثنى والثالث . وهذا العود هو أساس الموسيقى العربية كما كانت اللرا أساس الموسيقى اليونانية

وقد ضاع معظم ما ألفه المسلمون في الموسيقى ، فإن «الإغاني» و «مروج الذهب» و «الفهرست» تشير الى كتب كثيرة ليونس الكاتب المتوفى نحو ٧٦٥/١٤٨ وعبيد الله بن عبد الله بن طاهر المتوفى حوالى ٩١٢/٣٠٠ وعلى بن هارون بن على بن يحيى بن أبى المنصور المتوفى ٩٦٢/٣٥٢ وغيرهم ، وقد ترجم العرب معظم ما كتبه الأفريق عن الموسيقى : انظر

Farmer, Greek theories of Music in Arabic translation. Isis XIII 325

وقد أصبح علم الموسيقى - كما قلنا - فرعا من الرياضيات عند العرب ، فوضعوا نظريات للصوت والأبعاد والأجناس والأنواع والجموع أو الجماعات والانتقالات والتأليف وما الى ذلك من مصطلحاتهم ، محتدين في ذلك كله حذو اليونان ، وأضافوا الى ذلك الإيقاع . ولكن سيج رسائل في الموسيقى أورد ابن النديم أسماءها في الفهرست ، وأدخل تلاميذه السكندى زيادات على نظرياته في ذلك الفن . وجاء بعد السكندى الفارابي ، وهو اعظم من اشتغل بهذا الفن من المسلمين ، وقد درس فارمر نظرياته وبسطها في كتابه الذي اشرنا اليه . واشتغل بنظرية الموسيقى بعد ذلك كثيرون ، منهم الحسن بن الهيثم وأبو الصلت أمية وقطب الدين الشيرازى انظر مادة موسيقى في دائرة المعارف الاسلامية بقلم فارمر والمراجع الوافية التي ذيل بها هذه المادة

والقصف ، ولذلك كثروا في أواخر الدولة الأموية وأواسط الدولة العباسية .
ومن أشهر المغنين ابن سريج والغريز ومعبد وحكم الوادى وفيلج بن أبى
العوراء وسياط ونشيط وعمر الوادى وإبراهيم الموصلى وابنه اسحق
وغيرهم . ومن المغنيات جميلة وحبابة وسلامة وعقيلة وغيرهن

ولما اشتغل المسلمون في نقل العلوم الدخيلة ، كان من جملتها كتب
الموسيقى اليونان والهند ، فتناولها المسلمون ودرسوها وأصبحت الموسيقى
علما عندهم بأصول ، وقد جمعوا بين الحان اليونان والهنود والفرس والعرب ،
فألفوا من ذلك علما خاصا بالتمدن الاسلامى بلغ درجة حسنة من الاتقان .
فألفوا فيه المؤلفات ، فضلا عما استنبطوه من الألحان أو اخترعوه من الآلات .
وكان للخلفاء عناية كبرى بالفناء ، يبذلون الأموال في سبيل تنشيطه كما هو
مشهور . وكانوا يشترطون في المغنى أن يكون حافظا للأشعار والنوادر ،
يحسن النحو والأعراب ، فكان المغنون في الدولة العباسية من أحاسن أهل
الادب ، وفيهم من يحسن الفقه فضلا عن الادب واللغة ، كإبراهيم بن اسحق
الموصلى (١) وغيره وبعضهم كان عالما بالنجوم مثل زرياب المغنى . وكثيرا
ما كان الخلفاء يجمعون المغنين للمناظرة بينهم في التلحين (٢) ويجيزون
المجيدين ويفقدون عليهم الرواتب والجوارى ، فقد كان راتب الموصلى
عند الهادى ١٠٠٠ درهم في الشهر ، غير الصلات وغللات الضياع وغيرها (٣)
ولما قدم زرياب المغنى من العراق الى الأندلس ركب الأمير عبد الرحمن نفسه
لللقاء (٤) :

وقد ادخل الموسيقيون في فن الموسيقى الحانا لم تكن من قبل ، وفيها
ما لم يسبق له مثيل في تأثيره . ذكروا منها الحانا لا يقدر الشيعان الممثلة
على غنائها ، ولا سقاء يحمل قربة على الترنم بها ، وأخرى لا يقدر المتكئ
أن يغنيها حتى يقعد مستوفزا ، ولا القاعد حتى يقوم (٥)

والآلات الموسيقية أخذوا أكثرها عن الفرس والانباط والروم والهند ،
فقد كان لكل من هذه الأمم آلات خاصة يتغنون بها . كان غناء الفرس
بالعبدان والصنوج ، وغناء أهل خراسان بالزنج ذات سبعة أوتار ، ايقاعه
يشبه ايقاع الصنج . وغناء أهل طبرستان والديلم بالطنابير . وغناء الانباط
والجرامقة بالعمروارات ، وهى كالطنابير . والروم كان غناؤهم بآلة يسمونها
الأوهر عليها ١٦ وترا ، والسلبان له ٢٤ وترا ، واللوزا وهى كالرباب من

(١) ابن خلكان ٦٦ ج ١ (٢) حلة الكميت ١٨٠
(٣) حلة الكميت ٦٣ (٤) نفع الطيب ١٦٣ ج ١
(*) انظر كتاب « الموسيقى عند العرب » لجودج هنرى فارمر تعريب الدكتور حسين نصر ،
القاهرة ١٩٥٦ . اما عن زرياب فانظر : « تاريخ الفكر الاندلسى » ، الفهرس
(٥) الاغانى ٢٠ ج ١

خشب لها خمسة أوتار ، والقيثارة ولها ١٢ وترا والصليح من جلود العجايل ، والأرغن وهو منافخ من الجلود . وكان للهند الكيلكة بوتر بواحد يمد على قرعة فيقوم مقام العود والصنج . وكان عند العرب الدف والمزهر . فالمسلمون جمعوا بين هذه الآلات الكثيرة ، كما جمعوا بين علوم تلك الأمم واستخرجوا أحسنها وزادوا فيها وحسنوها ، فضلا عما استنبطوه من عند أنفسهم كالألة المعروفة بالقانون ، فقد اخترعها الفارابي الفيلسوف ، وهو أول من ركبها هذا التركيب ولا تزال عليه الى الآن

واصطنع الفارابي آلة مؤلفة من عيذان ، يركبها ويضرب عليها وتختلف انغامها باختلاف تركيبها ولكنها على أى حال غريبة في بابها . ذكروا أن الفارابي حضر مجلس غناء لسيف الدولة ، ولم يكن أحد من الحضور يعرفه ، فعاب المغيث فسأله سيف الدولة : هل يحسن الغناء ؟ ففتح خريطة واستخرج تلك الآلة وركبها ثم لعب بها ، فضحك منها كل من كان في المجلس ، ثم فكها وركبها تركيبا آخر وضرب عليها فبكى كل من كان في المجلس ، ثم فكها وغير تركيبها وضرب ضربا آخر فنام كل من كان في المجلس ، حتى البواب ، فتركهم نياما وخرج ! (١)

وزاد المسلمون في العود وترا خامسا ، زاده زرياب بالاندلس ، وكان للعود أربعة أوتار على الصنعة القديمة التي قوبلت بها الطبائع الأربع ، فزاد عليها وترا خامسا أحمر متوسطا ، ولون الأوتار وطبقها على الطبائع . وهو الذي اخترع مضرب العود من قوادم النسر ، وكانوا قبله يضربون بالخشب . وعباس بن فرناس في الأندلس اصطنع الآلة المعروفة بالثقال ، يعرف بها الاوقات على غير رسم ومثال (٢)

وبالجملة ان العرب لم يقصروا في الفنون الجميلة ، بل هم فاقوا سواهم في أكثرها وانما قصروا في بعضها مراعاة للدين

الفارس في الاسلام

التعليم :

قد رأيت فيما تقدم أن القرآن أساس العلوم الاسلامية ، فتعليمه أساس التعليم الاسلامي ، وأول دروس القرآن قراءته . فأول المعلمين في الاسلام النبي (صلعم) علمه للصحابة ، وهم علموه للناس مع ما ترتب عليه أو تفرع عنه من العلوم . ولهذا السبب كانت مدارس المسلمين في جوامعهم كما كانت مدارس النصارى في أديرتهم وكنائسهم . وكانوا يسمون التلامذة

(١) ابن خلكان ٧٧ ج ٢ (٢) نفح الطيب ٧٨٢ ج ٢

المجتمعين حول أستاذ يتلقون علما من العلوم « حلقة » . وتفرعت العلوم بتوالى الاعوام واتسعت دوائرها ، حتى أصبح للعلم الواحد عدة حلقات ، والغالب أن تنسب الحلقة الى أستاذها ، فيقولون مثلا : حلقة أبى اسحق الشيرازى فى جامع المنصور أو نحو ذلك . وكانوا يجعلون فى كل جامع خزانة كتب للمطالعة أو الاستنساخ

على أن التعليم لم يكن خاصا بالمساجد ، فكثيرا ما كانوا ينشئون حلقات التدريس فى المارستانات أو الربط (*) أو المنازل أو غيرها . وكان الاغنياء اذا ارادوا تعليم اولادهم احضروا المعلمين الى منازلهم ، كذلك كان يفعل الخلفاء والأمراء ، ولا يزال أهل الوجاهة يفعلون ذلك الى اليوم

وأشهر الجوامع فى التدريس على الاطلاق الجامع الأزهر فى القاهرة ، فقد بنى مع القاهرة فى أواسط القرن الرابع للهجرة ، وكانت تلقى فيه دروس القرآن والفقه على جارى العادة فى سائر الجوامع . وكان جماعة من الطلبة يقيمون فيه ويسمون المجاورين ، ومنهم من جاء من اقاصى البلاد الاسلامية حتى تركستان والهند وزيلع وسنار ، ولكل طائفة منهم رواق باسمها كرواق الشوام أو المغاربة أو العجم أو الزيالة أو السنارية أو اليمينية أو الهندية ، فضلا عن أروقة أهل الصعيد . وبلغ عدد تلامذة الأزهر فى أوائل القرن التاسع للهجرة ٧٥ طالبا من طوائف مختلفة ، وكانوا يقيمون فى الجامع ومعهم صناديقهم وخزائنهم ، يتعلمون فيه الفقه والحديث والتفسير والنحو والمنطق ويحضررون مجالس الوعظ وحلق الذكر . وربما بات فى الجامع كثيرون من غير الطلبة للتبرك أو المأوى ، وللجامع المذكور تاريخ طويل ترى تفصيله فى خطط القرينى والخطط التوفيقية . على أن حاله كانت تختلف باختلاف المذهب السائد بمصر وباختلاف مناقب الحكام . وبلغ عدد مجاوريه فى عهد العائلة الخديوية بضعة عشر ألفا ، والهمة مبدولة فى ادخال بعض العلوم الحديثة فيه (**)

المدارس :

ومما لاحظناه من أمر التعليم فى التمدن الاسلامى أن العلم نضج على اختلاف وجهاته واثمر ، ونبغ العلماء والفقهاء والاطباء والفلاسفة ، وليس فى الاسلام مدرسة مستقلة نحو مدارس هذه الايام . وقد أجمع المؤرخون

(*) الربط جمع رباط ، وهو الموضع الذى يتجمع فيه الصالحون والمتصوفون للمعبادة . وكانوا يتخلونه على الحدود حتى يقوموا بحماية بلاد الاسلام فيجمعوا بين العبادة والجهاد ، ولهذا سمي رباط

(**) ادخلت على الأزهر ونظم التعليم فيه من ذلك الحين تعديلات كثيرة ، حتى أصبح جامعة تجرى على نظم الجامعات الحديثة . ومن أسف أن احدا لم يمن بتأليف كتاب عن تاريخ الأزهر الحديث

المسلمون تقريبا على أن أول من بنى المدارس في الإسلام نظام الملك الطوسي، وزير ملك شاه السلطان السلجوقي، في أواسط القرن الخامس للهجرة. ومن الغريب أن ينقضى العصر العباسي، ويتم نقل الكتب وينضج العلم على اختلاف موضوعاته دون أن ينشئ المسلمون مدرسة، أو أن ينشئوا المدارس ولا يرد ذكرها في تاريخهم. ولكننا رأينا الأفرنج يذكرون للمسلمين مدرسة أنشأها المأمون في خراسان وهو وال هناك (١) ولا ندرى من أين نقلوا ذلك ولم نر له ذكرا في كتب العرب التي طالعناها. على أننا رأينا فيما ذكره المسلمون عدة مدارس أنشئت في نيسابور عاصمة خراسان قبل زمن نظام الملك، منها مدرسة ابن فورك المتوفى سنة ٤٠٦ هـ (٢) والمدرسة البيهقي نسبة إلى البيهقي المتوفى سنة ٤٥٠ هـ... والمدرسة السعيدية بناها نصر ابن سبكتكين أخو السلطان محمود الغزنوي الشهير، ومدرسة بناها اسماعيل الاسترأبادي الصوفي الواعظ، وأخرى بنيت للاستاذ أبي اسحق (٣) وكل هذه المدارس بنيت قبل بناء المدرسة النظامية في بغداد. حتى نظام الملك نفسه بنى مدرسة بهذا الاسم في نيسابور أيضا قبل مدرسة بغداد، بناها لأمام الحرمين في سلطنة الب أرسلان (٤) فلعل السبب في اشتهار أسبقية نظام الملك في إنشاء المدارس الإسلامية أنه أول من بنى مدرسة كبرى في بغداد، وجعل التعليم فيها مجانا، وفرض لتلامذتها الأرزاق والجواري والمعاليم.

وعلى أي حال فإن أول من بنى المدارس في الإسلام الأمراء الأعاجم، وإذا صحت رواية الأفرنج عن مدرسة المأمون في خراسان (أو نيسابور) فقد بنيت في بلاد أعجمية لفرض أعجمي، والا فلماذا لم يبن المأمون مثلاً في بغداد لما تولى الخلافة واشتغل في نقل العلوم؟.. فما هو السبب في اختصاص إنشاء المدارس في الإسلام بغير الخلفاء؟

قد رأيت فيما تقدم منزلة العلماء المسلمين عند الخلفاء والأمراء، لارتباط السياسة بالدين عندهم، ولأن العلماء هم حملة الدين والداعون إليه. فكان العلماء في أوائل الإسلام يشاركون الخلفاء في النفوذ على العامة ويساعدونهم فيه. فلما ضعف شأن الخلفاء، وأفضت الحكومة إلى السلاطين والأمراء من الفرس والأتراك والديلم والأكراد وغيرهم، أصبح هؤلاء في حاجة إلى اكتساب قلوب العامة لتأييد سلطانهم بما يقوم مقام نفوذ الخلفاء الديني. وأقرب السبل المؤدية إلى ذلك الإحسان إلى الفقراء وأكرام العلماء والفقهاء. فأصبح السلطان أو الأمير إذا تولى بلداً وكان حكيماً عاقلاً، فأول ما يسعى فيه

Encyclopaedia Brit. art. Al-Mamun (١)

(٢) ابن خلكان ٤٨٢ ج ١

(٣) السيوطي ١٨٥ ج ٢ (٤) ابن خلكان ٢٨٧ ج ١

تقريب العلماء والفقهاء واسترضاء العامة بإنشاء الجوامع والربط والمارستانات ونحوها ، وتعيين الرواتب والأرزاق للعلماء والفقراء وغيرهم ، فيكتسبون بذلك ثقة العامة ورضى الخاصة ، غير ما يرجونه من الثواب . كذلك فعل ابن طولون بمصر ، وعضد الدولة في بغداد ، ونور الدين في الشام ، وصلاح الدين بمصر

وذلك أيضا مما حمل نظام الملك على إنشاء المدارس ، لأنه وزر للسلطان ألب أرسلان عشر سنين ، وكان بمنزلة والده وله النفوذ الأكبر عنده ، فلما توفي ألب أرسلان وازدحم أولاده على الملك ، وطد المملكة لولده ملك شاه فصار الأمر كله لنظام الملك وليس للسلطان غير التخت والصيد . أقام على ذلك عشرين سنة ، وكانت طائفة الباطنية قد استفحل أمرها في ذلك العصر وكثر المتزاحمون على السلطة . وكان نظام الملك عاقلا حكيما ، فبذل جهده في استمالة الأعداء وموالة الأولياء ، فأكثر من الإحسان حتى عم العدو والصديق والبغيض والحبيب . وكان من أهم مساعيه في ذلك أنه بنى دور العلم للفقهاء ، وأنشأ المدارس للعلماء ، وأسس الرباط للعباد والزهاد وأهل الصلاح والفقراء ، ثم أجرى الجرايات والنققات لطلبة العلم وغيرهم . وعم بذلك سائر أقطار مملكته في الشام وديار بكر والعراقين وخراسان إلى سمرقند ، فلم يكن فيها حامل علم أو طالبه أو متعبد أو زاهد إلا وكرامة نظام الملك شاملة له سابقة عليه ، وقسروا ما كان ينفقه في هذا السبيل فبلغ ٦٠٠.٠٠٠ دينار في السنة . فوشى به بعضهم إلى السلطان وقالوا : « ان الأموال التي ينفقهها نظام الملك في ذلك تقيم جيشا يركز رأيتيه في سور القسطنطينية » فعابته ملك شاه في ذلك فأجابه : « يابنى أنا شيخ أعجمي ، لو نودى على فيمن يزيد لم أحفظ خمسة دنائير . . وأنت غلام تركي ، لو نودى عليك عساك تحفظ ثلاثين دينارا . . وأنت مشغول ببلداتك منهمك في شهواتك ، وأكثر ما يصعد إلى الله تعالى معاصيك دون طاعتك ، وجيوشك الذين تعدهم للنوائب إذا احتشدوا كافحوا عنك بسيف طوله ذراعان وقوس لا ينتهى مدى مرماها ثلاثمائة ذراع ، وهم مع ذلك مستغرقون في المعاصي والخمور والملاهي والمزمار والطنبور . . وأنا أقمت لك جيشا يسمى جيش الليل ، إذا نامت جيوشك ليلا قامت جيوش الليل على أقدامها صفوفا بين يدي ربهم ، فأرسلوا دموعهم وأطلقوا السننتهم ومدوا إلى الله أكفهم بالدعاء لك ولجيوشك . . فانت وجيوشك في خفارتهم تمشون ، وبدعائهم تبيتون ، وبركاتهم تمطرون وترزقون . . » فقبل ملك شاه وسكت (١) وتوفى نظام الملك مقتولا سنة ٤٨٥

ومن الأسباب التي كانت تحصل للأمراء غير العرب على إنشاء المدارس والمساجد ، غير التماس الأجر والثواب ، أنهم كانوا ينشأون في بلاط السلطان ويغلب أن يكونوا من صناعته أو مواليه ، فيكون له عليهم حق الولاء أو الرق . فإذا توفي أحدهم عن مال أو ضياع وأراد السلطان قبضها فعل وحرم أبناءه منها . فكان الرجل منهم إذا بلغ الامارة وكثر ماله خاف عادية السلطان على ما يخلفه من ذريته ، فيبنى المدارس أو الزوايا أو الربط ، ويقف عليها الأوقاف المغلة من ضياعه أو أبنيته ، ويجعل في شروط الأوقاف أن يتولاها بعض ولده وله نصيب منها ، والأوقاف ثابتة فيأمن بذلك على أولاده الفقراء

وكان من أسباب إنشاء المدارس أيضا تأييد المذهب الذي يتبعه السلطان أو الأمير ، فقد كانت القاهرة شيعية منذ بنيت ، وكانت الدروس التي تلقى في الجامع الأزهر على مذهب الشيعة ، فلما تولاها صلاح الدين الأيوبي أبطل هذا المذهب وأحيا المذهب المالكي والشافعي ، فأنشأ المدارس لتعليم هذين المذهبين فبنى المدرسة الناصرية سنة ٥٦٦ هـ للمذهب الشافعي ، وهي أول مدرسة حدثت بمصر (١) واقتدى به من جاء بعده من الأكراد والأتراك

ومهما يكن السبب ، فلا خلاف في أن نظام الملك أول من اشتهر بإنشاء المدارس في الإسلام في أواسط القرن الخامس للهجرة . فبنى المدارس في بغداد وأصبهان ونيسابور وهراة وغيرها ، وكل منها تنعت بالنظامية نسبة إليه ، أشهرها المدرسة النظامية في بغداد تولى بناءها سعيد الصوفي سنة ٥٧٧ هـ على شاطئ دجلة وكتب عليها اسم نظام الملك ، وبنى حولها أسواقا تكون محبسة عليها وإيتاع ضياعا وخانات وحمامات وقفها عليها ، فبلغت النفقة ما يقارب ٦٠٠٠٠ دينار

وكان للمدرسة المذكورة شأن كبير في العالم الإسلامي ، وقد تخرج فيها جماعة من رجال العلم طار ذكرهم في الآفاق . أول أساتذتها الشيخ أبو اسحق الشيرازي ، ثم الإمام أبو نصر الصباغ صاحب الشامل ، ثم أبو القاسم الدبوسي ، وأبو حامد الغزالي ، والشاشي ، والكي الهراسي ، والسهورودي ، وكمال الدين الأنباري وغيرهم من أقطاب العلم . فأصبح التعليم في هذه المدرسة من أكبر أسباب الثقة بالمعلمين ، وكانت تعلم فيها العلوم الدينية والفقهية واللسانية

واقتدى السلاطين والأمراء بنظام الملك في إنشاء المدارس المجانية على هذه الصورة في أنحاء المملكة الإسلامية ، وأشهرهم على الترتيب السلطان نور الدين زنكي صاحب دمشق المتوفى سنة ٥٧٧ هـ ، وهو تركي الأصل بنى المدارس في جميع بلاد الشام وغيرها مثل دمشق وحلب وحماه وحمص

(١) الخطط التوفيقية ٨٧ ج ١

وبعلبك ومنبج والرحبة ، غير ما بناه من المارستانات والمساجد ودورالحديث والربط . ثم السلطان صلاح الدين المتوفى سنة ٥٨٩ هـ وهو كردى ، بنى المدارس فى مصر والاسكندرية والقدس وغيرها ، ثم الملك المعظم مظفر الدين صاحب أربل المتوفى سنة ٦٣٠ هـ ، فقد بنى كثيرا من المدارس ودور الأيتام واللقطاء والأرامل وغيرها . واقتدى بالسلطان صلاح الدين من خلفه من أهله فى مصر ، فتسابقوا الى انشاء المدارس فيها فبلغ عددها بعد انقضاء ملكهم ٢٥ مدرسة . ولما أفضى الملك الى السلاطين المماليك ساروا على خطواتهم واقتدى بهم الأغنياء ، فبلغ عدد ما أنشأوه بمصر الى أيام المقيزى فى أواسط القرن التاسع للهجرة ٤٥ مدرسة وصار المجموع ٧٠ مدرسة . ويقال نحو ذلك فى الاصقاع الأخرى . وأول من أنشأ المدارس فى الدولة العثمانية السلطان أورخان المتوفى سنة ٧٦١ هـ ، واقتدى به سلاطين آل عثمان فى انشائها ، وأشهرها المدارس الثمانى التى أنشأها السلطان سليمان (١)

وجاء فى رحلة ابن جبير الذى طاف الشرق الاسلامى فى القرن السادس انه شاهد عشرين مدرسة فى دمشق و ٣٠ فى بغداد . أما الاندلس فقد نقل الأمير على صاحب تاريخ الاسلام فى الانجليزية أن العرب أنشأوا المدارس فى قرطبة واشبيلية وطليطلة وغرناطة ومالقة وغيرها ، وأن مملكة غرناطة وحدها بلغ عدد مدارسها ١٧ مدرسة كبرى و ١٢٠ مدرسة صغرى (٢) ولكن يظهر أن مدارس الاندلس أنشئت على غير مثال المدرسة النظامية . قال المقرئ صاحب نفح الطيب : « وليس لأهل الاندلس مدارس تعينهم على طلب العلم ، بل يقرأون جميع العلوم فى المساجد بأجرة ، فهم يقرأون لأن يتعلموا لا لأن يأخذوا جازيا » (٣) فترى فى عبارة المقرئ نفيا صريحا للمدارس فى الاندلس ، فالظاهر أن الأمير عليا المذكور نقل كلامه عن الأفرنج ، وهؤلاء ربما يعنون مدارس المساجد

والمدارس فى الاسلام على أشكال ، منها حلقات الجوامع والربط والزوايا ، ومنها المدارس المجانية الكبرى للعلوم الاسلامية والمارستانات للطب والفلسفة ، غير ما قد يعقده العلماء من مجالس التعليم فى منازلهم . وعدد الطلبة على أى حال يختلف باختلاف شهرة الاستاذ فى فنه ، فكان يجتمع فى حلقة الفارابى مئات المثمن من الطلبة . وقد يكون للأستاذ تلامذة تحتهم تلامذة . ذكروا أن أبا بكر الرازى الطبيب المشهور كان يجلس فى مجلسه ودونه التلاميذ ، ودونهم تلاميذهم ، ودونهم تلاميذ آخر . فكان يجىء الرجل فيصف ما يجد لأول من يلقاه ، فان كان عندهم علم والا تعدهم الى غيرهم ،

(١) الشقائق النعمانية ١٠٤ ج ٢

(٢) Ameer Ali's Short History of the Saracens, 627

(٣) نفح الطيب ١٠٤ ج ١

فان أصابوا والا تكلم الرازى (١) وكان الاستاذ يزداد شهرة ونفوذا بازدياد تلامذته ، واذا مشى مشوا حوله وقد يركب وهم مشاة . كان الامام فخر الدين بن خطيب الرى اذا ركب مشى حوله ٣٠٠ تلميذ من الفقهاء (٢) . وكان الشيخ الاستاذ اذا قرأ عليه أحد كتابا كتب هو علامته على الكتاب ، شهادة بأنه قرأه عليه . ومن أكثر العلماء تلامذة الشيرازى والفارابى والرازى وابن خطيب الرى وابن سينا والغزالى . وكان التعليم شاملا كل طبقات الناس ، حتى الممالك والجوارى والعبيد والمخائث وغيرهم

المكتبات أو خزائن الكتب

ما برح الناس منذ أخذوا فى تدوين أعمالهم وأخبارهم وعلومهم وهم يحرصون على استبقاء ما يدونونه ، لانهم دونوه رغبة فى استبقائه . ويعبرون عن المكان الذى يحفظون الكتب فيه بالمكتبة أو خزانة الكتب ، وأقدم من أنشأ المكتبات فى العالم البابليون سنة ١٧٠٠ قبل الميلاد ، ومن بقاياهم مكتبة عثر عليها علماء القرن الماضى فى خرائب بابل وأشور ، هى عبارة عن قرميدات من الطين المجفف عليها كتابة بالحرف الاسفينى (السمارى) ، يليهم المصريون القدماء فقد وصف ديودورس مكتبة وجدوها فى قبر ملك مصرى اسمه اوسيمندياس . ثم اليونان وهم أول من أنشأ المكتبات العامة لفائدة الناس ، وأقدم منشئها بيسستراتوس فى أواسط القرن السادس قبل الميلاد . وذكر بلوتارخس مكتبة فى برجاموس مؤلفة من ٢٠٠.٠٠٠ مجلد . وأنشأ البطالسة مكتبة الاسكندرية الشهيرة . ثم الرومان ، وأول مكتباتهم نقلوها عن متدونية الى رومية سنة ١٦٧ ق.م ، ثم استولوا على مكتبة برجاموس المذكورة سنة ١٣٣ ق.م ، ثم نقلوا مكتبات أثينا سنة ٨٦ ، ولما عظم شأن قسطنطين فى القسطنطينية أنشأ فيها مكتبة سنة ٣٥٥ م ، غير ما تقدم ذكره من خزائن الفرس فى الرساتيق والازج . ثم كف الناس عن انشاء المكتبات حتى تملن المسلمون وأنشأوا مكتباتهم

المكتبات الاسلامية :

لما ظهر الاسلام ونهض المسلمون للفتح أحرقوا ما عثروا عليه من الكتب لأسباب تقدم بيانها ، لكنهم ما لبثوا أن تحضروا وذاقوا طعم العلم حتى أصبحوا أحرص الناس على الكتب وأكثرهم بذلا فى الحصول عليها وأشدهم عناية فى صيانتها . وقد رأيت ان العرب قضوا القرن الاول ونصف القرن الثانى وأبحاثهم قاصرة تقريبا على العلوم الاسلامية ، ولم يدونوها الا فى

أواخر تلك المدة . فكان ما يجمعونه من الكتب محصورا في الأشعار والأخبار والأمثال مكتوبة على الرقوق أو الجلود أو الانسجة أو نحوها . قالوا ان كتب أبي عمرو بن العلاء كانت تملأ بيته الى السقف ، وقالوا نحو ذلك في سائر رواة الأدب والشعر كالاصمعي وحماد وأبي عبيدة

غير أن ذلك لا يعد من قبيل المكتبات العامة التي انما يقوم بانشائها ولاية الأمور أو من يجري مجراهم . ومرجع الفضل في انشاء هذه المكتبات الى خلفاء النهضة العباسية ، وان كنا نرى ذكر خزائن الكتب في أيام بني أمية التي أخرج عمر بن عبد العزيز منها كناس هرون ، فتلك على الغالب مما انشأه الأطباء أو الفلاسفة الذين كانوا في خدمة تلك الدولة لأنفسهم أو لأولادهم

مكتبات بغداد :

أما في الدولة العباسية فكان انشاؤها من جملة أسباب نهضتهم لنقل العلوم ، فأنشأوا مكتبة في بغداد سموها « بيت الحكمة » الغالب أن الرشيد أنشأها وجمع اليها ما كان قد نقل الى العربية من كتب الطب والعلم ، وما ألف من العلوم الاسلامية ، مع ما سعى يحيى بن خالد في جمعه من كتب الهند ، وما وقع للرشيد من كتب الروم في أنقره وغيرها . ولما تولى المأمون وأنشأ مجالس الترجمة جمع في بيت الحكمة كتب العلم في لغاتها ، وفيها اليونانية والسريانية والفارسية والهندية والقبطية ، فضلا عن العربية ، وعلم الناس رغبته في ذلك فاتوه بالكتب على اختلاف موضوعاتها وأشكال خطوطها ، ومنها كتاب ذكر ابن النديم أنه بخط عبد المطلب بن هاشم جد النبي (صلعم) على جلد ، وفيه ذكر حق عبد المطلب « على فلان بن فلان الحميري من أهل صنعاء عليه ألف درهم فضة كيلا بالحديدة ومتى دعاه بها أجابه شهد الله والملائكة » (١)

وكان بيت الحكمة عبارة عن مجلس للترجمة أو النسخ أو الدرس أو التأليف ، فيجلس النساخ في أماكن خاصة بهم ينسخون لأنفسهم أو بأجور معينة ، وكذلك المترجمون والمؤلفون والمطالعون . ومن نساخ بيت الحكمة علان الشعوبي أصله فارسي وكان راوية عارفا بالأنساب والمنافرات ، وكان ينسخ في بيت الحكمة للرشيد والمأمون والبرامكة ، وله كتاب في مثالب العرب هنك فيه العرب وأظهر مثالبها (٢) وممن كان يتردد الى بيت الحكمة للمطالعة أو التأليف محمد بن موسى الخوارزمي المنجم ، ويحيى بن أبي منصور الموصلی أحد أصحاب الارصاد في أيام المأمون ، والفضل بن نوبخت

(١) الفهرست ٥ (٢) الفهرست ١٠٥

المنجم ، وأولاد شاكر وغيرهم . وكان البيت المذكور قيم يدبر شؤونه يسمى صاحب بيت الحكمة ، وأشهر مديريها سهل بن هارون وهو فارسي شعوبي شديد التعصب على العرب ، وله في ذلك كتب كثيرة . ومنهم سلم وله نقول من الفارسي الى العربي . فترى من ذلك ان البيت أو الخزنة المذكورة انشئت على يد الفرس وخدمتها والمترددون اليها من الفرس ، وأكثرهم من الشعوبية الذين يكرهون العرب ، ولذلك سبب متصل بقيام الخراسانيين بنصرة المأمون لأسباب ذكرناها في الجزئين الماضيين من هذا الكتاب

ثم أنشأ البغداديون المكتبات على مثال بيت الحكمة ، أشهرها مكتبة وقفها سابور بن أردشير وزير بهاء الدولة في محلة بين السورين في الكرخ في سنة ٣٨١ هـ وجعل فيها أكثر من عشرة آلاف مجلد كلها بخطوط الأئمة العترة ، وكان المؤلفون يقفون عليها نسخا من مؤلفاتهم . واحتترقت فيما احترق من محال الكرخ عند مجيء طفعل بك أول ملوك السلجوقية الى بغداد سنة ٤٤٧ هـ (١) وممن تولى حفظ ما بقى منها والإشراف عليها عبد السلام البصري اللغوي المتوفى سنة ٤٠٥ هـ (٢) . واشتهر بجمع الكتب من بني العباس الخليفة الناصر بن المستضيء المتوفى سنة ٦٢٢ هـ (٣)

مكتبات الاندلس :

وكان المأمون مثالا في انشاء المكتبات في الممالك الاسلامية ، كما كان مثالا في سائر أسباب النهضة العلمية . فافتدى به بنو أمية في الاندلس ، واشبههم به الحكم المستنصر بن الناصر الذي تولى الخلافة سنة ٣٥٠ هـ وتوفى سنة ٣٦٦ هـ وكان محبا للعلوم مكرما لأهلها جماعا للكتب على أنواعها بما لم يجمعه أحد من الملوك قبله . فأنشأ في قرطبة مكتبة جمع اليها الكتب من أنحاء العالم ، فكان يبعث في شرائها رجالا من التجار ومعهم الأموال ، ويحرضهم على البذل في سبيلها لينافس بنو العباس في اقتناء الكتب وتقريب الكتاب . وكان أبو الفرج الاصفهاني صاحب الاغانى معاصرا له ، وهو أموى مثله فبعث اليه أن يرسل اليه كتاب الاغانى قبل اخراجه الى بني العباس ، وبذل له على ذلك ألف دينار ذهبا . وفعل نحو ذلك مع القاضي أبي بكر الأبهري المالكي في شرحه لمختصر ابن عبد الحكيم وغيره ، فاجتمع له من الكتب ما لم يسبق له مثيل في الاسلام . فجعلوها في قاعات خاصة من قصر قرطبة أقاموا عليها مديرا ومشرفا ووضعوا لها الفهارس لكل موضوع على حدة . وذكروا أن فهارس الدواوين وحدها ٤٤ فهرسا في كل فهرس غشرون ورقة (٤) فإذا قدرنا للصفحة ٢٥ اسما فقط كان مجموع عدد

(١) ابن الاثير ١٤٥ ج ١٠ ومعجم ياقوت ٧١٩ ج ١ (٢) طبقات الادباء ٤١٢ وابن خلكان ٢٤٥ ج ٢

(٣) ابن خلدون ١٤٦ ج ٤ (٤) ابن خلدون ١٤٦ ج ٤

الدواوين {ر...} كتاب ، فكيف بسائر الكتب ؟ ولا نظننا نبالغ اذا سلمنا مع ابن خلدون والمقرئ أن مجموع ماحوته تلك المكتبة {ر...} مجلد (١) واقتدى بالحكم رجال دولته وعظماء مملكته ، فأنشأوا المكتبات في سائر بلاد الاندلس ، حتى قالوا ان غرناطة وحدها كان فيها سبعون مكتبة من المكتبات العامة ، وأصبح حب الكتب في الاندلس سجية في أهلها وأصبح اقتناؤها من شارات الوجاهة والرئاسة عندهم . وقد يكون الرئيس منهم جاهلا ويحتفل أن يكون في بيته خزانة كتب ، ليقال فلان عنده خزانة كتب ، والكتاب الفلاني ليس عند أحد غيره ، والكتاب الذي هو بخط فلان قد حصله وظفر به . قال الحضرمي : « أقمت مرة بقرطبة ولازمت سوق كتبها مدة أترقب فيه وقوع كتاب كان لي بطلبه اعتناء ، الى أن وقع وهو بخط فصيح وتفسير مليح ففرحت به أشد الفرح ، فجعلت أزيد في ثمنه فيرجع الى المنادى بالزيادة على ، الى أن بلغ فوق حده . فقلت له : يا هذا ! أرني من يزيد في هذا الكتاب حتى بلغه الى ما لا يساوي ، قال : فأراني شخصا عليه لباس رئاسة ، فدنوت منه وقلت له : أعز الله سيدنا الفقيه ، ان كان لك غرض في هذا الكتاب تركته لك ، فقد بلغت به الزيادة بيننا فوق حده . فقال لي : لست بفقيه ولا أدري فيه ، ولكني أقمت خزانة كتب واحتفلت فيها لاتجمل بها بين أعيان البلد ، وبقي فيها موضع يسع هذا الكتاب ، فلما رأته حسن الخط جيد التجليد استحسنته ولم أبال بما أزيد فيه ، والحمد لله على ما أنعم به من الرزق فهو كثير . قال الحضرمي : فأخرجني وحملني على أن قلت له : نعم ، لا يكون الرزق كثيرا الا عند مثلك . . يعطى الجوز من لا أسنان له . . وأنا الذي أعلم ما في هذا الكتاب وأطلب الانتفاع به يكون الرزق عندي قليلا ، وتحول قلة ما بيدي بيني وبينه ! » (٢) (*)

وظل أهل قرطبة على أى حال أحسن الاندلسيين رغبة في الكتب ، كما كان أهل اشبيلية أرغبهم في اللهو والطرب ، فاذا مات عالم في اشبيلية فأريد بيع كتبه ، حملت الى قرطبة حتى تباع فيها ، واذا مات مطرب بقرطبة فأريد بيع تركته حملت الى اشبيلية . أما مكتبة قرطبة فما زالت في قصرها حتى بيع أكثرها في حصار البربر ثم أتم عليها الافرنج

مكتبات مصر :

واقتدى بخلفاء بغداد والاندلس الخلفاء الفاطميون بمصر ، بدأ بذلك منهم

(١) نفع الطيب ١٨٢ و ١٨٦ ج ١ (٢) نفع الطيب ٢١٨ ج ١

(*) كتب الاستاذ خليان ريبيرا بحثا ضافيا عن الكتب ومحبها وخزانها في الاندلس :

Julian Rebera y Tarrago: Bibliophilos y bibliotecas en la Espana Musulmana Disertaciones y opusculos (Madrid, 1928) vol. 1, 181-229.

العزیز بالله ثانی خلفائهم ، تولى الخلافة سنة ٣٦٥ هـ وهو شاب ، فاستوزر يعقوب بن کلس ، وكان يعقوب مدبراً ومحباً للعلم ، فرتب له الدواوين وقرب اليه العلماء على اختلاف طبقاتهم ، وأجرى لهم الارزاق وحسب الى الخليفة اقتناء الكتب ، فجمع منها جانباً كبيراً خصص لها قاعات في قصره وسماها « خزانة الكتب » ، وبذل الأموال في الاستكثار من المؤلفات المهمة في التاريخ والأدب والفقه ، ولو اجتمع من الكتاب الواحد عشر نسخ أو مائة نسخة أو أكثر . ذكروا أنه كان فيها من كتاب العين للخليل نيف وثلاثون نسخة منها نسخة بخط الخليل نفسه ، وعشرون نسخة من تاريخ الطبرى ، واشتروا النسخة بمائة دينار ، ومائة نسخة من كتاب الجهرة لابن دريد . وكان عدد النسخ المكررة يزداد بتوالى الأعوام ، حتى بلغ عدد النسخ من تاريخ الطبرى عند استيلاء صلاح الدين الأيوبي على مصر ١٢٠٠ نسخة ، وكان فيها ٣٤٠٠ ختمة قرآن بخطوط منسوبة محلاة بالذهب . فلا عجب اذا قالوا انها كانت تحوى ١٦٠٠٠٠٠ كتاب (١) في الفقه والنحو واللغة والحديث والتاريخ والنجامة والروحانيات والكيمياء ، منها ١٨٠٠٠ كتاب في العلوم القديمة ، فيها ٦٥٠٠ جزء من كتب النجوم والهندسة والفلسفة خاصة (٢) غير أدوات الهندسة والفلك

على أننا نرى في تقدير تلك الكتب مبالغة ، وقد قدرها آخرون ٢٠٠٠٠٠ كتاب ، وغيرهم ١٢٠٠٠٠ ، ونظن في تقديرهم التباساً من حيث المراد بخزانة الكتب أو خزائن الكتب ، لأن العزیز بعد أن أنشأ خزانته بقصره اقتدى به جماعة من أهله فأنشأوا مثلها في قصورهم ، فالظاهر أن المراد بالتقدير القليل عدد الكتب في خزانة العزیز خاصة ، وبالكثير عدد ما في خزائن القصور كلها . وبهذا الاعتبار لا يقل عدد الكتب في خزائن القصور عن ١٠٠٠٠٠٠٠٠ مجلد أو كتاب

وكان للعزیز عناية كبيرة بخزائنه يتعهد بها بنفسه حيناً بعد حين ، وقد رتب لها قيماً يتولى شؤونها ويجالسه ويقرأ له الكتب ويناديه ، وممن تولى ذلك أبو الحسن الشابشتى الكاتب المتوفى سنة ٣٩٠ هـ (٣)

وقد أصاب هذه الخزائن من الاحن بتوالى الفتن مثل ما أصاب مكتبة الاسكندرية في عهد الرومان ، فألقى بعض كتبها في النار والبعض الآخر في النيل وترك بعضها في الصحراء فسفت عليه الرياح حتى صار تلالاً عرفت بتلال الكتب ، واتخذ العبيد من جلودها نعالاً مما يطول شرحه . وبالإجمال فقد طرح ما بقى منها عند دخول الأكراد للمبيع في أواسط القرن السادس،

(١) القرينى ٤٠٨ و ٤٠٩ ج ١ (٢) تراجم الحكماء

(٣) ابن خلکان ٣٣٨ ج ١

وكان في جملة ما أخرجوه من تلك القصور نحو ١٢٠.٠٠٠ كتاب أعطاها صلاح الدين للقاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني (١)

دار الحكمة :

وتسمى أيضا دار العلم وهي غير خزانة العزيز أو خزانة القصور كما توهم الاكثرون . أنشأها الحاكم بأمر الله بن العزيز بالله سنة ٣٩٥ هـ ، بجوار القصر الغربي بالقاهرة ، وحمل إليها الكتب من خزائن القصور ، ووقف لها أماكن ينفق عليها من ريعها . ففرشوها وزخرفوها وعلقوا الستائر على أبوابها وممراتها وأقاموا عليها القوام والمشرفين . والفرض من دار الحكمة مثل الغرض من بيت الحكمة الذي أنشأه العباسيون ، أى لخدمة الناس في المطالعة والدرس والتأليف . وهي طريقة القدماء في تعليم الناس ، اذ يتعذر على غير الاغنياء اقتناء الكتب الكثيرة نظرا لغلائها ، فمن أحب تعليم رعيته أنشأ مكتبة جمع فيها الكتب وفتح أبوابها للناس ، كما فعل البطالسة في مكتبة الاسكندرية ، والعباسيون في بيت الحكمة ببغداد . وقد عد بعضهم دار الحكمة مدرسة ، لأن الحاكم أقام بها القراء والمنجمين وأصحاب النحو واللغة والأطباء ، وأجرى لهم الارزاق وأباح الدخول اليها لسائر الناس على اختلاف طبقاتهم من محبى المطالعة ، ليقروا أو ينسخوا ما شاءوا ، وجعل فيها ما يحتاجون اليه من الخبر والأقلام والورق والمحابر . وكان الحاكم يستحضر بعض علماء الدار المذكورة بين يديه ، ويأمرهم بالمناظرة كما كان يفعل المأمون ويخلع عليهم الخلع . وقد أباح المناظرة بين المترددين الى دار الحكمة ، فكانوا يعقدون المجتمعات هناك وتقوم المناظرات وقد يفرض الجدال الى الخصام . واتخذ بعض أصحاب البدع تلك الاجتماعات وسيلة لبث آرائهم ، فاضطر الافضل بن أمير الجيوش في أوائل القرن السادس للهجرة الى إبطالها دفعا لأسباب الفتن ، فلما توفي الافضل أمر الخليفة الأمر بأحكام الله وزيره المأمون بن البطائحى فأعادها سنة ٥١٧ هـ ، ولكنه اشترط فيها المسير على الأوضاع الشرعية ، وأن يكون متوليها رجلا دينيا وأن يقام فيها متصلرون برسم قراءة القرآن . ولا نظن عدد كتبها يقل عن ١٠٠.٠٠٠ كتاب ، ولما أفضت الحكومة الى صلاح الدين الايوبي هدم دار العلم وبناها مدرسة للشافعية (٢) (*)

(١) ابن خلدون ٨١ ج ٤

(٢) ابن خلدون ٧٩ ج ٤ (ويسمى دار المعرفة)

(*) نورد فيما يلي احصاء بالكتب في مكتبات مصر العامة الآن :

دار الكتب المصرية ، حوالى ٥٧٠٠٠٠ مجلد - ولدار فروع في شبرا والظاهر والزيتون والقلمة وحلوان وامبابة والمنيرة ، عدا مكتبة الفن ومكتبة التحرير بمصر الجديدة ومتوسط ماقى كل منها نحو ١٠٠٠٠ مجلد

مكتبة بلدية الاسكندرية ٧٩٧٠١ كتاب منها ٤٠٨٦ مخطوط

» بلدية دمهور نحو ١٤٠٠٠ كتاب

مكتبات الشام :

لما كانت الشام مركز الخلافة في أيام بني أمية لم يكن للخلفاء رغبة في العلم ولا التفت العباسيون إليها . ولكنها اشتهرت في عهد الدولة الفاطمية بمكتبة

دار الكتب بطنطا حوالي ٢٥٠٠٠ كتاب
 » » بالنصورة حوالي ١٨٠٠٠ كتاب
 » » بشبين الكوم حوالي ١٧٠٠٠ كتاب
 » » بالفيوم حوالي ١١٠٠٠ كتاب
 مكتبة بلدية المنيا حوالي ٧٠٠٠ كتاب
 مكتبة مجلس مديرية اسيوط حوالي ٦٥٠٠ كتاب
 مكتبة بلدية سوهاج حوالي ١١٠٠٠ كتاب
 وفي كل وزارة مكتبة عامة خاصة بها ، أكبرها مكتبة وزارة التربية والتعليم وفيها نحو ٢٥٠٠٠ كتاب ، ومكتبة وزارة العدل وبها نحو ٥٠٠٠٠ مجلد
 وتوجد في دور المحاكم الرئيسية مكتبات عامة أكبرها مكتبة محكمة الاستئناف وبها نحو ٢٠٠٠٠ كتاب

ولكل من الجامعات المصرية مكتبة عامة حافلة غير مكتبات الكليات ، وأهمها :
 مكتبة الجامعة الأزهرية ، فيها نحو ٨٠٠٠٠ كتاب منها ٢٢٠٠٠ مخطوط

مكتبة كلية الشريعة	٦٠٠٠	مجلد
مكتبة كلية اللغة العربية	١٠٠٠٠	»
مكتبة جامعة القاهرة	٢٠٠٠٠	»
مكتبة كلية التجارة	٢٥٠٠٠	»
» » الحقوق	٦٠٠٠٠	»
» » دار العلوم	٣٠٠٠٠	»
» » الزراعة	٢٠٠٠٠	»
» » الطب	٣٥٠٠٠	»
» » الطب البيطري	٣٠٠٠	»
» » العلوم	٢٠٠٠٠	»
» » الهندسة	٤٠٠٠٠	»
مكتبة جامعة الاسكندرية	١٢٠٠٠٠	»
مكتبة كلية الآداب	١٣٠٠٠	»
» » التجارة	٨٠٠٠	»
» » الحقوق	٢٥٠٠٠	»
» » الزراعة	١٠٠٠٠	»
» » الطب	٦٠٠٠	»
» » العلوم	١٠٠٠٠	»
» » الهندسة	١٢٠٠٠	»

ولم تنشأ بعد مكتبة عامة لجامعة عين شمس ، ولكن كلا من كلياتها لها مكتبتها :

مكتبة كلية التجارة	٨٠٠٠	كتاب
» » الزراعة	٨٠٠٠	»
» » الطب	٥٠٠٠	»
» » الهندسة	١٢٠٠٠	»

ولكل معهد من المعاهد العليا في مصر مكتبة عامة ، أهمها مكتبات كلية الفنون الجميلة وكلية الفنون التطبيقية ، ومعهدى التربية للمعلمين بالقاهرة والاسكندرية وبعض الهيئات الحرة لها مكتبات ، مثل مكتبة الدار البطريركية (نحو ٥٠٠ كتاب) ومكتبة معهد الدراسات الشرقية للاباء الدومينيكيين (نحو ١٥٠٠٠ مجلد) ، ومكتبة المعهد الفرنسى للآثار الشرقية بالقاهرة (نحو ٥٠٠٠ كتاب) ، ومكتبة الجامعة الأمريكية بالقاهرة (وبها نحو ٤٠٠٠٠ كتاب) ولكل متحف من المتاحف الكبرى مكتبته المتخصصة في فنه ، وأهمها مكتبات دار الآثار المصرية ومتحف الفن الاسلامى ومعهد الآثار الاسلامية والمتحف القبطى ومتحف التعليم وما إليها وكذلك لكل من الهيئات الثقافية مكتبة حافلة أهمها مكتبة الجمعية الجغرافية المصرية ، ومكتبة الجمعية التاريخية المصرية ، وتحرس وزارة التربية والتعليم على تزويد مكتبات هذه =

كانت في طرابلس الشام حتى فتحها الافرنج سنة ٥٠٢ هـ فانتهبوها (١) وذكر «جبن» أن عدد كتبها ٣٠٠٠٠٠ ر. ٣٠٠٠٠٠ ر. ٣٠٠٠٠٠ ر. ٣٠٠٠٠٠ ر. فلما تولى نور الدين الشام وأنشأ المدارس في مدائنهم جعل فيها خزائن الكتب ، وتعرف بالخزائن النورية ، وهكذا فعل صلاح الدين

أما بلاد فارس فقد تقدم في غير هذا الباب ما كان فيها من الخزائن المخبأة في البرساتيق والأزج والقباب ، مكتوبة بالحروف الفهلوية على الجلود ونحوها قبل الاسلام ، فلما نضجت الحضارة الاسلامية في بغداد كان الفرس من أكبر العوامل فيها ، وفي جملة مساعيهم انشاء بيت الحكمة وغيره كما تقدم

وأما خراسان فقد كانت بلاد علم وأدب لما علمته من انشاء المدارس فيها قبل سائر بلاد الاسلام . وأما المكتبات فلم يتصل بنا من أخبارها الا القليل ، فقد ذكر ياقوت في معجمه أنه ترك مرو الشاهيجان أشهر مدن خراسان يومئذ سنة ٦١٦ هـ وفيها عشر خزائن للوقف لم ير في الدنيا مثلها كثرة وجودة ، وقد فصل أخبارها وأخبار واقفيها وذكر أن واحدة منها كان فيها ١٢٠٠٠٠ مجلد وأنه أخذ علمه منها (٢)

أما ما وراء النهر فقد ذكروا في بخارى مكتبة اشتهرت باقتباس ابن سينا علمه عنها ، وكانت لنوح بن منصور سلطان بخارى ، قال الشيخ الرئيس : « رأيت فيها من الكتب ما لم يقع اسمه الى كثير من الناس ، وما كنت رأيت من قبل الخ » . وأنشأ هولاء التتري لنصير الدين الطوسي في مراغة مكتبة فيها ٤٠٠٠٠٠ مجلد مما نهبه التتر من بغداد والشام والجزيرة

هذا ما عثرنا على خبره من المكتبات العامة التي أنشأها الخلفاء أو السلاطين لمنفعة الناس ، غير خزائن الكتب التابعة للمدارس أو المارستانات أو الجوامع ، فانها كانت كثيرة جدا ومنها ما لا تقل كتبها عن المكتبات الكبرى ، وهي مرتبة أبوابا حسب الموضوعات وعليها الوكلاء والقوام . وغير الخزائن الخاصة التي كان يقتنيها العلماء لأنفسهم وهي كثيرة وعظيمة ، فقد كانت كتب الصاحب بن عباد تنقل على ٤٠٠٠ جمل ، وخلف أفرام الطبيب المصري ٢٠٠٠٠ مجلد ، ولما مات موفق الدين بن المطران كان في خزائنه ١٠٠٠٠٠ مجلد غير ما استنسخه ، وكان له ثلاثة نسخ يكتبون . وكان عند أمين الدولة ٢٠٠٠٠ مجلد ، وقس عليهم كثيرين كالفتح بن خاقان وابن القفطي وغيرهما

= الجمعيات بالكتب

ومنذ سنة ١٩٥٢ نهضت مكتبات المدارس في مصر نهضة كبرى ، فليس هناك مدرسة لا تضم مكتبة ، وبعضها يصل مجموع كتبه الى ٢٠٠٠٠ كتاب . ومن أهم مكتبات مصر من الوجهة التاريخية مكتبة دير سانت كاترين بسينا ، ومعظم رصيدها من المخطوطات (نحو ٥٠٧١ مخطوطا)

(١) ابن خلكان ١٢٨ ج ٢ (٢) Gibbon's Roman Empire. II, 505

(٣) معجم ياقوت ٥٠٦ ج ٤

ولا تتضح ضخامة تلك المكتبات الا اذا قابلناها بمكتبات هذا العصر ، مع اعتبار الفرق بين العصرين وما كان لانتشار الطباعة من تسهيل اقتناء الكتب ، مع مرور الأزمنة الطويلة على مكتبات هذه الايام ، وكثرة الوسائل المساعدة على اقتناء الكتب لقلّة النفقة وغير ذلك . ونقتصر على المكتبات الاسلامية الكبرى التي عرفنا عدد مجلداتها وتقابلها بأشهر مكتبات أوروبا اليوم :

أشهر مكتبات المسلمين في عهد التمدن الاسلامي

عدد المجلدات	
٠٠٠ ٠٠٠	بيت الحكمة في بغداد (*)
١٠٠٠٠	مكتبة سابور »
٤٠٠ ٠٠٠	الحكم بقرطبة »
١٠٠٠ ٠٠٠	خزائن القصور بالقاهرة
١٠٠ ٠٠٠	دار الحكمة »
٣ ٠٠٠ ٠٠٠ ؟	مكتبة طرابلس
٤٠٠ ٠٠٠	مراغة »

أشهر مكتبات هذه الايام في عواصم أوروبا الكبرى

عدد المجلدات	
٢ ٧٠٠ ٠٠٠	مكتبة باريس الأهلية
١ ٦٤٨ ٠٠٠	المتحف البريطاني في لندن »
١ ٣٦٠ ٠٠٠	بطرسبرج القيصرية »
١ ٢٣٠ ٠٠٠	برلين الأهلية »
٩٢٤ ٠٠٠	فيينا الملوكية »
٦٧٧ ٠٠٠	رومية الأهلية (**)

وفي الولايات المتحدة ٤.٢٦ مكتبة مجموع عدد كتبها ٣٣٠.٥١٨٧٢ مجلدا . وعلى الجملة فان المسلمين جمعوا في مكتباتهم العامة والخاصة من الكتب على اختلاف موضوعاتها ما يعد بالملايين . ولم يبق منها الا جزء

(*) لم يوجد احصاء لكتبها ، ولهذا تركها المؤلف دون تقدير
 (**) هذا هو تقدير اعداد الكتب في ذلك الحين ، وقد زادت هذه الاعداد بعد ذلك زيادة كبيرة وتغيرت اسماء الكثير من هذه المكتبات ، فأصبحت مكتبة بطرسبرج مثلا مكتبة ليننجراد ، ومكتبة فيينا أصبحت تسمى المكتبة الاهلية
 أما أوسع مكتبات العالم اليوم فهي مكتبة الكونجرس في واشنطن ، وكتبها تبلغ بضعة ملايين

		عدد المجلدات
مكتبة عبد الحميد	في القسطنطينية	١ ٣٨٣
» حالت افندى	»	٦٥٦
(مجموع الكتب في القسطنطينية)		٢٧ ٤٤٥
مكتبة الأزهر	في القاهرة	١ ٠٩٩
» عبد الله باشا العظم	بدمشق	٤٢٢
» المدرسة الأحمدية	بمجلب	٢٦٩
» رودس		٦٠٩
(المجموع كله)		٢٩ ٨٤٤

وبديهي أن هذه الكتب ليست كلها ما بقي من المؤلفات العربية ، فقد كان منها شيء كثير في المكتبات الخاصة وغيرها ، ولكنها على أى حال لا تعد شيئا بالنظر الى ما كانت عليه في ابان التمدن . وخصوصا اذا اعتبرنا تكاثر المؤلفات بتوالى القرون ، مما يدعو الى زيادة عدد الكتب الباقية في القرون الوسطى كما لا يخفى لا الى نقصانها ، ولكن لكل شيء أجلا لا يتعداه ، سنة الله في خلقه

أنساب العرب القدماء

رد على القائمين بالأمومة والطوقية عند العرب الجاهلية

كتب الينا صديقنا الاستاذ مرجليوث المستشرق الانجليزى الكبير فى أثناء نقله كتابنا تاريخ التمدن الاسلامى الى اللغة الانجليزية كتابا هذا نصه :

« ان بين ما جاء فى كلامكم عن انساب العرب وبين آراء المستشرقين فى هذا الصدد بونا عظيما . ولو اطلعتم على كتاب الانساب والزواج عند العرب الجاهلية للاستاذ روبرتسن سميث (١) لرأيتم بين المشهور عندنا والموضوع فى كتابكم فرقا بعيدا ، فان مسألة الامومة مثلا قد دونت فيها مجلدات كثيرة ذهب أكثر أصحابها الى أن العائلة القديمة ليس فيها أب معلوم ، انما ترأسها أم كثيرة الرجال . وحق الأبوة أمر مستحدث ادخاله عند العرب لم يسبق عهد النبی (صلعم) بكثير . وانساب العرب كلها أكاذيب ، فان أسماء القبائل ليست أسماء رجال قد عاشوا كما يزعمون ، بل أكثرها يشبه المسمى Totem عند الأمم المتوحشة ، اعنى حيوانا ينتسبون اليه لجهلهم بترتيب الطبيعة ، فيصدر عن انتسابهم اليه سنن وقوانين لا تخفى آثار بعضها عند العرب الجاهلية »

هذا هو نص كتاب الاستاذ ، فنظرنا فيه نظر الاعتبار اجلالا لمقام صاحبه ، وبادرنا الى كتاب روبرتسن سميث المشار اليه ، فاذا هو يدخل فى نيف وثلاثمائة صفحة . فتصفحناه مليا رغبة فى الاطلاع على ذلك الراى وتدبره ، لان مؤلفه من كبار المستشرقين وله فى الشرق وآدابه أبحاث ومؤلفات ذات شأن ، ككتابه فى أديان الساميين وغيره من المقالات الشائقة . فقرأنا الكتاب باخلاص وامعان ، لعلنا نقتنع بصحة هذا الراى فنرجع اليه ، اذ لا غرض لنا فيما نكتبه الا تقرير الحقيقة ، فهى ضالتنا المنشودة اذا ظفرنا بها وقفنا عندها صاغرين ، ولا يهمنا على يد من يكون ذلك . فتحققنا من مطالعة الكتاب ما عليه الرجل من العلم والفضل ، وسعة الاطلاع على آداب الشعوب السامية ولغاتها وأديانها ، وتوسمنا من خلال أدلته وسبك عبارته حجة وقوة على الاقتناع ، يندر مثلها بين أرباب الاقلام ، ولولا ذلك ما استطاع - مع ضعف المذهب الذى أخذ على نفسه اثباته - أن يلاقى اصفاء من جلة العلماء المستشرقين ، وفى جملتهم صديقنا الاستاذ مرجليوث ، حتى ظهر اقتناعه بذلك فى مقدمة كتابه الجليل الذى أصدره فى السيرة النبوية Mohammed and the Rise of Islam على أن الاستاذ المشار اليه قد أسند الراى الى صاحبه ولم يتكلف نقده ، اعتمادا على ما اشتهر به صاحبه من

سعة العلم، ولا نخاله لو تكلف ذلك ألا شاعرا بما شعرنا به من وهم صاحب في تصويره على ما سنيينه فيما يلى . وقد نكون واهمين مثله ، لأن العصمة لله وحده . وانما أردنا أن نقول فى هذا الموضوع كلمة نلقيها بين يدى العلماء المستشرقين ، ولا ندعى النجاة من الزلل ، بل يكفينا أن تربو مواضع الصواب فى أقوالنا على مواضع الخطأ ، وربما كان الامر بالعكس - على أن البحث لا يخلو من فائدة على أى حال

وبما أننا سننشر هذه الرسالة باللغة العربية أيضا ليطلع عليها جمهور القراء ، وفيهم من لا يزال خالى الذهن من الطوتم والامومة ونحوهما من الابحاث الجديدة التى قلما طرقها كتاب العربية ، رأينا أن نصدر الكلام بتمهيد وجيز فى المراد من هذه الالفاظ ، ثم نتقدم الى الموضوع



١ - الطوتمية

عند القبائل المتوحشة الآن

الطوتم هو لفظ دخل اللغات الافرنجية فى أواخر القرن الثامن عشر من لغة الاوجيبى من هنود امريكا ، ويراد به كائنات تحترمها بعض القبائل المتوحشة ، ويعتقد كل فرد من أفراد القبيلة بعلاقة نسب بينه وبين واحد منها يسميه طوتمه ، وقد يكون الطوتم حيوانا أو نباتا أو غير ذلك . وهو يحمى صاحبه ، وصاحبه يحترمه ويقدسه أو يعبد ، وإذا كان حيوانا لا يقدم على قتله ، أو نباتا فلا يقطعه أو يأكله . وتختلف الطوتمية عن عبادة الحيوانات والنباتات الشائعة عند بعض تلك القبائل المعبر عنها بالديانة الفتشية فى ان هذه عبادة صنم بصورة حيوان ، وتلك تقديس نوع من أنواع الحيوان أو النبات أو عبادته

والطوتم بالنظر الى مجموع القبائل ثلاث طبقات : أولا طوتم القبيلة وهو عام يشترك فى احترامه كل أفرادها ويتوارثونه ، ثانيا طوتم الجنس وهو ما يختص باحترامه أفراد أحد الجنسين الذكور أو الاناث فيكون خاصا بنساء القبيلة أو برجالها ، ثالثا الطوتم الشخصى وهو ما يختص باحترامه الفرد الواحد ولا يرثه أبناؤه . والاول أحراها بالاعتبار وعليه نجعل مدار كلامنا

طوتم القبيلة :

هو حيوان أو نبات أو شيء آخر يشترك فى تقديسه أو عبادته أفراد قبيلة من القبائل ويتسمون باسمه ويعتقدون أنه جدهم الأعلى وأنهم من دم واحد مرتبطون بعهد متبادلة ترجع الى ذلك الطوتم . وله عندهم اعتباران،

أحدهما دينى والآخر اجتماعى . فالدينى يراد به ما بين الرجل وطوتمه من العلاقة المتبادلة : الرجل يحترم الطوتم ، والطوتم يحميه ويحفظه . وأما الاجتماعى فهو الحقوق المتبادلة بين أفراد تلك القبيلة التى يجمعها اسم ذلك الطوتم ، بالنظر الى القبائل الأخرى المنسوبة الى طوتمات أخرى ، وقد يختلف الاعتباران فى كثير من الأحوال

فالطوتم من الوجهة الدينية يعتبر أبا للقبيلة وإنها من نسله ، ولكل قبيلة حديث خرافى عن طوتمها يتناقلونه أبا عن جد ، يغلب أن يكون مداره على كيفية انتقاله من الحيوانية أو النباتية الى الإنسانية . فمن قبائل الأيروكوا - من هنود أمريكا - قبيلة تعرف بقبيلة السلحفاة ، يعتقد أهلها أنهم متسلسلون من سلحفاة سمينة استثقلت صدفاتها فالتفتها عن ظهرها ثم تحولت الى إنسان أولد أولادا . ومنهم قبيلة الخلزون (البزاقة) يعتقدون أنهم متسلسلون من الخلزون وأنثى الجندبادستر - وذلك أن حلزونا ذكرا خلع صدفته ونبت له يدان ورجلان ورأس وتحول الى رجل طويل القامة جميل الصورة ، فتزوج أنثى الجندبادستر وأولدها هذه القبيلة . وقس على ذلك قبائل تنسب الى البط أو الأوز أو غيرها من الطيور المائية . وفى سينغمبيا قبائل تنتسب الى وحيد القرن وفرس البحر أو الى العقرب أو الثعبان . فكل من هذه الحيوانات يعد طوتما للقبيلة التى تسمى باسمه ، وهى تحترمه وتقديسه فلا تؤذيه ولا تقتله . فقبيلة البط مثلا لا تؤذى هذا الطير ولا تقتله الا اذا عض أحدها الجوع فياكل البطة وهو يأسف ويستغفر ، وكذلك اذا كان الطوتم نباتا فإنهم يحترمونه ويتجنبون أن يدوسوه أو يأكلوه ، فمن كان طوتمه الليرة مثلا فأكلمها محرم عليه . واذا كان الطوتم شجرة حرما أحرأ عيوانها

ولا يقتصر احترامهم الطوتم على تحريم أكله أو أذيته فان بعضهم يحرم لمسه أو النظر اليه . فقبيلة الأيل - من قبائل الأوهاما - لا تأكل لحم الأيل ولا تمس أيلأ ذكرا ، وقبيلة رأس الغزال لا تمس جلد غزال قط . وقد يحرمون التلفظ باسم الطوتم ، فاذا اضطروا الى ذكره عمدوا الى الكناية أو الإشارة . فمن هنود الدولاورس فى أمريكا قبيلة تنسب الى الذئب ، وأخرى الى السلحفاة ، وأخرى الى ديك الحبش (الديك الرومى) فاذا اضطروا الى ذكر أحدها كنوا عن الاول بالقدم المستديرة ، وعن الثانى بالساحف ، وعن الثالث بغير الماضغ ، والقبائل المذكورة تعرف بهذه الكنايات

واذا مات حيوان من نوع طوتم القبيلة احتفل أهلها بدفنه وحزنوا عليه حزنهم على واحد منهم ، فقبيلة البومة فى ساموا اذا وجد أحد رجالها بومة ميتة فانه يقعد الى جانبها ويأخذ فى الندب والبكاء ويضرب جبينه بالحجارة

حتى يدميه ، ثم يكفن البومة ويحملها الى المدفن كأنها بعض افراد القبيلة . ويعتقدون ان من أهان الطوتم أو أساء اليه يصاب بالمصائب ، ويختلف اعتقادهم ذلك باختلاف القبائل أو البلاد . فبعضهم يعتقدون أن من يأكل طوتمه تصبح نساء قبيلته عواقر ، وغيرهم يعتقدون أنهم يصابون بالامراض أو النكبات أو نحو ذلك . ويتوهم آخرون ان أكل طوتمه يجازى بالموت ، بأن يقيم الطوتم في بدنه ولا يزال يأكل منه حتى يموت

ويؤمنون من الجهة الاخرى ان الطوتم لا يؤذى صاحبه ، فالذين طوتمهم الحية مثلا لا يخافون لسعها ، وعندهم ان الحية لا تلسعهم . وكذلك قبائل العقرب في سينغمبيا ، فهم على ثقة أن العقرب السامة تمر على جسم أحدهم ولا تؤذيه . وقس على ذلك قبائل الذئاب ونحوها . وكثيرا ما يمتحنون بذلك قرابة من يدعى انتسابه الى أحدها ، فمن زعم أنه من قبيلة الثعبان اطلقوا عليه الثعبان ، فاذا لسعه قالوا انه مدع كاذب ، وعلى هذا المبدأ ينبذون كل من لايراعى الطوتم جانبه ويتجنب أذيته

على أنهم لا يكتفون من الطوتم أن يكف أذاه عن أصحابه أو عباده ، ولكنهم يتوقعون أن يحسن اليهم ويدافع عنهم . فتعتقد قبيلة الذئاب ان الذئاب تدافع عنها في ساحة القتال ، ويتوهم أكثر أصحاب الطوتمية ان الطوتم ينذر أصحابه بالخطر قبل وقوعه بعلامات أو رموز على نحو ما يعبر عنه بالقال أو الطيرة

ومما يتقربون به الى الطوتم ابتغاء رضاه وحمايته أن يتشبهوا به ، فيقلدوه في شكله ومظهره ويلبسوا جلده أو قسما من جلده ، أو يتخذوا جزءا منه يعلقونه في أعناقهم أو أذرعهم على نحو التعاويذ في الامم الاخرى ، فلا يخلو فرد من تعويذة تدل على علاقته بطوتمه

ومن عاداتهم الدالة على اعتبارهم أنفسهم من نسل الطوتم ، ما يجرونه من الاحتفال عند الولادة أو الزواج أو الوفاة ونحوها من الاحوال . فقبيلة الغزال الاحمر مثلا اذا ولد لهم طفل نقشوا ظهره بالحمرة ، واذا كان من قبيلة الذئب صاحت الولائد عند وضعه : « قد ولد لنا ذئب صغير ! » ويخيطون بقميص الطفل قطعة من عين النائب أو قلبه ، واذا تزوج واحد من قبيلة الكلب الاحمر في جاوة دهنوا العروسين برماد عظام كلب أحمر ، وقس على ذلك سائر القبائل بما ينتسبون اليه من أنواع الطوتم . ويحتفلون نحو هذه الاحتفالات عند الوفاة أو الزواج

أما الطوتم الجنسي فيراد به اختصاص ذكور القبيلة أو اناثها بطوتم خاص . فبعض القبائل في استراليا للذكورها طوتم ولاناثها طوتم آخر ، وكلاهما غير طوتم القبيلة . وكذلك الطوتم الشخصي ، فان الرجل قد يكون له طوتم

خاص به غير طوتم القبيلة وغير الطوتم الجنسى

أما طوتم القبيلة من الوجهة الاجتماعية ، فيراد به تعاقد أهل القبيلة فيما بينها باعتبار علاقتها بالقبائل الاخرى . فأهل الطوتم الواحد يعدون اخوة وأخوات ، يتعاونون فى السراء والضراء بروابط هى أشد مما بين أفراد العائلة الواحدة اليوم . فيتزوج الرجل بامرأة من غير قبيلته وطوتم غير طوتمه ، وربما نشأ الأولاد على طوتم آخر ، فاذا انتشبت حرب تعاون أهل الطوتم الواحد على أصحاب الطوتم الآخر ، فينفصل الرجل عن زوجته والولد عن أبيه أو أمه

ومن شروط الطوتمية أن رجال الطوتم الواحد لايتزوجون نساء من قبيلتهم ، ولا النساء برجال منها ، وهو ما يعبر عنه علماء العمران بالزواج الخارجى Exogamy . ويعتقد أصحاب الطوتم أن التزاوج فى نفس القبيلة مضر بالصحة حتى ينخر العظام ، ويعاقبون من يقدم عليه بالموت أو العذاب الأليم ، ولذلك فهم يتخذون نساء من القبائل الاخرى بالغزو أو المراضاة أو نحو ذلك ، والأولاد يرثون على الغالب طوتم أمهاتهم ، فكأن النسب يتصل بينهم بالأمهات وليس بالآباء كما هو المعهود بيننا

وقد تفرع القبيلة الى بطون وأفخاذ تنسب الى آباء من الحيوان أو النبات بينها نسبة تفرعية ، مثل تفرع الحيوان الى الانواع وما تحتها من الفصائل والتباينات ، أو بعلاقة أخرى بين طوتم القبيلة وطوتمات الفروع ، كأن يكون طوتم القبيلة حيوانا وطوتم فرعها نباتا يأكله ذلك الحيوان مما لا سبيل الى بسطه

والطوتمية منتشرة الآن فى العالم المتوحش، فهى عامة بين قبائل استراليا ، وكثرة الانتشار فى شمالى أمريكا وفى بناما والطوتم الشائع هناك «البغاء» ، ولا تخلو أمريكا الجنوبية من آثار الطوتمية على حدود كولمبيا وفنزويلا وفى جيانا وبيرو . وللطوتمية شأن كبير فى افريقيا ، فانها شائعة فى سينغميا وبين قبائل البقالى على خط الاستواء ، وعلى شاطئ الذهب الاشانتى ، وبين الدامارية والبكوانية فى جنوبى افريقيا ، وفى أماكن كثيرة من تلك القارة . ولها آثار فى مدغشقر وبعض جزر ملقا . أما فى آسيا فلها أثر فى أواسط الهند بين بعض قبائل البنغال غير الآريين ، وفى سيبيريا وبعض جهات الصين وجزائر المحيط . وأكثر هذه القبائل أدخلها العلماء فى الطوتمية بالقياس التمثيلى ، لأنها تقدر بعض الحيوانات أو النباتات وان لم تتسم بأسمائها

الخلاصة :

فالطوتمية تلخص فيما يأتى :

- (١) انها شائعة الآن بين أكثر الأمم اعراقا في الوحشية
- (٢) ان قوامها اتخاذ القبيلة حيوانا أو نباتا أو شيئا آخر من الكائنات المحسوسة أبا لها تعتقد أنها متسلسلة منه وتسمى بإسمه
- (٣) ان كل قبيلة تقدر طوتما أو تعبد
- (٤) تعتقد كل قبيلة أن طوتما يحميها ويدافع عنها ، أو هو على الأقل لا يؤذيها وان كان الأذى طبعه
- (٥) الزواج ممنوع بين أهل الطوتم الواحد ، وأساس التناسل عندهم التزوج بينات من أصحاب الطوتومات الأخرى (الأكسوجامى)
- (٦) ان الأبوة ضائعة عندهم ومرجع النسب الى الأم
- (٧) لا عبرة عندهم بالعائلة ، وانما القرابة تنتهى الى الطوتم ، وأهل الطوتم الواحد اخوة وأخوات يجمعهم دم واحد

أصل هذا المذهب

ومذهب الطوتمية - بالنظر الى نظام الاجتماع - حديث ، أول من قاله الدكتور مكلينان الباحث الاجتماعى الانجليزى المتوفى سنة ١٨٨١ ، فانه ألف في هذا الموضوع كتابه الزواج عند القدماء Primitive Marriage ونشره للمرة الاولى سنة ١٨٦٥ ، ثم كتب كتبا كثيرة في هذا الموضوع وما يتفرع عنه نشر فيها أصل مذهبه والقواعد التى بنى عليها رأيه فى الطوتمية . ولم يكذب ينشر رأيه حتى تصدى علماء الاجتماع لانتقاده ، وفى مقدمتهم الفيلسوف سبنسر والسير جون لوك العالم الاجتماعى الشهير ، ولا سيما الاول فانه أفاض فى نقد هذا المذهب بكتابه « أصول العمران » وكتاب « أصول التمدن » وغيرهما مما لاشأن لنا به . وانما ننظر الآن فى الأمر من حيث ما يهمنا ونغض الطرف عن صحة هذا المذهب أو فساده ، ونبحث فيما اراده الاستاذ روبرتسن سميث من تطبيقه على العرب قبل الاسلام

رأى سميث فى طوتمية العرب :

يرى سميث أن العرب كانوا فى أقدم أزمانهم ينتسبون الى آباء من الحيوانات أو النباتات كانوا يعبدونها أو يقدسونها ويتسمون بأسمائها ، وكان شأنهم فى الزواج والامومة وغيرها مثل شأن القبائل المتوحشة فى استراليا وامريكا وافريقيا ، وان المشهور من انتساب العرب الى اسماعيل وقحطان من آباء التوراة ، وتسلسل القبائل على الصورة المعروفة انما هو حادث وضعه أهل الاغراض فى زمن حديث لا يتجاوز القرن الاول للهجرة ، مبنيًا على ديوان الامام عمر بن الخطاب من حيث حقوق المسلمين فى العطاء بالنظر الى القبائل وأنسابها (صفحة ٦ من كتابه)

ولتأييد هذا الرأي بدأ أولا باثبات الامومة عند العرب ، فقال ان العرب في الزمن القديم لم يكن عندهم عائلة رئيسها الأب ، ولا كانت الانساب تتصل بالآباء ، بل كان الزواج عندهم نحو ما هو في بلاد التبت اليوم ويعرف بالزواج التيبتي ، وذلك أن المرأة تتزوج برجلين فأكثر ، وأولادها لا ينتسبون لأحدهم وإنما ينتسبون الى القبيلة ويسمون بطوتها كما تقدم . فعمد أولا الى ايراد الأدلة على اثبات الامومة وشيوعها عند العرب القدماء ، ولما ظن نفسه أثبتتها عمد الى اثبات الطوتمية ، فبذل قصارى جهده في استخراج الأدلة والشواهد مما سنفضله ونبين وجه الخطأ فيه

٢ - العرب القدماء وأنسابهم وأخبارهم

وقبل التقدم الى البحث في أدلة الاستاذ سميث ، نقول كلمة اجمالية في العرب وأنسابهم ورواياتهم تمهيدا للبحث

ان من يطالع رأى صاحب طوتمية العرب ، ومن يقول قوله من المستشرقين ، يدرك لأول وهلة انهم انما حملهم على ذلك امران : الاول ضعف ثقتهم بأقوال مؤرخي العرب وبما حفظ من خرافاتهم القديمة ، والثاني نهوض اهل القرن الماضي لتحدى ما ثبت من مذهب الارتقاء في قواعد العمران ، لأن شيوع هذا المذهب في اواسط ذلك القرن حمل أدباء الافرنج على رد كل شيء الى أسباب طبيعية ، كما فعل سبنسر في رد العبادات وأكثر العادات الى مثل هذه الأسباب . وهكذا أراد صاحب طوتمية العرب فانه لما اطلع على ما كتبه مكلينان عن الطوتم في القبائل المتوحشة - وهو مستشرق مطلع على أخبار العرب سىء الظن في جاهليتهم يحتقر أقوال روايتهم ونسايهم - ورأى بين أسماء آباء القبائل والبطون ما يشبه أسماء الحيوانات ، سبق الى وهمه أنها من آثار الطوتمية عندهم . فوضع هذا الحكم نصب عينيه ، وأخذ على نفسه أن يبرهنه . ولما كانت الطوتمية مبنية على الامومة ، عمد الى اثبات هذه . فأتى بأدلة ضعيفة تجاوز بها حد التكلف ، واستشهد بنوادير من أخبار العرب ، فجعل الشاذ قاعدة وأغفل القواعد العامة الثابتة التي اجمع عليها النسابون والرواة ، مما يخالف أصول البحث . وهذا غريب من عالم اطلع على أخبار الأمم وخرافاتهم ، وعلم أن التاريخ القديم أكثره مأخوذ من الخرافات المأثورة عن الاسلاف ، يحصها المؤرخون ويستخرجون صحيحها من فاسدها فلا يحتقرون خرافة ولا ينكرون قولاً . فان ما في الياذة هوميروس من أخبار الآلهة وخرافاتهم ، لم يمنع العلماء من تمحيصها والتمييز بين التاريخ والدين والخرافة فيها . ويقال نحو ذلك عن أخبار الهنود القدماء ، منذ نزل جماعة الآريين الى بلاد الهند على ما هو مدون في كتبهم السنسكريتية . وهكذا ينبغي أن يقال في خرافات العرب ، من

أخبار عاد وثمود وطسم وجديس ، وأخبار سيل العرم ونحوها . فأنها - مع بعدها عن مألوفنا - لا تخلو من حقائق تاريخية ذات بال ، قد كشف الزمان صدق كثير منها ، فنأتى بشنرات من ذلك على سبيل المثال :

عاد وثمود :

ان أعرق خرافات العرب في القدم وابعدها عن المؤلف أخبار القبائل البائدة . وما زال الباحثون الى عهد غير بعيد يعدونها من الخرافات الموضوعية قبيل الاسلام ، وظنها آخرون لبعض الأمم الأخرى وقد حفظها العرب ونسبوها لأنفسهم . ثم تبين لهم أنها لا تخلو من حقيقة ثابتة ، لما وجدوه من ذكرها في كتب مؤرخي اليونان أو جغرافيين القدماء كاسترابون وبطليموس وغيرهما . وأهم القبائل البائدة عاد وثمود . أما عاد فقد كان المظنون أنها لم تذكر في كتب اليونان ، لأنهم لم يعثروا بين أسماء قبائل العرب على لفظ يشبهها ، ولكننا بينا في مقالة لنا بهذا الموضوع (الهلال ٢٣ سنة ٦) أنهم ذكروها باسم « عاد ارم » فكتبوها Adramitae ، تميزا لها عن حضرموت وأسمها عندهم Xatramotitae ، ورجحنا هناك أنها وقبيلة هذورام المذكورة في التوراة بين العرب القاطنين بلاد اليمن قبيلة واحدة

وأما ثمود فقد ذكرت مرارا في كتب اليونان والرومان ، وعثروا على آثارها في أعالي الحجاز وحلوا بعض ما نقش على أحجارها ، وكانوا مع ذلك يحسبون تاريخها لا يتجاوز في القدم ما وراء تاريخ الميلاد الا قليلا ، حتى عثر المنقبون على ذكرها في أنقاض أشور حوالي القرن الثامن قبل الميلاد (١) في عرض أخبار الحروب والفتوح ، مما يدل على أن تلك القبيلة كانت ذات شأن في هذا العهد . وقس على ذلك سائر أخبار القبائل البائدة ، مما ضاع خبره لتقدم عهده أو اشتبه اسمه عند اليونان بالتصحييف أو نحوه ، كما أصاب قبيلة « جديس » فان اليونان كتبوها Jolisitai والغالب في أصلها على اعتقادنا Jodisitai بإبدال الدال لاما وهما متشابهان في اللغة اليونانية فاللام تكتب هكذا A والذال هكذا A وقس عليه

ناهيك بما يؤيد أخبار العرب وأنسابهم من نصوص التوراة ، وما عثروا ويعثرون عليه في آثار اليمن وغيرها

النسابون العرب

إذا كان هذا شأن خرافات العرب القديمة ، فكيف بأخبارهم المدونة في الكتب مما أجمع عليه النسابون في صدر الاسلام ، والرواة يومئذ لا يقبلون رواية الا بعد تحققها بالاسناد الصحيح ، لما تعودوه من تحقيق الاحاديث

النبوية أو نحوها من الاخبار الدينية في ذلك العصر ؟ فالعرب يعدون من أكثر الأمم تحقبا في الرواية ، وأكثرهم تدقيقا في حفظ ما يروونه ، ولا سيما في صدر الاسلام لاعتمادهم على الذاكرة واغفالهم الكتابة ، لأسباب بينها في الجزء الثالث من كتابنا « تاريخ التمدن الاسلامي »

ولا ننكر ما يتخلل تلك الروايات من الامور الموضوعة أو المختلف فيها أو غير المعقولة ، ولكن لا يعقل أن تكون كلها موضوعة ، اذ لايتأتى التواطؤ الى هذا الحد . وان جاز لنا تصديق هذا التواطؤ لم يكن لنا بد من السؤال عن الزمن الذى حصل فيه ، أهو قبل الاسلام أو بعده ؟ فاذا قيل قبل الاسلام ، فما الذى دعا الى حصوله ؟ ولا نعلم سببا يدعو الى ذلك ، ولا نظن صاحب طوتمية العرب يعلم . واذا قيل بعد الاسلام — وهو رايه — فقد زعم أن النساين وضعوا الأنساب في صدر الاسلام فقسموها الى قحطانية وعدنانية ، وقسموا كلا منها الى فروع ، وان الغرض من هذا التقسيم بيان حقوق القبائل بالنظر الى العطاء الذى فرضه عمر — فكيف يجوز ذلك وهذه أشعار العرب الجاهلية وأقوالهم وأمثالهم وأخبارهم شاهدة بمحافظتهم على النسب وعنايتهم بالرجوع الى أجدادهم من قحطان وعدنان ؟ بل كيف يقال هذا والاسلام من ظهوره الى انتشاره مبني على النسب القحطاني والعَدَناني ، والخلفاء يحرضون المسلمين على حفظ أنسابهم والتدقيق فيها ؟ ومن أقوال عمر بن الخطاب : « تعلموا النسب ، ولا تكونوا كنبط السواد اذا سئل أحدهم عن أصله قال : من قرية كذا » (١) فهل يصح ذلك والعرب قبائل طوتمية لا رابطة بينها ولا نسب ؟

واذا افترضنا صحته وأن النساين وضعوا هذه الأنساب في أول الاسلام للعطاء ، فكيف ترضى القبائل التي أبعدها النسابون عن النسب النبوي فقل عطاؤها أو ضعفت حقوقها ، وكيف لا تحتج على ذلك ، بل كيف لا يشتتم رائحة ذلك الاحتجاج من كلام المؤرخين ؟ على أن تواطؤ النساين على الوضع بعيد الامكان ، لأنهم لم يأتوا بشيء من عند أنفسهم ، وانما كانوا يطوفون البادية ينقلون النسب عن السنة الحفاظ ويدونونه أو يحفظونه . وقد يجمع النسابة اخباره من أهل نجد والحجاز واليمن بالسؤال من الثقات في تلك الاصقاع المتباعدة الاطراف ، فهل يمكن تواطؤهم على ذلك ؟

الشعوبية وأنساب العرب :

واذا سلمنا بإمكانه ، وان العرب لم يبدوا معارضة احتراماً للخليفة أو خوفاً منه ، فكيف سكنت الشعوبية ولاسيما الفرس عن هذا الاختلاف ، مع ما يفاخرهم به العرب من شرف النسب العربي ، والشعوبية يبحثون عن

(١) ابن خلدون ١٠٩ ج ١

حجة يضعون بها من شرف العرب المتصل اليهم من انتسابهم الى اسماعيل وقحطان ؟ وقد تجرأ الفرس في صدر الاسلام حتى نسبوا العرب الى الوحشية وقالوا : « انهم كالذئاب العادية والوحوش النافرة ، يأكل بعضهم بعضا ويغير بعضهم على بعض ، فرجالهم موثقون في حلق الأسر ، ونساؤهم سبايا مردفات على حقائب الابل » . ولم يطعن أحد منهم في نسبهم تلميحا ولا تصریحا ، ولو استطاعوا ذلك لكان فيه أقوى انتقام لهم . ولا يقال أنهم سكتوا عنه اهمالا ، أو أنهم لم ينتبهوا له ، فقد طعنوا في اختلاف العرب بالنسب وفي استلحاقهم الادعاء ونحو ذلك مما يتعلق بالانساب . قال بجير يعمر العرب باستلحاق الادعاء :

زعمتم بأن الهند أولاد خندف وبينكم قريى وبين البرابر
وديلم من نسل ابن ضبة باسل وبرجان من أولاد عمرو بن عامر
بنو الأصفر الأملاك أكرم منكم وأولى بقربانا ملوك الأكاسر
أطمع في صهرى دعيما مجاهرا ولم تر سترا من دعى مجاهر
وتشتم لؤما رهطه وقبيله وتمدح جهلا طاهرا وابن طاهر (١)

ومع ذلك لم يتعرضوا لصحة انسابهم أو فسادها . وأمة الفرس بلغت أوج تمدنها قبل الاسلام بقرون ، وكان العرب ينزحون اليهم ويقيمون بينهم ، وجرى لهم معهم حروب ومنافسات قبل الاسلام ، وقد استولى الفرس على اليمن وأقاموا بين ظهرائي العرب وعاشروهم وخالطوهم قبيل الاسلام - فهم أولى الناس بمعرفة أحوالهم في جاهليتهم ، فلو وجدوا في ضبط انسابهم شكاً ماسكتوا عنه ، وقد بدأوا بالنقمة عليهم من أوائل القرن الاول للهجرة . وأغرب من ذلك أن النسابين انفسهم كان أكثرهم من العجم ، فهل يضعون شيئا يكون سلاحا عليهم في أيدي أعدائهم ؟

اختلاف بعض الانساب :

فكل ما لدينا من أخبار العرب يرجع الى ترتيب النسب على ما ذكره في كتبهم أو روه في أشعارهم ، وليس عندنا ما يخالف ذلك الترتيب نصا ولا إشارة ، فكيف يجوز لنا نقضه ؟ ولا عبرة في ما ذكره صاحبنا من اختلاف النسابين في نسبة بعض القبائل الى قحطان أو عدنان أو الى قيس أو كلب أو نحو ذلك ، لأن النسب كما قدمنا منقول في الاصل عن أفواه الناس على اختلاف الاصقاع ، والانسان غير معصوم من الخطأ . ولا يخلو أن يكون ديوان عمر بن الخطاب وفرض العطاء على النسب أوجب بعض التشويش ، وانتماء بعض البطون الى غير قبائلها ، والنسابون المحققون يبينون الصحيح من الفاسد على ما يبلغ اليه امكانهم . ولكن وجود هذا

الاختلاف لا يدل على فساد النسب من أساسه ، كما أن اختلاف الرواة في تفاصيل إحدى الوقائع التاريخية لا يدل على أنها لم تقع . فلو اختلف جماعة في فتح عمرو بن العاص مصر ، فقال أحدهم أنه فتحها صلحا ، وقال آخرون أنه فتحها عنوة ، وقال غيرهم أنه جاءها بأربعة آلاف مقاتل ، وقال آخرون بل جاءها بعشرة آلاف ، واختلف آخرون في هل جاءها العرب على الخيل أو على الإبل — فهل يدل ذلك على أن مصر لم تفتح ، وإذا قال ذلك قائل إلا ننسبه إلى الشذوذ في أحكامه ؟

على أن اختلاف النسابين قد يكون سببه تشابه القبائل بالاسماء لفظا واختلافها معنى ، وهذا كثير في أنسابهم قد وضع له النسابون كتباً مستقلة ، ككتاب مختلف القبائل ومؤلفها لأبي جعفر محمد بن حبيب المتوفى في أواسط القرن الثالث للهجرة ، وقد طبع في جوتنجن سنة ١٨٥٠ . ولو راجعت معجمات القبائل لرأيت عدة منها باسم واحد ، بعضها من قحطان والبعض الآخر من عدنان وفيها بطون من اليمنية ويطون من القيسية . فبنو أسد بطن من الأزد من كهلان من القحطانية ، وبنو أسد أيضا بطن من قضاة من حمير ، وبنو الأوس بطن من الأزد من القحطانية ، وبنو الأوس بطن من العدنانية ، وبنو الحرث عدة بطون من قبائل مختلفة ، وبنو بكر عدة بطون بعضها من العدنانية والبعض الآخر من القحطانية ، وبنو تغلب حى من وائل ابن ربيعة من العدنانية ، وبنو تغلب بطن من قضاة من القحطانية ، وبنو تميم من طابخة من العدنانية ، وبنو تميم بطن من هذيل من العدنانية ، وبنو ثعلبة بضعة عشر بطنا من قبائل مختلفة (١) ومثلهم بنو ربيعة ، وبنو سليم ، وبنو عامر ، وبنو عدى ، وبنو كعب وغيرهم . فالاسم الواحد تشترك فيه عدة بطون ترجع إلى أصول مختلفة . وقد وجدوا بطونا كثيرة باسم بنى أمية ، ففي قريش أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ، وفي إياد ابن نزار أمية بن حذافة ، وفي الأنصار أمية بن زيد بن مالك من الأوس ، وفي طى أمية بن عدى بن كنانة بن مالك ، وفي قضاة أمية بن عصبه بن هصيص ، وقس عليه

وقد تتشابه أسماء القبائل صورة وتختلف لفظا ومعنى ، مثل جناس بسين مشددة وجساس بسين مخففة ، وأكثر ما يكون الاشتباه في الأسماء المتشابهة بصور الحروف مع غرض الطرف عن النقط ، وقد كان ذلك سببا كبيرا للالتباس قبيل الإسلام وفي صدره . ففي مذحج عنس (بالنون) ابن مالك بن أدد ، وفي غطفان عبس (بالباء) ابن بغيض ، وفي الأزد عبس (بالباء) ابن هوازن بن أسلم . وقس عليه عنزة ، فانها بهذا اللفظ في ربيعة وهى

(١) نهاية الأرب من قبائل العرب (خط)

عنزة بن أسد بن ربيعة بن نزار ، وفي خزاعة عيرة (بالياء) ويقال أيضا عنز ، وفي الأزد عنتر بن عمرو بن عوف بن عدى بن الأزد ، وفيها أيضا عبرة (بالباء) أما مضمومة العين أو مفتوحة ، ومنها غيرة بالعين والياء باختلاف الحركات . ومن هذا القبيل عنز من ربيعة وعتر من ربيعة أيضا ، ومثلها غبر . وقس على ذلك اجرم واخزم واخرم ، وكل منها من أصل غير أصل الآخرين (١)

فهذه الاختلافات بالصورة واللفظ أوجبت بعض الالتباس في أنساب القبائل . ويقال نحو ذلك في قلة عدد الآباء بالنظر الى الزمن ، فقد يكون سببه ضياع بعض الأجداد لنسيان أو غيره ، أو اعتبار الجد قبيلة برأسها وليس رجلا فردا ، كما هو المظنون في بعض أجداد اليهود آباء التوراة . وهذا أيضا من الأدلة على قدم الأنساب من عهد الجاهلية ، إذ لو وضعها واضع بعد ذلك لانتقن صناعة التزوير وأكثر من الآباء حتى لا يبقى مكان لظهور التزييف ، ولكن النسابين لم يأتوا بشيء من عند أنفسهم ، وإنما نقلوا ما كان شائعا على السنة العرب محفوظا في أذهانهم على علته

وزد على ذلك أن من القواعد الأساسية في تمييز الحقوق « أن الأصل براءة الذمة » ، فالأصل في أنساب العرب أن تعتبر كما وصلت إلينا ، ولا يجوز لنا الاعتراض عليها أو نقضها إلا بما لا يقل ثقة عن النصوص الصريحة والقرائن الثابتة بالتواتر أو نحوه . أما الاعتماد على الأقوال النادرة ، أو الرجوع الى شوارد الأخبار ، واتخاذ الشواذ قواعد ، فلا يصح الاعتماد عليه ، أو هو استقراء ناقص ، بل هو ليس من الاستقراء في شيء ، وإنما هو من قبيل التحكم على خلاف القاعدة المتبعة في البحث والنقد . والأقرب الى الصواب في اثبات قضية أن نتدرج فيها من الجزئيات الى الكليات ، فمتى ثبتت الجزئيات ثبتت الكليات . وأما صاحبنا فإنه افترض القضية الكلية وحاول اثباتها ، فلم يعدم من الحوادث المبعثرة من أخبار العرب ما يتخذه أساسا يبنى عليه بناء ضعيفا يظهر ببراعته كأنه صحيح

فالاستاذ روبرتسن سميث صاحب طومية العرب اطلع على رأى مكليان في طومية هنود استراليا وأمريكا ونحوهما ، ورأى لبعض قبائل العرب أسماء حيوانية ، ووجد النسابين مختلفين في أصول بعض القبائل ، فتبادر الى ذهنه أنها بقايا الطوتم كما قلنا ، فوضع القضية الكلية : « أن العرب كانوا من أصحاب الطوتم » ثم أخذ يبحث في كتبهم عما يؤيد هذا القول ، ولا يخفى عليك ما هنالك من التوارد الشاذة والحوادث المتضاربة ، فاختار ما ظنه يؤيد قوله وأغفل الباقي . فلو كان السير على هذه الخطة في الاستدلال

والبرهان جائزا لما أعجزنا اثبات أى قضية فرضناها ، مهما يكن من غرابتها فلو أردنا الذهاب الى أن المرأة في الجاهلية كانت مطلقة الحرية ذات شأن في الحياة الاجتماعية مثل شأنها في أمريكا اليوم ، لما عدنا من أخبار العرب ما يسند هذا القول . وكذلك لو قلنا انها كانت تعامل عندهم معاملة البهائم فاننا نجد ما يشاكل زعمنا . ولكن القاعدة في مثل هذا البحث أن ينظر في مجمل الأدلة ويؤخذ الراجح بالاجماع أو الاغلبية ، ولم يجمع العرب في أخبارهم أو خرافاتهم أو أشعارهم أو توارихهم أو عاداتهم على شيء مثل اجمالهم على تلك الانساب ، أفننكرها بمجرد الظن ؟ وهل يزال اليقين بالشك ، ثم نلتفت الى رأى ليس في أخبار العرب ولا في توارихهم ولا توارِخ سائر الأمم السامية ما تشتم رائحته منه ؟

ثم ان تلك الانساب وصلت الينا بالتسلسل من النسابين الى المؤرخين على اختلاف أماكنهم وعصورهم ، وهى مع ذلك مطابقة في أكثر رواياتها ، فكيف تتفق هذه المطابقة ان لم يكن أصلها صحيحا ؟ وان قيل ان ذلك الاصل وضع بعد الاسلام ، فلا بد من أن يكون واضعه رجلا ذا سلطان ، فمن هو هذا يا ترى ؟ وكيف يخفى خبره مع كثرة أعداء العرب في ذلك العصر ؟

والصحيح أن النسب قديم عند العرب ، مثل قدمه عند سائر الأمم السامية ، والعرب أشد تمسكا به لبدائتهم وتنقلهم مع فراغ أيديهم من جامعة أخرى يرجعون إليها . وقد بالغوا في المحافظة على الانساب ، حتى حفظوا انساب خيولهم الى أجيال كثيرة ، فيلحقونها بما اشتهر منها في اللحاق أو السباق من جياذ الخيل ، كأعوج والوجيه ولاحق والغراب واليحموم (١) . ولو راجعت ما وصل الينا من أخبار النسابين لعجبت من عنايتهم بحفظ الانساب وتدقيقهم في ضبطها . وكان أحدهم اذا نسب واحدا تتبع نسبه من أبيه الى رهطه فالفصيلة حتى يصل الى القبيلة ، أو بالعكس من القبيلة الى الفرد

الشعوب السامية :

وقد ذهب صاحب طوتمية العرب في مقدمة كتابه « أديان الساميين » وفي كتاب « انساب العرب » الذى نحن فى صدده الى أن الساميين نشأوا أولا في جزيرة العرب ثم تفرعوا ، فخرج العبرانيون والآراميون منها وعمرها ما حولها من البلاد وظل العرب فيها على بدائتهم ، فكان ينبغى أن تكون الطوتمية عندهما كما هى عند العرب . ولكنه لم يقل ذلك ، واذا قاله فلا نظنه يوفق الى ما يسند قوله ولو فى الظاهر مثل توفيقه فى طوتمية العرب ، لأن اليهود قلما تسموا بأسماء الحيوانات لبعدهم عن البداوة

الخشنة ، فلا يجد بين أسماء القبائل ما يساعده على هذا الزعم . وهب انه وفق الى بعض الاسماء كما وفق الاستاذ كوك في مقالة نشرها في المجلة الاسرائيلية الانجليزية سنة ١٩٠٤ (١) مثل كالب ويعقوب وعورب - فهي أسماء أشخاص لا أسماء قبائل ولا يصح الرجوع اليها في اثبات الطوتمية

على انه لو ترك الافتراض والظن ونظر في الامر على بساطته ، لراى هذه الامم السامية تتشابه في أمر حقيقى واضح لا التباس فيه ، وهو الانتساب الى آباء التوراة . وانتساب العرب الى اسماعيل وقحطان ثابت مما جاء في التوراة من أنساب الأمم ، اذ يظهر للمتأمل أن أنساب العرب فرع من أنساب الساميين ، وقد حقق ذلك وأثبتته جورج رولنسن في كتابه أصل الأمم (٢) وادوار جلازر في كتابه تاريخ العرب وجغرافيتهم (٣) ولنا مقالة في أنساب العرب منشورة في (الهلال) العشرين من السنة الخامسة ، بينا فيها أنساب القبائل البائدة فضلا عن القبائل الباقية ، بالاسناد الى التوراة ومؤرخى العرب ، والتوفيق بينهما وبين الآثار التى كشف عنها المنقبون ونصوص مؤرخى اليونان

فالنسب العربى ثابت بثبوت أنساب التوراة ، مع اعتبار ما يراه أهل النقد من الباحثين أن أسماء بعض الآباء الاولين يراد بها القبائل لا الاشخاص ، فإذا نقضنا هذه لم يبق بيدنا شيء . وهل يجوز أن نغفل هذه الانساب الثابتة بتوالى القرون ، ونرجع الى رأى لا أساس له في كتب المشاركة ولا اشارة اليه في خرافاتهم ولا عاداتهم ولا أديانهم ولا شيء من آثارهم ؟

ومما لا يحسن الاغضاء عنه ان العرب لا يصح قياسهم في أحوالهم وأنسابهم بأصحاب الطوتم من الأمم المتوحشة من هنود أستراليا وأمريكا وزنوج افريقيا ، لأن العرب من أرقى الأمم عقلا ونفسا ، وهم أهل تمدن قديم مثل تمدن أرقى الشعوب القديمة ، وقد ذهب بعض الباحثين في آثار اليمن وحضرموت الى أن التمدن العربى القديم أصل التمدن المصرى القديم ، أى ان الفراعنة أخذوا تمدنهم من بلاد اليمن - ومهما يكن من منزلة هذا القول من الصحة فإنه يدل على اعراق العرب في المدنية منذ آلاف من السنين . دع عنك ارتقاء لغتهم في تركيبها والفاظها ، وهو يشهد بارتقاء عقول أصحابها من أقدم أزمنة التاريخ وقبله ، فهل يعقل أن يتخذوا آباء من النباتات أو الحيوان كما يفعل أعرق الأمم وحشية اليوم ؟ على أن القول بالطوتمية بحد ذاتها من الغرابة بحيث يصعب علينا تصديق وجودها في الأمم المتوحشة ،

ونخشى أن يكون القول بها مبنيا على الاستقراء الناقص . ولنتقدم الآن الى النظر في أدلة صاحبنا فننظر فيما يختص منها بالأمومة ، ثم ما بناه عليها من الطوتمية عند العرب فنقول :

٣ - الأمومة عند العرب

الأمومة على الاجمال :

الأمومة الانتساب الى الأم ، ويراد بها انتساب اهل القبيلة أو الأمة الى أمهاتهم بدلا من آبائهم ، فيقال : فلان بن فلانة كما يقال في الأبوة : فلان بن فلان . والأمومة من الابحاث التي حدثت في أواسط القرن الماضي بعد شيوع مذهب الارتقاء ، وأول من استلقت الانظار اليها عالم المانى اسمه باخوفن في كتاب نشره سنة ١٨٦١ ، فاهتم به علماء العمران لاختلافه عما تعودوه من نظام العائلة المألوف . ومرجع بحثه أن الأمومة سابقة في تاريخ العائلة للأبوة ، فعنده أن الزواج كان عند الاقدمين فوضى بلا شرط ، وهو زواج المشاركة . فاذا ولدت بعض النساء غلاما لايمكن تعيين والده وهو ملازم أمه للرضاع فينتسب اليها ويعرف بها ، فيصير الانتساب الى الأمهات قاعدة عامة . فأصبح للمرأة المقام الاول في الهيئة الاجتماعية وهى صاحبة النفوذ ، كما هو حال الرجل اليوم



ثم ظهر كتاب مكليمان الانجليزى فى الزواج عند القدماء Primitive Marriage نشره سنة ١٨٦٥ فذهب فى الأمومة مذهباً جعل أساسه الزواج الخارجى ، أى تزوج الرجال بنات من غير قبيلتهم بالغزو لقلّة البنات عندهم بالواد (على زعمه) فنشأ عن ذلك فى اعتقاده زيادة عدد الرجال ، فاضطر كل جماعة منهم الى الاكتفاء بامرأة واحدة وهو تعدد الأزواج ، وانحصر النسب فى الأم وعلت منزلتها . وهو قول ضعيف الاسناد متناقض المعنى - كيف يمكن حفظ النسب بالأمهات وكل منهن مجلوبة من الخارج ولها نسب خاص؟ على أن مذهب مكليمان فى أصل العائلة ما لبث أن سقط بما كتبه فيه المنتقدون ، وخصوصاً مورجن العالم الأمريكى صاحب كتاب نظام الاجتماع عند القدماء ، فقد برهن أن الزواج الداخلى لاينافى الأمومة . وكتب فى الأمومة ونظام العائلة غير واحد من علماء الاجتماع الالمان والفرنسيين والانجليز والروس وغيرهم، مثل باجيهوت ودارجون واميرا وويلكن وستارك وبريد وجيرو وسميث ووسترمارك وغيرهم مما يطول بنا تعدادهم ، فنكتفى بآخر من خاض هذا العباب وهو الاستاذ ويلكن المستشرق فى كلية ليدن ، فانه وضع كتاباً فى الأمومة عند العرب على الخصوص ، كتبه بعد مطالعة

كتاب الاستاذ روبرتسن سميث في طوتمية العرب ، فوافقه من وجوه وانتقده من وجوه ، ولكنه يرى رايه في أن الأمومة كانت سائدة عند العرب قبل الاسلام ، وأن الانساب التي يتناقل العرب أخبارها موضوعة . واستشهد بقول لوندكى المستشرق الالماني الشهير في هذا الشأن ، وخلاصة قوله أن الانساب العربية وضعها ابن الكلبي وغيره بعد الاسلام لفقوها تلفيقا (١) وهو قول قد بينا بعده عن الامكان وستأتى تمة الكلام

ولو أردنا الاتيان على أقوال الباحثين في هذا الموضوع لضاق بنا المقام ، فننتقدم الى النظر في أدلة سميث التي نحن في صدها ومن قال قوله :

ادلتهم على أمومة العرب :

ليس في أدلة سميث ولا غيره على الأمومة عند العرب قول صريح أو دليل ثابت ، وإنما هي قرائن أو اشارات لو ثبتت أمومة العرب لكانت مؤيدة لها لا أن تكون هي وحدها دليلا عليها . فانتساب بعض القبائل أو البطون أو العشائر الى أمهاتهم ، وتأنيث أسماء القبائل ، واشتقاق لفظ الأمة من الأم ، واطلاق لفظ الخال على أهل الأم جميعا ، وامتلاك بعض النساء عصمتهم بالطلاق ، وغير ذلك مما عول عليه صاحبنا في اثبات قوله على ما سنبينه . . هذه كلها - اذا فرضنا ثبوتها - لايجوز اتخاذها دليلا على أن العرب كانوا ينتسبون الى أمهاتهم أو أن أساس العائلة عندهم المرأة . لأن وجود هذه الاحوال في جاهلية العرب لا ينافي انتسابهم الى آبائهم ، بل هي تعد من قبيل الشواذ ، أو أنها وقعت على سبيل الاتفاق . ولو جاز لنا أن نجعل الشواذ قواعد لفسدت احكامنا وضللنا في أقوالنا وعقائدنا . فالثابت منذ قرون عديدة أن العرب وغيرهم من الشعوب السامية كان نظام الاجتماع عندهم كما هو الآن ، أى أن الرجل رأس العائلة وهو سيدها ، ويؤيد ذلك لفظ « البعل » للزوج والسيد جميعا . ناهيك بشهادة التوراة ، فإنها مع قدم عهدها لم يرد في نص من نصوصها فقرة تشير الى الأمومة أو تدل على وجودها أو أثر شيوعها عند الساميين أو غيرهم ، ولو على سبيل النقد أو النهي أو الإصلاح . ولا ورد شيء من ذلك في القرآن ، ولا شوهة منقوشة على الآثار في مملكة من ممالك الشرق قديما ولا حديثا ، بل كل ما جاءنا من هذه السبيل يؤكد سيادة الأبوة عند الساميين . ولو افترضنا وجودها لاقتضى أن يكون ذلك قبل أسفار موسى بمدة لا نعلم مقدارها ، لأن هذه الاسفار لما كتبت لم يكن للأمومة أثر على الإطلاق . بل ينبغي أن تكون قد أمحت آثارها قبل موسى بعدة قرون ، لأن شريعة حمورابى التي اكتشفوا

نصها مؤخرا دونت نحو القرن الحادى والعشرين قبل الميلاد (١) وكل ما جاء فيها عن الزواج والطلاق ونحوهما يدل على أن نظام العائلة كان فى عصر حمورابى نحو ما هو عليه الآن : الرجل رب العائلة . وليس فى نص من نصوص شريعته أو موادها لفظ أو عبارة أو قرينة تدل على وجود الأمومة ، لا تصريحاً ولا تلميحاً . ولا اطلعنا على ذكر الأمومة أو الإشارة إليها فى كتاب من الكتب القديمة المتصلة بالخرافات ، مع ما تتضمنه من أقاصيص الآلهة ونحوها . ولا اكتشف المكتشفون نقشا من نقوش الأطلال فيه أقل إشارة الى ذلك ، فكيف يجوز القول بوجودها والاستناد فى اثباتها الى بعض القرائن الضعيفة ؟

قول استرابون :

والظاهر أن القائلين بالأمومة عند العرب نبههم إليها ما طالعوه فى كتب السباح عن وجود زواج المشاركة عند بعض القبائل المتوحشة بين هنود أمريكا وأستراليا وفى بلاد التبت ونحوها ، وأن العرب الجاهلية كان عندهم نوع من هذا الزواج ، فذهبوا الى شيوعها قبل الاسلام ، وخصوصا بعد أن قرأوا ما قاله الرحالة استرابون عن الزواج عند العرب فى عصره ، أى نحو القرن الاول قبل الميلاد . فقد جاء فى الكتاب السادس عشر من رحلته ما ترجمته : « والزواج عندهم مشترك بين الاخوة ، فلأخوة جميعا امرأة واحدة ، والذي يدخل منهم إليها أولا يترك عصاه بالباب . وأما الليل فهو خاص بأكبرهم . وقد يأتون أمهاتهم ، والزناة يعاقبون بالقتل ، وهم الذين يتزوجون من غير قبيلتهم » (٢) فقد يتبادر الى ذهن المطالع لأول وهلة أن هذه الفقرة تؤيد الأمومة ، وليس الأمر كذلك . لأن هذه القصة انما تشير الى اشتراك الاخوة فى الزواج بامرأة واحدة ، وليس أهل العشيرة جميعا . فهى تدل على وجود العائلة واستقلالها ، مما يخالف شروط الأمومة . وتشير أيضا الى تحريم الزواج الخارجى ، وهو من أسس الأمومة عند أصحابنا ، ويقول استرابون أن العرب كانوا يعاقبون مرتكبهم بالقتل

وهب أن نص هذه الحكاية لا يخالف ما يريدونه بالأمومة ، فتكون الأمومة شائعة عند العرب حوالى تاريخ الميلاد . وقد تقدم قول الاستاذ سميث أن العرب والعبران والاراميين كانوا فى اقدم أزمانهم عائشين معا فى جزيرة العرب ثم خرج العبرانيون والاراميون وظل العرب مكانهم . وبيننا قبل أن العبرانيين لا ذكر لهذا الزواج عندهم على الإطلاق ، ولا سمعنا بمثله عند الاراميين ، واغفال حمورابى ذكره فى نصوص شريعته يدل على أنه لم يكن

معروفا في عصره في بلاد ما بين النهرين أو ما يجاورها ، فكيف نصدق وجوده عند العرب نحو تاريخ الميلاد ؟ فالأرجح عندنا أن يكون استرابون قد شاهد حادثة من هذا النوع عند بعض الناس فأطلقها على سائر العرب ، أو سمعها من بعض الرواة فصدقها لغرابتها ، فأوردها على علاقتها كما يفعل كثيرون من أمثاله ، الذين يرحلون الى بلاد الشرق فيقولون في وصف أهله وعاداتهم على ما يلقى اليهم بعض التراجمة أو عابري السبيل ، بما فيه من المبالغة أو الاختلاق ، وهم أرغب في نشر الغريب استجلابا لاجاب قرائهم ، كما حدث في الأجيال الوسطى وما بعدها على أثر انتشار الاسلام

ومع اشتغال الافرنج بنقل العلم عن الكتب العربية في القرنين الحادى عشر والثانى عشر للميلاد ، واختلاطهم بالمسلمين في قرطبة وطليلة وغيرهما ، فقد ظلوا يجهلون تهجئة اسم النبى فيكتبونه تارة Mophomet ، وآونة بغمتم Bophomet ، وحينما بافون Bafon ، وكانوا يظنون محمدا صنما يعبده المسلمون . حتى يولوجيوس احد كهنة قرطبة العلماء ، مع مخالطته المسلمين في تلك العاصمة ، فقد كتب عن الاسلام مفتريات لا أصل لها في كتبهم ولا في تعاليمهم ، كقوله مثلا ان النبى (صلعم) أعلن أصحابه أن الملائكة ستحملة الى السماء بعد موته بثلاثة أيام - زعم أنه نقل ذلك من مسودات لاتينية عشر عليها في بمبلونة . فقس عليه ما قد يختلقه غير العارفين ، كما حدث ويحدث كل يوم الى عهد غير بعيد . حتى الذين يقيمون بين أظهرنا أعواما فقد ينقلون عنا الأكاذيب التى ما أنزل الله بها من سلطان ، وربما راوا حادثة غريبة ارتكبها بعض الناس عن جهل أو اتفاق فيعدونها من القواعد المرعية عند سائر أفراد الأمة . وبين يدينا رجالات عديدة كتبت ونشرت في أثناء القرنين الماضيين عن سوريا ومصر ، وفيها من المفتريات ما لا أصل له الا في ذهن الكاتب أو ملقنه . ولولا انتشار الطباعة وخروج الناس الى نور العلم وتصحيح تلك المفتريات ، لرسخ في أذهان أهل الغرب أن الشرقى يكن أمراته للحرانة ، وأنه يزرع القوارما (اللحم المقلى) وهو يعتقد أنه سيستغل خرفانا ، ويزرع الفحم ليستغل عبيدا . . فكيف في عصر استرابون منذ نيف وتسعة عشر قرنا وهو يكتب عن قوم لا يعرف لسانهم ولا أقام بينهم ؟ ويؤيد ذلك أن تنمة قوله في هذا الموضوع تدل على أنه أورده على سبيل الحكاية ، ولم يغفل الإشارة الى ضعف اسناده بقوله يزعمون On dit فلا عبرة بما ذكره استرابون فيما يختص بالأمومة ، وهو بظاهره أصرح أدلة صاحب طوعية العرب . وأما سائر أدلته فانما هى قرائن ضعيفة لا يصح الاعتماد عليها . وحتى لا يقال اننا لم ننصفه نأتى بتلك الأدلة وننظر في كل منها على حدة وهى :

١ - الانتساب الى الامهات (صفحة ٢٧ و ٢٠ من كتابه) :

كقولهم بنو خندف وبنو ظاعنة وكلاهما اسم امرأة نسبت القبيلة اليها -

ولو تقبنا بين المئات من أسماء القبائل والبطون والأفخاذ ما وجدنا بينها من ينسب الى أمهم الا بضعة قليلة . فأى غرابة فى ذلك وبين العائلات اليوم نحو عشرة فى المئة ينسبون الى الأمهات ، كآل ظريفة وآل تقلا وآل نور وآل نائلة وآل مارية ، وقس عليه أهل اللغات الأخرى ؟ فهل يجوز الذهاب الى أن هذه الأسماء من آثار الأمومة عند أسلافنا ؟ أم نأتى على تحليلها من الطريق الأقرب ، وهو أن بعض هذه العائلات نسبت الى امرأة هى جدتهم العليا ، لأن جدهم مات وهى كفلتهم وربتهم فعرفوا باسمها . وقد يكون الأب مجهولا لحصول الحمل من السفاح مما يحدث فى الجاهلية وغيرها ، فيولد الولد لا يعرف أبوه فينسبونه الى أمه ، كما وقع لزياد ابن أبيه الصحابى الداهية ، فقد كان يعرف بأمه سمية فيقال زياد بن سمية ، ولولا استلحاق معاوية إياه بنسبه لعرف أعقبه بآل سمية ، ولو تقدم عهد هذه العائلة وتنوسى خبر أمها لأضافها صاحبنا الى أسماء أمهات القبائل وعدها من بقايا الأمومة

ويكثر الانتساب الى الأمهات على الخصوص فى الأمم التى يتزوج رجالها امرأتين فأكثر ، فيولد للرجل ولدان من والدتين يسميهما باسم واحد ، فينسب كل منهما الى أمه فضلا عن انتسابه لأبيه تمييزا له عن ابن الأم الأخرى ، وقد يشتهر ينسبته الى أمه دون أبيه ، وأمثلة ذلك كثيرة قبل الإسلام وبعده . فقد كان لعلى بن أبى طالب غير امرأة ، ولد له منهن عدة أولاد من جملتهم ثلاثة كل منهم اسمه محمد ، فنسب أحدهم محمد الأكبر الى أمه خولة بنت جعفر من بنى حنيفة فسماه محمد ابن الحنفية ، فلو عاش هذا فى الجاهلية لعرف أعقبه ببنى الحنفية بطن من هاشم أو من قريش ، كما عرف بنو العدوية نسبة الى أمهم من قبيلة عدى

وقد يشتهر الرجل باسم أمه وإن لم يكن له سمي من أخوته ، وإنما يقع ذلك لشهرة والدته . فمحمد الأمين بن هرون الرشيد اشتهر بابن زبيدة ، لفضل أمه على سائر أمهات الخلفاء وشهرتها ، وقس عليه . فهل يجوز أن تؤخذ هذه الحوادث أدلة على الأمومة ؟ وزد على ذلك أن القبائل العربية التى تنسب الى امرأة ترجع أخيرا الى النسب الأبوى ، وهو العام الشامل . فبنو ظاعنة مثلا نسبوا الى أمهم ظاعنة وهم ينتسبون أيضا الى أبيهم ، فيقال لهم بنو ثعلبة بن مراد بن أد . وبنو خندف هم أيضا بنو الياس بن مضر ، وقد نسبوا الى أمهم امرأة الياس واسمها خندف . وبنو طهية نسبوا الى أمهم ، وهم بنو سود بن مالك ، وقس عليه (١)

٢ - تأنيث أسماء القبائل (صفحة ٢٨) :

أى أن العرب تقول : جاءت مضر وسطى قيس الخ ، ولا يقولون : جاء مضر ، وسطا قيس - فلا ندرى العلاقة بين تأنيث الاسم والأمومة ، والتأنيث والتذكير فى العربية لا قياس لهما ، ولو صحت الأمومة لما ضرها أن تكون أسماء القبائل مذكورة ، كما أن تأنيثها لا يثبت وجود الأمومة . على أن لتأنيث القبائل سببا مبنيا على قاعدة من قواعد اللغة ، وهو تقدير لفظ « القبيلة » قبل كل اسم ، فقولنا « مضر » يراد به « قبيلة مضر » ، وقولنا « قيس » يراد به « قبيلة قيس » ، فالتأنيث للفظ القبيلة المحذوف . والحكمة فى ذلك دفع الالتباس بين أن يكون المراد بالفاعل رجلا اسمه قيس أو مضر أو القبيلة . فاذا كان الفعل مؤنثا انصرف الذهن الى القبيلة . وعلى هذا المبدأ يؤنثون أسماء المدن وان لم يكن لفظها مؤنثا ، فنقول : فتحت بغداد وعمرت مصر أو الشام بتقدير لفظ « مدينة » . ونحن نقول اليوم : روت المقطم ، وذكرى المؤيد ، وقالت الهلال - فنؤنث الفعل ، والفاعل مذكر لفظا ومعنى ، وانما نقدر قبله كلمة الصحيفة أو المجلة

٣ - التعبير عن القرابة بالبطن (صفحة ٢٨) :

فيزعم أن تسمية القبيلة بالبطن يؤيد اعتماد العرب على قرابة الأم ، والواقع أن البطن فرع من فروع القبيلة على سبيل الشعب كالشجرة ، وانما جعلوا أسماءها شبيهة بأسماء أجزاء البدن بالنظر الى علاقتها بعضها ببعض ، أو تفرعها بعضها عن بعض . فالجموع الأكبر عندهم « الحى » كناية عن الانسان كله ويراد به الجماعة النازلون بمربع . وهو ينقسم الى « الشعوب » أى الفروع ، والشعبان النصفان ، كأنهم أرادوا انقسام الجسم الى شطرين متساويين : أيمن وأيسر . ويليهما « القبائل » وهى قطع عظم الرأس المشعوب بعضها من بعض . ثم « العمارة » كناية عن الصدر ، ثم « البطن » ، وبعده « الفخذ » ، وأخيرا « الفصائل » . فترى استخدام البطن للقبيلة أو بعض فروعها لا علاقة له بالأمومة ، وانما هو فرع من فروع النسب لما يقابله من أعضاء الجسد . واذا عدلنا عن هذا التعليل واعتبرنا كل اسم مستقلا ، وقبلنا التعليل الذى تبادر الى ذهن حضرة ، لاقتضى أن يدلوا بالبطن على العائلة التى هى من بطن واحد ، ولكنهم يريدون به القبيل المؤلف من عائلات

٤ - اشتقاق لفظ الامة من الام :

وهو عنده دليل على أن الاصل فى النسب الأم ، وخصوصا لأن الأم فى العبرانية تدل على القبيلة أو الجماعة ، ولكن هذا التعبير انما هو من قبيل المجاز ، مما لا يخفى على العارف بأساليب اللغة العربية ، كقولهم : أم القرى ،

وأم المدائن ، والأمهات للعناصر . وعندهم الأم الأصل ، فأم كل شيء أصله وعماده ، وكل شيء انضمت إليه أشياء فهو أم لها . والأصل في هذه المعاني اتباع الأبطال أمهم ، لأنها هي المكلفة بتربيتهم في طفولتهم ، فيتبعونها وينقادون لأمرها لا لأنها أصل النسب . ولهذا السبب قالوا أم الكتاب أصله ، وأم القرى مكة ، وأم الدنيا مصر لكثرة أهلها . وأما اشتقاق الأمة من الأم فيعمل بنفس هذه الكيفية ، لاستعارة الأمومة للرئاسة أو من التوليد ، لظهور ذلك في النساء دون الرجال ، لأن المرأة تضع النسل وهي تتولى الحضانة والتربية . فاذا ذكرنا الولادة سبق إلى أذهاننا الأم ، ولذلك غلب التعبير عن القرابة بعضو التوليد بالنساء كالـ بطن أو الرحم ، وليس لأن الأم أصل القرابة . ولو تتبعنا معاني ما يقابل لفظ الأمة في سائر اللغات لرأيت لها نفس هذا المعنى ، فلفظ nation في اللغات الأفرنجية معناه الأمة وهو مشتق من فعل في اللاتينية بمعنى « ولد » ، والانجليز يقولون Motherland ويريدون بها وطن الأبوين مع أن اللفظ يقتضى أن تكون وطن الأم فقط . فعلى تحليل صاحبنا تكون هذه اللفظة دليلاً على شيوع الأمومة عند الانجليز الآن !

هـ - الخال والعم والكنة :

وذلك أن لفظ « الخال » بالعربية لا يراد به أخو الأم على الخصوص ، ولكنه يطلق على كل رجل من أهلها . وكذلك لفظ « العم » وان هذه اللفظة أصل معناها « الشعب » ، وذلك هو مؤداها في العبرانية إلى الآن . وعليه فلا تكون عند العرب عائلة خصوصية وإنما الولد يكون ابن الجماعة أو القبيلة على ما تقتضيه الأمومة أو الطوتومية - وهو قول غريب إذا صح الاعتماد عليه تشوشت أحكامنا في أنساب الانجليز والفرنسيين وغيرهم ، لأنك ترى عندهم نفس هذا الإطلاق أو الاشتراك ، فلفظ Cousin في السنتهم يدل على كل قرابة عصبية أبعد من الأخوة ، فهو ابن العم ، وابنة العم ، وابن العم ، وابنة العم ، وابن الخال ، وابن الخالة ، وابن العم ، وابنة العم ، وابن ابن العم ، وابن ابن الخال الخ . . . مما لا مثيل له في العربية . والأصل فيه ابن الخالة ، لأنه منحوت من Consobrinus في اللاتينية أي ابن أخت الأم - فهل يفيدنا إطلاقه على كل الأقرباء أن الأصل في القرابة الأم ؟ وقس على ذلك لفظ uncle في الانجليزية وما يقابلها في اللغات الأفرنجية الأخرى ، فإنها تدل على العم أو الخال وأصلها avunculus في اللاتينية ومعناها الخال ثم أطلقت على العم . والحقيقة أن لا عبرة في هذا الاختلاف فيما يختص بالأمومة ، فإن اللغات تختلف في طرق الدلالة بما لا قياس له ، وخصوصاً من حيث درجات القرابة . ففي بعض اللغات لفظ يدل على قرابة لا يعبر عنها في لغة أخرى إلا بعدة ألفاظ : فالصهر في العربية لا يمكن التعبير عنه في

اللغة الانجليزية الا بثلاثة الفاظ brother-in-law ، وكذلك الحمى فهو عندهم father-in-law ، والجد يعبر عنه في اللغة الانجليزية بلفظين grand father ، وكذلك حفيد Grandson وبعبكس ذلك لفظ Nephew في الانجليزية فلا يمكن التعبير عنه في العربية الابلظين : ابن الاخ أو ابن الأخت ، ومثلها Niece بنت الاخ أو بنت الاخت - فدلالة كل من هذين اللفظين على اولاد الاخ والاخت معا قد يتخذها أصحاب رأى الأمومة من جملة الأدلة عليها !

ولفظ « الكنة » في العربية يراد به في اللغات السامية الكنة والزوجة على النساء ، فاستدل صاحبنا بذلك على أن الرجل كان يتزوج كنته (أى امرأة ابنه أو امرأة أخيه) فلا رابط للزواج بين الرجل وامرأته . والجواب على ذلك يدخل فيما تقدم بيانه من اختلاف معانى الالفاظ توسعا ومجازا . ومثلها لفظ « صهر » يراد بها زوج بنت الرجل وزوج أخته ، ويزاد بالصهر أيضا القرابة على العموم ، والاصهار أهل بيت المرأة . ومنهم من يجعل الصهر من الاحماء ، فهل يصح الاعتماد على مثل هذا التوسع في اثبات مبدأ أو رأى ؟

٦ - زواج المتعة :

وهو الزواج الوقتى ، أى أن يعقد الرجل على امرأة عقد زواج الى أجل مسمى فتمتى انقضى الأجل بطل الزواج . فمضى صاحبنا ان هذا الزواج كان شائعا عند ظهور الاسلام ، وهو يحسبه يؤيد رأيه فى الأمومة ، وهى تقتضى اباحة نساء القبيلة لأهل القبيلة بلا عقد ولا شرط ، والمتعة لا تكون بدون عقد فهى تناقض ما أراد اثباته . فالتعة ضرب من ضروب الزواج التى كانت شائعة فى الجاهلية ، وكلها تنفى الأمومة لأن الرجل فيها صاحب السيادة وصاحب العصمة

٧ - الواد :

يرى صاحب طوتمية العرب ان شيوع الواد فى الجاهلية قلل البنات فاضطروا الى الاشتراك فى النساء ، فكان يشترك عدة رجال فى امرأة واحدة يستولدونها ويكون الانتساب اليها . وقد بالغ بعض الباحثين فى مسألة الواد وتوهموها عادة شائعة فى بلاد العرب كلها ، والناقد يرى أنها كانت منحصرة فى مكان معين وزمان معين تحت احوال مخصوصة ، والا فلا يعقل أن يعمد الناس الى دفن بناتهم ثم يضطروا الى المشاركة فى الأزواج وفى طاعتهم أن يتخلصوا من ذلك الضيق . وقد ذهب بعضهم الى أن العرب كانوا يثدون بناتهم خوف الفقر ، وهم فى حل من هذا الفقر لو استبقوهن على قلة البنات لما يجدون من اقبال الأزواج عليهن بالمهر والهدايا . وقال آخرون أنهم كانوا يثدونهن خوف العار ، وإذا صحت الأمومة لم يكن ثمة عار يخافه الآباء .

وخوفهم العار على بناتهم دلالة على الفيرة ، وهى لا تكون فى زواج المشاركة ،
وفى الحالىن فان دليله فى الواد ساقط

٨ - العصمة فى يد المرأة :

وقد اتخذ امتلاك بعض نساء الجاهلية عصمتهم فى الزواج والطلاق دليلا
على سيادة الأمومة ، وان المرأة هى رئيسة العائلة - فما أغرب هذا
الاستنتاج وما أنقص هذا الاستقراء . . ان المرأة فى الجاهلية لم تكن عصمتها
فى يدها الا فى أحوال مخصوصة وحوادث نادرة ، فهل نجعل الشاذ قاعدة
نبنى عليه ، والنادر قياسا نقيس به ؟ وأما القاعدة فى زواجهم فهى ان تكون
العصمة فى يد الرجل . وهب أنها فى يد المرأة ، فلا تكون الا بعقد مقيّد
بشروط وقوانين ، وليس على سبيل الإباحة والاشترار كما يريدون
بالأمومة . وقس على ذلك سائر أدلته لاثبات الأمومة ، فان مرجعها الى
تأويل الالفاظ والاعتماد على الاستقراء الناقص كقوله ان الأب معناه
المربى ، وكاستخراجه الى من حواء وذكره القرابة بالرضاعة أو المؤكلة
وتأويل لفظ آحاب الى أخ أب ، ونحو ذلك مما يقاس فى رده بما قدمناه

الخلاصة :

فالقول بشيوع الأمومة فى العرب الجاهلية لا يستطاع اثباته بالقرائن
الضعيفة ، لان اليقين لايزال بالشك ، الا اذا جاز الاعتماد على الشاذ واغفال
القواعد العامة . فقد رأيت فى شروط الأمومة ان يكون الزواج من
الخارج بالغزو أو السبى ، لان بنات القبيلة فى زعمهم تقل بالواد أو بغيره ،
وان تكون المرأة زوجا لعدة رجال معا وأولادها ينسبون اليها ، فلم نفهم
كيف يكون الزواج بالغزو ، وكيف يمكن الرجوع بالانساب فى القبيلة الواحدة
الى الام ، ولماذا تقل البنات حتى تضطر القبيلة أن تغزو غيرها للحصول على
النساء . والقاعدة الطبيعية فى تاريخ الانسان فى أدواره الاولى ان يكون
النساء أكثر من الرجال ، لتعرض هؤلاء للقتل ونحوه بالغزو والسطو ،
والاولى أن يكثر النساء حتى يتزوج الرجل عدة منهن . على أن الحصول على
النساء بالغزو يبعث على الرجوع الى النسب الأبوى ، لان الآباء يبقون فى
القبيلة . ويشبه ذلك ما كان من كثرة السبايا والجوارى فى صدر الاسلام ،
فانهن تكاثرن حتى اختص الرجل بعشرة أو عشرات منهن ، وظل النسب فى
الرجال - ولا يمكن غير ذلك كما يظهر للمتأمل . ولو فرض ان النساء يحاربن
القبائل للحصول على الأزواج بالسبى ، لكان ذلك أقرب الى حفظ النسب
فيهن ، أى الانتساب اليهن أو الى قبيلتهن

فالقول بتسلط الأمومة على الاجمال يفتقر الى اثبات أو تعديل ، لان
وجودها على هذه الكيفية غير معقول ولا يوافق قواعد العمران ، أو هو

لا يوافقها على الأقل عند العرب ، لأن القاعدة في الزواج عندهم وعند سائر الساميين أن تكون داخل القبيلة ، وإذا جنح أحدهم الى الخارج فلسبب طارئ . هذا هو حالهم في أقدم ما نعلمه من أخبارهم في التوراة وغيرها ، والعربي يسمى امرأته ابنة عمه وإن لم تكن كذلك ، لأن الغالب في الزواج عندهم أن يكون بين أبناء العم على تفاوت درجات العمومة . واليهود أكثر الأمم محافظة على أنسابهم ويمنعون الزواج من غير قبائلهم ، ويعاقبون من يخرج عن ذلك عقابا صارما ، وإذا تزوج أسرائيلي بغير اسرائيلية فزواجه سفاح ، ويسمون المولود من ذلك الزواج « نفلا » كما يسميه العرب « هجيناً » أى لثيماً ، فكيف نزع مع ذلك أن العرب القدماء كانوا يتزوجون من الخارج بالغزو ، وإذا فرضنا أنهم كانوا كذلك فمتى انتقل الزواج الى الداخل ، وكيف انتقلت الأمومة الى الأبوة أو البعولة ، ومتى ؟ كلها مسائل مهمة لا يمكن الجواب عليها ، وأصحاب مذهب الأمومة أنفسهم يعترفون بعجزهم عن ذلك ، فما أغنانا عن الذهاب اليه . ومن يطالع تاريخ الزواج من أول أحوال العمران الى الآن لا يرى فيه الا ما ينقض الأمومة

٤ - الطوتمية عند العرب

وإذا نقض القول بالأمومة عند العرب نقض معه القول بالطوتمية عندهم ، لأنها أساسها وأول شروطها . ومع ذلك فإننا ننظر في أدلة صاحبنا من حيث الطوتمية على حدة ، فنسذكر شروط الطوتم كما قسره هو ، ثم ننظر في تطبيقها على أحوال العرب

فالطوتمية يشترط فيها « أن يتفق أهل القبيلة الواحدة على حيوان أو نبات أو كائن آخر يعتقدون أنه جدّهم الأعلى يتسمون باسمه ويعبدونه أو يقدسونه » ، فهل ينطبق ذلك على أحوال العرب الجاهلية انطباقاً كلياً أو جزئياً ؟ ولكي ينجلي الموضوع ويتضح البرهان نحلل القضية الى اجزائها الأصلية ، وعليه فالطوتمية تقتضى :

أولاً - أن يتفق أهل القبيلة على حيوان أو نبات يعتقدون أنه جدّهم الأعلى

ثانياً - أن يتسموا باسمه أو ينتسبوا اليه

ثالثاً - أن يعبدوه أو يقدسوه

ولا تثبت الطوتمية ما لم تجتمع هذه المقدمات الثلاث عند العرب . ولو أنك بحثت في أخبارهم قديمها وحديثها ، من الخرافات والحقائق الثابت منها وغير الثابت ، وفيما رواه غير العرب عن أحوالهم القديمة في كتب اليونان والرومان فضلاً عن التوراة ، وما قرئ من أخبارهم على آثار آشور وآثار

ثمود وآثار اليمن وحضرموت ، لما وفقت الى العثور على ما يشير الى وجودها . واذا درست احوال العرب الآن في الصحارى والمدن والأودية والجبال ، لا تجد بينهم قبيلة ولا بطنا ولا رجلا يعتقد انه متسلسل من أسد أو ثور أو ثعلب أو جميزة أو وردة . ومهما أجهدت نفسك في التنقيب والمراجعة والتأويل فانك لا تجد اثرا لهذا الاعتقاد على الاطلاق ، ولو على سبيل الخرافة أو في معرض التكذيب أو الطعن — فالمقدمة الاولى سقطت

أما الثانية فبعضها صحيح ، أى ان بعض القبائل تسمى بأسماء الحيوانات ، كبنى أسد وبنى النمر وبنى كلب ونحوها ، ولكنها لا تعتقد أن أولئك الأجداد حيوانات ، بل هى تعدهم أناسا لهم أنساب متصلة بالأباء الأولين

والمقدمة الثالثة ظاهرها صحيح وباطنها فاسد ، لأن بعض قبائل العرب كانت تعبد آلهة على شكل الحيوانات ، مثل عبادة سائر الأمم الوثنية القديمة في مصر وأشور وفينيقية ، ممن كانوا يعبدون أصناما يمثلون بها القوى العلوية — لا انها تعبد حيوانا خاصا تقدسه وتجنبه أذاه وتعتقد انه جدها كما يفعل أصحاب الطوتم . فبنو أسد مثلا يتسمون باسم الأسد ، ولكنهم لا يعتقدون انه جدهم ولا يقدسون الأسد أو يعبدونه ، وإذا عرض لهم الأسد قتلوه . وقد يكون معبودهم من الحيوانات بشكل نسر أو فرس أو غيرها من الاصنام الحيوانية . وشرط الطوتمية انما هو أن يعتقد بنو أسد أن الأسد جدهم ، وأن يقدسوا كل أسد أو يعبدوه أو لا يؤذوه . وبنو ثور يجب أن يعتقدوا أن الثور جدهم ، وأن يعبدوا الثيران أو يقدسوها ولا يدبحوها أو يؤذوها . وبنو جراد حقهم أن يعتقدوا تسلسلهم من الجراد ، ويقدسوه ولا يأكلوه كما رأيت فيما تقدم من شروط الطوتمية عند الأمم المتوحشة اليوم . ولا يكفى أن تسمى القبيلة باسم الثور مثلا وتقدس الجراد ، أو تسمى باسم الأسد وتقدس الفرس . ولو فرض واتفق لقبيلة أن تسمى بحيوان وتقدسه أو تعبده فليست من الطوتمية في شيء ، لأن الشرط الأول أن تعتقد تسلسلها عنه . وهذه الشروط الثلاثة لم يتفق وجودها في قبيلة من قبائل العرب ، ولا في بطن من بطونها ، ولا في فصيلة ولا فرد من أفرادها . ولو على سبيل الخرافة أو الأكذوبة . حتى اجتماع الشرطين الأخيرين فانه متعذر ، اذ ليس بين قبائل العرب قبيلة تسمى باسم حيوان وتعبده ، ولا يكفى أن تعبد صنما بشكل ذلك الحيوان ، بل الشرط أن تقدس جنس هذا الحيوان وتجنب أذاه ، كما كان المصريون يقدسون الهر أو الجعلان . والعرب لا يقدسون حيوانا الا نادرا وفي احوال مخصوصة . على أن صاحبنا لم يتفق له ، مع ما أجهد نفسه وتوسع في برهانه من التأويل والتفسير ، أن يأتى بدليل على أن قبيلة من القبائل المسماة بأسماء حيوانية كانت تعبد صنما

بشكل الحيوان الذى تتسمى به ، وان كان توفيقه الى ذلك لاينفعه شيئا ،
لان المطلوب ان القبيلة التى تتسمى باسم حيوان يجب ان تقدس جنس ذلك
الحيوان لا صنما بشكله

فمذهب الطوتمية عند العرب ساقط بسقوط الامومة ، ثم هو ساقط
ايضا لبعده احوال العرب عن شروط الطوتمية كما رأيت - ومع ذلك فلا
ينبغى لنا الاغضاء عن الأدلة التى اعتمد عليها صاحب طوتمية العرب فى اثبات
هذا الرأى وسبب ذهابه اليه مع غرابته فنقول :

٥ - أدلته على طوتمية العرب

ان من يطالع تلك الأدلة فى كتابه يتضح له من مجملها انه لما اطلع على
احوال الطوتمية عند القبائل المتوحشة كما ذكرها مكليمان وغيره - وهو
مستشرق يعرف احوال العرب الجاهلية وقبائلها وانسابها ومعبوداتها -
ورأى بعض القبائل أو البطون تسمى بأسماء حيوانية ، وكان العلماء يومئذ
مولعين بالحقائق الطبيعية على مذهب الارتقاء يشتغلون برد كل الحوادث
اليه كما قدمنا ، ورأى النسابين العرب مختلفين فى تحقيق انساب بعض
القبائل ، تبادر الى ذهنه ان أسماء هذه القبائل من بقايا الطوتمية عند
العرب ، فأخذ يفتش عن شروطها الاخرى ، فرأى بعض القبائل تعبد أصناما
بشكل بعض الحيوانات ، فتمكن ذلك الرأى من ذهنه ونسى أن الشرط ليس
عبادة صنم حيوانى الشكل وانما المراد تقديس صنف من الحيوانات اسمه
كاسم القبيلة . او لعله انتبه لذلك وظن نفسه قادرا على الاتيان بحادثة
يمكن تأويلها أو قرينة يستدل بها على شيء ، وأخبار العرب كثيرة وفيها
الفث والسمين والناقض والمنقوض ، وهو قوى الحجة لطيف الاسلوب فوق
الى أدلة توهم غير المتأمل انه أصاب بها المرمى وهو بعيد عنه كما سترى .
واليك أدلته وبيان فسادها :

تسمية القبائل بأسماء حيوانية (صفحة ١٨٨) :

ليس بين أدلته على الطوتمية ما يصح اعتباره من قبيل القول الصريح الا
أسماء القبائل ، وان كانت هذه الاسماء لا تكفى وحدها لاثبات رأيه لأسباب
تقدم بيانها . ولكنه يحتج بأن تسميتها بأسماء حيوانات ليست من قبيل
العيب ولا بد لذلك من سبب . فعلى ان ندفع حجته بأن هذه التسميات
طبيعية لا غرابة فيها

ان صاحبنا الاستاذ أورد من أسماء القبائل كل ما يشتم منه رائحة
الحيوانية ، ولم يزد عدد ما أورده منها على ثلاثين اسما ، بعضها قبائل
وبعضها عمائر وبعضها بطون أو فصائل وهى :

بنو قهد	بنو ضب	بنو جعدة	بنو أسد
بنو كلب	بنو ضبيعة	بنو جعل	بنو بدن
بنو نعامه	بنو عضل	بنو حداء	بنو بكر
بنو نمر	بنو عنز	بنو حمامة	بنو بهثة
بنو وبر	بنو غراب	بنو حنش	بنو ثعلب
بنو هوزن	بنو فهد	بنو دؤيل	بنو ثور
بنو يربوع	بنو قرد	بنو دب	بنو جحش
	بنو قنفذ	بنو ذئب	بنو جراد

ولو عدنا أسماء القبائل العربية وفروعها من العمائر والبطون والافخاذ والفصائل لزادت على بضع مئات ، وربما ناهزت الألف . فلو كانت التسمية طوطمية لوجب أن يزيد عدد القبائل الطوطمية على سائرهما ، ثم أن بعض ما أورده من الاسماء له غير معنى الحيوانية ، ولكنه اختار الحيوانية ليزيد أسباب برهانه . فبكر مثلا تفسر بولد الناقة ، ولكن لها معنى « العذراء » ، و « أول كل شيء » ، والسحابة ، والكرم أول حمله ، وغير ذلك . على أننا لو رجحنا معناها الأول ، أى ولد الناقة ، لما كان فى التسمية شيء من الطوطمية ، لأن العرب لو جاز أن يتسموا بحيوان ويعبدوه لكان « الجمل » أو « البعير » أولى من سواه ، نظرا لاضطرارهم اليه وقدم عهده عندهم ، وليس من القبائل ما يسمى به الا بكر هذا ، وهو أقرب أن يكون لقباً لقب به رجل فتى نشيط كأنه ولد الناقة . و « البهثة » البقرة الوحشية ، وابن الزناء . و « الجعدة » الانثى من اولاد الضأن ، والمرأة فى شعرها جعودة ، فلماذا لا يكون المراد بها المعنى الثانى لو لم يسبق الى ذهنه الطوطمية ؟ و « العضل » الجرذ ، ولكنه أيضا يدل بكسر العين على الداهية من الرجال أو القبيح منهم ، فلماذا لا يكون المراد أحد هذين المعنيين ؟ و « القهد » نوع من ضأن الحجاز ، ولكنه يدل أيضا على الرجل الأبيض اللون نقيه . وقس على ذلك - فالقبائل التى تثبت تسميتها بأسماء الحيوانات لا تزيد على بضعة وعشرين قبيلة أو فرع قبيلة .

فاتفاق هذا العدد القليل بين مئات من الاسماء لا يصح عزوه الى الطوطمية ، فان الناس ما برحوا منذ القدم يتسمون بأسماء الحيوانات ، أو يتلقبون بها ثم يذهب الاسم ويبقى اللقب كما سنبينه

التسمية :

ان لاسماء الاعلام تاريخا طويلا فى علم العمران ، وهى تختلف صورة ومعنى باختلاف العصور وباختلاف الأمم . فكل أمة تختلف التسمية فيها عما فى سواها ، وتختلف فى الأمة الواحدة باختلاف أدوار تمدنها . على أنها

في كل حال تقتبس مما يقع في النفس موقع الاعتبار من الكائنات على اختلاف طبقاتها ، فتختار من أسمائها ما يلائم عاداتها ومعتقداتها . فاذا تدينت انتسبت الى الاله أو الآلهة ، سواء كانت تلك الآلهة أجراما سماوية أو حيوانات أو أصناما أو غير ذلك . اما قبل التدين أو في حال البداوة الخشنة ، فالغالب أن يختار الناس لأبنائهم أسماء ما يعجبون به أو يخافونه من الاجسام الطبيعية ، ولا سيما الحيوانات على ما يتوسمون في المولود من القوة أو الشجاعة أو الدهاء أو الدعة أو الخوف . فيختارون له اسم حيوان فيه مثل هذه الطباع ، فيسمون الرجل الشجاع بالأسد ، والسريع الوثوب بالنمر ، ويسمون الفتاة اللطيفة بالغزال أو الحمامة . وقد جرى على ذلك معظم الأمم القديمة في كل انحاء العالم ، ولا سيما الأمم الحربية أو أهل البداوة والغزو الذين يعيشون في البرارى ويرحلون من نجع الى آخر والحيوانات عشراؤهم ، كما كان شأن العرب في أيام جاهليتهم فقد كانوا يعيشون بين الحيوانات حتى درسوا طبائعها ووصفوا كلا منها بوصف خاص ، فاذا ولد لهم ولد هان عليهم تشبيهه بواحد منها بشكله أو طباعه ويسمونه به

وليس هذا خاصا بالعرب ، بل هو يتناول سائر أهل البادية أو من جرى مجراهم قبل تعلقهم بالدين . فاليهود كانوا في أوائل ادوارهم يجرون في التسمية على هذا النمط ، ولذلك رايت بين أسمائهم القديمة كثيرا من أسماء الحيوانات ، كقولهم دبورا (نحلة) وأربه (أسد) ويونا (حمامة) وراحيل (نعجة) وشوال (ثعلب) وكالب (كلب) وديسان (غزال) ، أو أسماء الاجرام السماوية مثل حودش (الهلال) . ومن الاوصاف الطبيعية أشور (أسود) وايدوم (احمر) وعيسو (كثير الشعر) وكوره (شجاع) . وقس على ذلك سائر الأمم القديمة ، ولا سيما قبل تدينها فقدماء الانجليز كانوا يتسمون بأسماء الحيوانات أيضا ، ومن أسمائهم القديمة Ethelwolf (الذئب الشريف أو ذئب الحرث) وقد تسموا بالاوصاف الطبيعية كالايض والاسمر والطويل والقصير ، ثم تدرجوا الى الصناعات كالحداد والنجار والنقاش والسروجي . وانما يهمنا في هذا المقام الاسماء الحيوانية ، وهذه لم تخل أمة من التسمية بها ، على تفاوت في ذلك بتفاوت احوالهم من البداوة والحضارة . ولا يزال عند الأمم المتقدمة حتى الآن عدد كبير منها أو ما يقابلها من أسماء الكائنات الطبيعية كالحجارة والاشجار ، واليك امثلة من ذلك :

فمن الاسماء اليونانية والرومانية :

Leonidas

Napoleon

كالأسد أو الأسد

أسد الغاب

Peter	صخر
Philip	محب الخيل
Darcas	غزال
Leo	أسد

ومن الاسماء الجرمانية والسكسونية والتوتونية :

Arnold	النسر أو قوى كالنسر
Athelston	الحجر الشريف
Bernard	الذئب أو قوى كالذئب
Bertram	العقاب أو قوى كالعقاب
Everard	الخنزير البري
Giles	نعجة
Ingram	عقاب
Leonder	أسد
Leonard	كالأسد أو كالعقاب
Oven	خروف
Randal	ذئب المنازل
Rodolph	الذئب المشهور
Ethelnid	الحية الشريفة

ومن الأسماء الفارسية القديمة :

أسد الجبل	شركوه
الأسد	ببر أو بابر
وجه الشمس	جشميد
الأسد الغضوب	اردشير
نوع من النمر	بلاش
السماك الفضي	سيمورغ
الجواد المذهب	زرسب
الريخ	بهرام
التعبان	الضحاك

فترى مما تقدم أن التسمية بالاسماء الحيوانية من القواعد الطبيعية المرعية عند سائر الأمم ، وربما كان العرب أكثر تمسكا بها لما تقتضيه بداوتهم وخشونتهم ، ولذلك كثرت عندهم الاسماء المتعلقة بالحروب أيضا ، كحرب ونصر وسعد وعدوان وعيس واشجع وسهم وصخر ونحوها - قيل لأبي الدقيش الاعرابي : « لم تسمون أبناءكم بشر الاسماء نحو كلب

وذئب وعبيدكم بأحسنها نحو مرزوق ورباح ؟ فقال : « انما نسمى ابناءنا لأعدائنا وعبيدنا لأنفسنا » (١)

على ان المتعبد من العرب للأصنام كانوا يتسمون عبيدا لها كعبد العزى وعبد مناة وعبد شمس وعبد سعد وعبد تيم وغيرها . ولما أسلموا كثرت أسماءهم المنسوبة لله أو بعض صفاته ، كعبد الله وعبد الرحمن وعبد الرحيم وعبد الأحد وعبد الصمد . وذلك شأن الأمم المتدينة في كل مكان وزمان ، فالاشوريون كانوا يتسمون بالنسبة الى آلهتهم مثل « تغلاتنين » عبد الاله تنين ، و « متاغل نبو » عابد نبو ، وكذلك البابليون فانهم يضيفون أسماءهم الى الههم « بل » أو « نبو » ، فيقولون « بل ابني » بل صغنى ، و « نبو نصر » أى نبو ينصر ، و « عبد نبو » أى عبد الاله نبو ، و « نبو بالوزور » نبو يحمى ابني (٢) وكذلك اليونان بعد تنصرهم ، ومن أسمائهم « ثيودسيوس » عطية الله ، و « ثيودورس » عبد الله وغيرها

فتسمية العرب الجاهلية رجالهم بأسماء الحيوانات أمر طبعى يؤيده تصغير تلك الاسماء للتحبيب ، كقولهم ذؤيب وأسيد وكيلى ونحو ذلك ، مما لا يفسر الا اذا كانت تلك الاسماء القابا للناس . وظل العرب على ذلك فى بداوتهم حتى تدينوا وتسموا بالاسماء الدينية كما تقدم . ولما تمدنوا تسموا بأسماء الصنائع كالنحاس والصيدلانى والكحال والتجار والاسطرلابى ، ولما ضعفت عصبية النسب عندهم تسموا بالنسبة الى البلاد كالدمشقى والبغدادى والبصرى والبخارى والثيسابورى وغيرها - فبقاء بضعة وعشرين من القبائل القديمة على أسماء الحيوانات ليس أمرا غريبا

قال الجاحظ فى كتاب الحيوان : « والعرب انما كانت تسمى بكلب وحمار وحجر وجعل وحنظلة وقرد على التفاؤل بذلك . وكان الرجل اذا ولد له ذكر خرج يتعرض لزجر الطير والفأل ، فان سمع انسانا يقول حجر أو رأى حجرا ، سمى ابنه به وتفاعل فيه الشدة والصلابة والبقاء والصبر وانه يحطم ما لقى ، وكذلك اذا سمع انسانا يقول ذئب أو رأى ذئبا تأول فيه الفطنة والمكر والكسب ، وان كان حمارا تأول فيه طول العمر والوقاحة والقوة والجلد ، وان كان كلبا تأول فيه الحراسة واليقظة وبعد الصوت والكسب ، ولذلك صور عبيد الله بن زياد فى دهليز كلبا وكبشا وأسدا وقال: كلب نابح وكبش ناطح وأسد كالح ، فتطير على ذلك فطارت عليه »

التعليق :

هذا على فرض انها أسماء سمى بها آباء تلك القبائل ، ولكن كثيرا منها

(١) الدميرى ٢٤٢ ج ٢

(٢) Rawlinson's Ancient Monarchies, II. 539 & III, 527

كان في الاصل لقبا الحق بالاسم الاصلى ، ثم ذهب الاسم وبقي اللقب ، مما يقع دائما وخصوصا عند العرب ، لأنهم مفطورون على التلقيب والتكنية ، ويتضح لك ذلك من مراجعة معجماتهم ، فانك ترى للأسد مئات من الاسماء أكثرها ألقاب لقبوه بها ثم صارت أسماء ، وكذلك الديك والغراب والفرس والبعر والذئب والحية والجراد وغيرها من حيواناتهم ، غير أسماء الأسلحة ، ناهيك بالمتراذفات من أسماء الشمس والمطر والبحر والبئر واللبن والعسل والخمر والنار . ومن الألقاب كالطول والقصر والشجاعة والجبن والكرم والبخل والحمق ونحوها (١) ولكل منها مئة أو مئات من المترادفات وأكثرها ألقاب أو كنيات تدل على أن ميل العرب الى التلقيب والتكنية من فطرتهم وكانوا يضربون الأمثال غالبا بالبهايم ، فلا يكادون يذمون أو يمدحون الا بذلك ، لأنهم جعلوا مساكنهم بين السباع والأحشاش والحشرات ، واستعملوا التمثيل بها لما ألفوه من طبائعها ، وخصوصا القبائل العدنانية لسكنائهم في صحارى نجد والحجاز ، وبلادهم أكثر وعورة وخشونة من القحطانية ، ولذلك كانت أسماء الحيوانات أكثر في قبائلهم مما في القبائل القحطانية . وقد درسوا تلك الطبائع بالزاولة واختصوا كل حيوان بطبيعة نسبوها اليه ، كالروغان للثعلب ، والشجاعة للأسد ، والصبر للحمار ، والأمانة للكلب ، والغضب للنمر ، والثقل مع الخساسة للفيث ، ونحو ذلك وصاروا يعوضون عن الألقاب بأسماء تلك الحيوانات ، فبدلا من قولهم : « شجاع » يقولون : « أسد » ، وبدلا من صبور يقولون : « حمار » ، ويكنون عن المراوغ بالثعلب ، وإذا أرادوا أن يقولوا غضب فلان قالوا : « تنمر »

وكانوا من الجهة الاخرى يلقبون الحيوانات بأسماء الناس أو كناههم ، فالفيث كنيته أبو حجاج ، والأسد أبو الحارث ، والذئب أبو جعدة ، والذب أبو رباح ، والخنزير أبو قادم ويقال أبو عقبة ، والثعلب أبو الحصين ، والكلب أبو خالد ، وأبو ناصح عند بعضهم ، والسنور أبو خراش ويقال أبو غزوان ، والغزال أبو الحسين ، والجمل أبو صفوان ويقال أبو أيوب وأبو مزاحم ، والثور أبو حاتم ، والكبش أبو المطرف ، والنمر أبو وثاب ، والفهد أبو قرة ، والفرس أبو طالب ، والبرذون أبو مضاء ، والبغل أبو المختار ، والحمار أبو زياد . وعندهم أم حبين الجرادة ، وأم عوف الحماسة ، وأم مهدي الدجاجة ، وأم حفص الهدهد ، وأبو الميت الجعالة ، وأبو الصراة القملة ، وأم عقبة الحية ، وأم يقظان العقرب ، وقس عليه

وكان التلقيب عاما في الشعوب السامية ، اعتبر ذلك بما جاء في التوراة

عن تلقيب يعقوب لأولاده لما جمعهم في آخر أيامه ، فعبر عن أوصاف بعضهم بأسماء الحيوانات ، فسمى يهوذا شبل أسد ، ويساكر حمارا ، ودان ثعبانا ، ونفتالي ايلة ، وبنيامين ذئبا . وترى أمثال التلقيب في أماكن كثيرة من التوراة ، ويدل ذلك على شيوع هذا التلقيب عند الساميين قديما ، ثم قل عند العبران والسريان لما سكنوا المدن وأخلدوا الى السكون ، وظل عند العرب لبقائهم على البداوة . وما زال ذلك شأنهم الى صدر الاسلام وما بعده ، ولا تزال بعض أسماء الحيوانات تستخدم للتكنية الى اليوم ، وقد تنوسى معناها الاصل كالحقلم للسيد العظيم ومعناه في الاصل « الفحل » ، وكذلك « الرث » للباسل وهي اسم للخنزير ، و « الاصيد » للملك وهو البعير . على أنهم كثيرا ما كانوا يلقبون بأعضاء الحيوانات المفترسة كالناب والانف والقرن فانها من القاب الشجاعة والقوة عندهم (١) ومن عادات العرب اذا مات لأحدهم أولاد وخاف انقطاع ذريته أن يسمى أولاده بأسماء الحيوانات المفترسة ، كالدئب والنمر وغيرهما ، ولا تزال هذه العادة جارية في سوريا الى اليوم

فترى أن التلقيب بالحيوانات كان شائعا عند العرب قبل الاسلام ، على أنهم ساروا عليه بعد الاسلام فسموا حمزة عم النبي (صلعم) « أسد الله » أو « أسد رسول الله » ، وكذلك على ابن أبي طالب لشجاعتهما (٢) وقد سموا مروان بن محمد بالحمار لصبره . ويكون التلقيب للمدح كما رأيت أو للذم ، كتسميتهم عثمان بن عفان « نعثل » وهو ذكر الضباع ، وتسمية عبيد الملك بن مروان « أبا زبان » لبخره و « شح الحجر » لبخله (٣) ، وتلقيب بنى عمرو بن عمر أفواه الكلاب لبخر أفواههم

ومن أدلة رغبتهم في التلقيب أنهم يلقبون الرجل ببنت شعر نظمه أو لفظ قاله أو حادثة جرت معه مما لا ضابط له ، فالمرقش الشاعر أصل اسمه عوف بن سعد فنسى الاسم وبقي اللقب ، والمتلمس اسمه جرير بن عبد المسيح ، والنايفة اسمه زياد بن معاوية ، وكذلك المخرق وتابط شرا وأعصر والمستوعر وغيرهم ممن ذهب اسماءهم وبقيت ألقابهم - فماذا يمنع حدوث ذلك قبل التاريخ ، فيلقب أبو القبيلة بما يناسب خلة من خلاله مدحا أو ذما ثم يتناسى الاسم ويبقى اللقب ؟ وفي أخبار العرب أمثلة كثيرة من هذا النوع ، فقيس عيلان أصل اسمه قمعة ولكنه اشتهر بلقبه ، وكذلك قريش وغيره . وقد يكون للتلقيب سبب متصل بحادثة ، فعنزة أبو القبيلة المعروفة سمي بذلك لأنه قتل رجلا بعنزة وأصل اسمه عامر . والمظاهر

(١) الايليذة العربية (المقدمة)

(٢) والافرننج جوستافوس ادولفوس ملك السويد بأسد الشمال

(٣) المعارف ١٢١

سمى بذلك لأن المنذر بن امرئ القيس كان جمع أسارى بكر في الحظائر ليحرقهم ، فكلمه فيهم فشفعه وأصل اسمه كعب . والزبرقان سمي بهذا الاسم لجماله وسمى القمر أيضا ، وكلاهما غير اسمه ولا يعرف الا بهما . وقصى أصل اسمه زيد ، وعبد المطلب اسمه عامر وكلاهما يعرف باللقب فقط . وقد يكون اللقب اسم حيوان أو لقبا من القباة ، مثل جساس اسم الرجل المشهور ، فمعناه في اللغة الأسد المؤثر في الفريسة ببرائته وأصل اسمه عمرو بن مرة البكرى ، وقس على ذلك ألقاب الخلفاء بعد الاسلام ، فان أكثرهم يعرف بلقبه كالفاروق والصدى والمنصور والرشد والمأمون وغيرهم

فاذا اعتبرنا شيوع التسمية بأسماء الحيوانات أو التلقب بها ، وامكان بقائها وذهاب الاسماء الاصلية ، مع ميل العرب من فطرتهم الى ذلك ، فوجود بضعة وعشرين اسما حيوانيا بين مئات من أسماء القبائل لا يعد شيئا غريبا

التلقب بصيغة الجمع :

على أننا رأينا صاحب طوتمية العرب يعلق أهمية كبرى على تسمية بعض القبائل بجمع أسماء الحيوانات ، مثل الانمار والكلاب والأراقم والضباب ، فعنده ان وجود هذه الاسماء بصيغة الجمع لا ينطبق على تفسيرنا من حيث تلقب أبى القبيلة بلقب يبقى ويذهب اسمه الاصلى . ويرى ان هذه الصيغة دليل قوى على الطوتمية ، لأن أبناء قبيلة النمر يعدون أنمارا ، وأبناء قبيلة كلب يعدون كلابا على مقتضى شروط الطوتمية

والجواب على ذلك ان التلقب بصيغة الجمع للقبيلة كان شائعا عند العرب مثل شيوع التلقب بصيغة المفرد للفرد . وكانوا يلقبون القبيلة بصفة عامة تشترك فيها أو يغلب شيوعها بين أفرادها ، كالكرم والبخل والحلم والغدر ونحو ذلك . فلما انتشر الاسلام وضعوا لأهل الاقاليم أوصافا يمتاز بها بعضهم عن بعض

فمن أمثلة أوصاف القبائل في صدر الاسلام أن معاوية سأل دغفلا النسابة : ما تقول في بنى عامر بن صعصعة ؟ قال : امناق ظباء ، وأعجاز نساء . وقال : فما تقول في بنى أسد ؟ قال : عافة قافة ، فصحاء كافة . قال : فما تقول في بنى تميم ؟ قال : حجر خشن ، ان صادفته اذاك وان تركته اعفأك . قال : فما تقول في خزاعة ؟ قال : جوع واحديث . ومن هذا القبيل ان الحجاج سأل ابن القرية عن قبائل العرب فوصف كلا منها بما امتازت به ، وليس في وصفه مجون . قال :

قريش : أعظم القبائل أحلاما وأكرمها مقاما
 بنو عامر : أطولها رماحا وأكرمها صباحا
 بنو سليم : أعظمها مجالس وأكرمها محابس
 ثقيف : أكرمها جدودا وأكثرها وفودا
 بنو زبيد : ألزمها للرايات وأدركها للثارات
 قضاة : أعظمها أخطارا وأعظمها نجارا وأبعدها آثارا

وهكذا حتى أتى على معظم القبائل ثم وصف الأقاليم مما لا محل له هنا
 وعلى هذا النمط كانوا يلقبونهم بأسماء حيوانات يغلب في طباعها الخلّة
 التي اشتهرت تلك القبيلة بها ، وقد يذهب الاسم الأصلي ويبقى اللقب
 وحده وتعرف القبيلة به ، كما حدث بالانمار فانها قبيلة من نزار لقبّت
 بذلك لاشتغال أهلها بالقنص كأنهم انمار في الوثوب على الفريسة ، قال
 النابغة من معلقته :

أهوى له قانص يسعى بأكلبيه عارى الأشاجع من قناص انمار (١)

وكذلك الأرقام - قبيلة من بنى تغلب - لقبوا بذلك لأن عيونهم شبهت
 بعيون الحيات الأرقام فعرفوا بهذا الاسم (٢) والعنابس - أى الأسود - لقبوا بذلك
 لشجاعته . وقد يطلق لقب واحد على غير رجل أو غير قبيلة ، وتعرف
 كل قبيلة باسمها الأصلي كالأرقام المتقدم ذكرها ، فانها لقب لجشم ومالك
 وعمر و ثعلبة والحرث ومعاوية بنى بكر بن حبيب من تغلب (٣)

وليس تلقب القبائل على هذه الصورة خاصة بالعرب الجاهلية بل هو
 شائع في عرب هذه الأيام . وأشهر ما تداولته اللسان من هذا القبيل تلقب
 النقاش لأهل لبنان في أواسط القرن الماضى ، إذ أرسلته الدولة العثمانية
 لمسح لبنان وإحصاء سكانه ، وكان ظريفا وفيه دعابة فكان إذا نزل القرية
 أو البلد لقب أهله بأول تشبيه يتبادر الى ذهنه عند أقباله على ذلك البلد -
 واليك القاب بعض أهل القرى من أقاليم الغرب ، وأكثرها أسماء حيوانات
 بصيغة الجمع :

اسم البلد	لقب أهله
أهل نجبا	الشواح
أهل نيحة	النور
أهل بعلران	الثعالب
أهل المختارة	الذئاب

(١) جبهة أشعار العرب ٥٤ (٢) الكامل للمبرد
 (٣) المعارف ١٢١

لقب أهله	اسم البلد
الشواح	أهل عين قنية
الديوك المزهرة	أهل عماطور
البقر	أهل المزرعة
الجحاش	أهل عينبال
الغنم	أهل بعقلين
الكلاب (١)	أهل جديدة الشوف

وليس هذا خاصا بالعرب بل يتناول بعض الامم المتمدنة ، ففي الولايات المتحدة لاهل كل ولاية لقب خاص على هذه الصورة :

لقب أهلها	اسم الولاية
Luchers	Illinois
Pipers	Missouri
Webloot	Oragon
Buckeye	Ohio
Hoosiers	Indiana
States Yankees	New England
Yellow Limnor	Alabama
Badger	Wisconsin

وجملة القول ان تسمية بعض القبائل بأسماء حيوانية أفرادا أو جماعات لا أهمية لها فيما نحن فيه ، لأنه عادي وطبيعى فى الاجيال القديمة والحديثة . وبالطبع لم تبق أهمية لما ذكره من عبادة الحيوانات التى كانت شائعة فى الجاهلية ، وان كانت فى الحقيقة ليست من قبيل عبادة الحيوانات الطوتمية ، بل هى عبادة أصنام أقلها بشكل بعض الحيوانات وأكثرها بأشكال أخرى . فهى من قبيل عبادة الأوثان وليست من الطوتمية فى شئ ، لأن أهل الطوتم لا يعبدون صنما بشكل الحيوان ، بل يعبدون الحيوان نفسه ويقدسونه ويتجنبون أذاه كما تقدم ، وليس عند العرب شئ من ذلك - على اننا نقول كلمة فى أصنام العرب لا تخلو من فائدة ..

أصنام العرب :

من المشهور أن العرب وسائر الأمم السامية أهل توحيد من فطرتهم ، وإذا عبدوا صنما فيغلب أن يكون ذلك الصنم دخيلا عندهم ، ويصدق ذلك على العرب بنوع خاص لتوسطهم بين الأمم الوثنية القديمة ، فقد كانوا فى عهد جاهليتهم محاطين بالفراغة فى مصر ، والفينيقيين فى الشام ،

والاشوريين في العراق ، والاحباش في الحبشة . وكانت جزيرتهم طريق اهل الهند في التجارة الى مصر والشام . وكانوا اذا ذهبوا الى بلد مما يجاورهم للتجارة أو للغزو ورأوا أهل ذلك البلد يعبدون صنما يعتقدون فيه الكرامة حملوه معهم في رجوعهم ونصبوه في الكعبة أو غيرها من مجتمعاتهم . وإذا مرت بهم قافلة هندية ومعهم صنم يعبدونه في أثناء أسفارهم فربما أعجب العرب فأخذوه منهم أو احتطنعوا صنما على مثاله . ولم يصل إلينا من أخبار هذه الأصنام الا نتف مشتتة يمكن الاستدلال بها على غيرها

وأشهر من نقل الأصنام الى مكة في عهد الجاهلية رجل يسمونه عمرو بن لحي ، ذكروا انه غلب على مكة وأخرج منها جرهما وتولى سدانتهما ، وكان كاهنا فحمل اليها الأصنام من الآفاق فنقل هبل واساف ونائلة من البلقاء (١) ونقل ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر من ساحل جدة (٢) واختصت كل قبيلة من القبائل المشهورة يومئذ بواحد منها ، فأصبح ود لقبيلة كلب ، وسواع لهمدان ، ويغوث لمذحج ، ويعوق لمراد ، ونسر لحمير . وكان ود على صورة رجل ، وسواع على صورة امرأة ، ويغوث على صورة أسد ، ويعوق على صورة فرس ، ونسر على صورة نسر . ولو جمعت أصنام العرب ل زاد عددها على مئة صنم ، ليس منها على صور الحيوانات الا بضعة قليلة جدا . على أنها اذا كثرت فقلما تؤيد برهانا للأسباب التي قدمناها ولأنها دخيلة كما رأيت — ولا نقول ذلك اعتمادا على رواية العرب فقط لان صاحبنا الاستاذ لا يثق من أقوالهم الا بما يؤيد برهانه ، ولكننا ننظر في هذه الأصنام نظرا تحليليا عسانا أن نتوصل الى نتيجة فنقول :

هبل :

هو أكبر أصنامهم ويسمونه الصنم الأكبر ، وذكروا انه كان مصنوعا من نحاس — وقيل من قوارير أى زجاج — على هيئة رجل ضخم ، وكانوا يذبجون له ويستخرونه في أسفارهم وحروبهم وسائر أعمالهم . ويظهر لنا أن هذا الصنم من آلهة الفينيقيين أو الكنعانيين والأدلة على ذلك :

أولا — قول العرب انه جاءهم من مواب بأرض البلقاء ، حمله اليهم عمر ابن لحي الذي ذكرناه

ثانيا — أن لفظ هبل لا اشتقاق له في العربية من معناه ، فهو غير مشتق من لفظ عربي ، وعندنا انه عبراني أو فينيقي أصله « هبل » وهو اسم أكبر أصنام الفينيقيين أو الكنعانيين ومن جاورهم من أمم الشام كالموآبيين والمديانيين والبابليين والليبيين . وكان للفينيقيين عشرات من الآلهة يميزون

منها الهين ، أحدهما ذكر والآخر أنثى ، ويسمون الذكر « هبعل » والأنثى « عشروت » ، ومعنى « بعل » في لسانهم السيد والاله ، والهاء في العبرانية أداة التعريف مثل « ال » العربية ، فبإضافة هذه الأداة الى بعل يريدون الاله الأكبر . والظاهر أن عمرا المذكور لما قدم موآب أعجبه عبادۃ الموابيين لهذا الصنم ، وكانوا يستمطرونه ويستنصرونه ، فحمله الى مكة باسمه العبرانى « هبعل » ، وأما العين الزائدة فيسهل اهمالها بالتخفيف ثم ضياعها بالاستعمال ، وخصوصا فى لفظ « بعل » لأن الكلدانيين كانوا يلفظونه « بل » باهمال العين ، وهو اسم هذا الاله عندهم . وربما كان الموابيون يلفظونها « هبل » فنقلها عمرو بن لحي كما كان يسمعونها

ثالثا - ان أساليب عبادة العرب هبل تشبه أساليب عبادة الموابيين هبعل . فقد كان الموابيون ينصبون هذا الصنم على التلال المرتفعة أو سقوف البيوت ، ويدبحون له الذبائح من الحيوانات والادمييين ، ويحرقون له المحرقات ويستخرونه ويفضلونه على سائر آلهتهم ، وكذلك كان يفعل العرب لهبل . وكما ان هبعل أكبر أصنام الموابيين ومن جرى مجراهم ، فهبل أكبر أصنام العرب وكانوا ينصبونه فوق الكعبة

أساف ونائلة :

ذكروا أنهما صنمان ، الاول على صورة رجل والثانى على صورة امرأة ، حملهما عمرو بن لحي أيضا من البلقاء فوضعهما على بئر زمزم بالكعبة ، ثم وضع أحدهما على الصفا والآخر على المروة ، فربما كان هذان وهبل مثلثا وثنيا ، والمثلثات الوثنية كانت شائعة عند الوثنيين فى الأزمنة القديمة . والغالب فى هذه المثلثات أن يكون كل منها مؤلفا من رجل وامرأة وغلام . وأمثلة هذه المثلثات كثيرة عند المصريين القدماء والكلدانيين وغيرهم

يفوث :

جاء فى تفسير الزمخشري أنه على صورة أسد ، وأن عمرو بن لحي نقله من جدة على ساحل البحر الى مكة . فاذا كان مجلوبا من الخارج فالغالب انه من الحبشة أو مصر ، لأن جدة محطة المسافرين من احدهما الى الحجاز . وقد وجدنا بين آلهة المصريين صنما على صورة أسد أو لبؤة يسمونه « تفنوت » ، ولا يخفى ما بين هذه اللفظة ولفظ يفوث من المشاكلة الصورية اذا اعتبرنا ان العرب كانوا يكتبون بلا نقط ، فاذا كتبوا « يعوب » التمس عليهم بين أن تقرأ يفوث أو تفنوت أو تعوت ، وكثيرا ما وقع لهم ذلك حتى بعد تدوين التاريخ فى ابان التمدن الاسلامى ، فامبراطور الروم الذى حاربه هرون الرشيد يسميه بعض المؤرخين يعفور ، والبعض الآخر نعفور ،

والآخر تقفور وهو الصواب لأن اسمه الرومانى Nicephorus ألا يعقل أن يحدث مثل هذا الالتباس في عصر الجاهلية ؟ وعلى هذا المبدأ تحول اسم قايين الى قابيل ، وشاول الى طالوت ، وجليات الى جالوت ، وقورح الى قارون ود :

وهذا الصنم قد وصفه ياقوت في معجمه فقال : « انه على مثال رجل كأعظم ما يكون من الرجال ، قد دبر عليه - أى نقش عليه - حلتان ، متزر بحلة ومرتد بحلة . عليه سيف وقد تنكب قوسا ، وبين يديه حربة فيها لواء وجعبة فيها سهام » ، فما أشبه هذا الوصف بوصف ملك من ملوك الفراعنة ذاهب للحرب على مركبته . وهو يشبه الها فينيقيا اسمه اشبو (١) أو سيس اله مصرى . ولا يمكننا الجزم في ذلك وانما يظهر من وصفه انه اله غريب

وقس على ذلك سائر الاصنام ، وان كنا لانطمع في ردها كلها الى اصولها ، ولا أن يكون كلامنا فيها يقينيا أو قطعيا ، وانما هو من قبيل الترجيح ، وهذا يكفى في هذا المقام

الثار والعائلة واللفظ :

ورأينا صاحب طوتمية العرب قد علق أهمية كبرى على اجتماع العرب للمطالبة بالثار باسم القبيلة ، فعنده أن ذلك من بقايا الطوتمية ، لأن القبيلة كانت قديما اذا قتل أحد أفرادها اشتركت كلها في المطالبة بدمه ، لأنها تطالب بحق الاله الذى هو جدها الأعلى وأن العرب ليس عندهم عائلة وانما آخر أنسابهم الحى - ولا حاجة بنا الى التويل في بيان فساد هذا التأويل بعد أن ظهر فساد المقدمات الاخرى . فالطلب بالثار باسم القبيلة طبيعى في أمم البادية ، وضرورى لحفظ جامعة النسب ، ولولاها لم يكن لتلك الجامعة معنى . ولكن ضاحنا أجهد نفسه كثيرا في التفسير والتعليل ، للتوفيق بين المطالبة بالثار عند العرب ومطالبة أصحاب الطوتم بحق جدهم الأعلى . وهيئات أن يتأتى له ذلك الا اذا ثبتت الطوتمية عند العرب فيمكن تفسير الثار بما فسر ، لا أن يكون هو من أدلة تلك الطوتمية يستعان به في اثباتها

واما عدم وجود العائلة عند العرب فالقول به غريب ، وانكار العائلة عند العرب يقرب من انكار البديهيات ، أو هو انكار ضوء الشمس في رابعة النهار . واغرب من ذلك استدلاله على طوتمية العرب بما يحدث عندهم من الترابط أو التعاون بواسطة اللفظ ونحوه ، فالتحالف قاعدة سياسية لا تزال جارية الى الآن عند أرقى الأمم المتقدمة ، وانما يختلف عن اللفظ عند قبائل العرب كما تختلف بدواة هؤلاء عن حضارة أولئك

فهرس

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
٧٧	الفقه	٥	مقدمة
٨٤	العلوم اللسانية		علوم العرب قبل الاسلام
٨٧	الادب واللغة	١٢	علم النجوم عند العرب
٩٠	بلاغة الانشاء	١٥	الانواء ومهاب الرياح
٩٦	التاريخ والجغرافية	١٧	الميثولوجيا
٩٩	مصادر التاريخ الاسلامى	١٩	الكهانة والعرافة
١١١	الجغرافية أو تقويم البلدان	٢٢	الطب فى الجاهلية
	الآداب العربية الجاهلية	٢٥	الشعر فى الجاهلية
١١٤	الخطابة بعد الاسلام	٣٤	الخطابة فى الجاهلية
١١٧	الشعر بعد الاسلام	٣٦	مجالس الادب وسوق عكاظ
١٢٢	طبقات الشعراء	٣٩	الانساب فى الجاهلية
	العلوم الدخيلة	٤١	التاريخ
١٣٣	آداب اللغة اليونانية		علوم العرب بعد الاسلام
١٣٤	الآداب اليونانية القديمة	٤٢	الاسلام والعلوم الاسلامية
١٣٥	الشعر اليونانى	٤٤	العرب والقرآن والاسلام
	الادب والعلم والفلسفة	٤٤	احراق مكتبة الاسكندرية وغيرها
١٣٦	عند اليونان	٥١	الرومان والاسلام والعلم
١٤١	الدور الاسكندرى		حملة العلم فى الاسلام اكثرهم
	آداب اللغة الفارسية قبل	٥٢	العجم
١٤٧	الاسلام	٥٥	تدوين العلم فى الاسلام
	آداب اللغة السريانية قبل	٥٨	الخط العربى
١٤٩	الاسلام		العلوم الشرعية الاسلامية
		٧٣	الحديث

الموضوع	الصفحة	الموضوع	الصفحة
آداب اللغة الهندية قبل الاسلام	١٥١	الخلفاء والامراء والعلم	١٨٩
نقل العلوم في العصر العباسي		تأليف الكتب للخلفاء والامراء	١٩١
النجوم	١٥٥	المؤلفون والمؤلفات	١٩٣
الطب	١٥٦	تأثير الاسلام في العلوم الدخيلة	
المهدي والرشد	١٥٧	الفلسفة في الاسلام	١٩٦
المأمون والفلسفة والمنطق	١٥٨	جمعية اخوان الصفا	١٩٩
المأمون والاعتزال	١٥٨	فلاسفة الاندلس	٢٠٠
المأمون ونقل الكتب	١٦١	الطب في الاسلام	٢٠٢
نقلة العلم في العصر العباسي	١٦١	التنجيم والنجوم أو الفلك	٢١٠
السوريون ونقل العلم	١٦٧	الحساب والجبر والهندسة	٢١٦
نقل العلم لغير الخلفاء	١٦٩	الفنون الجميلة	٢١٨
الكتب التي ترجمت في النهضة العباسية		المدارس في الاسلام	٢٢١
الكتب المنقولة عن اليونانية	١٧١	المكتبات أو خزائن الكتب	٢٢٧
الكتب المنقولة عن الفارسية	١٧٦	أنساب العرب القدماء	
الكتب المنقولة عن اللغة الهندية	١٧٧	رد على القائلين بالامومة والطوتمية	
الكتب المنقولة عن النبطية	١٨٠	عند العرب الجاهلية	٢٤٠
الكتب المنقولة عن العبرانية		الطوتمية عند القبائل المتوحشة	٢٤١
واللاتينية والقبطية	١٨١	العرب القدماء وأنسابهم	
محاسبة الخلفاء للعلماء غير المسلمين	١٨٣	وأخبارهم	٢٤٦
انتشار العلوم الدخيلة	١٨٦	الامومة عند العرب	٢٥٤
		الطوتمية عند العرب	٢٦٣
		أصنام العرب	٢٧٤



ملتزم التوزيع : مؤسسة المطبوعات الحديثة